ريبيكا سكلوت

الحياة الخالدة لهنرييتا لاكس

ترجمة: د. إيمان معروف

مكتبة مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة | 1275

الحياة الخالدة

لهنرييتا لاكس

مكتبة
t.me/soramnqraa
25 7 23

الكاتب: **ريبيكا سكلوت**

عنوان الكتاب: **الحياة الخالدة لهنرييتا لاكس**

ترجمة: د. **إيمان معروف**

العنوان باللغة الأصلية: **The Immortal Life of Henrietta Lacks**

الكاتب: **Rebecca Skloot**

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-16-7

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022

2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

The Immortal Life of Henrietta Lacks

Copyright © 2010 by Rebecca Skloot

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

ريبيكا سكلوت

مكتبة | 1275

الحياة الخالدة لهنرييتا لاكس

ترجمة

د. إيمان معروف

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

إهداء إلى عائلتي

والـدي ووالدتـي، بيتسـي وفلويـد؛ وأزواجهمـا تيـري وبيفرلـي، أخي مـات وزوجته رينيه، أبنـاء أخي الرائعين نيك وجاستن.

لقد انشـغلت عنهم جميعاً لفترة طويلة جداً بسـبب هذا الكتاب، لكنهم لم يتوقفوا عن الإيمان به أو الإيمان بي.

كما أهدي كتابي إلى ذكرى جدي الغالي، جيمس روبرت لـي (١٩١٢-٢٠٠٣)، الذي كان يعرف قيمةَ الكتبِ أكثر من أيّ شخصٍ عرفتهُ يوماً.

ريبيكا سكلوت

المحتويات

مكتبة
t.me/soramnqraa

بضع كلمات عن هذا الكتاب ١١

تمهيد: المرأة في الصورة............................ ١٩

صوت ديبورا ٣١

الباب الأول

الحياة

(١) الفحص الطبي... ١٩٥١ .... ٣٥

(٢) كلوفر... ١٩٢٠ – ١٩٤٢ .... ٤٣

(٣) التشخيص والعلاج... ١٩٥١ .... ٥٨

(٤) ولادة هيلا... ١٩٥١ .... ٦٩

(٥) «السواد ينتشر في الداخل»... ١٩٥١ .... ٨١

(٦) «السيدة على الهاتف»... ١٩٩٩ .... ٩٢

(٧) موت وحياة مزرعة الخلايا... ١٩٥١ .... ١٠٣

(٨) «عينة بائسة»... ١٩٥١ .... ١١٣

(٩) محطة تيرنر... ١٩٩٩ .... ١١٩

(١٠) الجانب الآخر من الطريق...١٩٩٩ .... ١٣٤

(١١) «شيطان الألم شخصياً»... ١٩٥١ .... ١٤٤

الجزء الثاني

الموت

(١٢) العاصفة... ١٩٥١ .... ١٥١

(١٣) مصنع هيلا ... ١٩٥١–١٩٥٣ .... ١٥٧

(١٤) هيلين لين... ١٩٥٣–١٩٥٤ .... ١٧٦

(١٥) «أصغر من أن تذكر» ... ١٩٥١–١٩٦٥ .... ١٨٣

(١٦) «البقاء في المكان نفسه إلى الأبد»...١٩٩٩ .... ١٩٥

(١٧) غير قانوني وغير أخلاقي ومستهجن..١٩٥٤–١٩٦٦ .... ٢٠٩

(١٨) «أغرب هجين» ... ١٩٦٠–١٩٦٦ .... ٢٢٣

(١٩) «الوقت الأكثر أهمية على هذه الأرض هو الآن» ...
١٩٦٦–١٩٧٣ .... ٢٣٤

(٢٠) قنبلة هيلا...١٩٦٦ .... ٢٤٦

(٢١) أطباء الليل...٢٠٠٠ .... ٢٥٤

(٢٢) «الشهرة التي تستحقها» ... ١٩٧٠ –١٩٧٣ .... ٢٧٣

الباب الثالث

الخلود

(٢٣) «إنها على قيد الحياة» ... ١٩٧٣–١٩٧٤ .... ٢٨٧

(٢٤) «أقلّ ما يمكنهم فعله»... ١٩٧٥ .... ٣٠٥

(٢٥) «من أخبرك أن بوسعك بيع طحالي؟».. ١٩٧٦–١٩٨٨ ... ٣١٧

(٢٦) انتهاك الخصوصية ... ١٩٨٠ –١٩٨٥ .... ٣٢٩

(٢٧) سرّ الخلود... ١٩٨٤–١٩٩٥ .... ٣٣٧

(٢٨) بعد لندن... ١٩٩٦–١٩٩٩........................... ٣٤٧

(٢٩) قرية هنرييتا...٢٠٠٠.................................. ٣٦٧

(٣٠) زكريا...٢٠٠٠ .... ٣٨٠

(٣١) هيلا، إلهة الموت ... ٢٠٠٠ – ٢٠٠١.................... ٣٩٣

(٣٢) «كل هذه أمي»...٢٠٠١ .... ٤٠٧

(٣٣) مستشفى للزنوج المختلين عقلياً ...٢٠٠١ .... ٤٢٢

(٣٤) السجلات الطبية ...٢٠٠١............................ ٤٤٠

(٣٦) تطهير الروح ...٢٠٠١................................. ٤٥٠

(٣٦) الأجسام السماوية ...٢٠٠١ .... ٤٦٣

(٣٧) «لا شيء يدعو للخوف» ...٢٠٠١ .... ٤٦٧

(٣٨) الطريق الطويل إلى كلوفر ...٢٠٠٩...................... ٤٧٨

أين هم الآن... ٤٨٦

عن مؤسسة هنريتا لاكس........................ ٤٩٠
كلمة ختامية ٤٩١
الشخصيات.. ٥١٤
التسلسل الزمني للأحداث ٥٢١
شكر وتقدير ٥٢٧

بضع كلمات عن هذا الكتاب

هذا عمل أدبي واقعي. تركتُ الأسماء الأصلية دون تغيير، ولم أخترع أيّ شخصية وهمية، ولم أختلق أيّ أحداث. أثناء تأليف هذا الكتاب، أجريتُ أكثر من ألف ساعةٍ من المقابلات مع عائلة وأصدقاء هنرييتا لاكس، وكذلك مع المحامين وعلماء الأخلاق والعلماء والصحفيين الذين كتبوا عن عائلة لاكس. لقد اعتمدت أيضاً على صور ووثائق أرشيفية واسعة النطاق، وأبحاث علمية وتاريخية، ومذكرات شخصية لابنة هنرييتا، ديبورا لاكس.

لقد بذلت قصارى جهدي لالتقاط اللهجة التي يتحدث بها كلّ شخصٍ ويكتب بها، حيث يظهر الحوار مراتٍ باللهجات المحلية؛ واقتبست مقاطع من اليوميات والكتابات الشخصية الأخرى تماماً كما كُتبت، فقد قال لي أحد أقارب هنرييتا: «لو عمدتِ إلى تجميلِ الطريقة التي يتحدث بها الناس وغيّرتِ الأشياء التي قالوها، لن يكون كتابكِ أميناً وصادقاً. إنه يسلبهم حياتهم وتجاربهم وأنفسهم».

وفي العديد من المواضع، اعتمدتُ الكلمات التي استخدمها الأشخاص الذين قابلتهم لوصف عوالمهم وتجاربهم. وبالتالي استخدمت لغة عصرهم ومحيطهم، ومن بينها كلمات مثل كلمة «ملوّن colored». وأيضاً، غالباً ما يشير أفراد عائلة لاكس إلى جونز هوبكنز باسم «جون هوبكين»، وقد حافظت على ذلك عند نقل أحاديثهم. وأيّ سردٍ مكتوب بصيغة الراوي بصوت ديبورا لاكس هو اقتباس من حديثها، وقد حررته توخياً للوضوح وتجنب الإطالة في بعض الأحيان.

منذ وفاة هنرييتا لاكس قبل عقود من الشروع في تدوين هذا الكتاب، اعتمدتُ على المقابلات والوثائق القانونية وسجلاتها الطبية لإعادة تجسيد مشاهدَ من حياتها. وفي تلك المشاهد، استنتجتُ الحوار إما من السجلات المكتوبة أو اقتبسته حرفياً كما سُرِدَ لي في المقابلات. وأجريت مقابلاتٍ متعددة مع مصادر متنوعة لضمان الدقة، كلما كان ذلك ممكناً. والمقتطف من السجل الطبي لـ هنرييتا في الفصل الأول هو ملخص للعديد من الإشارات المتباينة.

ترد كلمة هيلا، المستخدمة، في جميع أرجاء الكتاب للإشارة إلى الخلايا المزروعة من عنق رحم هنرييتا لاكس. وتُنطق: **هي لا** hee-lah.

حول التسلسل الزمني: تشير تواريخ البحث العلمي إلى تاريخ إجراء البحث، وليس تاريخ نشرهِ. وفي بعض الحالات، تكون هذه التواريخ تقريبيةً لعدم وجود سجلٍ لتواريخ البدء الدقيقة. أيضاً، بما

أنني أتنقل ذهاباً وإياباً بين قصصٍ متعددة، وحدثت الاكتشافات العلمية على مدى سنوات عديدة، فإن هناك أماكن في الكتاب عملت فيها توخياً للوضوح على وصفِ الاكتشافات العلمية بالتتابع، على الرغم من أنها حدثت خلال الفترة الزمنية نفسها عموماً.

يثير تاريخ هنرييتا لاكس وخلايا هيلا قضايا مهمة تتعلق بالعلوم والأخلاقيات والعِرق والطبقية؛ لقد بذلت قصارى جهدي لتقديمها بوضوحٍ عبر سردِ قصّة لاكس، وأدرجت بعد ذلك مقالاً يتناول النقاش القانوني والأخلاقي الحالي حول ملكية الأنسجة والبحث. يوجد الكثير مما يمكن قوله حول جميع القضايا، ولكن هذا خارج نطاق هذا الكتاب، لذلك سأترك الأمر للعلماء والخبراء في هذا المجال.

وآمل أن يغفر لي القراء أيّ سهو.

ريبيكا سكلوت

الحياة الخالدة

لهنرييتا لاكس

«يجب ألا ننظر إلى الإنسان على أنه مجرّد فكرة مجردة. بل يجب أن نرى داخل كلّ فردٍ منّا كوناً له أسراره وكنوزه وأحزانه، وقدراً ضئيلاً من الانتصار».

إيلي فيزيل

من كتاب الأطباء النازيين وكود نورمبرغ

تمهيد

المرأة في الصورة

يوجد صورةٌ على جدارِ غرفتي لامرأةٍ لم أقابلها يوماً. الزاوية اليسرى للصورة ممزقةٌ ومثبتة بشريطٍ لاصقٍ، تنظر السيدة مباشرةً إلى الكاميرا وتبتسم، وتضع يديها على وركيها وقد ارتدت ثوباً مكوياً بعناية، وتصبغ شفتيها باللون الأحمر القاني. تعود الصورة لأواخر الأربعينات ولم تكن المرأة قد بلغت سنّ الثلاثين بعد. تبدو بشرتها البنية الفاتحة ناعمة، وعيناها فتيّة ومرحة، غافلة عن الورم الذي ينمو داخلها - الورمُ الذي من شأنه أن يترك أطفالها الخمسة بلا أمٍّ ويغير مستقبل الطّب تغييراً فعلياً. وثمة تعليق تحت الصورة، يقول إن اسمها «هنرييتا لاكس، هيلين لين أو هيلين لارسون».

لا أحد يعرف من التقط هذه الصورة، لكنها ظهرت مئات المرات على صفحات المجلات والكتب العلمية وعلى المدونات وجدران المختبرات. يعرفها الناس عموماً باسم هيلين لين، ولكن في كثير من الأحيان هي امرأة مجهولة ليس لها اسمٌ على الإطلاق. تُدعى ببساطة هيلا، الاسم الرمزي المعطى لأول خلايا بشرية

خالدة في العالم - خلاياها التي استؤصلت من عنق رحمها قبل أشهر فقط من وفاتها.

اسمها الحقيقي هنرييتا لاكس.

أمضيت سنوات أحدق في تلك الصورة، أتساءل عن الحياة التي عاشتها، وما حدث لأطفالها، وما رأيها لو علمت أنّ خلايا عنق رحمها تعيش إلى الأبد، تباع وتشترى وتغلّف وتُشحن بالتريليونات إلى المختبرات في جميع أنحاء العالم. لقد حاولت أن أتخيل شعورها لو عرفت أن خلاياها سافرت في أولى البعثات الفضائية لترى ما سيحدث للخلايا البشرية في ظروف انعدام الجاذبية، أو أنها ساعدت في بعض من أهم الاكتشافات الطبية: لقاح شلل الأطفال والعلاج الكيميائي والاستنساخ ورسم خرائط الجينات والتخصيب في المختبر. أنا متأكدة من أنها -مثل معظمنا- ستصدم لسماع أنّ تريليوناتٍ من خلاياها تنمو في المختبرات الآن أكثر مما نمت في جسدها يوماً.

لا توجد طريقة لمعرفة عدد خلايا هنرييتا الحية اليوم بالضبط. يُقدّر أحد العلماء أنه إذا تمكنت من تكديس جميع خلايا هيلا التي نمت على ميزان، ستزن أكثر من ٥٠ مليون طن متري - وهو رقم لا يمكن تصوره، نظراً لأن الخلية الفردية لا تزن شيئاً تقريباً. وحسب عالم آخر أنه إذا كان بإمكانك وضع جميع خلايا هيلا التي نمت من طرفٍ إلى طرف، فإنها ستلتف حول الأرض ثلاث مرات على الأقل على امتداد أكثر من ٣٥٠ مليون قدم. بينما في

أوج حياتها، لم يتجاوز طول هنرييتا نفسها أكثر من خمسة أقدامٍ بقليل.

سمعت أول مرة عن خلايا هيلا والمرأة التي خلفها في عام ١٩٨٨، بعد سبعة وثلاثين عاماً من وفاتها، عندما كنت في السادسة عشرة من عمري أجلس في فصلٍ مادة الأحياء في كلية المجتمع. يومها، أستاذي، دونالد ديفلر، الرجل الأصلع الهزيل، سار إلى مقدمة قاعة المحاضرات ونقر على جهاز عرضٍ علوي، ثم أشار إلى رسمين بيانيين ظهرا على الجدار خلفه. كانا مخططين لدورة تكاثر الخلايا، لكنها بدت بالنسبة لي وكأنها فوضى من الأسهم والمربعات والدوائر ذات الألوان النيونية تزدحم بكلمات لم أفهمها مثل «تفاعل تسلسلي محرض بـ إم بي إف لتفاعلات تنشيط البروتين!».

كنت فتاة طائشة رسبت في السنة الأولى في المدرسة الثانوية العامة النظامية لأنها لم تحضر أبداً. انتقلت إلى مدرسة بديلة تقدم دراسات الأحلام بدلاً من علم الأحياء، لذلك كنت أحضر فصل الأستاذ ديفلر للحصول على درجات الشهادة الثانوية، مما يعني أنني كنت أجلس في قاعة محاضرات جامعية في السادسة عشرة وأصغي إلى كلمات مثل الانقسام الفتيلي ومثبطات الكيناز. لقدْ تهتُ تماماً.

«هل علينا حفظ كلّ ما يذكر على تلك المخططات؟» صرخ أحد الطلاب.

نعم، قال ديفلر، علينا حفظ الرسوم البيانية، ونعم، جميعها مطلوبة من أجل الاختبار، ولكن لم يكن هذا كله مهماً في ذلك

الحين. أراد الأستاذ أن نفهم أن الخلايا مذهلة: يوجد حوالي مئة تريليون خلية في أجسامنا، وكلّ منها صغيرة للغاية لدرجة أنّ عدة آلاف منها بالكاد تشكل النقطة الموجودة في نهاية هذه الجملة. إنها تشكل جميع أنسجتنا -العضلات والعظام والدم- والتي بدورها تشكل أعضائنا.

تبدو الخلية تحت المجهر مثل البيضة المقلية: تحتوي على البياض (السيتوبلازما) المليء بالماء والبروتينات لتغذيتها، والصفار (النواة) يحمل جميع المعلومات الجينية التي تجعلك ما أنت عليه. تزدحم السيتوبلازما بالحركة مثل أحد شوارع مدينة نيويورك. إنها مليئة بالجزيئات والقنوات التي تنقل الإنزيمات والسكريات بلا نهاية من جزء من الخلية إلى آخر، وتضخ المياه والمغذيات والأكسجين داخل الخلية وخارجها. تعمل المصانع السيتوبلازمية الصغيرة على مدار الساعة طوال أيام الأسبوع، حيث تقوم بتدوير السكريات والدهون والبروتينات والطاقة للحفاظ على تشغيل المكان بأكمله وتغذية النواة - الدماغ القائد للعمليات. وداخل كلّ نواة في كلّ خلية في جسمك، يوجد نسخة متطابقة من الجينوم الخاص بك بالكامل. هذا الجينوم يخبر الخلايا متى تنمو وتنقسم ويتأكد من أنها تؤدي وظائفها، سواء كانت الوظيفة تنطوي على التحكم بضربات قلبك أو مساعدة دماغك على فهم الكلمات في هذه الصفحة.

كان ديفلر يتجول في مقدمة الفصل ويخبرنا كيف أنّ الانقسام الفتيلي - عملية انقسام الخلايا - يجعل من الممكن للأجنة أن تنمو

لتصبح أطفالاً، ولأجسادنا أن تخلق خلايا جديدة لالتئام الجروح أو تجديد الدم الذي فقدناه. كانت عملية جميلة، كما قال، تشبه خطوات رقصٍ صمّمت بعناية وإتقان.

وأخبرنا أن كلّ ما يتطلبه الأمر خطأ صغير في أيّ مرحلةٍ أو نقطةٍ من عملية الانقسام حتى تبدأ الخلايا في النمو بشكل شاذّ خارج نطاق السيطرة. وإخفاق إنزيم واحد فقط، أو تنشيط خاطئ لبروتين واحد، يمكن أن يجعل المرء مصاباً بالسرطان. وأي فشل في الانقسام الفتيلي، يقود إلى انتشار السرطان.

قال ديفلر: «لقد تعلمنا ذلك من خلال دراسة الخلايا السرطانية في المزرعة الخلوية». ثم ابتسم ابتسامة عريضة وهرع إلى السبورة ليكتب كلمتين بحروف هائلة: هنريتا لاكس.

قال لنا إن هنرييتا توفيت عام ١٩٥١ بسبب حالة خبيثة من سرطان عنق الرحم. ولكن قبل وفاتها، أخذ جرّاحٌ عيناتٍ من ورمها ووضعها في طبق بتري. قبل ذلك التاريخ كان العلماء يحاولون إبقاء الخلايا البشرية على قيد الحياة في المزرعة على مدى عقود، لكنها كانت تموت جميعها في النهاية. بيدَ أن خلايا هنرييتا كانت مختلفة: لقد أنتجت جيلاً بأكمله كلّ أربع وعشرين ساعة، ولم تتوقف أبداً. أصبحت خلاياها أول خلايا بشرية خالدة تنمو في المختبر.

قال ديفلر: «كانت خلايا هنرييتا تعيش خارج جسدها لمدة أطول بكثير مما قد تعيشه داخله». وأضاف أننا لو ذهبنا إلى أيّ مختبر لزراعة خلايا في العالم وفتحنا مجمداته سنجد على الأرجح الملايين

-إن لم يكن المليارات- من خلايا هنرييتا في قوارير صغيرة موزعة على الجليد.

كانت خلاياها جزءاً من البحث في الجينات التي تسبب السرطان وتلك التي تكبحه؛ وساعدت في تطوير أدوية لعلاج الهربس وابيضاض الدم والأنفلونزا والهيموفيليا ومرض باركنسون، واستخدمت لدراسة هضم اللاكتوز والأمراض المنقولة جنسياً والتهاب الزائدة الدودية وطول عمر الإنسان وتزاوج البعوض والتأثيرات الخلوية السلبية الناجمة عن العمل في المجاري. وقد دُرست كروموسوماتها وبروتيناتها بتفصيل ودقة لدرجة أن العلماء يعرفون كلّ شذوذ لديهم. ومثل خنازير غينيا والفئران، أصبحت خلايا هنرييتا العمود الفقري للعمل المختبري القياسي.

قال ديفلر: «كانت خلايا هيلا من أهمّ الأشياء التي حدثت للطب في المئة عام الماضية».

ثم تابع كلامه مستدركاً: «كانت امرأة سوداء». ثم قام بمسح اسمها بضربة واحدة سريعة ونفخ الطباشير عن يديه. وانتهى الدرس.

وفي حين خرج الطلاب الآخرون من القاعة، جلست أفكر، وهل هذا كلّ شيء؟ أهذا كلّ ما تخبرنا إياه؟ لا بدّ من أن للقصة تتمة ما.

تبعت ديفلر إلى مكتبه.

«من أيّ مدينةٍ كانت؟» سألته. «هل عرفَت مدى أهمية خلاياها؟ هل كان لديها أطفال؟».

قال: «أتمنى لو كان بإمكاني الإجابة على أسئلتك، لكن لا أحد يعرف عنها شيئاً».

بعد الصف، ركضت إلى المنزل ورميت نفسي على سريري مع كتابي البيولوجيا. بحثت عن «مزرعة الخلية» في الفهرس، وهناك وجدتها داخل جملة بين قوسين:

في المزرعة، يمكن أن تستمر الخلايا السرطانية في الانقسام إلى أجل غير مسمى إذا توفر لها إمدادات مستمرة من العناصر الغذائية، وبالتالي يقال إنها «خالدة». ومن الأمثلة البارزة على ذلك سلالة خلوية تتكاثر في المزرعة منذ عام ١٩٥١. (تسمى خلايا هذه السلالة خلايا هيلا لأن مصدرها الأصلي كان ورماً استؤصل من امرأة تدعى هنرييتا لاكس).

وهذا كلّ شيء. بحثت عن هيلا في موسوعة والدي، ثم في قاموسي: لم أجد هنرييتا.

عندما تخرجت من المدرسة الثانوية وتابعت طريقي إلى الكلية للحصول على شهادة في علم الأحياء، كانت خلايا هيلا موجودة في كلّ مكان. سمعت عنها في علم الأنسجة وعلم الأعصاب وعلم الأمراض؛ واستخدمتها في تجارب على كيفية تواصل الخلايا المتجاورة. ولكن بعد السيد ديفلر، لم يذكر أحد هنرييتا.

عندما حصلت على أول جهاز كمبيوتر في منتصف التسعينيات وبدأت في استخدام الإنترنت، بحثت عن معلوماتٍ عنها، لكنني لم أجد سوى مقتطفات مشوشة: قالت معظم المواقع إن اسمها كان هيلين لين؛ قال البعض إنها ماتت في عقد الثلاثينيات أو الأربعينيات أو الخمسينيات أو حتى الستينيات.. وقال البعض الآخر إن سرطان المبيض قتلها، وقال آخرون إنها ماتت بسبب سرطان الثدي أو عنق الرحم.

في النهاية تعقبت بعض المقالات عنها في المجلات منذ السبعينيات.

نقلت مجلة إيبوني عن زوج هنرييتا قوله: «كل ما أذكره أنها كانت مصابة بهذا المرض، وبعد وفاتها مباشرة اتصلوا بي في المكتب يريدون الحصول على إذني لأخذ عينة من نوعٍ ما. وقررت عدم السماح لهم بأخذها». ذكرت مجلة جيت أن العائلة كانت غاضبة بسبب بيع خلايا هنرييتا مقابل خمسة وعشرين دولاراً للقارورة، وغاضبة من نشر مقالات عن الخلايا دون علمهم. وذكرت أيضاً أنه: «كان مزعجاً جداً الشعور بأنهم تعرضوا للاستغلال من قبل العلم والصحافة».

عرضت جميع المقالات صوراً لعائلة هنرييتا: ابنها الأكبر جالساً على طاولة غرفة طعامه في بالتيمور، ينظر إلى كتاب مدرسي في علم الوراثة. ويرتدي ابنها الأوسط الزي العسكري، يبتسم ويحمل طفلاً. لكن برزت صورة واحدة أكثر من بقية الصورة وتظهر فيها، ديبورا لاكس، ابنة هنرييتا، محاطةً بالعائلة والجميع يبتسم،

وأذرعهم تعانق بعضهما والعيون مشرقة ومتحمسة. ما عدا ديبورا. تقف في المقدمة وتبدو وحيدةً، كما لو أن شخصاً ما ألصقها في الصورة فيما بعد. إنها في السادسة والعشرين من عمرها وجميلة، بشعر بني قصير وعيون تشبه عيون القطط. لكن تلك العيون تنظر إلى الكاميرا بقسوة وجدية. ذكر التعليق أن العائلة اكتشفت قبل بضعة أشهر فقط أن خلايا هنرييتا لا تزال على قيد الحياة، رغم أنها توفيت منذ خمسة وعشرين عاماً.

ذكرت جميع القصص أن العلماء بدأوا في إجراء أبحاث على أولاد هنرييتا، ولكن يبدو أن أفراد عائلة لاكس لا يعرفون ما سبب ذلك البحث. ظنوا بأنهم يخضعون للاختبار لمعرفة ما إن كانوا مصابين بالسرطان الذي قتل هنرييتا، ولكن وفقاً للصحفيين، كان العلماء في الواقع يدرسون عائلة لاكس لمعرفة المزيد عن خلايا هنرييتا. واستشهدت القصص بابنها لورانس، الذي أراد أن يعرف ما إذا كان خلود خلايا والدته يعني أنه قد يعيش إلى الأبد أيضاً. لكن أحد أفراد العائلة ظلّ صامتاً: ابنة هنرييتا، ديبورا.

بينما كنت أتابع مسيرتي في الدراسات العليا لتعلم أصول الكتابة، صار لدي تصميم على فكرة سرد قصة هنرييتا يوماً ما. حتى أنني اتصلت مرة بخدمة دليل الهاتف في بالتيمور بحثاً عن زوج هنرييتا، ديفيد لاكس، لكنه لم يكن مدرجاً في القائمة. راودتني فكرة أن أنشر كتاباً ليكون سيرة ذاتية لكلّ من الخلايا والمرأة التي أخذت منها - ابنة شخصٍ ما وزوجته وأمه.

لم أتخيل ذلك آنذاك، لكن تلك المكالمة الهاتفية مثّلت بداية مغامرة دامت عشر سنوات عبر المختبرات العلمية ومستشفيات الأمراض العقلية، مع مجموعة من الشخصيات التي شملت الحائزين على جائزة نوبل، وعمال متاجر البقالة، والمجرمين المدانين، والمحتالين المحترفين. وأثناء محاولتي فهم تاريخ زراعة الخلايا والنقاش الأخلاقي المعقّد المحيط باستخدام الأنسجة البشرية في البحث، اتهمتُ بالتآمر واصطدمت بعوائق مادية ومجازية، لأجد نفسي في النهاية على الطرف المتلقي لشيء يشبه كثيراً التعويذة.

قابلت ديبورا في النهاية، واتضح أنها من أقوى وأكثر النساء قدرة على الصمود على الإطلاق. وتكوّنت بيننا رابطة شخصية عميقة، ورويداً رويداً ومن دون أن ندرك أصبحت كلاً منا شخصية من شخصيات قصة الأخرى.

جئت أنا وديبورا من بيئتين مختلفتين جداً: نشأت بيضاء وغير متديّنة في شمال غرب المحيط الهادئ، جذوري نصف يهودية من نيويورك ونصف بروتستانتية من الغرب الأوسط؛ في حين كانت ديبورا مسيحية شديدة التدين سوداء من الجنوب. كنت أميل إلى مغادرة الغرفة عندما يتحدثون عن الدين لأنه يجعلني أشعر بعدم الارتياح؛ في حين كانت عائلة ديبورا تميل إلى الوعظ، والشفاء بالإيمان وأحياناً بالشعوذة. وفي حين ترعرعت هي في حي أسود من أفقر الأحياء وأكثرها خطورة في البلاد؛ ترعرعت أنا في حي آمن وهادئ للطبقة المتوسطة في مدينة يغلب عليها البيض وذهبت إلى المدرسة

الثانوية مع ما مجموعه طالبَين اثنين من السود. كنت صحفيّة علميّة أشير إلى كلّ الأشياء الخارقة للطبيعة على أنها «خزعبلات». اعتقدت ديبورا أن روح هنرييتا تعيش في خلاياها وتتحكم في حياة أيّ شخص يصادفها. بما فيهم أنا.

«كيف تفسرين الأمر خلاف ذلك طالما أنّ أستاذ العلوم في صفك عرف اسمها الحقيقي في حين كان الجميع يناديها هيلين لين؟» هذا ما اعتادت ديبورا على قوله لي. «كانت تحاول جذب انتباهكِ». وراحت تطبق هذا التفكير على كلّ شيء في حياتي: عندما تزوجت أثناء تأليف هذا الكتاب، كان ذلك لأن هنرييتا أرادت أن يعتني بي شخص ما أثناء عملي. وعندما تطلقت، كان ذلك لأنها قررت أنه كان يقف في طريق إنجاز الكتاب. وعندما أصرّت المحررة على إخراج عائلة لاكس من الكتاب أصيبت بحادثٍ غامض، فقالت ديبورا إن هذا ما يحدث عندما تغضب هنرييتا.

لقد تحدّت عائلة لاكس كلّ شيء ظننت أنني أعرفه عن الإيمان والعلم والصحافة والأعراق. وفي نهاية المطاف، جاء هذا الكتاب نتيجة كلّ ما سبق. إنها ليست فقط قصة خلايا هيلا وهنرييتا لاكس، بل قصة عائلة هنرييتا -سيّما ديبورا- وكفاحهم طوال حياتهم للتعايش مع وجود تلك الخلايا والعلم الذي جعلها ممكنة.

صوت ديبورا

مكتبة
t.me/soramnqraa

عندما يسألُ الناس -ويبدو أن الناس يسألون دائماً لدرجة أنني لا أجد مفراً من الإجابة أبداً - أقول، نعم، هذا صحيح، كان اسم والدتي هنرييتا لاكس، توفيت عام ١٩٥١، أخذ مشفى جون هوبكين خلاياها، ولا تزال خلاياها حيّة إلى اليوم، تتكاثر، وتنمو وتنتشر إذا لم تبقيها مجمدة. يسميها العِلم هيلا وهي موجودة في جميع أنحاء العالم، في المرافق الطبية وفي جميع أجهزة الكمبيوتر والإنترنت، في كلّ مكان.

عندما أذهب إلى الطبيب لإجراء فحوصاتي أقول دائماً أمي كانت هيلا. يتحمسون ويخبرونني أشياء مثل كيف ساعدت خلاياها في صنع أدوية علاج ارتفاع ضغط الدم ومضادات الاكتئاب وكيف أنّ كلّ هذه الأشياء المهمة في العلم تحدث بسببها. لكنهم لا يضيفون أكثر من القول: نعم، وصلَت والدتك إلى القمر، وإلى القنابل النووية وصنعَت لقاح شلل الأطفال. أنا حقاً لا أعرف كيف فعلَت كلّ ذلك، ولكن أعتقد أنني سعيدة أنها فعلته، لأن هذا

يعني أنها تساعد الكثيرين. أظنّ أنها كانت لتحبّ هذا. لكن لطالما اعتقدت أنه من الغريب، إذا كانت خلايا أمنا تفعل الكثير من أجل الدواء، فكيف لا تستطيع عائلتها تحمّل كلفة زيارة الطبيب حتى؟ هذا غير منطقي. أصبح الناس أغنياء بفضل والدتي دون أن نعرف حتى أنهم أخذوا خلاياها، في حين أننا لم نحصل على سنتٍ واحدٍ. اعتدت أن أغضب من ذلك حتى بلغ الأمر بي حدّ المرض واضطررت إلى تناول الأدوية. ولكن لم يعد لي قدرة على القتال. لا أريد سوى أن أعرف من كانت أمي.

الباب الأول

الحياة

(١٩٥١)

(١)

الفحص الطبي

في ٢٩ يناير ١٩٥١، جلس ديفيد لاكس خلف عجلة سيارته القديمة يراقب هطول المطر. ركنَ سيارته في ظلّ شجرة بلوطٍ شاهقة خارج مستشفى جونز هوبكنز ومعه ثلاثة من أطفاله -اثنان منهما لا يزالان في الحفاضات- في انتظار والدتهما، هنرييتا التي خرجت من السيارة قبل بضع دقائق، سحبت سترتها فوق رأسها، ودخلت بعجلة إلى المستشفى مارةً بحمّام «الملونين»، الحمام الوحيد المسموح لها باستخدامه. في المبنى التالي، وتحت قبة سقفٍ نحاسي أنيق، انتصب تمثالٌ رخامي شامخٌ للسيد المسيح يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ونصف، ذراعاه مفتوحتان على اتساعهما، راسخاً بثباتٍ على أرضيةِ ما كان في السابق المدخل الرئيسي لمستشفى هوبكنز. لم يسبق لأحد في عائلة هنرييتا أن زارَ طبيباً في هوبكنز دون زيارة تمثال السيد المسيح أولاً ووضع الزهور عند قدميه وتلاوة بعض الصلوات، وفركِ إصبع قدمه الكبير لجلب الحظ السعيد. ولكن في ذلك اليوم لم تتوقف هنرييتا.

بل اتجهت مباشرة نحو قاعة الانتظار في عيادة أمراض النساء، وهي قاعة مفتوحة على امتداد واسع وفارغة إلا من صفوفٍ من المقاعد الطويلة ذات الظهر المستقيم التي بدت وكأنها مقاعد كنيسة.

قالت لموظفة الاستقبال: «لدي كتلةٌ في رحمي. يجب أن يلقي الطبيب نظرةً عليها».

منذ أكثر من سنة وهنرييتا تخبر صديقاتها المقربات أنها تعاني من خطبٍ ما. في إحدى الليالي بعد العشاء، تمددت فوق سريرها مع ابنتي عمها مارغريت وسادي وأخبرتهما: «لدي كتلةٌ داخلَ جسدي».

«ماذا؟» سألت سادي.

قالت: «عقدة. إنها تسبب لي ألماً فظيعاً عندما يقترب مني زوجي لمضاجعتي، الله وحده يعلمُ قدرَ الألم الذي أعاني منه حينها».

عندما بدأت أشعر بالألم أوّل مرة أثناء ممارسة العلاقة الحميمة، ظننت أنّ السبب له علاقة بصغيرتي ديبورا التي أنجبتها قبل بضعة أسابيع، أو بسبب الدّم القذر الذي يجلبه ديفيد أحياناً إلى المنزل بعد الليالي التي يقضيها مع نساءٍ أخريات وقد عالجه الأطباء بجرعاتٍ من البنسلين والمعادن الثقيلة.

أمسكت هنرييتا بيديّ ابنتي عمها واحدة تلو الأخرى ووضعتهما على بطنها تماماً كما فعلت عندما بدأت ديبورا في الركّل.

قالت هنرييتا: «هل تشعران بوجود شيء؟».

ضغطت ابنتا عمها بأصابعهما على معدتها مرةً تلو الأخرى. قالت سادي: «لا أعرف. ربما يكون لديك حملٌ خارج الرّحم – تعلمين أنّ هذا ممكن الحدوث».

قالت هنرييتا: «أنا لست حاملاً. إنها عقدة».

«هيني، عليك أن تجري فحوصات. ماذا لو كان شيئاً سيئاً؟».

لكن هنرييتا لم تذهب إلى الطبيب، ولم تخبر الفتاتان أحداً عما قالته ابنة عمهما في غرفة النوم ذلك المساء. في تلك الأيام، لم يكن الناس يتحدثون عن أشياء مثل السرطان، لكن سادي اعتقدت دائماً أن هنرييتا أبقت الأمر سراً لأنها كانت خائفة من أن يستأصل الطبيب رحمها ويجعلها تتوقف عن إنجاب الأطفال.

بعد حوالي أسبوع من إطلاع بنتي عمها على إحساسها بوجود مشكلة لديها، وفي سن التاسعة والعشرين، أصبحت هنرييتا حاملاً بـ جو، طفلها الخامس. فطمأنت سادي ومارغريت هنرييتا بأن الألم على الأرجح سببه الحمل. لكن هنرييتا لم تقتنع وأكدت لهما أن تعاني من هذا الألم من قبل حدوث الحمل.

«إنه شيء آخر».

وتوقفن جميعهن عن الحديث عن العقدة ولم تخبرن زوج هنرييتا عن الموضوع. وبعد أربعة أشهر ونصف من ولادة الطفل جوزيف، وجدت هنرييتا في الحمام دماً يلطخ ملابسها الداخلية في غير وقته من الشهر.

أغلقت باب الحمام أمام أطفالها وزوجها وبنات عمومتها وملأت حوض الاستحمام، وغطست جسدها في الماء الدافئ، وبسطت ساقيها، ثم أدخلت هنرييتا إصبعها داخل فتحة المهبل وحركتها عبر عنق الرحم حتى وجدت ما كانت تعرف على نحو ما أنها ستجده: كتلة صلبة عميقة في الداخل، كما لو أنّ شخصاً ما وضع كرة زجاجية على يسار فوهة رحمها.

خرجت هنرييتا من حوض الاستحمام، وجففت نفسها، وارتدت ملابسها. ثم قالت لزوجها: «من الأفضل أن تأخذني إلى الطبيب. أنا أنزف ولم يحن ميعاد دورتي الشهرية بعد».

ألقى طبيب الحي نظرة واحدة ورأى الورم، وظنّ أنه كان قرحة ناتجة عن مرض الزهري. لكن نتيجة اختبار الورم جاءت سلبية من حيث مرض الزهري، لذا نصحَ الطبيبُ هنرييتا بأن تزور عيادة مستشفى جونز هوبكنز لأمراض النساء.

وكانت هوبكنز من أفضل المستشفيات في البلاد. بنيت عام ١٨٨٩ لتكون مستشفى خيرياً للمرضى والفقراء، وتغطي مساحة أكثر من اثني عشر فداناً كانت فيما مضى مقبرةً ومصحاً للأمراض النفسية شرق بالتيمور. كانت الأجنحة العامة في هوبكنز مليئة بالمرضى، ومعظمهم من السود غير القادرين على دفع فواتير علاجهم. قاد ديفيد هنرييتا ما يقرب من عشرين ميلاً للوصول إلى هناك، ليس لأنهما فضلا ذلك، بل لأنه المستشفى الرئيسي الوحيد على امتداد أميال الذي يقبل علاج المرضى السود. كان هذا عصر

جيم كرو؛ أيّ عندما يظهر السود في مستشفيات البيض، كان من المرجح أن يطردهم الموظفون بعيداً، حتى لو أدى ذلك إلى أن يلقوا حتفهم في موقف السيارات. حتى مستشفى هوبكنز، التي عالجت المرضى السود، عزلتهم في عنابر الملونين وخصصت لهم أماكن محددة للشرب.

لذلك عندما نادت الممرضة هنرييتا من غرفة الانتظار، قادتها عبر باب وحيد إلى غرفة معاينة الملونين فقط، وهي غرفةٌ من صف طويل من الغرف المقسمة بجدران زجاجية شفافة تسمح للممرضات بالرؤية من غرفة إلى أخرى. خلعت هنرييتا ملابسها، ولفت نفسها برداء المستشفى الأبيض المنشّى، واستلقت على طاولة فحص خشبية في انتظار هوارد جونز، طبيب الأمراض النسائية المناوب. كان جونز نحيلاً غزا شعره الشيب، له صوت هادئ عميق ولكنة جنوبية خافتة. عندما دخل إلى الغرفة، أخبرته هنرييتا عن الورم. وقبل أن يفحصها، قلّب أوراق ملفها وراجع ملخصاً سريعاً عن حياتها، وسلسلة من الحالات المرضية غير المعالجة:

تلقّت التعليم حتى الصف السادس أو السابع؛ ربّة منزل وأمّ لخمسة أطفال. لديها صعوبة في التنفس منذ الطفولة بسبب إنتان الحلق المتكرر، كما تعاني من انحراف في الحاجز الأنفي. أوصى الطبيب بالإصلاح الجراحي ورفضت المريضة. عانت المريضة من ألمٍ في أحد أسنانها منذ خمس سنوات تقريباً؛ وخُلع السن في نهايةِ المطاف مع عدد من الأسنان الأخرى.

القلق الوحيد هو خوفها على ابنتها الكبرى المصابة بالصرع ولا تستطيع الكلام. ربة منزل سعيدة. نادراً ما تشرب الكحول. لم تسافر. تغذية جيدة، متعاونة. المريضة من أسرة لها عشرة أشقاء. توفي أحدهم بحادث سيارة، وآخر بسبب التهاب القلب الروماتزمي، أما الثالث فقد لقي حتفه مسموماً. تعاني من نزيف مهبلي مجهول السبب ودماء في البول خلال الحملين الأخيرين؛ أوصى الطبيب بإجراء فحص لتحري وجود خلايا منجلية. ورفضت المريضة. متزوجة منذ سن الخامسة عشر وليس لديها رغبة في الجماع. المريضة مصابة بمرض الزهري العصبي بدون أعراض ولكنها ألغت علاجات الزهري، لأنها تشعر أنها تحسنت كما تقول. قبل شهرين من الزيارة الحالية، وبعد ولادة الطفل الخامس، عانت المريضة من وجود دم بكمية كبيرة في البول. أظهرت الفحوصات زيادة في النمو الخلوي في عنق الرحم. أوصى الطبيب بالتحاليل التشخيصية وأحالها إلى أخصائي لاستبعاد الإصابة بإنتان أو بالسرطان. ألغت المريضة الموعد. قبل شهر من الزيارة الحالية، ثبتت إصابة المريض بمرض السيلان بنتيجة الفحص. استدعيت المريضة إلى العيادة للعلاج. دون أيّ استجابة.

لم يكن مستغرباً أنها لم ترجع كلّ تلك المرات للمتابعة. بالنسبة لـ هنرييتا، كان الدخول إلى هوبكنز مثل دخول بلدٍ أجنبي لا

تتحدث لغة أهله. كانت تعرف عن حصاد التبغ وذبح الخنازير، لكنها لم تسمع قطّ كلماتٍ من قبيل عنق الرحم أو الخزعة. لم تقرأ أو تكتب كثيراً، ولم تدرس العلوم في المدرسة. إنها مثل معظم المرضى السود، لا تزور هوبكنز قطّ إلا عندما تؤمن أنّه ما من خيارٍ آخر.

أصغى جونز بإمعان بينما أخبرته هنرييتا عن الألم والدم. وكتب في وقت لاحق: «تقول إنها عرفت أن ثمة شيء غير طبيعي في عنق رحمها. وعندما سألتُها عن سبب علمها بذلك، قالت إنها شعرت بوجود كتلةٍ ما هناك. لا أعرف تماماً ما تعنيه بهذا، ما لم تكن قد جسّت هذه المنطقة بالفعل».

استلقت هنرييتا على الطاولة، وضغطت قدميها بقوة على مسندي القدمين وهي تحدق في السقف. وبالطبع، وجد جونز كتلةً في المكان حيث قالت إنّه سيجدها فيه. وصفها بأنها كتلة صلبة متآكلة بحجم النكلة. وإذا اعتبرنا عنق رحمها وجه الساعة، فإن الكتلة كانت عند الساعة الرابعة. كان قد رأى ما لا يقل عن ألف آفة لسرطان عنق الرحم، لكنه لم ير شيئاً من هذا القبيل من قبل: لامع وأرجواني (ووصفه لاحقاً أنه كان مثل «جيلو العنب»)، حساس للغاية وينزف من أقل لمسة. استأصل جونز عينة صغيرة وأرسلها إلى مختبر علم الأمراض أسفل القاعة للتشخيص. ثم طلب من هنرييتا العودة إلى منزلها.

بعد فترة وجيزة، جلس جونز يملي ملاحظاته حول حالة هنرييتا وتشخيصها: «إنّ تاريخها المرضي مثيرة للاهتمام، فقد أنجبت آخر

طفل لها هنا في هذا المستشفى، في ١٩ سبتمبر ١٩٥٠، ولكن لم تُدوّن أيّة ملاحظة في ملفها في ذلك الوقت، أو في زيارة المراجعة بعد ستة أسابيع، عن وجود أيّ شذوذ في عنق الرحم».

ومع ذلك جاءت هنا، بعد ثلاثة أشهر، ولديها ورم كامل. إما أن أطبائها قد فاتهم ذلك خلال فحوصاتهم الأخيرة، ويبدو هذا مستحيلاً، أو أن الورم نما بسرعةٍ مرعبة.

(١٩٢٠- ١٩٤٢)

(٢)

كلوفر

ولدت هنرييتا لاكس باسم لوريتا بليزانت في روانوك، فيرجينيا، في ١ أغسطس ١٩٢٠. ولا أحد يعرف كيف أصبح اسمها هنرييتا. ولدت على يد قابلةٍ تدعى فاني في كوخ صغير على طريق مسدود يطلّ على محطة القطار، حيث تأتي مئات عربات الشحن وتذهب كلّ يوم. تشاركت هنرييتا هذا المنزل مع والديها وثمانية من أشقائها الأكبر سناً حتى عام ١٩٢٤، عندما توفيت والدتها، إليزا لاكس بليزانت، أثناء ولادة طفلها العاشر.

كان والد هنرييتا، جوني بليزانت، رجلاً قصيراً يعرج على عصا ويضرب الناس بها في كثير من الأحيان. ويقال في العائلة أنه قتل شقيقه لأنه تصرف بوقاحةٍ مع إليزا. لم يكن لدى جوني الصبر على تربية الأطفال، لذلك عندما توفيت إليزا، أعادهم جميعاً إلى كلوفر في فيرجينيا، حيث لا تزال عائلته تزرع حقول التبغ التي عمل أسلافهم فيها عبيداً. لم يتمكن أحد في كلوفر من تربية الأطفال العشرة معاً، لذلك تقاسمهم الأقارب واحد مع ابن العم هذا،

وواحد مع العمة تلك. وانتهى المطاف بـ هنرييتا مع جدها تومي لاكس.

عاش تومي في ما أطلق عليه الجميع اسم المنزل-الديار وهو كوخ خشبي مكون من أربع غرف كان فيها مضى مسكناً للعبيد بأرضيات خشبية وفوانيس غاز وماءٍ حملته هنرييتا من الجدول إلى أعلى التل يوماً بعد يوم. يقبع المنزل أعلى التلّة حيث تضرب الرياح من كلّ جانب وتتغلغل عبر الشقوق في الجدران. بقي الهواء في الداخل بارداً طوال الوقت لدرجة أنه عندما يموت أحد الأقارب، تُبقي الأسرة جثته في الردهة الأمامية لأيامٍ حتى يتمكن الناس من أداء واجب الزيارة وتقديم الاحترام. ثم يدفن في المقبرة خلف المنزل.

كان جد هنرييتا أساساً يربّي حفيداً آخر تركته إحدى بناته عنده بعد أن ولدته على أرضية المنزل. كان اسم الطفل ديفيد لاكس، لكن الجميع ناداه داي، لأنه وفقاً للهجة لاكس الريفية، تلفظ كلمة المنزل هايس بدلاً من هاوس، ويلفظ الاسم داي بدلاً من ديفيد.

كان الطفل داي كما وصفته عائلة لاكس طفلَ العابرِ؛ فقد عبرَ رجلٌ يدعى جوني كولمان المدينة يوماً؛ وبعد تسعة أشهر وُلدَ داي. ساعدت في توليده ابنة خالة له قابلة تبلغ من العمر اثني عشر عاماً تدعى مانشي، فخرج إلى الحياة أزرقَ كسماءٍ عاصفة ولا يتنفس. حضرَ طبيبٌ أبيض إلى المنزل بقبعته الديربي وعصا المشي، وكتب على شهادة ميلاد داي «وُلدَ ميتاً»، ثم خرج وقاد عربته التي تجرها الجياد إلى البلدة، تاركاً وراءه سحابة من الغبار الأحمر.

صلتّ مانشي وهي تراه يبتعد، قائلةً: «يا إلهي، أعلم أنك لم تقصد أن تأخذ هذا الطفل». ثم راحت تغسل داي في حوضٍ من الماء الدافئ، ووضعته على ملاءة بيضاء حيث فركت صدره وربتت عليه حتى شهقَ فجأة محاولاً التنفس وتحولت بشرته الزرقاء إلى البني الناعم بعد أن اكتسبت بعض الدفء.

في الوقت الذي قام فيه جوني بليزانت بإحضار هنرييتا للعيش مع الجد تومي، كانت في الرابعة من عمرها وكان داي في التاسعة تقريباً. لا يمكن لأحد أن يخمن أنها ستقضي بقية حياتها مع داي، أولاً بصفتها ابنة خالته التي ترعرعت في منزل جدها، ثم بصفتها زوجته.

في طفولتهما، كانت هنرييتا وداي يستيقظان كلّ يومٍ في الساعة الرابعة صباحاً لحلب الأبقار وإطعام الدجاج والخنازير والخيول. ثم يعتنيان بحديقةٍ مليئة بالذرة والفول السوداني والخضروات، قبل أن يتجها إلى حقول التبغ مع أبناء عمومتهما كليف وفريد وسادي ومارغريت وحشدٍ من الآخرين. أمضيا معظم طفولتهما بظهورٍ محنيّة في تلك الحقول، يزرعان التبغ خلف المحاريث التي تجرها البغال. وفي كلّ حصاد يقطعان الأوراق العريضة من سيقان التبغ ويربطانها في حزم صغيرة فتصبح أصابعهما طريةً ولزجة بسبب راتنج النيكوتين، ثم يتسلقان عوارض حظيرة تبغ جدهم لتعليق الحزم واحدة تلو الأخرى لتجفيفها. وكل يوم صيفي يرفعان أيديهما للدعاء ابتهالاً لعاصفة تبرّد احتراق بشرتهما من قيظ الشمس. وعندما تمنّ عليهما

السماء بواحدةٍ، كانا يصرخان ويجريان عبر الحقول لالتقاط حفناتٍ من الثمار الناضجة والجوز التي تسقطها الرياح عن الأشجار.

مثل معظم أولاد عائلة لاكس، لم يكمل داي دراسته، بل توقف في الصف الرابع لأنّ العائلة احتاجته للعمل في الحقول. لكن هنرييتا بقيت حتى الصف السادس. وخلال العام الدراسي، وبعد الاعتناء بالحديقة والماشية كلّ صباح، كانت تمشي ميلين مروراً بمدرسة البيض حيث يلقي الأطفال عليها الحجارة ويسخرون منها، قبل أن تصل إلى مدرسة الملونين، وهو بيت ريفي مبنيّ من الخشب مكوّن من ثلاث غرف مخفي تحت ظلال الأشجار الطويلة وله ساحة خارجية حيث جعلت السيدة كولمان الأولاد والبنات يلعبون منفصلين، الذكور على جانب والإناث على الجانب الآخر. وعندما تنصرف من المدرسة كلّ يوم، أو في أيّ وقت لم يكن لديها فيه حصص دراسية، تعود هنرييتا إلى الحقول مع داي وأبناء عمومتها.

فإذا كان الطقس لطيفاً، فإنهم ما أن ينجزوا أعمالهم، يركض أبناء العم مباشرة إلى حفرة السباحة التي يصنعونها كلّ عام عبر سدّ الجدول خلف المنزل بالصخور والعصي وأكياس الرمال وأي شيء آخر يمكن أن يغرقوه. يرمون الصخور لإخافة الأفاعي قطنية الفم السامّة، ثم يقفزون في الماء من فوق فروع الأشجار أو يغطسون من فوق الضفاف الموحلة.

وعند حلول الليل، يضرمون النار بقطعٍ من الأحذية القديمة لإبقاء البعوض بعيداً، ويراقبون النجوم من تحت شجرة البلوط

الكبيرة حيث كانوا يعلقون حبلاً للتأرجح عليه. لقد لعبوا ألعاباً كثيرةً مثل الوسم، ولعبة شدة يا ورد، ولعبة القفز (الحجلة)، ورقصوا حول الحقل وغنوا إلى أن يصرخ الجد تومي ليذهب الجميع إلى الفراش.

كلّ ليلة، يتكدس أكوام من أبناء العمومة في مساحة ضيقة فوق المطبخ الخشبي الصغير على بعد أمتارٍ قليلة من المنزل. يستلقون واحداً بجوار الآخر، يروون قصص مُزارعِ التبغ مقطوعَ الرأس الذي يجوب الشوارع ليلاً، أو الرّجل الذي فقد عينيه ويعيش بجانب الجدول - ثم ينامون إلى أن تشعل جدتهم كلوي النار في موقد الحطب في الأسفل وتوقظهم على رائحة البسكويت الطازج.

في أمسية محددة من كلّ شهر خلال موسم الحصاد، يجمع الجدّ تومي الخيول بعد العشاء ويعدها لجرّ العربة إلى بلدةٍ جنوب بوسطن، حيث موطن ثاني أكبر سوقٍ للتبغ في البلاد، مع ما فيه من مهرجانات استعراض التبغ ومسابقة ملكة جمال التبغ، والميناء حيث تجمعُ القوارب أوراق التبغ المجففة لبيعها في جميع أنحاء العالم للتدخين.

قبل مغادرة المنزل، كان تومي ينادي على أبناء العمومة الصغار، فيهرعون للجلوس في العربة المسطحة على سريرٍ من أوراق التبغ، ثم يغالبون النعاس لأطول فترة ممكنة قبل الاستسلام لهدهدة إيقاع الخيول. ومثل بقية المزارعين من جميع أنحاء فرجينيا، يسافر تومي لاكس والأحفاد طوال الليل لنقل محاصيلهم إلى جنوب بوسطن،

حيث يصطفون عند الفجر -عربة خلف الأخرى- في انتظار فتح البوابات الخشبية الخضراء الهائلة لمستودع المزاد.

وعندما يصلون، تساعد هنريتا وأبناء العم في فكّ الخيول عن العربة وملء معالفها بالحبوب، ثم تفريغ تبغ العائلة على الأرضية الخشبية في المستودع. يُعلن الدلال بائع المزاد عن الأرقام بصوتٍ جهوري فيتردّد صداها في القاعة الضخمة المفتوحة التي يبلغ ارتفاع سقفها حوالي ثلاثين قدماً ومغطاة بمناور سوداء بسبب تراكم التراب لسنوات. وفي حين يقف تومي لاكس بجانب محصوله يصلّي من أجل الفوز بسعرٍ جيد، تركض هنرييتا وأبناء عمومتها حول أكوام التبغ، يتحدثون بنبرة سريعة للغاية لتبدو مثل نبرة بائع المزاد. كانوا يساعدون تومي ليلاً في نقل التبغ غير المباع إلى القبو، حيث يجعل من أوراقه سريراً للأطفال. ينام المزارعون البيض في الطابق العلوي في شققٍ وغرفٍ الخاصة؛ في حين ينام المزارعون السود في الطابق السفلي في الجانب المظلم من المستودع مع الخيول والبغال والكلاب، على أرضية ترابية قذرة تزدحم على جانبيها صفوفٌ من المرابط الخشبية للماشية، وجبال من زجاجات الخمور الفارغة مكدسة فوق بعضها حتى السقف.

كان الليل في المستودع وقتاً لمعاقرة الخمر والقمار والبغاء والقتل العرضي حيث ينفقُ المزارعون ما جنوه من أرباحِ موسمهم. من سريرهم فوق أوراق التبغ، كان أطفال لاكس يحدقون في عوارض السقف الضخمة بحجم الأشجار وقد غلبهم النعاس على أصوات

الضحك وقعقعة الزجاجات ورائحة التبغ المجفف. وفي الصباح كانوا يتكدسون في العربة مع حصادهم غير المباع وينطلقون في رحلة طويلة نحو المنزل. يعلم أبناء عمومتهم الذين بقوا في كلوفر أنّ ركوب العربة إلى جنوب بوسطن يعني العودة مع هدايا للجميع، قطعةٌ كبيرة من الجبن، ربما، أو شريحة من سجق البولونيا؛ لذلك كانوا ينتظرون لساعاتٍ في الشارع الرئيسي ترقباً لوصول العربة إلى المنزل.

كان شارع كلوفر الرئيسي الواسع المغبر مليئاً بسياراتٍ من طراز فورد أي، والعربات التي تجرها البغال والخيول. امتلك الرجل العجوز (سنو) أول جرار في المدينة، وكان يقوده إلى المتجر وكأنه يقود سيارة وقد دسّ جريدةً تحت ذراعه، وينبح بجواره اثنان من كلاب الصيد أطلق عليهما اسم كاديلاك ودان. وعلى امتداد الشارع الرئيسي يوجد دار سينما وبنك ومتجر مجوهرات وعيادة طبيب ومتجر للخردوات وعدد من الكنائس. وعندما يكون الطقس جيداً، ترى جميع الرجال البيض، من العمدة إلى الطبيب إلى الحانوتي، بسراويلهم ذات الحمالات وقبعاتهم الرسمية والسيجار الطويل، يقفون على طول الشارع الرئيسي يحتسون الويسكي من زجاجات العصير، يتحدثون أو يلعبون الداما على البرميل الخشبي أمام الصيدلية. وتثرثر زوجاتهم في المتجر العام في حين ينام أطفالهن صفاً واحداً على طول المنضدة وتُسند رؤوسهم الصغيرة على بكراتٍ طويلةٍ من القماش.

كانت هنرييتا وأبناء عمومتها يعملون على خدمة لهؤلاء البيض، يلفون لهم التبغ مقابل عشرة سنتات حتى يكون لديهم المال لمشاهدة أفلام راعي البقر المفضل لديهم بوك جونز. يعرض صاحب المسرح أفلاماً صامتة بالأسود والأبيض، وتعزف زوجته على البيانو. كانت تعرف أغنية واحدة فقط، كانت تعزف موسيقى كرنفالية سعيدة واحدة لكل مشهد، حتى عندما تتعرض الشخصيات لإطلاق النار والموت. ويجلس أطفال لاكس في قسم الملونين بجوار جهاز العرض الذي ينقر مثل بندول الساعة طوال مدة عرض الفيلم بأكمله.

مع تقدم هنرييتا وداي في السن، استبدلوا لعبة شدة يا وردة بسباقات الخيل على طول الطريق الترابي الممتد على طول ما كان يسمى حينها مزرعة آل لاكس للتبغ، وبات يسمى الآن ببساطة لاكس تاون. لطالما تشاجر الأولاد حول من يمتطي تشارلي هورس، فرسُ الجد تومي الكميت، الذي بوسعه أن يتفوق على أيّ حصان آخر في كلوفر. تراقبهن هنرييتا والفتيات الأخريات من جانب التل أو من على ظهور العربات المملوءة بالقش، وكنّ يقفزن نحو الأعلى والأسفل، ويصفقن ويهتفن بينما يرمح الأولاد على ظهور الخيول.

تهتف هنرييتا غالباً تشجيعاً لـ داي، لكنها تهتف أحياناً لابن عمٍ آخر يدعى جو غرينان المجنون. و«جو المجنون» هو اللقب الذي أطلقه عليه ابن عمهم كليف؛ وهو «رجل فوق المتوسط» – طويل القامة، أجشّ الصوت، قوي البنية، ذو بشرة داكنة، وأنف حاد،

والكثير من الشعر الأسود السميك الذي يغطي رأسه وذراعيه وظهره ورقبته بحيث كان عليه أن يحلق جسمه بالكامل في الصيف تلافياً لاحتراق جسده من شدة الحرّ. أطلقوا عليه لقب «جو المجنون» لأنه كان مغرماً جداً بـ هنرييتا، ومستعداً لفعل أيّ شيء ليجذب انتباهها. كانت أجمل فتاة في لاكس تاون، بابتسامتها الساحرة وعينيها الجوزيتين.

في المرة الأولى التي حاول فيها جو المجنون الانتحار بسبب هنرييتا، كان يدور حولها في منتصف الشتاء بينما كانت في طريق عودتها إلى المنزل من المدرسة. توسّل إليها للحصول على موعد، قائلاً: «هيني، بالله عليكِ... امنحيني فرصة واحدة». وعندما ضحكت وقالت لا، ركض جو المجنون وقفز مباشرة عبر جليد بركة متجمدة ورفض الخروج حتى وافقت على الخروج معه.

سخر جميع أبناء العم من جو، قائلين: «ربما اعتقد أن الماء المثلج قد يبرده، لكنه كان يحترق من الحبّ، لدرجة أن الماء راح يغلي تقريباً!» صرخت سادي، ابنة عم هنرييتا، وأخت جو المجنون، في وجه أخيها: «يا رجل، أنت غارق في حبّ هذه الفتاة، هل تنوي الموت من أجلها؟ هذا لا يجوز».

لم يعرف أحدٌ ما حدث بين هنرييتا وجو المجنون باستثناء بعض المواعيد والقبلات. لكن هنرييتا وداي كانا يتشاركان غرفة نوم واحدة منذ كانت في الرابعة من عمرها، لذلك ما حدث بعد ذلك لم يفاجئ أحداً، فقد أنجبا الأطفال معاً. ولد ابنهما لورانس

بعد أشهر فقط من عيد ميلاد هنرييتا الرابع عشر؛ وولدت أخته لوسيل إلسي بليزانت بعد أربع سنوات. لقد وُلد كلاهما على أرضية المنزل مثل والدهما وجدتهما وجدهما من قبلهما.

ولم يستخدم الناس كلماتٍ مثل الصرع أو التخلف العقلي أو الزهري العصبي لوصف حالة إلسي إلا بعد سنوات. بالنسبة للناس في لاكس تاون، كانت مجرد فتاة ساذجة، ممسوسة. جاءت إلى العالم بسرعة، إذ بالكاد عاد داي مع القابلة عندما خرجت إلسي كالطلقة من رحم أمها وضربت رأسها بالأرض. وتكهن الجميع بأنه ربما كان هذا ما جعل عقلها دوماً مثل عقل طفل رضيع.

تمتلئ دفاتر السجلات القديمة في كنيسة هنرييتا بأسماء النساء اللائي طردن من الرعية لإنجابهن أطفالاً خارج رباط الزوجية، ولكن لسبب ما لم تكن هنرييتا من بينهن أبداً، حتى مع انتشار الشائعات في أرجاء بلدة لاكس بأن من المحتمل أن يكون جو المجنون والد أحد أطفالها.

عندما اكتشف جو المجنون أن هنرييتا ستتزوج داي طعن نفسه في صدره بسكين جيبٍ كليلٍ. ووجده والده مخموراً في فنائهم وقميصه مبلل بالدماء. حاول أن يوقف النزيف، لكن جو قاومه وهو يضرب ويلكم، مما جعله ينزف أكثر. في نهاية المطاف، أجبره والده بالقوة على صعود السيارة، وربطه بإحكام بالباب، وقاد السيارة إلى الطبيب. عندما عاد جو إلى المنزل ملفوفاً بالضمادات، ظلّت سادي تقول:

«كل هذا لمنع هيني من الزواج من داي؟»، لكن جو المجنون لم يكن الوحيد الذي حاول منع الزواج.

كانت غلاديس، أخت هنرييتا، تقول دائماً إن بوسع هنرييتا أن تتزوج من رجلٍ أفضل. عندما تحدث معظم أفراد عائلة لاكس عن هنرييتا وداي وطفولتهما في كلوفر، بدا الأمر شاعرياً مثل قصة خرافية. باستثناء غلاديس. لم يفهم أحدٌ سبب إصرارها على الوقوف في وجه هذا الزواج. قال البعض إنها شعرت بالغيرة لأن هنرييتا كانت الأجمل. لكن غلاديس أصرت على أن داي لن يكون زوجاً جيداً.

تزوج هنرييتا وداي وحدهما في منزل الواعظ في العاشر من إبريل عام ١٩٤١. كانت حينئذٍ في العشرين من عمرها، وهو في الخامسة والعشرين. لم يسافرا في رحلةِ شهر عسلٍ بسبب الكثير من العمل الذي ينتظرهما وعدم توفر المال للسفر. ومع حلول فصل الشتاء، عانت الولايات المتحدة من ويلات الحرب وكانت شركات التبغ تزود الجنود بالسجائر مجاناً، لذلك كان السوق مزدهراً. ولكن مع ازدهار المزارع الكبيرة، كانت المزارع الصغيرة تعاني. كان هنرييتا وداي محظوظين إذا باعا ما يكفي من التبغ كلّ موسم لإطعام الأسرة وزراعة المحصول التالي.

لذلك بعد زفافهما مباشرةً عاد داي إلى الإمساك بالقبضتين المهترئتين لمحراثه الخشبي القديم، في حين تبعته هنرييتا عن كثبٍ، تدفع عربة يدوية منزلية الصنع وتغرس شتلات التبغ في حفر في التراب الأحمر الذي حرث للتوّ.

ثم بعد ظهر أحد الأيام في نهاية عام ١٩٤١، ظهر ابن عمهم فريد غاريت يقود مسرعاً على الطريق الترابي بجانب حقلهم. لقد عاد للتو من «بالتيمور» لزيارة أسرته، يقود سيارة شيفروليه ٣٦ فارهة ويرتدي ملابس فاخرة. قبل عامٍ واحد فقط، كان فريد وشقيقه كليف مزارعي تبغ في كلوفر أيضاً. ولكسب المزيد من الأموال، فتحا متجراً «للملونين» حيث يدفع معظم الزبائن بواسطة سندات الدفع؛ كما قاما أيضاً بتشغيل حانةٍ ومرقص قديم حيث رقصت هنرييتا مرات كثيرة على أرضيته الترابية الحمراء. وضع الجميع القطع النقدية في صندوق الموسيقى وشربوا كولا آر سي، لكن الأرباح ظلّت هزيلة. وفي النهاية أخذ فريد آخر ثلاثة دولارات وخمسة وعشرين سنتاً واشترى تذكرة حافلة إلى الشمال بحثاً عن حياةٍ جديدة. ذهب، مثل العديد من أبناء العم الآخرين، للعمل في مصنع سباروز بوينت للصلب التابع لشركة بيت لحم للصلب وعاش في محطة تيرنر مع مجتمع صغير من العمال السود في شبه جزيرة على نهر باتابسكو، تبعد نحو عشرين ميلاً عن وسط مدينة بالتيمور.

في أواخر القرن التاسع عشر، عندما افتُتح مصنع سباروز بوينت، كانت محطة تيرنر في الغالب عبارة عن مستنقعات وأراضٍ زراعية وعددٍ من الأكواخ المتصلة بألواحٍ خشبيةٍ للممرات. عندما زاد الطلب على الحديد الصلب خلال الحرب العالمية الأولى، انتقلت دفعاتٌ من العمال البيض إلى بلدة دندالك القريبة، وسرعان ما فاضت ثكنات إسكان العمال السود في شركة بيت لحم للصلب،

فأرسلوهم إلى محطة تيرنر. ومع السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، أصبح لدى محطة تيرنر بعض الطرق المعبدة، وطبيب، ومتجر عام، ومحل لبيع الثلج. ولكن ظلّ سكانها يتعاركون من أجل الحصول على المياه وخطوط الصرف الصحي والمدارس.

ثم في ديسمبر ١٩٤١، قصفت اليابان بيرل هاربور بالقنابل، وكان الأمر أشبه بفوز محطة تيرنر باليانصيب: فقد ارتفع الطلب على الصلب إلى عنان السماء، كما ارتفعت الحاجة إلى العمال. ضخت الحكومة الأموال في بلدة محطة تورنر التي شرعت ببناء مشاريع سكنية من طابق واحد وطابقين، وجعلتها متلاصقة بناءً تلو الآخر تباعاً، وضمّ بعضها أربع إلى خمسمئة وحدة. بني معظمها من الطوب، وسُقِف بعضها الآخر بألواح الأسبستوس. حظي البعض بأفنية لا تتجاوز مساحتها بضع ياردات والبعض لم يحظ بشيء. ويمكنك أن ترى عن بعدٍ كيف تتراقص ألسنة اللهب فوق أفران سباروز بوينت والدخان الأحمر المخيف يتدفق من مداخنها.

أصبح سباروز بوينت أكبر مصنع للصلب في العالم. فقد أنتج قضبان التسليح، وأسلاكاً شائكة، ومسامير، وفولاذاً للسيارات والثلاجات والسفن العسكرية. وأحرق أكثر من ستة ملايين طن من الفحم كلّ عام لتصنيع ما يصل إلى ثمانية ملايين طن من الصلب ووظّف أكثر من ثلاثين ألف عامل. كانت شركة بيت لحم للصلب منجم ذهب في وقت يتفشى فيه الفقر، خاصة بين عائلات السود من الجنوب. انتشرت الأخبار من ماريلاند إلى مزارع

فيرجينيا وكارولينا، وكجزء مما أصبح يعرف باسم الهجرة الكبرى، تدفقت عائلات السود قادمة من الجنوب إلى محطة تيرنر - الأرض الموعودة.

كان العمل قاسياً، خصوصاً بالنسبة للرجال السود الذين حصلوا على الوظائف التي لا يلمسها الرجال البيض. ومثل فريد، بدأ العمال السود عادة في جوف الناقلات المبنية جزئياً في حوض بناء السفن، يجمعون البراغي والمسامير والصواميل عند سقوطها من أيدي الرجال الذين يقومون بالحفر واللحام على ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدماً. في النهاية انتقل العمال السود إلى غرفة المرجل، حيث يجرفون الفحم إلى داخل فرن مشتعل. يمضون أيامهم يتنفسون غبار الفحم السام والأسبستوس الذي أحضروه معهم إلى المنزل لزوجاتهم وبناتهم اللواتي كان عليهن استنشاقه كلما نفضن ملابس الرجال للغسيل. كان العمال السود في سباروز بوينت يجنون حوالي ثمانين سنتاً في الساعة على الأكثر، وعادةً أقل. في حين يحصل العمال البيض على أجور أعلى، لكن فريد لم يشتكِ؛ إذ إنّ ثمانين سنتاً في الساعة يعادل أكثر مما رآه معظم أفراد عائلة لاكس يوماً.

لقد نجح فريد في مسعاه. فعاد إلى كلوفر لإقناع هنرييتا وداي أن يحذوا حذوه. في الصباح التالي بعد مجيئه إلى البلدة، اشترى فريد لـ داي تذكرة حافلةٍ إلى بالتيمور. وافقوا على بقاء هنرييتا لرعاية الأطفال والتبغ حتى يجمع داي ما يكفي لشراء منزل خاص بهم في بالتيمور، وثلاث تذاكر إلى الشمال. بعد بضعة أشهر، تلقى فريد

إشعاراً يفيد بأنّ عليه السفر للعمل في الخارج. قبل أن يغادر، قدّم فريد لـ داي كلّ ما ادّخره من أموالٍ، قائلاً إنه حان الوقت لإحضار هنرييتا والأطفال إلى محطة تيرنر.

وسرعان ما صعدت هنرييتا، مع طفلٍ على كلّ جانب، على متن قطار يعمل على الفحم من المحطة الخشبية الصغيرة في نهاية شارع كلوفر الرئيسي. تركت حقول التبغ التي رافقت شبابها وشجرة البلوط التي تبلغ من العمر مئة عام والتي ظللتها من الشمس في أوقات الظهيرة الحارة الكثيرة. في سن الحادية والعشرين، تأملت هنرييتا من نافذة القطار التلال المنحدرة ومسطحات المياه الواسعة لأول مرة، وهي تتجه نحو حياة جديدة.

(١٩٥١)

(٣)

التشخيص والعلاج

بعد زيارة إلى مستشفى هوبكنز، عادت هنرييتا الى حياتها المعتادة والتنظيف والطبخ لزوجها داي وأطفالها والعديد من الأقارب الذين مروا لزيارتهم. بعد بضعة أيام، أحضر الطبيب جونز نتائج تحليل خزعتها من مختبر التشريح المرضي: «سرطانة ظهارية في عنق الرحم، المرحلة الأولى».

تنشأ جميع أنواع السرطان من خلية واحدة تعاني من خطأ ما وتصنّف بناءً على نوع الخلية التي تبدأ منها. ومعظم أورام عنق الرحم هي سرطانات تنمو من الخلايا الظهارية التي تغطي عنق الرحم وتحمي سطحه. وشاءت الصدفة، أنه في الوقت الذي حضرت فيه هنرييتا إلى مستشفى هوبكنز تشكو من نزيف غير طبيعي، كان جونز ورئيسه ريتشارد ويسلي تيليندي منخرطان في نقاش حامٍ شغلَ الأطباء في جميع أنحاء البلاد حول ما يعرف بسرطان عنق الرحم، وكيفية علاجه على أكمل وجه.

كان تيليندي، من كبار أخصائيي سرطان عنق الرحم في البلاد،

وجراحاً أنيقاً وخطيراً يبلغ من العمر ستة وخمسين عاماً ويعاني من عرجٍ شديد بسبب حادث تزلج على الجليد وقع له قبل أكثر من عقد من الزمن والجميع في هوبكنز يدعونه العم ديك. وكان من الأطباء الرواد الذين استخدموا الأستروجين لعلاج أعراض سن اليأس وحقق اكتشافات مبكرة مهمة تتعلق بالانتباذ البطاني الرحمي. كما أنه ألّف كتاباً يعدّ من أشهر كتب أمراض النساء السريرية، والذي لا يزال يُستخدم على نطاق واسع منذ ستين عاماً إلى اليوم وقد طُبعت منه عشر طبعات منذ أن كتبه. ويتمتع تيليندي بسمعة طيبة في شتى بقاع العالم حتى أن ملك المغرب أصر أن يكون تيليندي الطبيب الوحيد الذي يمكنه إجراء العمل الجراحي لزوجته المريضة. وفي مطلع عام ١٩٥١، عندما وصلت هنرييتا إلى هوبكنز، طور تيليندي نظرية حول سرطان عنق الرحم والتي، لو ثبت صحتها، بإمكانها إنقاذ حياة الملايين من النساء. ولكن قلّة في المجال الطبي صدقوه.

ينقسم سرطان عنق الرحم إلى نوعين: السرطانات الغازية التي تخترق سطح عنق الرحم، والسرطانات غير الغازية، التي لا تخترقه. يطلق على النوع غير الغازي في بعض الأحيان «السرطانة الشبيهة بمسحوق السكر المثلج»، لأنه ينمو في طبقة ملساء عبر سطح عنق الرحم، ولكن اسمه الرسمي هو «السرطانة اللابدة»، المشتق من اللاتينية لعبارة «السرطان في مكانه الأصلي».

في عام ١٩٥١، اعتقد معظم الأطباء في هذا المجال أن السرطان

الغازي مميت، وأن السرطان اللابد ليس كذلك. لذلك عالجوا النوع الغازي بقوة ولم يقلقوا عموماً بشأن السرطانة اللابدة لأنهم اعتقدوا أنها لا يمكن أن تنتشر. لم يوافق تيليندي، ورأى أن السرطانة اللابدة كانت ببساطة مرحلة مبكرة من السرطان الغازي وبالتالي إذا ترك دون علاج يُصبح مميتاً في النهاية. لذلك عالجه بقوة، وكان يلجأ غالباً إلى استئصال عنق الرحم والرحم ومعظم المهبل. ورأى أن هذا من شأنه أن يقلل بشكل كبير من الوفيات بسبب سرطان عنق الرحم، لكن منتقديه وصفوه بأنه علاج متطرف وغير ضروري.

لم يصبح تشخيص السرطانة اللابدة ممكناً إلا مطلع عام ١٩٤١، عندما نشر جورج بابانيكولاو، الباحث اليوناني، بحثاً يصف اختباراً طوّره، ويسمى الآن لطاخة بابانيكولاو (أو لطاخة عنق الرحم). ويتضمن الاختبار كشط الخلايا من عنق الرحم باستخدام ماصة زجاجية منحنية وفحصها تحت المجهر بحثاً عن تغييرات دالة على التسرطن التي حددها تيليندي والبعض غيره قبل سنوات. كان هذا تقدماً هائلاً، لأن تلك الخلايا ما قبل السرطانية لم تكن قابلة للكشف بخلاف ذلك، إذ لم تسبب أيّ أعراض جسدية ولم تكن ملموسة أو مرئية للعين المجردة. وفي الوقت الذي تبدأ فيه المرأة بالشعور بالأعراض، لن يكون هناك غير أمل ضئيل في العلاج. ولكن مع مسحة عنق الرحم، يمكن للأطباء اكتشاف الخلايا ما قبل السرطانية وإجراء استئصال الرحم، وهكذا يمكن الوقاية من سرطان عنق الرحم بالكامل تقريباً.

وفي تلك الفترة، كانت أكثر من خمس عشرة ألف امرأة تموت كلّ عام بسبب سرطان عنق الرحم. ويمكن لمسحة عنق الرحم القدرة أن تخفض معدل الوفيات بنسبة ٧٠ في المئة أو أكثر، ولكن كان هناك عائقان يقفان في طريقها: أولاً، العديد من النساء -مثل هنرييتا- ببساطة لم يخضعن للاختبار؛ وثانياً، حتى عندما فعلن ذلك، كان عدد قليل من الأطباء يعرفون كيفية تفسير النتائج بدقة، لأنهم لم يعرفوا كيف تبدو المراحل المختلفة لسرطان عنق الرحم تحت المجهر. والبعض خلط بين التهاب عنق الرحم والسرطان وأزال الجهاز التناسلي للمرأة بالكامل في حين كان كلّ ما تحتاجه هو بعض المضادات الحيوية. وأخطأ آخرون في تقييم التغيرات الخبيثة ظناً منهم أنها عدوى التهابية، فأرسلوا النساء إلى المنزل للعلاج بالمضادات الحيوية، ليعدن لاحقاً وقد انتشر السرطان وفات أوان العلاج. وحتى عندما شخّص الأطباء التغيرات قبل السرطانية بشكل صحيح، لم يعرفوا غالباً كيف تعالج هذه التغييرات.

شرع تيليندي في تقليل ما أسماه «عمليات استئصال الرحم غير المبررة» من خلال توثيق الحالات التي لم تكن سرطان عنق الرحم ومن خلال حثّ الجراحين على التحقق من نتائج اللطاخة بإجراء الخزعات قبل الجراحة. كما أنه حاول إثبات أن النساء المصابات بالسرطان اللابد بحاجة إلى علاج هجومي، حتى لا يتحول إلى سرطان غازٍ.

قبل زمنٍ قصير من الاختبار الأول لـ هنرييتا، قدم تيليندي حجته حول السرطان اللابد إلى اجتماع رئيسي لأطباء الأمراض في واشنطن العاصمة، فاستمر الحضور بمقاطعته وإزعاجه. لذلك عاد إلى هوبكنز وخطّط لإجراء دراسة من شأنها أن تثبت أنهم مخطئون؛ سيراجع مع موظفيه جميع السجلات الطبية والخزعات من المريضات اللواتي شخّصت إصابتهن بسرطان عنق الرحم الغازي في مستشفى هوبكنز في العقد الماضي، لمعرفة عدد المصابات مبدئياً بالسرطان اللابد.

وكغيره من الأطباء في عصره، غالباً ما استخدم تيليندي المرضى من الأجنحة العامة لإجراء الأبحاث، وغالباً دون علمهم. إذ يعتقد العديد من العلماء أنه نظراً لأن المرضى عولجوا مجاناً في الأجنحة العامة، فمن العدل استخدامهم كمواضيع بحثية كشكل من أشكال الدفع مقابل علاجهم. وكما كتب هوارد جونز مرةً: «لم يكن لدى هوبكنز ندرة في العينات السريرية بفضل عدد زوارها الضخم من المرضى السود المعوزين».

في هذه الدراسة بالذات -وهي الأكبر على الإطلاق عن العلاقة بين نوعي سرطان عنق الرحم- وجد جونز وتيليندي أن ٦٢ في المئة من النساء المصابات بالسرطان الغازي اللواتي خضعن لخزعات سابقة أصبن أولاً بالسرطان اللابد. بالإضافة إلى تلك الدراسة، اعتقد تيليندي، أنه إذا تمكن من إيجاد طريقة لزرع عينات حية من أنسجة عنق الرحم الطبيعية وكلا النوعين من الأنسجة

السرطانية -وهو شيء لم يحدث من قبل- فيمكنه مقارنة الثلاثة. إذا استطاع أن يثبت أن السرطان اللابد والسرطان الغازي لهما الشكل والسلوك نفسه في المختبر، فإن بإمكانه حسم النقاش، وإثبات أنه كان على حق طوال الوقت، وأنّ الأطباء الذين تجاهلوا أبحاثه كانوا يقتلون مرضاهم. لذلك اتصل بـ جورج غاي، رئيس أبحاث زراعة الأنسجة في هوبكنز.

قضى غاي وزوجته، مارغريت، العقود الثلاثة الماضية في العمل على زراعة خلايا خبيثة خارج الجسم على أمل استخدامها للعثور على سبب السرطان وعلاجه. لكن معظم الخلايا ماتت بسرعة، والقلة التي نجت بالكاد نمت على الإطلاق. كان الطبيبان غاي مصممين على زراعة أول خلايا بشرية خالدة: سلالة من الخلايا المنقسمة باستمرار تنحدر جميعها من عينة أصلية واحدة، أيّ خلايا من شأنها أن تجدد نفسها باستمرار ولا تموت أبداً. وقبل ثماني سنوات، في عام ١٩٤٣، أثبتت مجموعة من الباحثين في المعاهد الوطنية للصحة أن هذا الشيء ممكن باستخدام خلايا الفئران. أراد الطبيبان غاي زراعة المكافئ البشري - ولم يهتما بنوع الأنسجة التي يستخدمانها، طالما أنها تأتي من إنسان.

أخذ غاي أيّ خلايا استطاع أن يضع يديه عليها - وأطلق على نفسه اسم «النسر الأكثر شهرة في العالم، الذي يتغذى على العيّنات البشرية باستمرار تقريباً». لذا عندما عرض عليه تيليندي أنسجة سرطان عنق الرحم مقابل محاولة زراعة بعض الخلايا، لم يتردد غاي

أبداً. وبدأ تيليندي بجمع عينات من أيّ امرأة تدخل إلى مستشفى هوبكنز وتثبت إصابتها بسرطان عنق الرحم. بما فيهم هنرييتا.

في ٥ فبراير ١٩٥١، بعد أن حصل جونز على تقرير خزعة هنرييتا من المختبر، اتصل بها وأخبرها أنه ورمٌ خبيث. امتنعت هنرييتا عن إخبار أحدٍ بما قاله جونز، ولم يسألها أحد. استمرت تعيش يومها ببساطة كما لو أن شيئاً لم يكن، ولطالما رأت أنه لا معنى لإزعاج أيّ شخصٍ بسبب شيء يمكن أن تتعامل معه بنفسها.

في تلك الليلة، قالت هنرييتا لزوجها: «داي، أحتاج إلى زيارة الطبيب مجدداً غداً. طلب مني إجراء بعض الاختبارات وسيعطيني بعض الأدوية». في صباح اليوم التالي خرجت من سيارة البويك أمام مستشفى هوبكنز مرة أخرى، وأخبرت داي والأطفال ألا يقلقوا.

قالت: «لا داعٍ للقلق، لا أعاني من شيء خطير. سيعالجني الطبيب على الفور».

اتجهت هنرييتا مباشرة إلى مكتب الدخول وأخبرت موظفة الاستقبال أنها جاءت لتحصل على علاجها. ثم وقعت على استمارة معنونة بعبارة «إقرار بالموافقة على الجراحة» في أعلى الصفحة. جاء فيه:

> أمنح بموجب هذا موافقتي لموظفي مستشفى جونز هوبكنز لإجراء أيّ إجراءات جراحية وتحت أيّ مخدر سواء

موضعي أو عام قد يرونه ضرورياً في الرعاية الجراحية والعلاج المناسبين لـ: ________________.

دونت هنرييتا اسمها في المساحة الفارغة. وبخط يد غير مقروء وقّع شاهدٌ على سطرٍ في أسفل الاستمارة ووقعت هنرييتا على سطر آخر. ثم تبعت الممرضة عبر ممر طويل إلى جناحٍ للنساء الملونات، حيث أجرى عليها هوارد جونز والعديد من الأطباء البيض الآخرين اختبارات أكثر مما أجرته في حياتها بأكملها. لقد فحصوا بولها ودمها ورئتيها. ووضعوا أنابيب في مثانتها وأنفها.

في ليلتها الثانية في المستشفى، أطعمت الممرضة المناوبة هنرييتا عشاء مبكراً حتى تكون معدتها فارغة في الصباح التالي عندما يضعها الطبيب تحت التخدير لإجراء أول علاج للسرطان لها. كان ورم هنرييتا من النوع الغازي، ومثل باقي المستشفيات في جميع أنحاء البلاد، عالجت هوبكنز جميع سرطانات عنق الرحم الغازية بالراديوم، وهو معدن أبيض مشع يضيء بلون أزرق مخيف.

عند اكتشاف الراديوم أول مرة في أواخر القرن التاسع عشر، أشادت به العناوين الرئيسية في جميع أنحاء البلاد باعتباره «بديلاً للغاز والكهرباء والعلاج الناجع لكلّ مرض». أضافه صانعو الساعات إلى الطلاء لجعل مينا الساعة تتألق، ووصفه الأطباء على شكل مسحوق لعلاج كلّ شيء بدءاً من دوار البحر إلى التهابات الأذن. لكن الراديوم يدمّر أيّ خلايا يصادفها، والمرضى الذين تناولوه لعلاج مشاكل صحية تافهة سرعان ما لقوا حتفهم واحداً

تلو الآخر. كما أنّ الراديوم يمكن أن يسبب طفرات ربما تتحول إلى سرطانات، ويمكنه أن يحرق جلد الإنسان إذا استخدم بالجرعات العالية. لكنه يقتل أيضاً الخلايا السرطانية.

كانوا في مستشفى هوبكنز يستخدمون الراديوم لعلاج سرطان عنق الرحم منذ أوائل القرن العشرين، عندما زار جراح يدعى هوارد كيلي مختبر ماري وبيير كوري في فرنسا، الزوجان الفرنسيان اللذان اكتشفا الراديوم وقدرته على تدمير الخلايا السرطانية. ودون أن يدرك خطر ملامسة الراديوم، عاد كيلي إلى الولايات المتحدة حاملاً بعضاً منه في جيوبه وسافر بانتظام حول العالم لجمع المزيد. وبحلول أربعينيات القرن العشرين، أظهرت العديد من الدراسات -أجرى إحداها هوارد جونز، طبيب هنرييتا- أن الراديوم أكثر أماناً وفعالية من الجراحة لعلاج سرطان عنق الرحم الغازي.

في صباح أول يوم علاج لـ هنرييتا، حمل سائق سيارة أجرة حقيبة طبيب مملوءة بأنابيب زجاجية رقيقة من الراديوم من عيادة في المدينة. وضعت الأنابيب في جيوب فردية داخل أكياس قماشية صغيرة خاطتها يدوياً امرأة محلية من بالتيمور. أطلق على الأكياس اسم لويحات براك، تيمناً باسم الطبيب الذي اخترعها وهو من أشرف على علاج هنرييتا بالراديوم. وقد مات هذا الطبيب لاحقاً من السرطان، على الأرجح بسبب تعرضه المنتظم للراديوم، وكذلك الحال بالنسبة للطبيب المقيم الذي سافر مع كيلي ونقل الراديوم أيضاً في جيوبه.

وضعت إحدى الممرضات لويحات براك على صينية من الفولاذ المقاوم للصدأ. في حين أخذت ممرضة أخرى هنرييتا على الكرسي المدولب إلى غرفة العمليات الصغيرة المخصصة للملونين فقط في الطابق الثاني، والتي ضمت طاولات من الفولاذ المقاوم للصدأ، وأضواء ساطعة ضخمة، وطاقماً طبياً أبيض بالكامل يرتدون ملابس وقبعات وأقنعة وقفازات كلها بيضاء.

وما أن غابت هنرييتا عن الوعي على طاولة العمليات وسط الغرفة، وقد وضع قدماها على مسندي القدمين المتباعدين، جلس الجراح المناوب، الطبيب لورانس وارتون جونيور، على كرسي بين ساقيها. نظر داخل هنرييتا، ووسع عنق الرحم، واستعد لعلاج ورمها. لكن أولاً، ودون أن يقوم أحد بإخبار هنرييتا أن تيليندي يجمع عينات أو أن يسألها عما إذا كانت تريد أن تكون متبرعة - التقط وارتون سكيناً حاداً واستأصل قطعتين بحجم السنت من نسيج عنق الرحم لدى هنرييتا: قطعة من نسيج الورم، والأخرى من نسيج عنق الرحم السليم المجاور. ثم وضع العينات في طبق زجاجي.

ثم وضع وارتون أنبوباً مليئاً بالراديوم داخل عنق رحم هنرييتا وخيطه في مكانه. كما قام بخياطة لويحة مليئة بالراديوم على السطح الخارجي لعنق رحمها ووضع لويحة أخرى مقابلها. ثم وضع عدة لفات من الشاش داخل مهبلها لتساعد في الحفاظ على الراديوم في مكانه، وأدخل قسطرة في مثانتها حتى تتمكن من التبول دون التأثير على العلاج.

عندما انتهى وارتون، أعادت الممرضة هنرييتا إلى الجناح، وكتب وارتون في سجلها: «تحملت المريضة الإجراء جيداً وغادرت غرفة العمليات في حالة جيدة». وكتب في صفحة منفصلة: «هنرييتا لاكس... خزعة من نسيج عنق الرحم... أُعطيت الأنسجة للدكتور جورج غاي».

أخذ أحد المقيمين الطبق الذي يحمل العينات إلى مختبر غاي، كما فعل عدة مرات من قبل. رغم أنّ غاي يظلّ متحمساً في لحظات كهذه، فإن كلّ شخص آخر في مختبره اعتبر أن عينة هنرييتا شيئاً مملاً وعينة أخرى من عددٍ لا يحصى من العينات التي حاول العلماء وتقنيو المختبرات زراعتها وفشلوا على مدى سنوات. كانوا متأكدين أن خلايا هنرييتا ستموت مثل البقية.

(١٩٥١)

(٤)

ولادة هيلا

مكتبة
t.me/soramnqraa

جلست مساعدة غاي البالغة من العمر واحد وعشرين عاماً، ماري كوبيتشك، تأكل شطيرة سلطة تونة على مقعد طويل يمكن استخدامه طاولة استراحة. قضت هي ومارغريت والنساء الأخريات في مختبر غاي ساعات لا تحصى، جميعهن يضعن نظارات متطابقة تقريباً ذات إطارات داكنة وعدسات سميكة، وشعرهن مشدود إلى الوراء مثل كعكة مشدودة.

للوهلة الأولى، بدت الغرفة وكأنها مطبخ صناعي. كانت هناك علب قهوة كبيرة من الصفيح ممتلئة بالأدوات والأواني الزجاجية؛ ومبيض القهوة والسكر والملاعق وزجاجات الصودا منتشرة على الطاولة؛ ومجمدات معدنية ضخمة تصطف على طول أحد الجدران؛ وأحواض المياه العميقة التي صنعها غاي يدوياً باستخدام الحجارة التي جمعها من مقلع قريب. كما وضع إبريق الشاي بجوار موقد بنسن، وكانت المجمدات ممتلئة بالدم والمشيمات وعينات الأورام والفئران الميتة (بالإضافة إلى بطة واحدة على الأقل أبقاها غاي

مجمدة في المختبر لأكثر من عشرين عاماً بعد رحلة صيد، لأنه لم يجد متسعاً لها في مجمدة المنزل). وكدس غاي قرب أحد الجدران أقفاصاً مليئة بالأرانب والجرذان وخنازير غينيا؛ وعلى أحد جانبي الطاولة حيث كانت ماري تجلس وتتناول غدائها، قام ببناء رفوف وضع عليها أقفاصاً مليئة بالفئران التي امتلأت أجسامها بالأورام. كانت ماري تحدق بها دائماً أثناء تناولها الطعام، تماماً كما كانت تفعل عندما دخل غاي إلى المختبر حاملاً قطع عنق رحم هنرييتا.

قال لها: «سأضع عينة جديدة في حجرة عيناتك».

تظاهرت ماري بأنها لم تنتبه. قالت في بالها: «ليس مجدداً»، وظلت تأكل شطيرتها. «بوسعها الانتظار حتى أنتهي من طعامي».

عرفت ماري أنه لا ينبغي عليها التأجيل-كلما بقيت تلك الخلايا في الطبق زاد احتمال موتها. لكنها تعبت من زراعة الخلايا، وتعبت من قَطعِ الأنسجة الميتة بدقة مثل استئصال الغضروف من شريحة لحم، وتعبت من موت الخلايا بعد ساعات من العمل.

علامَ أتكبّد العناء؟ فكّرت في داخلها.

تعمد غاي توظيف ماري بسبب يديها. كانت قد تخرجت للتو في الكلية مع شهادة بالفيزيولوجيا عندما أرسلها مستشارها لإجراء مقابلة. طلب غاي من ماري أن تأخذ قلماً عن الطاولة وتكتب بعض الجمل. ثم قال لها، والآن، احملي هذا السكين. اقطعي هذه الورقة. استخدمي هذه الماصة.

لم تدرك ماري إلا بعد أشهر أنه كان يدرس يديها، ويتحقق من مهارتهما وقوتهما لمعرفة كيف ستواجه ساعاتٍ من القطع الدقيق والقشط واستخدام الملقط والماصات.

بحلول الوقت الذي دخلت فيه هنرييتا إلى هوبكنز، كانت ماري تتعامل مع معظم عينات الأنسجة التي تأتي من المستشفى، وحتى الآن ماتت خلايا جميع العينات المأخوذة من مرضى تيليندي.

في تلك الفترة، كانت هناك العديد من العقبات التي تحول دون نمو الخلايا بنجاح. بدايةً، لا أحد يعرف بالضبط ما العناصر الغذائية التي تحتاجها الخلايا للبقاء على قيد الحياة، أو أفضل طريقة لتزويدها بها. وعلى مدى سنواتٍ حاول العديد من الباحثين، بما فيهم الطبيبان غاي، تطوير وسط الزرع المثالي - السائل المستخدم لتغذية الخلايا. تطورت وصفات غاي لأوساط الزرع باستمرار حيث أضاف جورج ومارغريت المكونات وأزالاها، بحثاً عن التوازن المثالي. لكن جميعها بدت مثل خلطة تعاويذ الساحرات: بلازما دم الدجاج، وهريس جنين العجل، وأملاح خاصة، ودم من الحبال السرية البشرية. كان جورج قد جهز جرساً وكابلاً من نافذة مختبره عبر الفناء إلى جناح الولادة في هوبكنز، حتى تتمكن الممرضات من قرع الجرس في أيّ وقت يولد فيه طفل، فتهرع مارغريت أو ماري لجمع دم الحبل السري.

لم يكن من السهل الحصول على المكونات الأخرى، فاضطر جورج لزيارة المسالخ المحلية مرة على الأقل في الأسبوع لجمع أجنة

الأبقار ودم الدجاج. كان يقود سيارته الشيفروليه الصدئة القديمة ورفرف حاجزها الأيسر يصطدم بالرصيف ويطلق الشرر. وقبل الفجر بوقت طويل، في مبنى خشبي متهالك بأرضية من نشارة الخشب وفجوات واسعة في الجدران، كان غاي يمسك بدجاجة تصيح من ساقيها، ويسحبها رأساً على عقب من قفصها، ثم يضعها على ظهرها على طاولة الجزار. كان يمسك قدميها بيد واحدة ويعلق رقبتها بثبات على الخشب بمرفقه. وبيده الحرة، كان يرش صدر الدجاجة بالكحول، ويغرز حقنة في قلب الدجاجة لسحب الدم. ثم يجعلها تقف منتصبّة ويقول لها: «آسف، يا صديقتي»، ويضعها مرة أخرى في قفصها. وبين الحين والآخر، قد تسقط الدجاجة ميتة من شدة الإجهاد، فيأخذها جورج إلى المنزل حتى تتمكن مارغريت من تحميرها على العشاء.

ومثل العديد من الإجراءات في مختبرهما، كانت تقنية غاي في سحب دم الدجاج من ابتكار مارغريت. ابتكرت الطريقة خطوة بخطوة، وعلمتها لجورج، وكتبت تعليمات مفصلة للعديد من الباحثين الآخرين الذين أرادوا تعلمها.

كان العثور على الوسط المثالي للزرع تجربة مستمرة، لكن أكبر مشكلة تواجه زراعة الخلايا هي التلوث. يمكن للبكتيريا ومجموعة من الكائنات الحية الدقيقة الأخرى أن تجد طريقها إلى أوساط الزرع من أيدي الناس غير المغسولة وأنفاسهم وجسيمات الغبار التي تطفو في الهواء، وتدمّرها. لكن مارغريت خضعت للتدريب

كممرضة جراحية مما يعني أن التعقيم تخصصها، فقد كان مفتاحاً لمنع نقل العدوى المميتة للمرضى في غرف العمليات. سيقول الكثيرون لاحقاً أن تدريب مارغريت الجراحي كان السبب الوحيد الذي جعل مختبر غاي قادراً على زرع الخلايا على الإطلاق. إذ إن معظم علماء زرع الخلايا مثل جورج، كانوا علماء أحياء، ولم يعرفوا شيئاً عن الوقاية من التلوث.

علمت مارغريت جورج كلّ ما يعرفه عن الحفاظ على المزارع معقمة، وفعلت الشيء نفسه مع كلّ فني وطالب دراسات عليا وعالِمٍ جاء لأجل العمل أو الدراسة في المختبر. استأجرت امرأة محلية تدعى ميني وظيفتها الوحيدة غسل الأواني الزجاجية في المختبر باستخدام المنتج الوحيد الذي تسمح به مارغريت: صابون جولد داست توينز. كانت مارغريت جدية جداً بشأن ذلك الصابون، وعندما سمعت إشاعة أن الشركة قد تتوقف عن الإنتاج، اشترت عربة كاملة مليئة به.

قامت مارغريت بدوريات تفتيش في المختبر، مكتوفة الذراعين، تنحني فوق كتف ميني أثناء عملها على بعد قدمٍ منها. ولو ابتسمت مارغريت يوماً، ما كان لأحد أن يراها من خلال قناعها الجراحي الموجود على وجهها دائماً. كانت تفتش جميع الأواني الزجاجية بحثاً عن بقع أو لطخات، وعندما تجدها -وهذا ما يحصل غالباً- كانت تصرخ: «ميني!» بصوت عالٍ لدرجة أن ماري تنكمش على نفسها.

اتبعت ماري قواعد تعقيم مارغريت بدقة لتجنب غضبها. بعد الانتهاء من غدائها، وقبل لمس عينة هنرييتا، غطت نفسها

برداء جراحي أبيض نظيف، وقبعة جراحية، وقناع، ثم مشت إلى مقصورتها، واحدة من أربع غرف محكمة الإغلاق قام جورج ببنائها يدوياً وسط المختبر. كانت المقصورات صغيرة، خمسة أقدام فقط في أيّ اتجاه، مع أبواب مغلقة مثل المجمد لمنع الهواء الملوث من الدخول. قامت ماري بتشغيل نظام التعقيم وراقبت من الخارج مقصورتها تمتلئ بالبخار الساخن لقتل أيّ شيء قد يلحق الضرر بالخلايا. عندما انقشع البخار، دخلت وأغلقت الباب خلفها، ثم رشّت الأرضية الإسمنتية للمقصورة بالماء ونظفت طاولة عملها بالكحول. يخضع الهواء في الداخل للفلترة ويُضَخّ من خلال فتحة تهوية في السقف. بمجرد أن قامت بتعقيم الحجرة، أشعلت موقد بنسن واستخدمت لهبه لتعقيم أنابيب الاختبار وشفرة المبضع المستعملة، لأن مختبر غاي لم يستطع تحمل تكاليف واحدة جديدة لكل عينة.

عندئذٍ فقط التقطت قطعة من عنق رحم هنريتا بالملقط في إحدى يديها، والمشرط في اليد الأخرى - وقامت بتقطيعها بعناية إلى مربعات بطول مليمتر واحد. قامت برفع كلّ مربع بالماصة، وأسقطتها واحداً تلو الآخر على خثرات دم الدجاج التي وضعتها في قاع دزينةٍ من أنابيب الاختبار. غطت كلّ خثرةٍ بعدة قطرات من وسط الزرع، وسدت الأنابيب بسدادات مطاطية، ووضعت بطاقة على كلّ أنبوب كما وضعت بطاقات على معظم المزارع التي زرعت فيها: باستخدام الحرفين الأولين من الاسمين الأول والأخير للمريض.

بعد كتابة «هيلا» اختصاراً لـ هنرييتا ولاكس، بحروف سوداء كبيرة على جانب كلّ أنبوب، حملتها ماري إلى غرفة الحاضنة التي بناها غاي بيديه تماماً كما بنى كلّ شيء آخر في المختبر، ومعظمها من بقايا ساحة الخردة، وهي مهارة تعلمها من حياةٍ تعلّم فيها صنعَ شيءٍ من لا شيء.

ولد جورج غاي عام ١٨٩٩ ونشأ على إحدى تلال بيتسبرغ التي تطل على مصنعٍ للصلب. جعل السخام المنبعث من المداخن بيت والديه الأبيض الصغير يبدو متفحماً دائماً وجعل سماء الظهيرة معتمة. عملت والدته في الحديقة ولم يكن بوسعها إطعام عائلتها سوى من الطعام الذي تزرعه. عندما كان طفلاً، حفر جورج منجم فحم صغير في التل خلف منزل والديه. كان يزحف عبر النفق الرطب كلّ صباح مع معوله، يملأ الدلاء لعائلته وجيرانه حتى يتمكنوا من الحفاظ على دفء منازلهم والنار في مواقدهم.

شقّ غاي طريقه للحصول على شهادة في علم الأحياء في جامعة بيتسبرغ أثناء العمل نجاراً وعامل بناء، وكان بمقدوره صنع أيّ شيء تقريباً بكلفة زهيدة أو بلا كلفة تقريباً. خلال سنته الثانية في كلية الطب، زوّد مجهراً بكاميرا تصوير ذات فاصل زمني لالتقاط صور الخلايا الحية في الفيلم. لقد كان خلطة فرانكشتاينية من مزيجٍ من قطع المجاهر والزجاج ومعدات الكاميرا ١٦ مليمتر جمعها من هنا وهناك، بالإضافة إلى قصاصات معدنية ومحركات قديمة من ساحة شابيرو للخردة. قام بتركيبه في حفرة فجّرها

في أساسات مستشفى هوبكنز، أسفل المشرحة مباشرة، وجعل قاعدته بالكامل تحت الأرض محاطةً بجدار سميك من الفلين لمنعه من الاهتزاز عند مرور العربات في الشارع. في الليل، ينام مساعد مختبر ليتواني بجانب الكاميرا على سرير نقال، ويستمع إلى دقّاتها الثابتة، ويتأكد من بقائها مستقرّة طوال الليل، ويستيقظ كلّ ساعة لإعادة ضبطها. من خلال تلك الكاميرا، صور غاي ومعلمه، وارن لويس، نمو الخلايا، وهي عملية بطيئة للغاية -مثل نمو زهرة- ولا يمكن للعين المجردة رؤيتها. قاموا بتشغيل الفيلم بسرعة عالية حتى يتمكنوا من مشاهدة انقسام الخلايا على الشاشة بحركة واحدة متسقة، مثل قصةٍ تتكشف في صفحات كتاب.

استغرق غاي ثماني سنوات للتخرج في كلية الطب لأنه استمر في الانقطاع عن الدراسة من أجل العمل في البناء وتوفير الرسوم الدراسية لعام آخر. بعد تخرجه، قام هو ومارغريت ببناء أول مختبر لهما في جناح البواب في هوبكنز - حيث أمضيا أسابيع في توصيل الأسلاك والرسم والسباكة وصنع الطاولات والخزائن ودفع الكثير من التكلفة من أموالهما الخاصة.

كانت مارغريت حذرة ومستقرة، والأساس المتين الذي قام عليه المختبر. في حين كان جورج طفلاً ضخماً ومزعجاً. في العمل كان أنيقاً، لكن في المنزل كان يمضي وقته مرتدياً فانيلا وبنطال بحمّالات. كان ينقل الصخور حول فناء منزله في عطلات نهاية الأسبوع، ويأكل اثني عشر كوزاً من الذرة في جلسة واحدة، ويبقي

البراميل مليئة بالمحار في مرآبه حتى يتمكن من تقشيرها وأكلها في أيّ وقت يريد. كان لديه جسم لاعب خط وسط متقاعد، طوله ستة أقدام وأربعة بوصات ويزن ٢١٥ رطلاً، وظهره متصلب بشكل غير طبيعي وكأن عموده الفقري ملتحم فلا يسعه حنيه. عندما انفجر مصنعه لصنع النبيذ في الطابق السفلي يوم الأحد، وأرسل فيضاناً من الخمر المتلألئ عبر مرآبه إلى الشارع، جرف غاي النبيذ نحو مصرف مياه الأمطار ملوحاً لجيرانه وهم في طريقهم إلى الكنيسة.

كان غاي متهوراً خيالياً وعفوياً، وسريعاً في بدء العشرات من المشاريع في وقت واحد، وملء المختبر والقبو في المنزل بآلات نصف مصنوعة، واكتشافات جزئية، وأكوام من بقايا ساحة الخردة لا أحد غيره يمكنه تخيل استخدامها في المختبر. كلما خطرت في باله فكرة، يجلس أينما كان -على مكتبه أو طاولة المطبخ أو الحانة أو خلف عجلة سيارته- مع سيجاره الدائم يرسم خربشات على المناديل أو خلف ملصقات الزجاجات الممزقة. وعلى هذا النحو جاء بفكرة تقنية الزراعة بالأنبوب الدوّار، اختراعه الأكثر أهمية.

ويتضمن أسطوانة خشبية كبيرة فيها ثقوب لوضع أنابيب اختبار خاصة تسمى أنابيب دوّارة. تحولت الأسطوانة، التي أطلق عليها غاي اسم «الدوامة» إلى ما يشبه خلاط الأسمنت لمدة ٢٤ ساعة في اليوم، وتدور ببطء شديد لدرجة أنها لا تنجز سوى دورتين كاملتين في الساعة، وأحياناً أقل. بالنسبة لـ غاي، كان الدوران مهماً، إذ اعتقد أن وسط الزرع يجب أن يكون في حركة

مستمرة، مثل الدم والسوائل في الجسم والتي تتدفق حول الخلايا وتنقل النفايات والعناصر الغذائية.

عندما انتهت ماري أخيراً من قطع عينات نسيج عنق رحم هنرييتا وإسقاطها في عشرات الأنابيب الدوارة، دخلت إلى غرفة الحاضنة، ووضعت الأنابيب واحداً تلو الآخر في ثقوب الأسطوانة، وشغّلتها. ثم راقبت آلة غاي وهي تتمايل ببطء.

أمضت هنرييتا اليومين التاليين في المستشفى لتتعافى من أول علاج لها بالراديوم. فحصها الأطباء من الداخل والخارج، وضغطوا على بطنها، وأدخلوا قسطرة جديدة في مثانتها، وأصابعهم في مهبلها وشرجها، وإبراً في عروقها. كتبوا ملاحظات في ملفها تقول: «أنثى ملونة تبلغ من العمر ٣٠ عاماً مستلقية بهدوء دون أيّ ضائقة واضحة»، و«تشعر المريضة بأنها بخير الليلة. الروح المعنوية جيدة وهي مستعدة للعودة إلى المنزل».

قبل أن تغادر هنرييتا المستشفى، وضع طبيب قدميها على مسندي القدمين على طاولة الفحص مرة أخرى وأزال الراديوم. أرسلها إلى المنزل مع تعليمات للاتصال بالعيادة إذا عانت من أيّ مشاكل، والعودة من أجل جرعة ثانية من الراديوم بعد أسبوعين ونصف.

في غضون ذلك، في كلّ صباح وبعد وضع خلايا هنرييتا في وسط الزرع، تبدأ ماري يومها مع روتين التعقيم المعتاد. تنظر إلى الأنابيب، وتضحك قائلةً لنفسها أن لا شيء يحدث. مفاجأة كبيرة.

ثم، بعد يومين من عودة هنرييتا إلى المنزل من المستشفى، رأت ماري ما يشبه حلقات صغيرة من بياض البيض المقلي حول الخثرات في قاع كلّ أنبوب. كانت الخلايا تنمو، لكن ماري لم تول الأمر أهمية فقد نجت خلايا أخرى لفترة في المختبر.

لكن خلايا هنرييتا لم تعش لفترة وجيزة فحسب بل راحت تنمو بكثافة أسطورية. ففي صباح اليوم التالي كان عددها قد تضاعف. قسمت ماري محتويات كلّ أنبوب إلى أنبوبين، مما منحها مساحة للنمو، وفي غضون أربع وعشرين ساعة، تضاعفت مرة أخرى. فعادت لتقسمها إلى أربعة أنابيب، ثم ستة. كبرت خلايا هنرييتا لتملأ كلّ المساحة التي منحتها إياها ماري.

ومع ذلك، لم يكن غاي مستعداً للاحتفال بعد. قال لـ ماري: «ربما تموت الخلايا في أيّ لحظة».

لكنها لم تمت بل استمرت في النمو على نحو لم يعرفه أيّ شخص، وتضاعفت أعدادها كلّ أربع وعشرين ساعة، وتكدس المئات فوق المئات، وتراكمت بالملايين. «إنها تنتشر مثل العشب!» قالت مارغريت. لقد نمت أسرع بعشرين مرة من خلايا هنرييتا الطبيعية والتي ماتت بعد أيام قليلة فقط من وضع ماري لها في وسط الزرع. طالما كان لديها الطعام والدفء، بدا أن خلايا هنرييتا السرطانية لا يمكن وقفها عن النمو.

وسرعان ما أخبر جورج بعضاً من أقرب زملائه أنه اعتقد أن مختبره قد نجح في زرع أول خلايا بشرية خالدة.

فردّوا عليه بالقول: «هل يمكننا الحصول على بعضها؟»، ووافق جورج.

(١٩٥١)

(٥)

«السواد ينتشر في الداخل»

لم تعرف هنرييتا شيئاً عن زرع خلاياها في المختبر وبعد أن غادرت المستشفى، عادت إلى الحياة كالمعتاد. لم تحبّ المدينة أبداً، لذلك في كلّ عطلة نهاية أسبوع تقريباً كانت تأخذ الأطفال إلى كلوفر، حيث تعمل في حقول التبغ وتقضي ساعات في خضّ الزبدة على سلالم المنزل. وعلى الرغم من أن الراديوم غالباً ما يسبب غثياناً وإقياءً ووهناً وفقراً في الدم، فإنه لا يوجد في سجل هنرييتا ما يشير إلى أنها عانت من أيّ آثار جانبية، ولا يذكر أحد أنها شكت من آلام المرض.

عندما لم تكن في كلوفر، أمضت هنرييتا وقتها في الطبخ لزوجها داي والأطفال ومن جاء لزيارتهم من أبناء عمومها. حضرت لها وصفتها الشهيرة لـ بودنغ الأرز والخضروات المطبوخة ببطء، والشيتلين وأطباق السباغيتي مع كرات اللحم، واستمرت في الذهاب إلى الموقد كلما زارها أبناء العم جياعاً. عندما لم يكن داي يعمل في النوبة الليلي، قضى أمسياته مع هنرييتا في المنزل يلعبان الورق ويستمعان إلى بيني سميث يعزف البلوز على الغيتار عبر

الراديو بعد نوم الأطفال. في الليالي التي عمل فيها داي، كانت هنرييتا وسادي ينتظران حتى يغلق الباب، ويعدان إلى المئة، ثم تقفزان من السرير، وترتديان ملابس الرقص، وتتسللان خارج المنزل، مع الحرص على عدم إيقاظ الأطفال. وبمجرد أن تخرجا، كانتا تهزان أوراكهما وتصرخان، ثم تنطلقان عبر الشارع إلى حلبات الرقص في حانة آدامز وتوين باينز.

أخبرتني سادي بعد سنوات: «كنا نرقص بانفعال شديد. لم نستطع منع أنفسنا. لقد عزفوا الموسيقى التي عندما تسمعينها تشعرين أن روحك باتت جزءاً من إيقاعها. ما أن تطأ أقدامنا على حلبة الرقص حتى نبدأ بالاهتزاز مع موسيقى البلوز، ثم قد يضع شخص ما عملة معدنية في صندوق الموسيقى ويختار أغنية هادئة، وعندئذٍ أقسم لكِ بأننا كنا نرقص وندور وكل شيء من هذا القبيل!» وضحكت مثل مراهقة صغيرة. «كانت أوقاتاً جميلة». وكن نساء جميلات.

كان لدى هنرييتا عينان جوزيتان وأسنان بيضاء مستقيمة وشفاه ممتلئة. كانت امرأة قوية مع فك مربع ووركين ممتلئين وساقين قصيرتين مشدودتين ويدين خشنتين بسبب العمل في حقول التبغ والمطابخ. أبقت أظافرها قصيرة حتى لا تلتصق عجينة الخبز تحتها عندما تعجن، لكنها كانت تصبغها دائماً باللون الأحمر الغامق لتتناسب مع لون أظافر قدميها.

أمضت هنرييتا ساعات في العناية بتلك الأظافر، تمسك أصابعها الصغيرة بلطف وتمرر الفرشاة فوقها بطبقات جديدة من الطلاء.

كانت تجلس على سريرها، الطلاء في يدها، وشعرها مرفوع أعلى رأسها في خصلٍ مجعدة، مرتدية روبها الحريري الذي أحبته كثيراً لدرجة أنها كانت تغسله يدوياً كلّ ليلة. لم ترتدِ بنطالاً يوماً، ونادراً ما غادرت المنزل دون أن ترتدي تنورة وقميصاً مكويين بعناية، وتضع قدميها في حذائها الصغير ذي الكعب العالي المفتوح من جهة الأصابع، وترفع شعرها وتثبته في لفة صغيرة نحو الأسفل، «تماماً كما لو أنه يتراقص على وجهها».

قالت لي سادي وهي تحدق في السقف وتتحدث: «جعلت هيني الحياة بصحبتها مفعمة بالحيوية. لطالما أحبت هيني الناس. لقد كانت شخصاً يمكنه حقاً أن يخرج أفضل ما فيك».

لكن كان هناك شخص واحد لم تستطع هنرييتا إخراج أيّ خيرٍ منه. إيثل، زوجة ابن عمهم غالين، جاءت مؤخراً إلى محطة تيرنر من كلوفر، وكانت تكره هنرييتا وتغار منها حسبما قالت بنات عمها.

قالت سادي: «أعتقد أنني لا أستطيع أن ألومها. لأن غالين، زوج إيثل، كان معجباً بـ هيني أكثر من إعجابه بـ إيثل. يا إلهي، لقد تبع هيني! يذهب إلى كلّ مكان تذهب إليه - وحاول البقاء في منزل هيني طوال الوقت عندما يغادر داي إلى العمل. يا إلهي، شعرت إيثل بالغيرة مما جعلها تكره هيني كرهاً شديداً. لطالما بدت وكأنها تريد إيذاء هيني». لذا كانت هنرييتا وسادي تضحكان وتنسحبان من الباب الخلفي إلى نادٍ آخر في أيّ وقت تظهر فيه إيثل.

عندما لم يتسللن للخارج، أمضت هنرييتا وسادي وأخت سادي مارغريت أمسياتهن في غرفة المعيشة في منزل هنرييتا، ولعبن البينغو ويتبادلن الصراخ والضحكات على مبلغٍ من البنسات بينما كان أطفال هنرييتا (ديفيد جونيور وديبورا وجو) يلعبون بقطع البينغو على السجادة تحت الطاولة. كان لورانس في السادسة عشر تقريباً، لذا كان يمضي الوقت في الخارج وله حياته الخاصة. ولم يغب عن تلك الأمسيات سوى ابنة هنرييتا الكبرى، إلسي.

قبل أن تمرض هنرييتا أخذت إلسي إلى كلوفر في كلّ مرة تذهب فيها إلى هناك. كانت إلسي تجلس على منحدر المنزل، وتحدق في التلال وتشاهد شروق الشمس بينما تعمل هنرييتا في الحديقة. كانت جميلة وحساسة وأنثوية مثل هنرييتا التي ألبستها ملابس منزلية الصنع مزينة بشرائط وأمضت ساعات في تجديل شعرها البني الطويل. لم تتحدث إلسي أبداً، بل كانت تزقزق مثل العصافير وهي تلوح بيديها على بعد بوصات من وجهها. كان لديها عينان كستنائيتان واسعتان حدق بها الجميع في محاولة لفهم ما يدور في ذلك الرأس الجميل. لكنها تكتفي بالتحديق بهم أيضاً، دون أن ترمش، وعيناها مسكونتان بالخوف والحزن الذي لم يهدأ إلا عندما تضمها هنرييتا وتهدهدها.

وفي بعض الأحيان، كانت إلسي تجري في الحقول وتطارد الديوك الرومية البرية أو تمسك بغل العائلة من ذيله وتضربه حتى يسحبها لورانس بعيداً عنه. ابن عم هنرييتا (بيتر) كان دائماً يقول إن الله يحمي تلك الطفلة منذ لحظة ولادتها لأن ذلك البغل لم يؤذها قط فقد كان

لئيماً جداً عندما يقفز في الهواء مثل كلب مسعور ويركل بساقيه الريح، لكن يبدو أنه عرف أن إلسي طفلة مميزة. ومع ذلك، كانت تقع كثيراً وتصطدم بالجدران والأبواب وتحرق نفسها بموقد الحطب. جعلت هنرييتا داي يصحبها بسيارته هي وإلسي إلى اجتماعات دينية حتى يتمكن الوعاظ في الخيام من وضع أيديهم على إلسي لشفائها، لكن هذا لم ينجح قطّ. وفي محطة تيرنر، كانت إلسي في بعض الأحيان تخرج من المنزل وتركض عبر الشارع وتصرخ.

بحلول الوقت الذي حملت فيه هنرييتا بالطفل جو، صارت إلسي كبيرة جداً ولم تتمكن هنرييتا من التعامل معها بمفردها، خاصة بوجود الطفلين. قال الأطباء إن إرسال إلسي إلى مصح للرعاية كان الحل الأفضل. فعاشت على بعد حوالي ساعة ونصف جنوب بالتيمور، في مستشفى كراونزفيل - المعروف سابقاً باسم مستشفى الزنوج للأمراض العقلية.

قال أبناء عموم هنرييتا دائماً إن جزءاً من هنرييتا مات في اليوم الذي أبعدوا فيه إلسي، وإن فقدانها كان أسوأ من أيّ شيء آخر حدث لها. وبعد ما يقرب من عام، كان هنرييتا مواظبة على الذهاب مع داي أو ابن عم من محطة تيرنر إلى كراونزفيل مرة واحدة في الأسبوع للجلوس مع إلسي التي كانت تبكي وتتشبث بها بينما يلعبان بشعر بعضهما البعض.

كان لدى هنرييتا طريقتها في التعامل مع الأطفال، وكانوا دائماً مهذبين وهادئين بوجودها. ولكن كلما غادرت المنزل، يصبح

لورانس مشاغباً جداً. إذا كان الطقس لطيفاً، فإنه يسرع إلى الرصيف البحري القديم في محطة تيرنر، حيث منعته هنرييتا من الذهاب. كان الرصيف البحري قد احترق قبل سنوات، تاركاً ركائز خشبية طويلة أحب لورانس وأصدقائه الغوص منها. كاد أحد أبناء سادي يغرق هناك عندما ضرب رأسه على صخرة، وكان لورانس دائماً يعود إلى المنزل مصاباً بالتهاب في عينيه بسبب تلوث المياه بمخلفات مصنع سباروز بوينت. وكل مرة تسمع هنرييتا بأن لورانس على الرصيف، كانت تندفع إلى هناك وتخرجه من الماء وتضربه بالسوط.

قالت سادي ذات مرة: «أوه يا إلهي، لقد ذهبت هيني إلى هناك مع قضيب معدني. ليرحمنا الربّ. لقد عبرت عن غضبها على نحو لم أره من قبل». وتلك من المرّات النادرة التي يتذكّر فيها أحد رؤية هنرييتا غاضبة. قالت سادي: «كانت حازمة. لم تخف هيني من أيّ شيء».

لمدة شهر ونصف، لم يكن أحد في محطة تيرنر يعرف أن هنرييتا مريضة. وكان من السهل إخفاء إصابتها بالسرطان لأنها اضطرت للعودة إلى هوبكنز مرة واحدة لإجراء الفحص والجرعة الثانية من العلاج بالراديوم. في تلك المرحلة، أُعجِب الأطباء بما وجدوه، إذ كان عنق الرحم أحمر قليلاً وملتهباً من العلاج الأول، لكن الورم تقلص. بغض النظر عن هذا، كان عليها أن تبدأ العلاج بالأشعة السينية، مما يعني زيارة هوبكنز كلّ يوم من أيام الأسبوع لمدة شهر. فاحتاجت هنرييتا إلى المساعدة، حيث كانت تعيش على بعد عشرين

دقيقة من هوبكنز، ويعمل داي في المناوبات الليلية لذلك لم يتمكن من أخذها إلى المنزل بعد العلاج بالأشعة حتى وقت متأخر. أرادت المشي إلى منزل ابنة عمها مارغريت الذي يقع على بعد بضع بنايات من هوبكنز وانتظار داي هناك بعد علاجها. لكن عليها أولاً أن تخبر مارغريت وسادي أنها مريضة.

أخبرت هنرييتا بنتي عمها عن إصابتها بالسرطان أثناء حضور كرنفال يزور محطة تيرنر كلّ عام. صعدن ثلاثتهن إلى دولاب الملاهي كالمعتاد، وانتظرت هنرييتا حتى وصلت مقصورتهن إلى أعلى مستوى يمكنهن منهم رؤيته ما بعد مصنع سباروز بوينت باتجاه المحيط، حتى توقف دولاب الملاهي وكن يركلن أرجلهن ذهاباً وإياباً ويتأرجحن في هواء الربيع المنعش.

«هل تذكران عندما قلت إن لدي كتلة في داخلي؟» سألت هنرييتا. أومأت كلّ منهما برأسها إيجاباً. قالت هنرييتا: «حسناً، أنا مصابة بالسرطان. كنت أتلقى علاجاً في جون هوبكنز».

«ماذا؟» قالت سادي، وهي تنظر إلى هنرييتا وتشعر بالدوار فجأة كما لو كانت على وشك الانزلاق من مقعد دولاب الملاهي.

قالت هنرييتا: «إنه شيء بسيط. أنا بخير».

وبدت عندئذٍ وكأنها على حق. فقد اختفى الورم تماماً بفضل العلاج بالراديوم. بقدر ما استطاع الأطباء أن يروا، عاد عنق الرحم هنرييتا طبيعياً مرة أخرى، ولم يشعروا بوجود أيّ ورم في أيّ مكان

آخر. كان أطبائها على يقين من شفائها لدرجة أنهم أثناء وجودها في المستشفى لعلاج الراديوم الثاني، أجروا عملية ترميم لأنفها، وعالجوا الحاجز المنحرف الذي سبب لها التهاب الجيوب الأنفية والصداع طوال حياتها. بدا الأمر أشبه ببداية جديدة. وتابعوا العلاج الإشعاعي فقط للتأكد من عدم وجود خلايا سرطانية في أيّ مكان داخلها.

ولكن بعد حوالي أسبوعين من العلاج الثاني بالراديوم، بدأت الدورة الشهرية عند هنرييتا وكان الدم المتدفق غزيراً ومستمراً. في ٢٠ مارس كان النزيف مستمراً منذ أسابيع، عندما بدأ داي في أخذها كلّ صباح إلى هوبكنز لتلقي العلاجات الإشعاعية. كانت تخلع ملابسها وتلبس الرداء الجراحي، ثم تستلقي على طاولة الفحص وثمة آلة ضخمة مثبتة على الجدار فوقها، وكان الطبيب يضع شرائط من الرصاص داخل مهبلها لحماية القولون وأسفل عمودها الفقري من الإشعاع. في اليوم الأول قام بوشم نقطتين باللون الأسود بحبر مؤقت على جانبي بطنها مباشرةً فوق رحمها. وهاتان النقطتان تمثلان هدفين حتى يتمكن من توجيه الإشعاع إلى نفس المنطقة كلّ يوم، ولكن بالتناوب بين البقع لتجنب حرق جلدها كثيراً في مكان واحد.

وبعد انتهاء كلّ علاج، تعود هنرييتا لارتداء ملابسها وتمشي مسافةَ بضعة مربعات سكنية إلى منزل مارغريت، حيث كانت تنتظر داي لاصطحابها حوالي منتصف الليل. طوال الأسبوع الأول أو نحو ذلك، كانت تجلس مع مارغريت على الشرفة تلعبان الورق

أو البينغو وتتحدثان عن الرجال وأبناء العم والأطفال. في تلك المرحلة، بدا الإشعاع مجرد شيء مزعج. لقد توقف نزيف هنرييتا، وربما شعرت بالإعياء بسبب العلاج، لكنها لم تذكر ذلك قط.

بيدَ أنّ الأمور لم تكن على خير ما يرام. قرب نهاية علاجاتها، سألت هنرييتا طبيبها متى ستكون بحالٍ أفضل حتى تتمكن من إنجاب طفل آخر. لم تكن هنرييتا تعرف حتى تلك اللحظة، أن العلاجات سببت لها العقم.

إنّ تحذير المرضى من فقدان الخصوبة قبل البدء بعلاج السرطان كان أمراً معتاداً في هوبكنز، وإجراء يقول هوارد جونز أنه وتيليندي مارساه مع كلّ مريضة. في الواقع، قبل عام ونصف من مجيء هنرييتا إلى هوبكنز للعلاج، كتب تيليندي في بحث عن استئصال الرحم:

> إنّ التأثير النفسي لاستئصال الرحم لا يستهان به وخاصة عند الشابات، ولا ينبغي أن ينفّذ دون تفهّمٍ شامل من جانب المريضة [التي] يحق لها الحصول على تفسير بسيط للحقائق [بما في ذلك] فقدان الوظيفة الإنجابية. من المستحسن عرض الحقائق على المريضة في مثل هذه الحالة وإعطائها وقتاً كافياً لفهمها... من الأفضل أن تُهيء نفسها للأمر قبل العملية بدلاً من أن تستيقظ من المخدر وتجده أمراً واقعاً.

في حالة هنرييتا، حدث خطأ ما: في السجل الطبي لـ هنرييتا، كتب أحد أطبائها: «أُبلِغت المريضة أنه لا يمكنها إنجاب المزيد من

الأطفال. وردّت بأنه لو قيل لها ذلك من قبل، لما خضعت للعلاج». ولكن حين اكتشفت الأمر، كان قد فات الأوان.

ثم، بعد ثلاثة أسابيع من بدء العلاج بالأشعة السينية، بدأت تشعر بأنها تحترق من الداخل، وخرج بولها وكأنه زجاج مكسور. قال داي إنه كان يعاني من إفرازات غريبة، ولا بدّ أنها نقلت له ذلك المرض الذي استمرت في الذهاب إلى هوبكنز لعلاجه.

كتب جونز في سجلّ هنرييتا بعد فحصها: «أفضل أن أتخيل أنّ العكس هو الصحيح. ولكن على أيّ حال، هذه المريضة تعاني الآن من السيلان الحاد متداخل مع التفاعل الإشعاعي».

ولكن سرعان ما باتت خيانات داي آخر ما يثير قلق هنرييتا. تلك الرحلة القصيرة إلى بيت مارغريت صارت تسبب لها الإرهاق شيئاً فشيئاً، وكُلّ ما رغبت به هنرييتا عندما تصلْ إلى هناك كَانَ النومَ. وكادت في أحد الأيام أن تنهار على بعد بضعة شوارع من مستشفى هوبكنز، واستغرق الأمر منها ما يقرب من ساعة لتصل إلى بيت مارغريت. ومن ذلك اليوم صارت تستقل سيارات الأجرة.

بعد ظهر أحد الأيام، بينما كانت هنرييتا مستلقية على الأريكة، رفعت قميصها كي ترى مارغريت وسادي ما فعلته العلاجات بها. صرخت سادي: الجلد من صدر هنرييتا إلى حوضها كان متفحماً ولونه أسود غامق بسبب الإشعاع. كان باقي جسدها بلونه البني الطبيعي.

همسَت: «هيني، لقد أحرقوا جسدك وبات أسود مثل القطران».

أومأت هنرييتا برأسها وقالت: «يا ربّ، أشعر وكأن ذلك السواد ينتشر في داخلي».

(١٩٩٩)

(٦)

«السيدة على الهاتف»

بعد أحد عشر عاماً من معرفة قصة هنرييتا في فصل الأستاذ ديفلر الدراسي، وفي يوم عيد ميلادي السابع والعشرين، عثرت في مجموعة من الأوراق العلمية على شيء بعنوان «ندوة عن مكافحة سرطان هيلا» في كلية مورهاوس للطب في أتلانتا، التي تعدّ من أقدم كليات السود تاريخياً في البلاد. نظمت الندوة على شرف هنرييتا من قبل رولاند باتيلو، أستاذ أمراض النساء في مورهاوس الذي كان من بين الطلاب الأمريكيين الأفارقة الوحيدين لدى جورج غاي.

عندما اتصلت بـ رولاند باتيلو لأرى ما يعرفه عن هنرييتا أخبرته أنني أكتب كتاباً عنها.

«حقاً؟» قال، ضاحكاً ضحكةً متراخية ساخرة وكأنه يقول لي: أيتها الطفلة، ليس لديك أدنى فكرة عما أقحمت نفسك فيه. «لن تقبل عائلة هنرييتا بالحديث معك. لقد مروا بوقت عصيب بسبب خلايا هيلا».

«أتعرف عائلتها؟» قلت. «هلّا ساعدتني بالتواصل معهم؟».

«يمكنني مساعدتك على التواصل معهم، ولكن عليك الإجابة على بعض الأسئلة أولاً، بدءاً بالسؤال: «لماذا أفعل؟»».

وعلى مدار ساعة كاملة ظلّ باتيلو يستجوبني لكشف نواياي. وعندما أخبرته عن تاريخ هوسي بحكاية هيلا، تذمّر وتنهّد، وخرجت منه همهمات وتمتمات.مكتبة .. سُر مَن قرأ

وفي النهاية قال: «صححي لي إن كنت مخطئاً، ألست بيضاء؟».

قلتُ: «هل يبدو ذلك واضحاً؟».

قال «نعم. ماذا تعرفين عن الأمريكيين الأفارقة والعلوم؟»

أخبرته عن تجربة توسكيجي للزهري كما لو كنت أقدم تقريراً شفهياً في فصل التاريخ: بدأت في الثلاثينيات، عندما قرر باحثو دائرة الصحة العامة الأمريكية في معهد توسكيجي دراسة كيف يسبب مرض الزهري الموت، بدءاً من العدوى إلى الموت. فقد جنّدوا المئات من الرجال الأميركيين من أصل أفريقي المصابين بمرض الزهري، ثم راقبوهم يموتون ببطء وألمٍ رغم قدرتهم على منع ذلك وحتى بعد أن أدركوا أن البنسلين قادرٌ على علاجهم. لم يطرح الخاضعون للدراسة أيّ أسئلة. كانوا فقراء وغير متعلمين، وقدم لهم الباحثون حوافز: فحوصات بدنية مجانية، ووجبات ساخنة، ورحلات إلى المدينة في أيام العيادة، بالإضافة إلى مكافآت دفن قدرها خمسين دولاراً لعائلاتهم عند وفاة الرجال. اختار الباحثون

أشخاصاً من السود عيناتٍ لدراستهم لأنهم، مثل العديد من البيض في ذلك الوقت، كانوا يعتقدون أن السود هم «عرق مشهور بمرض الزهري».

لم يعرف الناس بشأن تجربة توسكيجي حتى السبعينيات، بعد أن توفي مئات الرجال المسجلين فيها بالفعل. انتشرت الأخبار مثل الجدري في المجتمعات السوداء: كان الأطباء يقومون بأبحاث على السود، ويكذبون عليهم، ويراقبونهم يموتون. بدأت الشائعات تنتشر بأن الأطباء حقنوا الرجال بالزهري من أجل دراستهم.

«وماذا بعد؟» دمدم باتيلو.

أخبرته أنني سمعت عما يسمى عمليات استئصال الزائدة الدودية في المسيسيبي، وعمليات استئصال الرحم غير الضرورية التي أجريت على النساء السود الفقيرات لمنعهن من الإنجاب، ولإعطاء الأطباء الشباب فرصة للتدريب على إجراء هذه العملية. قرأت أيضا عن نقص التمويل لبحوث فقر الدم المنجلي، وهو مرض أثّر على السود بشكل حصري تقريباً.

قال: «جاء اتصالك بي في لحظة غريبة. كنت أعمل على تنظيم مؤتمر هيلا القادم، وعندما رن جرس الهاتف، جلست خلف مكتبي وكتبت «هنرييتا لاكس» على شاشة حاسوبي». ضحكنا كلانا. وقلنا لا بد أنها علامة؛ ربما أرادتنا هنرييتا أن نتحدث.

وقال: «في الواقع إن ديبورا ابنة هنرييتا. تناديها العائلة باسم

دايل. عمرها يقارب الخمسين الآن، لا تزال تعيش في بالتيمور مع أحفادها. وزوج هنرييتا لا يزال على قيد الحياة. عمره حوالي أربعة وثمانين عاماً ولا يزال يزور عيادات مستشفى جونز هوبكنز». قال ذلك نوعاً من المضايقة.

«هل تعلمين أن هنرييتا كان لديها ابنة مصابة بالصرع؟» سأل باتيلو.

قلتُ: «لا».

قال: «توفيت في سن الخامسة عشرة، بعد وقت قصير من وفاة هنرييتا. ديبورا الابنة الوحيدة المتبقية. وقد عانت مؤخراً سكتة دماغية بسبب المعاناة التي مرت بها فيما يتعلق بالتحقيقات في وفاة والدتها وتلك الخلايا. لن أكون طرفاً من أيّ جهة تفعل ذلك بها مرة أخرى».

حاولت أن أقول شيئاً، لكنه قاطعني.

قال فجأة: «عليّ الذهاب لرؤية المرضى الآن. لست مستعداً لجعلك على اتصال بالعائلة بعد. لكن أعتقد أنك صادقة بشأن نواياك. سنتحدث مرة أخرى بعد أن أفكر بالأمر. عاودي الاتصال بي غداً».

بعد ثلاثة أيام متتالية من الاستجواب القاسي، قرر باتيلو أخيراً إعطائي رقم هاتف ديبورا. ولكن أولاً، قال، كان هناك بعض الأمور التي أحتاج إلى معرفتها. أخفض صوته وذكر قائمة من

الأشياء المسموحة والممنوعة التي يجب الالتزام بها عند التعامل مع ديبورا لاكس: لا تكوني عدوانية. كوني صادقة. لا تكوني رسمية، لا تحاولي إجبارها على أيّ شيء، لا تتحدثي إليها باستخفاف، إنها تكره ذلك. كوني متعاطفة، ولا تنسي أنها مرت بالكثير بسبب هذه الخلايا، فتحلي بالصبر. قال لي: «ستحتاجين إلى ذلك أكثر من أيّ شيء آخر».

بعد لحظات من إنهاء الاتصال مع باتيلو، حملتُ قائمة المسموح والممنوع في يدي، واتصلت برقم ديبورا، ثم شعرت بالهلع عند سماع رنين هاتفها. عندما همسَت مرحباً، صرختُ: «أنا متحمسة جداً لأنك أجبت لأنني كنت أرغب في التحدث إليك منذ سنوات! أنا أكتب كتاباً عن والدتك!».

«هاه؟» قالت.

لم أكن أعرف أن ديبورا كانت صماء تقريباً - فقد اعتمدت بشكل كبير على قراءة الشفاه ولم تتمكن من فهم كلام أيّ شخص يتحدث بسرعة.

أخذتُ نفساً عميقاً وحاولت مرة أخرى، وأجبرت نفسي على توضيح لفظ كلّ كلمة.

قلتُ: «مرحباً، اسمي ريبيكا».

قالت بصوتٍ متعب ولكن دافئ: «كيف حالك؟».

قلتُ: «أنا متحمسة للغاية للتحدث معك».

قالت: «هممم»، كما لو أنها سمعت هذه الجملة عدة مرات من قبل.

أخبرتها مرة أخرى أنني أريد أن أكتب كتاباً عن والدتها وقلت إنني متفاجئة لأنه لا يبدو أن أحد يعرف أيّ شيء عنها، على الرغم من أن خلاياها كانت مهمة جداً للعلم.

صمتت ديبورا لبرهة طويلة، ثم صرخت: «هذا صحيح!» ضحكت وبدأت تتحدث وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات. «كل شيء يتعلق بالخلايا فقط ولا أحد يهتم بشأن اسمها حتى وأن هيلا كانت شخصاً. هللويا! أعتقد أن فكرة نشر كتاب ستكون رائعةً!».

لم يكن هذا ما توقعته.

كنت أخشى أن أقول أيّ شيء قد يجعلها تتوقف عن الكلام، لذلك قلت ببساطة: «عظيم». وكانت تلك آخر كلمة قلتها حتى نهاية مكالمتنا. لم أسأل سؤالاً واحداً بل دونت الملاحظات بأسرع ما يمكنني.

حشدت ديبورا حياةً كاملةً من المعلومات إلى خمسة وأربعين دقيقة من الهوس والارتباك وقفزت دون سابق إنذار، وبلا ترتيب معين، من عشرينيات إلى تسعينيات القرن الماضي، من قصص والدها إلى جدها وأبناء عمومتها وأمها والغرباء.

قالت لي: «لم يقل أحد شيئاً أبداً. أعني، أين ملابس أمي؟ أين أحذية أمي؟ علمت بشأن خاتمها وساعة يدها، لكنها سرقت.

حدث ذلك بعد أن قتل أخي ذلك الولد». تحدثت عن رجل لم تذكر اسمه، قائلة: «لم أعتقد أن من المناسب قيامه بسرقة السجل الطبي لوالدتي وأوراق تشريح الجثة. وضعوه في السجن لمدة خمسة عشر عاماً في ألاباما. واليوم يقول إن جون هوبكن قتلوا والدتي وقام الأطباء البيض بإجراء التجارب عليها لأنها سوداء».

تابعت الحديث قائلة: «لقد انهارت أعصابي. لم أستطع تحمل هذا. عادت قدرتي على الكلام بشكل أفضل قليلاً - لقد أصبت بسكتين دماغيتين تقريباً في غضون أسبوعين بسبب كلّ هذه الأشياء التي أُثيرت حول خلايا أمي».

ثم فجأة راحت تتحدث عن تاريخ عائلتها، وذكرت شيئاً عن «مستشفى المجانين الزنوج» وأن جد والدتها كان مالكاً للعبيد. «كلنا مختلطون. وتحولت إحدى شقيقات والدتي إلى بورتوريكية.

وردّدَت مراراً: «لا يمكنني تحمل الأمر بعد الآن» و«بمن يجب أن نثق الآن؟» أخبرتني بتأكيد شديد أنها تريد أن تعرف كلّ شيء عن والدتها وما الذي فعلته خلاياها من أجل العلم. قالت إن الناس يعدونها بتقديم المعلومات منذ عقود ولم يفعلوا أبداً. قالت: «لقد سئمت من وعودهم. هل تعلمين ما أريده حقاً؟ أريد أن أعرف كيف كانت رائحة أمي؟ لم أعرف عنها شيئاً طوال حياتي، ولا حتى الأشياء الصغيرة الشائعة، مثل اللون الذي تفضله؟ هل أحبت الرقص؟ هل أرضعتني من صدرها؟ يا إلهي. أودّ أعرف كلّ شيء. لكن لا أحد يقول شيئاً».

ضحكَت وقالت: «أؤكد لك أن القصة لم تنته بعد. لقد اخترتِ مهمة شاقة يا فتاة. إنك تخوضين غمار قضيةٍ تكفي لثلاثة كتب!».

ثم دخل شخصٌ ما من باب منزلها الأمامي فصرخت ديبورا مباشرة في سماعة الهاتف: «صباح الخير! هل وصل البريد؟» بدت مذعورة وهي تطرح هذا السؤال. «يا إلهي. لا! البريد؟!».

ثم قالت: «حسناً، آنسة ريبيكا. عليّ أن أذهب. عديني أن تتصلي بي يوم الإثنين؟ حسناً، عزيزتي. في رعاية الله. إلى اللقاء».

أغلقَت الخطّ وجلستُ مذهولةً، السماعة محشورة بين عنقي وكتفي، أدوّن بشكل محموم ملاحظات لم أفهمها، الأخ = جريمة قتل، البريد = سيء، سرق رجل سجلات هنريتا الطبية، ومستشفى مجانين للزنوج؟

عندما عاودت الاتصال بـ ديبورا كما وعدتها بدت شخصاً مختلفاً. كان صوتها رتيباً ومكتئباً وتائهاً كما لو أنها مخدرة بشدة.

«لا مقابلات»، تمتمَت بصوتٍ مشتتٍ تقريباً. «لا تقتربي مني. إخوتي يقولون إن عليّ أن أكتب الكتاب بنفسي. لكنني لست كاتبة! أنا آسفة».

حاولت أن أقول شيئاً، لكنها أنهت الاتصال قائلةً: «لا أستطيع التحدث معك بعد الآن. الشيء الوحيد الذي يمكنك فعله هو إقناع الرجال». وأعطتني ثلاثة أرقام هواتف، لوالدها وأخيها الأكبر لورانس، وجهاز نداء أخيها ديفيد الابن. قالت: «الجميع

ينادونه سوني»، ثم أغلقت الخط. ولم أسمع صوتها مرة أخرى لمدة عام تقريباً.

رحت أتصل بـ ديبورا وإخوتها ووالدها يومياً، لكنهم لم يجيبوا. أخيراً، وبعد عدة أيام من ترك الرسائل، أجاب شخص ما في منزل داي: صبي صغير لم يقل مرحباً حتى بل سمعت فقط صوت أنفاسه في السماعة وصوت موسيقى الهيب هوب يصدح في الأرجاء.

عندما سألت عن ديفيد، قال الصبي: «نعم»، وألقى سماعة الهاتف.

«اذهب ونادي بابا!» صرخَ بصوتٍ عالٍ ثم حلّ صمتٌ طويل. «إنّه مهم. نادي بابا».

وما من رد.

«السيدة على الهاتف»، صرخ، «هيا....».

تنفس الصبي الأول في السماعة مرة أخرى عندما التقط صبي ثانٍ سماعة الهاتف الثاني وقال مرحباً.

قلت: «مرحباً. هل يمكنني التحدث إلى ديفيد؟».

«من المتحدث؟» سأل.

قلتُ: «ريبيكا».

حرك الهاتف بعيداً عن فمه وصرخ: «نادي بابا، هناك سيدة على الهاتف بخصوص خلايا زوجته».

فهمت بعد سنوات كيف يمكن لصبي صغير أن يعرف سبب اتصالي من خلال سماع صوتي: لا يتصل البيض بـ داي إلا إذا أرادوا شيئاً يتعلق بخلايا هيلا. ولكن في ذلك الوقت شعرت بارتباك واعتقدت أنني لم أسمع جيداً.

التقطت امرأة سماعة الهاتف قائلة: «مرحباً، هل يمكنني مساعدتك؟» كان صوتها حاداً ومستعجلاً وكأنها لا تملك وقتاً لهذا.

أخبرتها أنني آمل التحدث مع ديفيد، وسألتني من المتصل. أجبت «ريبيكا» وخشيت أن تغلق الخط إذا قلت أيّ شيء آخر.

«لحظة رجاءً». تنهدَت ووضعَت سماعة الهاتف. قالت للطفل: «خذ الهاتف إلى داي. أخبره أنه تلقى مكالمة من مكان بعيد، تدعى ريبيكا وتتصل بشأن خلايا زوجته».

أمسك الطفل بالهاتف، وضغطه على أذنه، وركض إلى داي.

وساد صمت طويل.

همس الطفل: «بابا، انهض. يتصل شخص ما بشأن زوجتك».

«مَن...».

«انهض، يتصل شخص ما بشأن خلايا زوجتك».

«من؟ أين؟».

«خلايا زوجتك، على الهاتف... انهض».

«أين خلاياها؟».

قال الصبي وهو يسلم الهاتف إلى داي: «هنا».

«نعم؟».

«مرحباً، ديفيد لاكس؟».

«أجل».

أخبرته من أكون ورحت أشرح سبب اتصالي، ولكن قبل أن أتمكن من قول الكثير، أطلق تنهيدة عميقة.

«ماذا الآن»، تمتم بلهجة جنوبية عميقة، وكانت كلماته ثقيلة وكأنه أصيب بجلطة دماغية. «هل لديك خلايا زوجتي؟».

قلت: «نعم»، ظناً مني أنه يسأل عما إذا كنت أتصل بشأن خلايا زوجته.

«نعم؟» وقد صحا فجأة وصار صوته يقظاً. «لديك خلايا زوجتي؟ هل تعرف أنكِ تتحدثين معي؟».

قلت: «نعم»، ظناً مني أنه يسأل إن كانت ديبورا تعرف باتصالي.

«حسناً، دعي خلايا زوجتي العجوز تتحدث إليكِ ودعيني وشأني. لقد اكتفيت منكم». ثم أغلق الهاتف.

(١٩٥١)

(٧)

موت وحياة مزرعة الخلايا

في ١٠ أبريل ١٩٥١، بعد ثلاثة أسابيع من بدء هنرييتا العلاج الإشعاعي، ظهر جورج غاي على محطة تلفزيون WAAM في بالتيمور في برنامج مخصص لعمله. على أنغام موسيقى درامية في الخلفية، قال المذيع: «الليلة سنتعلم لماذا يعتقد العلماء أنه يمكن قهر السرطان».

وتحركت الكاميرا نحو غاي الذي جلس على مكتب أمام جدار مغطى بصور الخلايا. بدا وجهه طويلاً ووسيماً مع أنف مدبب ونظارات بلاستيكية سوداء وشارب تشارلي تشابلن. جلس متصلباً مستقيم الظهر، يرتدي بدلةً من التويد مكوية بعناية، ويضع منديلاً أبيض في جيب سترته، وشعره مصفف. انتقلت عيناه بسرعة ما بين الشاشة والكاميرا وهو ينقر بأصابعه على المكتب، ووجهه خالٍ من أيّ تعبير.

وقال بصوتٍ مرتفع ومتكلّفٍ بعض الشيء: «الخلايا الطبيعية التي تشكل أجسامنا هي أجسام صغيرة، لا يتجاوز حجم خمسة

آلاف منها رأس الدبوس. ولا يزال من غير المعروف كيف تتحول الخلايا الطبيعية إلى خلايا سرطانية».

وشرح للمشاهدين بإيجاز نظرة عامة عن بنية الخلية والسرطان باستخدام رسوم بيانية ومؤشر خشبي طويل. أظهر مقاطع للخلايا التي تتحرك عبر الشاشة، وتندفع حوافها أبعد فأبعد إلى الحيز الفارغ حولها. ثم قام بتكبير خلية سرطانية واحدة، حوافها مستديرة وسلسة حتى بدأت ترتجف وتهتز بعنف، وانقسمت إلى خمس خلايا سرطانية.

وقال في مرحلة ما: «دعوني أريكم الآن زجاجة زرعنا فيها كميات هائلة من الخلايا السرطانية». التقط زجاجة شفافة بحجم نصف لتر، مليئة على الأرجح بخلايا هنرييتا، وهزها في يديه بينما أوضح أن مختبره كان يستخدم تلك الخلايا لإيجاد طرق لوقف تطور السرطان. وقال: «من الممكن تماماً من خلال دراسات أساسية مثل هذه أن نتمكن من تعلم طريقة يمكن من خلالها إتلاف الخلايا السرطانية أو إبادتها تماماً».

وسعياً منه لتحقيق ذلك، شرع غاي في إرسال خلايا هنرييتا إلى أيّ عالمٍ ليستخدمها في أبحاث السرطان. لم يكن شحن الخلايا الحية عبر البريد معروفاً في ذلك الوقت في حين أنه باتَ شائعاً اليوم. بدلاً من ذلك، أرسلها غاي عبر طائرة ضمن أنابيب مع بضع قطرات من وسط الزرع، فقط بما يكفي لإبقائها على قيد الحياة لفترة قصيرة. وفي بعض الأحيان كان الطيارون أو المضيفون يضعون الأنابيب في جيوب قمصانهم للحفاظ على الخلايا في درجة

حرارة الجسم كما لو كانت في الحاضنة. وفي أحيان أخرى، عندما تُشحن الخلايا في عنبر البضائع، كان غاي يدسها في ثقوب محفورة في كتل من الثلج لمنعها من التعرض لحرارة زائدة، ثم يضع الثلج في صناديق من الورق المقوى مليئة بنشارة الخشب. وعندما تصبح الشحنات جاهزة للشحن، كان غاي يحذر المستلمين من أن الخلايا كانت على وشك الوصول إلى مدنهم «وكان يستخدم كلمة تشكيل نقائل metastasize»، حتى يتمكنوا من الوقوف على أهبة الاستعداد لاستلام الشحنة حالاً والعودة بسرعة إلى مختبراتهم. فإذا سار كلّ شيء على ما يرام، نجت الخلايا. وإذا فشلت العملية، يقوم غاي بتعبئة شحنة أخرى ويحاول مرة أخرى.

أرسل شحنات من خلايا هيلا إلى الباحثين في تكساس والهند ونيويورك وأمستردام والعديد من الأماكن الأخرى. وأولئك الباحثون قدموها للمزيد من الباحثين الذين قاموا بدورهم بإرسالها إلى آخرين. كانت خلايا هنرييتا تصل إلى جبال تشيلي في حقائب محمولة على البغال. عندما كان غاي يطير من مختبر إلى آخر، ويوضح تقنياته في الزراعة ويساعد في إنشاء مختبرات جديدة، كان يحمل معه دائماً أنابيب من خلايا هنرييتا في جيب سترته. وعندما زار العلماء مختبر غاي للاطلاع على تقنياته، كان يعودون محملين بقارورة أو اثنتين من خلايا هيلا. وبدأ غاي وبعض زملائه يشيرون في الرسائل المتبادلة بينهم إلى الخلايا على أنها «أطفال غاي الأعزاء».

السبب في أن خلايا هنرييتا كانت ثمينة جداً هو أنها سمحت للعلماء بإجراء تجارب كان من المستحيل إجراءها على إنسان حي. لقد قطعوا خلايا هيلا إلى أجزاء وعرّضوها لسموم وإشعاع وإنتانات لا نهاية لها. حقنوها بالأدوية على أمل العثور على دواء تقتل الخلايا الخبيثة دون تدمير الخلايا الطبيعية. درسوا تثبيط المناعة ونمو السرطان عن طريق حقن خلايا هيلا في الجرذان التي ثُبطت مناعتها، والتي تطورت لديها أوراماً خبيثة مثل أورام هنرييتا. وإذا ماتت الخلايا في هذه العملية، فهذا لا يهم العلماء إذ يمكنهم ببساطة العودة إلى مخزونهم الذي لا ينضب أبداً من خلايا هيلا والبدء من جديد.

على الرغم من انتشار هيلا وفورة الأبحاث الجديدة التي تلت ذلك، لم تظهر قصص إخبارية حول ولادة سلالة خلايا هيلا المذهلة وكيف يمكن أن تساعد في وقف السرطان. لم يذكر غاي، في ظهوره الوحيد هذا عبر شاشة التلفاز، أيّ شيء عن هنرييتا أو خلاياها بالاسم، لذلك لم يعرف عامة الناس شيئاً عن هيلا. ولكن حتى لو عرفوا، فمن المرجح جداً أنهم لن يعيروا الأمر الكثير من الاهتمام. لقد نشرت الصحافة على مدى عقود من الزمن أن زراعة الخلايا ستنقذ العالم من المرض وتجعل الإنسان خالداً، ولكن بحلول عام ١٩٥١ توقف عامة الناس عن الاكتراث للأمر. لم تعد زراعة الخلايا معجزة طبية بل شيئاً أشبه بحكاية فيلم خيال علمي مرعب.

بدأ كلّ شيء في ١٧ يناير ١٩١٢ عندما تمكن الجراح الفرنسي ألكسيس كاريل في معهد روكفلر، من زراعة «قلب دجاجة خالد».

ولطالما حاول العلماء زراعة خلايا حية منذ ما قبل مطلع القرن، لكن عيناتهم ماتت دائماً. ونتيجة لذلك، اعتقد العديد من الباحثين أنّ المستحيل إبقاء الأنسجة حية خارج الجسم. بيدَ أنّ كاريل شرع في إثبات أنهم مخطئون. ففي سن التاسعة والثلاثين، كان قد اخترع للتو التقنية الأولى لخياطة الأوعية الدموية معاً، واستخدمها لإجراء أول مجازة تاجية وتطوير طرق لزرع الأعضاء. كان يأمل أن يتمكن يوماً من زرع أعضاء كاملة في المختبر وأن يملأ الأقبية الضخمة بالرئات والأكباد والكلى والأنسجة التي يمكنه شحنها عبر البريد لأجل الزرع. وحاول أولاً زراعة شريحة من أنسجة قلب الدجاج في وسط الزرع، ونجح في مساعيه وسط دهشة الجميع. وظلّت خلايا القلب تلك تنبض كما لو كانت لا تزال داخل جسم الدجاجة.

بعد أشهر، فاز كاريل بجائزة نوبل لتقنية خياطة الأوعية الدموية ومساهماته في زرع الأعضاء، وأصبح مشهوراً على الفور. ولم يكن للجائزة علاقة بقلب الدجاجة، لكن المقالات حول جائزته خلطت خلايا قلب الدجاجة الخالدة مع عمله في الزرع، وفجأة بدا الأمر وكأنه وجد ينبوع الشباب. وفيما يلي نص العناوين الرئيسية التي نشرت في جميع أنحاء العالم:

معجزة كاريل الجديدة تمهد طريقها نحو تجنب الشيخوخة!

العلماء ينجحون في زرع قلب دجاجة خالد...

الموت ربما ليس حتمياً..

قال العلماء إن زراعة خلايا قلب الدجاجة من قبل كاريل كانت من أهم التطورات في القرن، وأن زراعة الخلية ستكشف الأسرار وراء كلّ شيء بدءاً من الأكل والجنس إلى «موسيقى باخ، وقصائد ميلتون، [و] عبقرية مايكل أنجلو». كان كاريل مسيحاً علمياً. أطلقت المجلات على وسط الزراعة الذي اكتشفه اسم «إكسير الشباب» وادعت أن الاستحمام فيه قد يجعل الشخص يعيش إلى الأبد.

لكن كاريل لم يكن مهتماً بخلود الجماهير كان متخصصاً في تحسين النسل: زراعة الأعضاء وإطالة الحياة كانت طرقاً للحفاظ على ما يعتبره كاريل أنه العرق الأبيض المتفوق، والذي اعتقد أنه ملوث بأفراد أقل ذكاء وأدنى شأناً، أيّ الفقراء وغير المتعلمين وغير البيض. كان يحلم بالحياة الأبدية لأولئك الذين يعتبرهم جديرين بها، والموت أو التعقيم القسري للبقية. وأشاد في وقت لاحق بـ هتلر امتناناً له على «التدابير الفعالة» التي اتخذها في هذا الاتجاه.

غذت غرابة الأطوار لدى كاريل الهيجان الإعلامي حول عمله. كان رجلاً فرنسياً شجاعاً ومتحدثاً بارعاً وله عينان غير متطابقتين -واحدة بنيّة والأخرى زرقاء- ونادراً ما خرج دون قبعة الجراحين. كان يعتقد خطأً أن الضوء يمكن أن يقتل مزارع الخلايا، لذلك بدا مختبره وكأنه نيجاتيف لتجمع كو كلوكس كلان، حيث يعمل الفنيون في ثياب سوداء طويلة ورؤوس مغطاة بقلانس سوداء فيها فتحات صغيرة لأعينهم. يجلسون على مقاعد سوداء

خلف طاولات سوداء في غرفة معتمة ذات أرضيات وأسقف وجدران مطلية بالأسود. وتتسلل الإضاءة الوحيدة من كوة صغيرة مغطّاة بالغبار.

كان كاريل صوفياً يؤمن بالتخاطر والاستبصار ويعتقد أنّ من الممكن للبشر أن يعيشوا عدة قرون من خلال استخدام الحيوية المعلقة (السبات البشري suspended animation). في النهاية حول شقته إلى كنيسة صغيرة، وبدأ بإلقاء محاضرات عن المعجزات الطبية، وأخبر الصحفيين أنه كان يحلم بالانتقال إلى أمريكا الجنوبية ليصبح ديكتاتوراً. ونأى باحثون آخرون بأنفسهم عنه، وانتقدوه لكونه غير علمي، لكن الكثير من الأمريكيين البيض اعتنقوا أفكاره ورأوه مستشاراً روحياً وعبقرياً.

نشرت مجلة ريدرز دايجست مقالات كتبها كاريل تنصح النساء بأنه «لا ينبغي أن تحرض الزوجة الشهوانية زوجها على ممارسة الجنس» لأن الجنس يستنزف العقل. في كتابه الأكثر مبيعاً «الإنسان، ذلك المجهول»، اقترح إصلاح ما يعتقد أنه كان «خطأ» في دستور الولايات المتحدة الذي وعد جميع الناس بالمساواة. وكتب: «لا ينبغي أن يكون الأبله والعبقري متساويين أمام القانون. فالغبي والجاهل وفاقد التركيز والعاجز عن الانتباه وبذل الجهد، ليس له الحق في الحصول على التعليم العالي».

باع كتابه أكثر من مليوني نسخة وترجم إلى عشرين لغة. وحضر الآلاف محاضرات كاريل، مما تطلب في بعض الأحيان تدخل شرطة

مكافحة الشغب للحفاظ على النظام حيث امتلأت القاعات على آخر قدرتها الاستيعابية وكان لا بد من إبعاد المعجبين.

وفي غضون كلّ هذا، ظلت الصحافة والجمهور مهووسين باختراع كارل قلب الدجاجة الخالد. في يوم رأس السنة من كلّ عام، تتصل صحيفة نيويورك وورلد تلغرام بـ كاريل للتحقق من وضع الخلايا؛ وعلى مدى عقود كلّ ١٧ يناير، يصطف كاريل ومساعدوه في بدلاتهم السوداء لغناء «عيد ميلاد سعيد» للخلايا، وقد أعادت بعض الصحف والمجلات رواية نفس القصة مراراً وتكراراً:

خلايا قلب الدجاج على قيد الحياة للعام العاشر...
أربعة عشر عاماً... عشرين...

وفي كلّ مرة، كانت المقالات تعد الناس بأن الخلايا ستغير وجه الدواء، لكنها لم تفعل ذلك قط. وفي الوقت نفسه، تطورت ادعاءات كاريل حول الخلايا لتصبح أكثر خيالية.

فقد صرح مرةً بأن الخلايا «ستصل إلى حجم أكبر من حجم النظام الشمسي». ذكرت صحيفة ليتراري دايجست أن الخلايا ربما «غطت الأرض» بالفعل، وذكرت صحيفة شعبية بريطانية إنها «يمكن أن تشكل ديكاً كبيراً بما يكفي اليوم لعبور المحيط الأطلسي بخطوة واحدة، [طائر] وحشي جداً لدرجة أنه عندما يجلس على هذه الكرة الأرضية، العالم، سيبدو مثل دوارة الريح». وحذرت سلسلة من الكتب الأكثر مبيعاً من مخاطر زراعة الأنسجة: حيث تنبأ أحدهم بأن ٧٠ في المئة من الأطفال سينمون قريباً في أطباق

الزرع وتخيل آخر أن زراعة الأنسجة تنتج «زنوجاً» عمالقة وضفادع ذات رأسين.

لكن الخوف من زراعة الأنسجة وجد طريقه بالفعل إلى غرف المعيشة الأمريكية في حلقة من برنامج لايتس أوت Lights Out، وهو برنامج رعب إذاعي عرض في الثلاثينيات من القرن الماضي يحكي قصة الدكتور ألبرت الخيالي الذي ابتكر قلب دجاج خالد في مختبره. لقد خرج عن السيطرة، ملء شوارع المدينة مثل الهلام، مبتلعاً الجميع وكل شيء في طريقه. ودمر البلاد بأكملها في غضون أسبوعين.

بيدَ أنّ خلايا قلب الدجاج الحقيقية لم تعمل كما يجب. واتضح في الواقع أن الخلايا الأصلية ربما لم تبق على قيد الحياة لفترة طويلة على الإطلاق. وبعد سنوات من وفاة كاريل أثناء انتظار محاكمته بتهمة تعاونه مع النازيين، شكّك العالم ليونارد هايفليك في حكاية قلب الدجاج. لم يتمكن أحد من تكرار عمل كاريل، ويبدو أن الخلايا تُعاند قاعدة أساسية في علم الأحياء: أن الخلايا الطبيعية لا يمكن أن تنقسم إلا لعدد محدود من المرات قبل أن تموت. حقق هايفليك في الأمر وخلص إلى أن خلايا قلب الدجاج الأصلية ماتت بالفعل بعد فترة وجيزة من وضع كاريل لها في وسط الزرع، وأن كاريل، عمداً أو سهواً، وضع خلايا جديدة في أطباق الزرع في كلّ مرة كان «يطعمها» فيها باستخدام «عصير الجنين» الذي صنعه من الأنسجة الجنينية المطحونة. أكّد شكوك هايفليك واحد على

الأقل من المساعدين السابقين في مختبر كاريل، ولكن لم يستطع أحد أن يختبر النظرية لأنه بعد عامين من وفاة كاريل ألقى مساعده خلايا قلب الدجاج الشهيرة في سلة المهملات.

عموماً، بحلول عام ١٩٥١، عندما بدأت خلايا هنرييتا لاكس في النمو في مختبر غاي - أيّ بعد خمس سنوات فقط من انتشار خبر «موت» قلب دجاجة كاريل، تراجعت الصورة العامة للخلايا الخالدة. كانت زراعة الأنسجة مادة خصبة لتعزيز العنصرية والخيال العلمي المرعب والفكر النازي والدجل. لم تكن شيئاً يحتفل به. في الواقع، لم يولها أحد اهتماماً كبيراً على الإطلاق.

(١٩٥١)

(٨)

«عينة بائسة»

في أوائل يونيو، أخبرت هنرييتا أطبائها عدة مرات أنها اعتقدت أن السرطان ينتشر، وأنها تشعر به يتحرك داخلها، لكنهم وجدوا أنها بخير. «تقول المريضة إنها تشعر بصحة جيدة إلى حد ما»، كتب أحد الأطباء في سجلها، «لكن لا تزال تشكو من بعض الانزعاج أسفل البطن مجهول السبب... لا يوجد دليل على عودة المرض. إعادة الفحص بعد شهر من الآن».

ليس هناك ما يشير إلى أن هنرييتا شككت بكلامه؛ مثل معظم المرضى في الخمسينيات، بل امتثلت لكلّ ما قاله أطباؤها. في تلك الفترة كان «الخداع بحسن نية» ممارسة شائعة، إذ غالباً ما يحجب الأطباء حتى المعلومات الأساسية عن مرضاهم، وأحياناً لا يقدمون لهم أيّ تشخيص على الإطلاق. كانوا يعتقدون أن من الأفضل عدم إرباك أو إزعاج المرضى بمصطلحات مخيفة قد لا يفهمونها، مثل السرطان. الأطباء هم الأدرى، ومعظم المرضى لا يشككون بكلامهم.

خصوصاً المرضى السود في العنابر العامة. كان هذا عام ١٩٥١ في بالتيمور، حيث الفصل بين السود والبيض كان قانوناً مطبقاً، وكان من المفهوم أن السود لم يشككوا في الحكم المهني للبيض. بل كان العديد من المرضى السود سعداء بالحصول على العلاج لأن التمييز في المستشفيات منتشر على نطاق واسع.

ولا توجد طريقة لمعرفة ما إذا كانت معاملة هنرييتا ستختلف أو كيف كانت ستختلف لو كانت بيضاء. وفقاً لهوارد جونز، حصلت هنرييتا على نفس الرعاية التي يحصل عليها أيّ مريض أبيض؛ وكانت الخزعة والعلاج بالراديوم والإشعاع كلها إجراءات قياسية في تلك الفترة. لكن العديد من الدراسات أظهرت أن المرضى السود تلقوا العلاج أو دخلوا إلى المستشفى في مراحل متأخرة من أمراضهم أكثر من المرضى البيض. وبمجرد دخولهم المستشفى، يحصلون على عدد أقل من المسكنات، وكان معدل الوفيات بينهم أعلى.

كل ما يمكننا معرفته على وجه اليقين هو حقائق السجلات الطبية لـ هنرييتا: بعد بضعة أسابيع من إخبار الطبيب لها أنها بخير، عادت إلى هوبكنز قائلة إن «الانزعاج» الذي اشتكت منه في المرة الماضية باتَ الآن «ألماً» شديداً في كلا الجانبين. لكن جواب الطبيب هذه المرة أيضاً كان مطابقاً لجواب الأسبوع السابق: «لا يوجد دليل على عودة المرض. إعادة الفحص بعد شهر من الآن».

بعد أسبوعين ونصف، شعرت هنرييتا بألم صاعق في بطنها ولم تستطع التبول. وجعلها الألم تعاني من صعوبة في المشي. فعادت إلى

هوبكنز، حيث أدخل طبيب قسطرة لتفريغ مثانتها، ثم أرسلها إلى المنزل. وبعد ثلاثة أيام، عندما عادت تشكو مرة أخرى من الألم، ضغط طبيب على بطنها وشعر بوجود كتلة «صلبة كالحجر». أظهرت الأشعة السينية أن الكتلة ملتصقة بجدار الحوض، مما أدى إلى انسداد مجرى البول تقريباً. اتصل الطبيب المناوب بجونز والأطباء الآخرين الذين عالجوا هنرييتا؛ وقاموا جميعاً بفحصها ونظروا إلى الأشعة السينية. قالوا: «الورم غير قابل للجراحة». كتب أحد الأطباء بعد أسابيع فقط من ملاحظة سابقة كتب فيها أنها بصحة جيدة: «يبدو أن المريضة تعاني من مرضٍ مزمن. من الواضح أنها تتألم». فأرسلها للبيت لترتاح.

كانت سادي تصف لاحقاً تدهور حالة هنرييتا على النحو التالي: «أتدرين؟ إن هيني لم تنهار وحسب، كان مظهرها وجسدها يذويان فقط. إذ إنّ بعض مرضى بالسرطان يلازمون السرير ويبدون في حالة مزرية. لكنها لم تفعل ذلك، والشيء الوحيد الذي يمكنكم أن تلاحظوه كان في عينيها. كانت عيناها تعلمان أنها لن تكون على قيد الحياة بعد الآن».

وحتى تلك اللحظة، لم يعلم أحد بمرض هنرييتا عدا سادي ومارغريت وداي. ثم، فجأة، عرف الجميع. عندما يعود داي وأبناء العم إلى المنزل من سباروز بوينت بعد كلّ نوبة عمل، كان بإمكانهم سماع صراخ هنرييتا من على بعد حيّ كامل، وهي تستغيث طلباً للعون من الرب. عندما أقلها داي إلى هوبكنز لإجراء الأشعة

السينية في الأسبوع التالي، ظهر أن أوراماً صلبة تملأ الجزء الداخلي من بطنها: واحد على رحمها، وواحد على كلّ كلية وعلى مجرى البول. بعد شهر واحد فقط من تدوين ملاحظة في سجلها الطبي تقول إنها بخير، كتب طبيب آخر: «بالنظر إلى الانتشار السريع للمرض، فإن التوقعات سيئة للغاية». وقال إن الخيار الوحيد هو «المزيد من الإشعاع على أمل أن نخفف ألمها على الأقل».

لم تستطع هنرييتا المشي من المنزل إلى السيارة، ولكن تمكن داي أو أحد أبناء العم من إيصالها إلى هوبكنز كلّ يوم لتلقي العلاج بالإشعاع. لم يُدركوا بأنّها تحتضر. ظنوا أن الأطباء ما زالوا يحاولون علاجها.

وفي كلّ يوم، يزيد أطباء هنرييتا جرعتها من الإشعاع، على أمل أن يقلل من الأورام ويخفف الألم إلى حين وفاتها. ولكن كلّ يوم يحترق جلد بطنها ويصبح أكثر سواداً ويزداد الألم سوءاً.

في ٨ أغسطس، بعد أسبوع واحد فقط من عيد ميلادها الحادي والثلاثين، وصلت هنرييتا إلى هوبكنز لتلقي العلاج، لكنها قالت هذه المرة إنها تريد البقاء. كتب طبيبها: «كانت المريضة تشكو بمرارة من الألم وتبدو بائسة حقاً. إنها تأتي من مسافة بعيدة وأرى أنها تستحق أن تكون في المستشفى حيث يمكن رعايتها بشكل أفضل».

بعد دخول هنرييتا إلى المستشفى، سحبت ممرضة الدم ووضعت ملصقاً على العبوة «ملونة»، ثم خزنتها في حالة احتياج هنرييتا إلى

عمليات نقل دم في وقت لاحق. وضع الطبيب أقدام هنرييتا على مسندي القدمين مرة أخرى لأخذ بضع خلايا أخرى من عنق الرحم بناء على طلب جورج غاي، الذي أراد أن يرى ما إذا كانت الدفعة الثانية ستنمو مثل الأولى. لكن جسد هنرييتا أصبح ملوثاً جداً بالسموم التي يتم التخلص منها عادةً من الجسد في البول، مما أدى إلى موت خلاياها على الفور في المزرعة.

خلال الأيام القليلة الأولى لـ هنرييتا في المستشفى، جاء الأطفال مع داي لزيارتها، ولكن عندما غادروا، بكت وناحت لساعات. سرعان ما أخبرت الممرضات داي أنه لا يستطيع إحضار الأطفال بعد الآن، لأن ذلك أزعج هنرييتا كثيراً. لاحقاً، كان داي يركن سيارة البويك خلف مستشفى هوبكنز في الوقت نفسه كلّ يوم ويجلس على رقعة صغيرة من العشب في شارع وولف مع الأطفال، تحت نافذة هنرييتا. كانت تسحب نفسها من السرير وترفع يديها ووجهها إلى الزجاج، وتشاهد أطفالها يلعبون على العشب. لكن في غضون أيام، لم تعد هنرييتا قادرة على الوصول إلى النافذة.

حاول أطبائها عبثا تخفيف معاناتها. كتب أحدهم: «يبدو أنّ عقار ديميرول لا يؤثر على الألم»، لذلك جرّبنا المورفين. «وهذا لم يساعدها كثيراً أيضاً». فأعطاها درومورا ن. وكتب: «يبدو أنه هذا الدواء مفيد». ولكن ليس لوقتٍ طويل. وفي نهاية المطاف، حاول أحد أطبائها حقن الكحول النقي مباشرة في عمودها الفقري. وكتب: «انتهت تجربة حقن الكحول بالفشل».

ظهرت أورام جديدة يومياً -على العقد الليمفاوية وعظام الورك والشفرين- وقضت معظم الأيام تعاني من حمى تصل إلى ٤١ درجة مئوية. أوقف أطبائها العلاج الإشعاعي وبدا أن السرطان هزمهم كما هزمها. وكتبوا: «استمرت الحالة البائسة لعينة هنرييتا». «إنها تنوح من شدة الألم». «إنها تشعر بالغثيان باستمرار وتدعي أنها تتقيأ كلّ ما تأكله». «المريضة منزعجة بشدة... قلقة للغاية». «وأنا على يقين بأننا فعلنا كلّ ما بوسعنا».

لا يوجد سجل يذكر بأن جورج غاي زار هنرييتا في المستشفى، أو أخبرها أيّ شيء عن خلاياها. وكل شخص تحدثت إليه ويعرف بالحكاية قال إن غاي وهنرييتا لم يلتقيا قط. الجميع، باستثناء لور أورليان، عالم الأحياء الدقيقة الذي كان زميل غاي في هوبكنز.

قال أورليان: «لن أنسى الأمر ما حييت. أخبرني جورج أنه انحنى فوق سرير هنرييتا وقال لها: خلاياك ستجعلك خالدة. وأخبرها أن خلاياها ستساعد في إنقاذ حياة عدد لا يحصى من الناس، فابتسمَت. قالت له إنها سعيدة لأن ألمها سيجلب الخير لشخص ما».

(١٩٩٩)

(٩)

محطة تيرنر

بعد بضعة أيام من محادثتي الأولى مع داي، قدتُ من بيتسبرغ إلى بالتيمور لمقابلة ابنه ديفيد «سوني» لاكس جونيور بعد أن اتصل بي أخيراً ووافق على اللقاء، قائلاً إنه سأم من رؤية رقم هاتفي يظهر على جهاز النداء الخاص به. لم أعرف ذلك حينها، لكنه كان قد أجرى خمس مكالمات هاتفية مذعورة إلى باتيلو، وطرح أسئلة عني قبل الاتصال.

كانت الخطة أن أتصل بـ سوني عندما أصل إلى بالتيمور، ثم يأخذني إلى منزل شقيقه لورانس لمقابلة والدهم، وديبورا لو حالفني الحظ. لذا حجزت غرفة في فندق هوليداي إن وسط المدينة وجلست على السرير والهاتف في حضني واتصلت بجهاز نداء سوني. ولم يرد.

حدقت عبر نافذة غرفتي في برج قوطي طويل مبني من الطوب ينتهي بساعة ضخمة في الأعلى. لقد كانت مصنوعة من الفضة المتضررة من الطقس، مع حروف كبيرة بدل الأرقام (B-R-O-M-O-S-E-L-T-Z-E-R) بشكل دائرة حول وجهها. راقبت عقاربها تتحرك

ببطء حول الحروف، واتصلت بـ سوني كلّ بضع دقائق، وانتظرت رنين الهاتف.

في النهاية أمسكت بدليل هاتف بالتيمور السميك، وفتحت على حرفي اللام والسين، ومررت إصبعي إلى أسفل خط طويل من الأسماء: أنيت لاكس... تشارلز لاكس... فكرت أن أتصل بكل شخص يُدعى لاكس في الدليل أسأله إن كان يعرف هنرييتا. لكن لم يكن لدي هاتف خلوي ولم أرغب في شغل الخط، لذلك اتصلت بـ سوني مرة أخرى، ثم استلقيت على السرير والهاتف والصفحات البيضاء لا تزال في حضني. ورحت أعيد قراءة نسخة قديمة من مقالة نشرت في مجلة رولينغ ستون عام ١٩٧٦ عن عائلة لاكس كتبها شخص يدعى مايكل روجرز وهو أول مراسل على الإطلاق يتصل بعائلة هنرييتا. أقرأتها من قبل عدة مرات، لكنني أردت أن تبقى كلّ كلمة حيّة في ذهني.

وفي منتصف المقال، كتب روجرز: «أنا جالس في الطابق السابع من فندق بالتيمور هوليداي إن في وسط المدينة. من خلال نافذة الصورة الحرارية، توجد ساعة عامة ضخمة استبدلت الأرقام فيها بالأحرف B-R-O-M-O-S-E-L-T-Z-E-R في حضني هاتف، وصفحات دليل بالتيمور البيضاء».

انتصبت واقفةً وشعرت فجأة كأنني صرت جزءاً من حلقة مسلسل توايلايت زون. قبل أكثر من عقدين من الزمان – عندما كنت في الثالثة من عمري – أمسك روجرز دليل الصفحات البيضاء

هذا نفسه. كتب: «في منتصف قوائم التي تحمل اسم لاكس، أصبح من الواضح أن الجميع تقريباً عرفَ هنرييتا». لذا فتحت دليل الهاتف مرة أخرى وبدأت بالاتصال على أمل أن أجد واحداً من هؤلاء الناس الذين عرفوها. لكنهم لم يجيبوا على هواتفهم، أو أغلقوا الخط في وجهي، أو قالوا إنهم لم يسمعوا قطّ عن هنرييتا. أخرجت مقالاً صحفياً قديماً حيث رأيت عنوان هنرييتا في منطقة محطة تيرنر: ٧١٣ نيو بيتسبورغ أفينو. بحثت في أربع خرائط قبل العثور على واحدة لم تكن فيها محطة تيرنر مغطاة بالإعلانات أو شبكات طرق الأحياء الأخرى.

اتضح أن محطة تيرنر لم تكن مخبأة على الخريطة وحسب. بل للوصول إلى هناك، كان عليّ أن أتجاوز الجدار الأسمنتي والسياج الذي يسدّ الطريق السريع عبر مجموعة من السكك الحديدية والكنائس القديمة في واجهات المتاجر القديمة وصفوف من المنازل المحصنة بألواح خشبية ومولد كهربائي ضخم بحجم ملعب كرة قدم. وأخيرا رأيت لافتة خشبية داكنة تقول «مرحباً بكم في محطة تيرنر» في موقف للسيارات في حانة محترقة ذات ستائر وردية.

وحتى يومنا هذا ما من أحد متأكد تماماً من اسم المدينة في الواقع، أو كيفية تهجئته. في بعض الأحيان يكون بصيغة الجمع (تيرنرز ستيشن)، وأحياناً أخرى يكون بصيغة الملكية (محطة تيرنر)، ولكنه غالباً ما يكون مفرداً (تيرنر ستيشن). لقد اختير الاسم في الأصل تيمناً بـ «الحظ السعيد»، لكنه لم يرتقي تماماً إلى مستوى الاسم.

عندما وصلت هنرييتا إلى هناك في الأربعينات، كانت المدينة في أفضل حالاتها. لكن نهاية الحرب العالمية الثانية سبب تراجعاً في الإنتاج في سباروز بوينت. هدمت شركة بالتيمور للغاز والكهرباء ثلاثمئة منزلاً لإفساح المجال لبناء محطة كهرباء جديدة، تاركة أكثر من ١٣٠٠ شخصاً مشرداً معظمهم من السود. وخصص المزيد والمزيد من الأراضي للاستخدام الصناعي، مما يعني هدم المزيد من المنازل. هرب الناس إلى شرق بالتيمور أو عادوا إلى ديارهم، وانخفض عدد سكان محطة تيرنر بمقدار النصف قبل نهاية الخمسينات. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى هناك، كان فيها حوالي ألف نسمة وانخفض العدد بشكل مطرد بسبب ندرة الوظائف.

في فترة وجود هنرييتا، كانت محطة تيرنر بلدة آمنة حيث لا يكون المرء مضطراً لإغلاق أبوابه أبداً. والآن يوجد مشروع إسكان محاط بجدار أمني طوله أربعمئة متر من الطوب والأسمنت في الحقل الذي لعب فيه أطفال هنرييتا ذات مرة. أُغلقت المتاجر والنوادي الليلية والمقاهي والمدارس، وانتشر تجار المخدرات والعصابات والعنف. ولكن لا يزال في محطة تيرنر أكثر من عشر كنائس.

نقلت المقالة الصحفية التي حصلت منها على عنوان هنرييتا عن امرأة محلية، تدعى كورتني سبيد، كانت تمتلك متجراً للبقالة وأنشأت مؤسسة مكرسة لبناء متحف هنرييتا لاكس. ولكن عندما وصلت إلى قطعة الأرض حيث كان من المفترض أن تكون بقالة السيدة سبيد، وجدت منزلاً رمادياً متهالكاً، تغطي نوافذه

المحطمة أسلاكاً معدنية. كانت اللافتة الموجودة أمام البقالة تحمل وردة حمراء واحدة مرسومة عليها، والكلمات التالية «بِلاَ رُؤْيَا يَجْمَحُ الشَّعْبُ أَمَّا حَافِظُ الشَّرِيعَةِ فَطُوبَاهُ». سفر الأمثال ١٨:٢٩. تجمع ستة رجال على الدرج الأمامي، يضحكون. كان أكبرهم في الثلاثينيات من عمره يرتدي بنطالاً أحمر وحمالات حمراء وقميصاً أسود وقبعة قيادة. وكان الآخر يرتدي سترة تزلج ضخمة حمراء وبيضاء. كانوا محاطين برجال أصغر سناً من مختلف درجات البشرة البنية يرتدون سراويل واسعة. توقف الرجلان اللذان يرتديان الأحمر عن الكلام، وشاهداني أقود ببطء، ثم استمرا في الضحك.

تقع محطة تيرنر على بعد أقل من ميل في أيّ اتجاه، ويصطف على طولها رافعات شحن بحجم ناطحات السحاب ومداخن تصنع السحب السميكة من سباروز بوينت. بينما كنت أقود في دوائر أبحث عن بقالة سبيد، توقف الأطفال عن اللعب في الشوارع للتحديق والتلويح. وركضوا بين المنازل المتطابقة من الطوب الأحمر وعبروا بين النساء اللواتي ينشرن الغسيل الرطب، وتبعوني في حين ابتسمت أمهاتهم ولوحن لي أيضاً.

مررت بمقطورة يقف أمامها رجال عدة مرات، وبدأوا يلوحون لي كلما مررت. فعلت نفس الشيء مع منزل هنرييتا القديم. كانت وحدة في مبنى من الطوب البني مقسمة إلى أربعة منازل ولها سياج من الأسلاك الشبكية وعدة أقدام من العشب أمام المدخل، وثلاث

درجات تقود إلى منحدر صغير من الأسمنت. راقبني طفل من خلف باب منزل هنرييتا القديم، وكان يلوح ويلعب بالعصا.

لوحت للجميع وتظاهرت بالدهشة في كلّ مرة ظهر فيها مجموعة الأطفال الذين تبعوني عبر شوارع مختلفة مبتسمين، لكنني لم أتوقف وأطلب المساعدة. كنتُ متوتّرةً جدّاً. راقبني الناس في محطة تيرنر مبتسمين وهرشوا رؤوسهم يتساءلون ما الذي تفعله تلك الشابة البيضاء وهي تقود في دوائر؟

وأخيراً رأيت كنيسة شيلو المعمدانية الجديدة التي ذكرتها الصحيفة كموقع للقاءات الجمعية بشأن متحف هنرييتا لاكس. لكنها كانت مغلقة. عندما ضغطت وجهي على الزجاج الطويل في الخارج، توقفت سيارة لينكولن تاون سوداء، وقفز منها رجل رشيق ووسيم في الأربعينات من عمره يضع نظارات ذهبية ويرتدي بذلة سوداء وقبعة سوداء، ويحمل بيده مفاتيح الكنيسة. أنزل نظارته إلى أرنبة أنفه ونظر إلي، وسألني إن كنت بحاجة إلى مساعدة.

فأخبرته عن سبب وجودي هناك.

قال: «لم أسمع قط باسم هنرييتا لاكس».

قلت: «لم يسمع بها الكثير من الناس»، وأخبرته أنني قرأت أن شخصاً ما علق لوحة على شرف هنرييتا في بقالة سبيد.

«أوه! بقالة سبيد؟» قال وقد أشرق وجهه فجأة بابتسامة

وربّت بيده على كتفي. «يمكنني أن آخذك إلى سبيد!» وطلب مني أن أركب سيارتي وأتبعه.

لوّح الجميع في الشارع وصرخوا أثناء مرورنا: «مرحباً أيها القس جاكسون». «كيف حالك أيها القس؟» وكان يومئ برأسه ويصيح: «كيف حالكم!» «حفظكم الله». على بعد شارعين فقط، توقفنا أمام تلك المقطورة الرمادية نفسها التي يقف الرجال أمامها وركن القس سيارته في الحديقة ملوحاً لي بالخروج. ابتسم الرجال على الدرج، وصافحوا القس يداً بيد، قائلين: «أيها القس، هل أحضرت صديقة؟».

أجاب: «نعم. إنها هنا للتحدث إلى السيدة سبيد».

قال الرجل ذو البنطال الأحمر والحمالات الحمراء والذي اتضح أنه أكبر أبناء سبيد ويدعى كيث إنها خرجت ولا أحد يعلم متى تعود لذا ربما علي أن أجلس على الشرفة مع الأولاد وأنتظر. عندما جلستُ، ابتسم الرجل الذي يرتدي سترة تزلج حمراء وبيضاء ابتسامة كبيرة مشرقة، ثم أخبرني أنه ابنها مايك. وكان هناك أبناؤها أيضاً سايروس وجو وتيرون. كلّ رجل على تلك الشرفة كان ابنها. وكذلك كان كلّ رجل دخل إلى المحل. وسرعان ما أحصيت خمسة عشر ولداً وقلت: «مهلاً. لديها خمسة عشر ابناً؟»

«أوه!» صرخ مايك. «أنت لا تعرفين ماما سبيد، أليس كذلك؟! أوه، أنا معجب بـ ماما - إنها قوية! إنها تُبقي محطة تيرنر تحت السيطرة، يا إلهي! إنها لا تخشى أيّ رجل!».

أومأ الرجال على الشرفة برؤوسهم وقالوا: «هذا صحيح».

قال مايك: «لا تهلعي لو جاء شخص ما إلى هنا في محاولة للهجوم على ماما عندما لا نكون في الجوار، لأنها ستخيفهم حتى الموت!». ردد أبناء سبيد جميعهم كلمة آمين، بينما كان مايك يروي قصةً، قائلاً: «جاء رجل إلى المتجر مرة يصرخ: سأعبر هذه المنضدة وأقبض عليكِ. وكنت مختبئاً خلف ماما وأشعر بخوف شديد. هل تعرفين ماذا فعلت ماما؟ هزت رأسها ورفعت ذراعيها وقالت: هيا تعال! هيا! هيا! إذا كنت مجنوناً، حاول أن تقترب!».

ضربني مايك على ظهري وضحك جميع الأبناء.

في تلك اللحظة، ظهرت كورتني سبيد أسفل الدرج بشعرها الأسود الطويل المجمع فوق رأسها والخصل المتدلية حول وجهها وبدت رقيقة وجميلة وغير مسنة على الإطلاق. كانت عيناها بنيتين ناعمتين مع هالة مثالية من اللون الأزرق البحري حول حواف عينيها. كانت رقيقة ولم تبد لي قاسية أبداً. عانقت كيس بقالة على صدرها وهمست، «لكن ألم يقفز ذلك الرجل عليّ من خلف تلك المنضدة؟».

صرخ مايك وضحك بشدة لدرجة أنه لم يستطع الإجابة.

نظرت إليه بهدوء وابتسمت. «قلت، هل قفز هذا الرجل؟»

«لا، لم يقفز!» قال مايك مبتسماً. «هذا الرجل لم يفعل شيئاً سوى الهرب! لهذا فإن ماما لم تقتنِ بندقية لحماية المتجر. ليست بحاجة لها».

قالت: «لا أقبل العيش بجوار بندقية»، ثم التفتت نحوي وابتسمت. «كيف حالك؟» صعدَت الدرج إلى داخل المتجر، وتبعناها جميعاً.

قال كيث: «ماما، أحضر القس هذه المرأة إلى هنا. إنها الآنسة ريبيكا وقد جاءت للتحدث معك».

أشرق وجه كورتني سبيد بابتسامة جميلة وخجولة نوعاً ما، ويفيض من عينيها الحنان والطيبة. قالت: «بارك الله فيك يا عزيزي».

في الداخل، تغطي الصناديق الكرتونية المسطحة معظم الأرضية التي اهترأت بفعل سنوات من حركة الأقدام فوقها. تصطف الرفوف على كلّ جدار، بعضها فارغ، ويتكدس على البعض الآخر أكياس الخبز من مصنع وندر، والأرز، وورق التواليت، ولحم أقدام الخنازير. وكانت سبيد قد كدست على أحدها المئات من نسخ صحيفة بالتيمور صن التي يعود تاريخها إلى السبعينيات، منذ توفي زوجها. قالت إنها قررت عدم استبدال النوافذ إذ كلّ مرة يقتحم شخص ما المكان ويحطمها وسرعان ما يعاود شخص آخر الكرّة. كانت تعلق لافتات مكتوبة بخط اليد على كلّ جدار من المتجر: لافتة تقول «سام بطل كرات الثلج»، ولافتات أخرى عن أندية رياضية، ومجموعات الكنيسة، وفصول دبلوم التعليم العام ومحو أمية الكبار المجانية. كان لديها العشرات من «الأبناء الروحيين»، الذين لم تعاملهم بشكل مختلف عن أبنائها البيولوجيين الستة. وعندما يدخل أيّ طفل لشراء رقائق البطاطا أو الحلوى أو

الصودا، تجعلهم سبيد يحسبون الفكة التي تدين بها لهم، وتمنحهم قطعة شوكولاتة هيرشي مجاناً عن كلّ إجابة صحيحة.

راحت سبيد ترتب السلع على رفوفها بحيث يكون وجهها نحو الأمام، ثم صاحت دون أن تستدير: «كيف وجدت طريقك إلى هنا؟».

أخبرتها عن الخرائط الأربعة، فألقت علبة من شحم الخنزير على الرف. قالت: «الآن لدينا متلازمة الخرائط الأربع. إنهم يستمرون في محاولة طردنا من هذه البقعة، لكن الله لن يسمح لهم بذلك. الحمد لله، إنه يرسل لنا الأشخاص الذين نحتاج حقاً إلى التحدث معهم».

مسحت يديها على قميصها الأبيض. «والآن بعد أن أحضرك إلى هنا، كيف لي أن أخدمك؟»

قلت: «آمل أن أعرف شيئاً منك عن هنرييتا لاكس».

شهقت كورتني، وشحبَ وجهها فجأة. تراجعت عدة خطوات إلى الوراء وهمست: «هل تعرفين السيد كوفيلد؟ هو من أرسلك؟».

شعرت بالارتباك. أخبرتها أنني لم أسمع بـ كوفيلد هذا ولم يرسلني أحد.

«كيف تعلمين بشأني؟» قالت بعصبية وهي تتراجع للخلف أكثر.

سحبتُ المقال الصحفي القديم المجعد من حقيبتي وأعطيته لها.

«هل تحدثت إلى العائلة؟» سألت.

أجبت: «أنا أحاول. تحدثت إلى ديبورا مرة، وكان من المفترض أن أقابل سوني اليوم ولم يظهر بعد».

أومأت برأسها، وكأنها تقول: «أتوقع ذلك». ثم قالت: «لا أستطيع أن أقول لك أيّ شيء قبل أن تحصلي على موافقة عائلتها. لن أخاطر بذلك».

«ماذا عن اللوحة التي قدمتها للمتحف؟» سألتها. «هل أستطيع رؤيتها؟».

أجابت بعصبية: «إنها ليست هنا. لا شيء هنا، لأن أشياء سيئة وقعت بسببها».

نظرت إلي مطولاً، ثم هدأت ملامحها. أخذت يدي في يدها، ولمست وجهي بالأخرى.

قالت: «تعجبني عينيك. تعال معي».

وأسرعت للخروج من الباب ونزلت الدرج إلى سيارتها ستيشن واغن البنيّة القديمة. جلس رجل في مقعد الراكب، يحدق مباشرة في الطريق كما لو كانت السيارة تتحرك. لم ينظر إلى أعلى وهي تصعد، قائلة: «اتبعيني».

قدنا عبر محطة تيرنر إلى موقف السيارات قرب المكتبة العامة المحلية. عندما فتحت باب السيارة، ظهرت كورتني وهي تصفق وتبتسم وترقص على رؤوس أصابعها. قالت: «أول فبراير هو يوم

هنرييتا لاكس هنا في مقاطعة بالتيمور. سيكون أول فبراير هذا موعد الإطلاق الرئيسي هنا في المكتبة! ما زلنا نحاول بناء متحف، على الرغم من أن قضية كوفيلد تسببت في العديد من المشاكل. وأثار الرعب لدى ديبورا. كان من المفترض أن ننتهي من تأسيس المتحف الآن، كنا قريبين جداً قبل حدوث كلّ هذه الفظاعة. لكنني سعيدة لأنه أرسلكِ»، قالت مشيرةً إلى السماء. «هذه القصة يجب أن تروى! الحمد لله، أن الناس باتوا يعرفون من هنرييتا!».

«من يكون كوفيلد؟» سألتُها.

شهقت وصفعت فمها بيدها. قالت: «لا يمكنني التحدث حقاً حتى تسمح العائلة بذلك»، ثم أمسكت يدي وركضَت إلى المكتبة.

قالت لأمينة المكتبة، وهي تتراقص على أصابع قدميها مرة أخرى: «هذه ريبيكا. إنها تكتب عن هنرييتا لاكس!».

«أوه، هذا رائع!» قالت أمينة المكتبة. ثم نظرَت إلى كورتني وقالت لها: «هل تتحدثين إليها؟».

قالت كورتني: «أحتاج إلى الشريط».

سارت أمينة المكتبة عبر صفٍّ من شرائط الفيديو، وسحبت صندوقاً أبيض عن الرف، وسلّمته لها. وضعت كورتني الفيديو تحت ذراعها وأمسكت بيدي، وسحبتني عائدة إلى موقف السيارات، حيث قفزت إلى سيارتها مجدداً واستعجلتني ملوحةً لي كي أتبعها.

توقفنا خارج بقالةٍ حيث خرج الرجل في مقعدها الأمامي واشترى رغيفاً من الخبز. ثم نزل من السيارة أمام منزله بينما صرخت كورتني في وجهي: «إنه ابن عمي الأصم! لا يستطيع القيادة!».

أخيراً قادتني إلى صالون تجميل صغير تملكه، ليس بعيداً عن بقالة سبيد. فتحت مزلاجين على الباب الأمامي ولوحت بيدها في الهواء قائلة: «تبدو الرائحة وكأنني قبضت على فأر في أحد تلك الفخاخ». كان الصالون ضيقاً، حيث كانت الكراسي الحلاقة مصطفة أمام أحد الجدران ومجففات الشعر على طول الجدار الآخر. وثمة مغسلة للشعر مدعّمة بقطعة من الخشب الرقيق، وتصرف الماء في دلو أبيض كبير، كما أن الجدران حولها تصطبغ برذاذ سنواتٍ من صبغة الشعر. ووضع بجوار المغسلة لوحة الأسعار: قص وتصفيف عشرة دولارات. كيّ وتجعيد سبعة دولارات. وعلى الجدار الخلفي، فوق خزانة الإمدادات، عُلقّت نسخة من صورة هنرييتا لاكس التي تضع يديها فيها على الوركين، في إطار من الخشب الشاحب أكبر من اللازم بعدة بوصات.

أشرت إلى الصورة ورفعت حاجبي. هزت كورتني رأسها.

همسَت: «سأخبرك بكل ما أعرفه، بمجرد أن تتحدثي إلى العائلة ويسمحون بذلك. أنا لا أريد المزيد من المشاكل. ولا أريد أن تمرض ديبورا مرة أخرى».

أشارت إلى كرسي حلاقة من الفينيل الأحمر المهترئ، وقامت بتدويره ليواجه تلفاز صغير بجوار مجففات الشعر. ثم قالت وهي

تسلمني جهاز التحكم ومجموعة من المفاتيح: «عليك مشاهدة شريط الفيديو هذا». ومشت نحو الباب، ثم استدارت. «لا تفتحي هذا الباب لأي سبب أو أيّ شخصٍ سواي، أتسمعين؟» قالت. «ولا تفوتي شيئاً في هذا الفيديو - استخدمي زر الإرجاع، وشاهديه مرتين إذا اضطررت إلى ذلك، ولكن لا تفوتي شيئاً».

ثم غادرت، وأقفلت الباب خلفها.

ما دار أمامي على شاشة التلفاز تلك كان فيلماً وثائقياً لهيئة الإذاعة البريطانية مدته ساعة واحدة عن هنرييتا وخلايا هيلا، يدعى «The Way of All Flesh»، والذي كنت أحاول الحصول على نسخة منه منذ أشهر. بدأ بعرض موسيقى حلوة وامرأة سوداء شابة لم تكن هنرييتا، ترقص أمام الكاميرا. ثم بدأ رجل بريطاني يسرد الأحداث بصوته الميلودرامي، كما لو كان يروي قصة شبح قريبة من أن تكون حقيقة.

قال: «في عام ١٩٥١ توفيت امرأة في بالتيمور في أمريكا»، ثم صمت ليترك أثراً. «كانت تدعى هنرييتا لاكس». أصبحت الموسيقى أعلى وأكثر شراً بينما كان يروي قصة خلاياها: «لقد غيرت هذه الخلايا الطب الحديث... وشكّلت سياسات دولٍ ورؤساء. حتى أنها أصبحت ذات صلة بالحرب الباردة. لأن العلماء كانوا مقتنعين بأن في خلاياها يكمن سر التغلب على الموت...».

ما أذهلني حقاً كان لقطات من كلوفر، بلدة زراعية قديمة جنوب فرجينيا حيث تبين أن بعض من أقارب هنرييتا لا زالوا

يعيشون هناك. كانت الصورة الأخيرة التي ظهرت على الشاشة هي لابن عم هنرييتا، فريد غاريت، يقف خلف كوخ عبيد قديم في كلوفر، ويدير ظهره إلى مقبرة العائلة حيث قال الراوي إن هنرييتا دفنت في قبر مجهول هناك.

يشير فريد بيده إلى المقبرة وينظر بتمعنٍ إلى الكاميرا. «هل تعتقدون أن خلاياها لا تزال حية؟» سأل. «أعني في القبر». توقف، ثم ضحك ضحكة طويلة. قال: «لا، لا أعتقد أنها كذلك. لكنها لا تزال حيةً في أنابيب الاختبار. إنها معجزة».

أصبحت الشاشة بيضاء وأدركت أنني إذا لم أتمكن من الحديث مع أولاد وزوج هنرييتا، فإنّ عليّ زيارة كلوفر والعثور على أبناء عمومتها.

في تلك الليلة، في الفندق، ردّ سوني أخيراً على الهاتف. قال إنه قرر رفضَ مقابلتي لكنه لم يذكر السبب. عندما طلبت منه أن يساعدني على الاتصال مع عائلته في (كلوفر)، أخبرني أن أذهب إلى هناك وأجدهم بنفسي. ثم ضحك وتمنى لي التوفيق.

(١٩٩٩)

(١٠)

الجانب الآخر من الطريق

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقع كلوفر فوق بضعة تلال منحدرة قبالة الطريق ٣٦٠ جنوب فرجينيا، بعد «ديفكلت كريك» على ضفاف نهر الموت. توقفت في المدينة تحت سماء زرقاء صافية في ديسمبر، والهواء دافئ وكأنه في مايو، وأمامي ورقة ملاحظات صفراء مدون عليها المعلومة الوحيدة التي قدمها لي سوني وعلقتها على لوحة قيادة سيارتي: «لم يعثروا على قبرها. تأكدي من الذهاب إلى هناك نهاراً، لا توجد مصابيح ويصبح الليل أكثر قتامة من الظلام. اسألي أيّ شخص هناك أين تقع لاكس تاون».

تبدأ بلدة كلوفر في محطة وقود مقفلة، وإعلان كبير لرذاذ RIP قاتل الحشرات مرسوم على الواجهة الأمامية، وتنتهي في ساحة فارغة كانت فيها مضى المحطة التي استقلت منها هنرييتا قطارها المتجه إلى بالتيمور. كان سقف مسرح السينما القديم في الشارع الرئيسي قد انهار منذ سنوات، ورميت شاشته في حقل من الأعشاب البرية.

بدت المحلات التجارية الأخرى وكأن أصحابها غادروا لتناول الغداء قبل عقود ولم يكلفوا أنفسهم عناء العودة: كان أحد جدران متجر آبوت للملابس مغطى بصناديق من أحذية العمل «ريد وينغ» الجديدة مكدسة فوق بعضها حتى السقف ومغطاة بالغبار السميك؛ وداخل المنضدة الزجاجية الطويلة، تحت ماكينة النقود العتيقة، وضعت صفوف لا تحصى من القمصان الرجالية، التي لا تزال مطوية ومنشّاة في أكياسها البلاستيكية. كانت الصالة في مطعم روزي مليئة بالكراسي والأرائك المحشوة والسجاد الصوفي، وكلها استحالت بنية وبرتقالية وصفراء بسبب تكدس الغبار. وتوجد لافتة على النافذة الأمامية تقول «مفتوح ٧ أيام في الأسبوع» علقت مباشرةً فوق واحدة تقول «مغلق». في سوبر ماركت غريغوري ومارتن، استقرت عربات التسوق شبه الممتلئة في الممرات بجوار الأطعمة المعلبة التي يبلغ عمرها عقوداً، ولم تتحرك ساعة الحائط بعد الساعة ٦:٣٤ منذ أن أغلق مارتن المتجر ليصبح متعهد دفن الموتى في وقت ما في الثمانينيات.

حتى مع وفاة الأطفال بسبب تعاطي المخدرات ووفاة الجيل الأكبر سناً، لم يكن لدى كلوفر ما يكفي من الوفيات للحفاظ على استمرار عمل متعهد دفن الموتى؛ ففي عام ١٩٧٤ كان عدد سكانها ٢٢٧ نسمة؛ في عام ١٩٩٨ كان ١٩٨. وفي العام نفسه، خسرت بلدة كلوفر ميثاق البلدة. كان لا يزال فيها العديد من الكنائس وعدد قليل من صالونات التجميل، لكنها نادراً ما وُجِدت مفتوحة.

العمل الوحيد الذي بقي وسط البلدة كان مكتب البريد المكون من غرفة واحدة مبنية من الطوب، لكنه كان مغلقاً عندما وصلت إلى هناك.

بدا الشارع الرئيسي مهجوراً بل ويمكنك الجلوس فيه لساعات دون رؤية أحد المشاة أو سيارة. لكنني وجدت رجلاً يقف أمام مطعم روزي، متكئاً على دراجته النارية الحمراء، منتظراً التلويح لأي سيارة قد تمرّ. كان رجلاً قصيراً بديناً أبيض البشرة بخدود حمراء يتراوح عمره بين الخمسين والسبعين عاماً. أطلق عليه السكان المحليون اسم (المُرحّب)، وقضى معظم حياته واقفاً في تلك الزاوية يلوح إلى أيّ شخص مرّ بجانبه بوجهه الخالي من أيّ تعبير. سألته إن كان بإمكانه أن يرشدني إلى بلدة لاكس، حيث خططت للبحث عن صناديق بريد تحمل اسم لاكس ثم طرق الأبواب والسؤال عن هنرييتا. لم ينطق الرجل بكلمة واحدة، بل راح يلوّح لي، ثم أشار ببطء خلفه، عبر المسارات.

كان الخط الفاصل بين لاكس تاون وبقية كلوفر واضحاً للغاية. على أحد جانبي الطريق ذي المسارين من وسط المدينة، كان هناك تلال منحدرة واسعة ومنسقة جيداً وفدادين من العقارات المفتوحة على مصراعيها مع خيول وبركة صغيرة ومنزل محترم على جانب الطريق وشاحنة صغيرة وسياج أبيض. وعلى الجهة المقابلة من الطريق مباشرة يوجد كوخ صغير بغرفة واحدة بعرض حوالي سبعة أقدام وطول اثنتي عشرة قدماً؛ مصنوع من الخشب غير

المطلي، وثمة الكثير من الفجوات الكبيرة بين ألواح الجدران حيث نمت الكروم والأعشاب الضارة.

كان هذا الكوخ بداية حدود لاكس تاون، وهو طريق واحد يبلغ طوله حوالي ميل تصطف على جانبيه عشرات المنازل، بعضها مطلي بالأصفر أو الأخضر الزاهي، والبعض الآخر غير مطلي، ونصفها منهار أو محترق تقريباً. وقد شيدت أكواخ العبيد بجوار المنازل والمقطورات، يعلو بعضها أطباق استقبال القنوات الفضائية وأراجيح الشرفة، والبعض الآخر صدئ وشبه مدفون. رحت أجوب الطريق على طول لاكس تاون مراراً وتكراراً، وأعبر قرب لافتةٍ كتب عليها «نهاية أعمال الصيانة الحكومية» حيث تحول الطريق إلى حصى، وعبرت بجوار حقل تبغ شُيد فيه ملعب كرة سلة لا يعدو كونه رقعة من التراب الأحمر وحلقة مثبتة على قمة جذع شجرة مهترئ.

وقع كاتم الصوت في سيارتي هوندا السوداء في مكان ما بين بيتسبرغ وكلوفر، مما يعني أن الجميع في لاكس تاون سمع صوتها في كلّ مرة مررت بالجوار. فخرجوا إلى الشرفات ونظروا من خلال النوافذ بينما كنت أقود. أخيراً، في المرة الثالثة أو الرابعة، خرج رجل بدا في السبعين من عمره من كوخ خشبي أخضر يرتدي سترة خضراء زاهية ووشاحاً مطابقاً وقبعة قيادة سوداء. لوّح لي بذراع متصلبة، ورفع حاجبيه.

«هل أنتِ تائهة؟» صرخ بصوت عالٍ ليتغلب على ضجيج سيارتي.

سحبت نافذتي للأسفل وقلت «ليس بالضبط».

«حسناً إلى أين تحاولين الذهاب؟» قال متسائلاً. «لأنني أعرف أنك لستِ من هنا».

سألته إن كان قد سمع باسم هنرييتا.

ابتسم وقدّم نفسه على أنه كوتي، ابن عم هنرييتا.

كان اسمه الحقيقي هيكتور هنري، وراح الناس يطلقون عليه اسم كوتي عندما أصيب بشلل الأطفال قبل عقود؛ ولم يكن متأكداً من السبب. كانت بشرة كوتي فاتحة بما يكفي ليبدو رجلاً لاتينياً، لذلك عندما مرض في التاسعة من عمره، أدخله طبيب محلي أبيض إلى أقرب مستشفى، قائلاً إن كوتي ابنه، لأن المستشفيات لم تعالج المرضى السود في ذلك الحين. قضى كوتي عاماً داخل رئة حديدية تتنفس لأجله، وبات يدخل ويخرج من المستشفيات منذ ذلك الحين.

جعله شلل الأطفال مشلولاً جزئياً في عنقه وذراعيه، مع تلفٍ في الأعصاب تسبب في معاناته من ألمٍ مستمر. كان يرتدي وشاحاً بغض النظر عن حرارة الطقس، لأن الدفء ساعد على تخفيف الألم.

شرحت له سبب وجودي هنا، وأشار بيده صعوداً وهبوطاً إلى الطريق. قال: «الجميع في لاكس تاون من أقرباء هنرييتا، لكنها رحلت من مدة طويلة، حتى باتت ذكراها منسيةٌ إلى حدّ كبير الآن. لقد مات كلّ ما يتعلق بـ هنرييتا باستثناء خلاياها».

أشار إلى سيارتي وقال: «هلا أطفأت هذا الشيء الصاخب ودخلت إلى المنزل. سأعدّ لكِ بعض العصير».

فتح باب منزله الأمامي المطل على مطبخ صغير فيه ماكينة لإعداد القهوة ومحمصة قديمة وموقد خشبي قديم مع وعاءين للطهي في الأعلى، أحدهما فارغ والآخر مليء بالفلفل الحار مع اللحم. كان قد دهن جدران المطبخ بالطلاء الأخضر الغامق نفسه للجدران الخارجية، ومدد عليها أسلاك الكهرباء ومضارب الذباب. لقد شيد مؤخراً مرحاضاً داخلياً، لكنه لا يزال يفضل المرحاض الخارجي.

على الرغم من أن كوتي بالكاد يستطيع تحريك ذراعيه، فقد بنى المنزل بمفرده، وعلّم نفسه فنّ البناء مع الوقت، وكذلك تثبيت جدران الخشب الرقائقي وأعمال الجص الداخلية. لكنه نسي استخدام مادة العزل الكهربائي، لذا بعد وقت قصير من انتهائه منه، هدم الجدران وبدأ من جديد. وبعد مضيّ بضع سنوات، احترق المكان بأكمله أثناء نومه تحت بطانية كهربائية، لكنه أعاد بناءه مجدداً. قال إن الجدران كانت منحنية بعض الشيء، لكنه استخدم العديد من المسامير، ولم يعتقد أنها ستنهار يوماً.

أعطاني كوتي كأساً من العصير الأحمر ورافقني من المطبخ إلى غرفة معيشته المعتمة المكسوة بالألواح الخشبية. لم يكن ثمّة أريكة بل عدد من الكراسي المعدنية القابلة للطي وكرسي حلاق مثبت على أرضية المشمع، بوسائد مغطاة بالكامل بشريط لاصق. كان كوتي حلاق لاكس تاون طوال عقود. صرخ من المطبخ: «هذا

الكرسي يُكلف ١٢٠٠ دولاراً الآن، لكنني حصلت عليه مقابل ثمانية دولارات في ذلك الوقت. كان أجر قص الشعر دولاراً واحداً وكنت أحياناً أقص شعر ثمانية وخمسين رأساً في اليوم الواحد». بيد أنه توقف عن العمل في نهاية المطاف لأنه لم يستطع رفع ذراعيه مدة كافية لقصّ الشعر.

أُسند مذياع صغير على إحدى جدران الغرفة يصدح بعرضٍ إنجيلي مع واعظ يصرخ بشيء عن الربّ ليعالج متصلاً يُعاني من التهاب الكبد.

فتح كوتي كرسياً قابلاً للطي لي، ثم مشى إلى غرفة نومه. رفع فراشه بذراع واحدة، ووضعه على رأسه، وبدأ في البحث بين أكوامٍ من الورق مخبأةٍ تحته.

«أعلم أنّ لديّ بعض المعلوماتِ عن هنرييتا هنا في مكان ما»، تمتم من تحت الفراش. «أين وضعتها بحق الجحيم... هل تعلمين أن دولاً أخرى تشتريها مقابل خمسة وعشرين دولاراً، وأحياناً خمسين؟ لم تحصل عائلتها على أيّ أموال لقاء ذلك».

بعد البحث فيما يشبه مئات الأوراق، عاد إلى غرفة المعيشة.

قال: «هذه الصورة الوحيدة التي حصلت عليها»، مشيراً إلى نسخة من مقال صحيفة رولينغ ستون مع صورة اليدين على الوركين نفسها. «أنا لا أعرف ما المكتوب. التعليم الوحيد الذي حصلت عليه، كان عليّ أن أتعلمه بمفردي. لكنني لم أستطع العدّ

يوماً، وبالكاد يمكنني قراءة أو كتابة اسمي لأنّ يدي متوترة للغاية». وسأل عما إذا كان المقال يذكر أيّ شيء عن طفولتها في كلوفر. فهززت رأسي نفياً.

قال: «أحب الجميع هنرييتا لأنها كانت طيبة جداً. إنها محبوبة، تبتسم دائماً وتعتني بنا جيداً عندما نزورها في منزلها. حتى بعد أن مرضت، لم تكن أبداً ممن يتذمرون ويقولون «أشعر بالانزعاج وسألقي همومي عليكم». لم تكن كذلك حتى عندما تتألم. ولكن يبدو أنها لم تفهم ما كان يجري. لم تكن تريد الاعتقاد أنها ستموت».

هز رأسه. قال لي: «أتعلمين، لقد قالوا إذا تمكنا من جمع كلّ خلاياها معاً، ستزن أكثر من ثمانمئة رطلٍ اليوم. وهنرييتا لم تكن يوماً فتاة ضخمة. لكن خلاياها تستمر في النمو». وفي الخلف، صرخ الواعظ الإذاعي «هللويا» مرةً تلو الأخرى بينما كان كوتي يتحدث.

قال لي: «كانت تعتني بي عندما عانيتُ الويلَ مع شلل الأطفال. لطالما قالت لي أنها ستحاول أن تشفيني. لم تستطع مساعدتي لأنني أصبت به قبل أن تمرض، لكنها رأت بأمّ عينها مدى سوء الأمر. أتصور أن هذا ما جعلها تستخدم الخلايا للمساعدة في تخليص الآخرين من الألم». صمت. «لم يفهم أحد هنا أبداً كيف ماتت ولا يزال هذا الشيء حياً. هنا يكمن اللغز».

نظر في أرجاء الغرفة، أومأ برأسه نحو الفراغات بين الجدار والسقف حيث كان يحشو الثوم والبصل المجفف.

قال لي: «كما تعرفين، الكثير من الأشياء من صنع الإنسان»، وخفض صوته إلى حدّ الهمس. «تعرفين ما أعنيه بقولي من صنع الإنسان، أليس كذلك؟».

فهززت رأسي نفياً.

همس: «فودو». [نوع من أنواع السحر الأسود] «يقول بعض الناس إن مرض هنرييتا وخلاياها من صنع رجل أو امرأة، والبعض الآخر يقول إنه من صنع الطبيب».

وأثناء حديثه، ارتفع صوت الواعظ عبر الراديو أكثر فأكثر، قائلاً: «إن الربّ سيساعدك، لكن عليك الاتصال بي الآن. لو كانت ابنتي أو أختي مصابة بالسرطان! أود أن أجري هذا الاتصال الهاتفي، لأن الوقت ينفد!».

صرخ كوتي بصوت أعلى من صوت الراديو. «يقول الأطباء إنهم لم يسمعوا عن حالة تشبه حالة هنرييتا! أنا متأكد من أنه كان إما من صنع الإنسان أو من صنع الأرواح، ما من احتمال ثالث».

ثم أخبرني عن الأرواح في لاكس تاون التي تزور أحياناً منازل الناس وتسبب المرض. قال إنه رأى روحَ رجلٍ في منزله، أحياناً يتكئ على الحائط بجوار موقده الخشبي، وأحياناً أخرى بجوار السرير. لكن الروح الأكثر خطورة، كما أخبرني، كانت روح خنزيرٍ عديم الرأس وزنه عدة أطنان رآه يتجول في لاكس تاون منذ سنوات دون ذيل. تتدلى حلقات السلسلة المكسورة من عنقه

الملطخ بالدماء، ويسحبها على طول الطرق الترابية وتقرقع أثناء سيرها.

قال كوتي: «رأيت هذا الشيء يعبر الطريق إلى مقبرة الأسرة. وقفت تلك الروح هناك وسط الطريق، وسلسلتها تتأرجح مع النسيم». قال كوتي إن الخنزير نظر إليه وراح يركل الأرض بقدميه ناثراً الغبار الأحمر حول جسده واستعد للهجوم. وعندئذٍ ظهرت سيارة مسرعة على الطريق لها مصباح أمامي واحد فقط.

قال كوتي: «اقتربت السيارة وسلطت الضوء عليه، أقسم أنه كان خنزيراً». ثم اختفت الروح. «لا يزال بإمكاني سماع تلك السلسلة وهي تسحب على الطريق». واكتشف كوتي أن تلك السيارة أنقذته من الإصابة بمرض جديد.

قال كوتي: «لا أعرف بالتأكيد ما إذا كانت الأرواح قد أصابت هنرييتا أو إذا كان الطبيب من فعل ذلك، لكنني أعرف أن سرطانها لم يكن سرطاناً عادياً، لأن السرطان العادي لا يستمر في النمو بعد وفاة الشخص».

(١٩٥١)

(١١)

«شيطان الألم شخصياً»

بحلول سبتمبر، استحوذت الأورام على جسد هنرييتا بالكامل تقريباً. لقد نمت على حجابها الحاجز ومثانتها ورئتيها. وسدت أمعائها وجعلت بطنها ينتفخ وكأنها حامل في الشهر السادس. نقلوا لها الدم مرةً تلو الأخرى لأن كليتيها لم تعودا قادرتين على تصفية السموم من دمها، مما جعلها تشعر بالغثيان دوماً بسبب تراكم السموم في جسدها. نقلوا لها الكثير من الدم لدرجة أنّ أحد الأطباء كتب ملاحظة في سجلها لوقف جميع عمليات نقل الدم «إلى حين تعويض العجز الذي سببته في بنك الدم».

عندما سمع ابن عم هنرييتا إيميت لاكس شخصاً ما في سباروز بوينت يقول إن هنرييتا كانت مريضة وتحتاج إلى الدم، رمى الأنبوب الفولاذي الذي كان يقطعه وركض بحثاً عن أخيه وبعض الأصدقاء. كانوا عمالاً، يتنفسون غبار الفولاذ والأسبستوس في رئتيهم وتتراكم سنوات من العمل الشاق تحت أظافرهم المتشققة. لقد ناموا جميعاً في منزل هنرييتا وأكلوا السباغيتي في مطبخها عندما

جاءوا أول مرة إلى بالتيمور من ديارهم، وفي أيّ وقتٍ عانوا فيه من نقص المال. كانت تركب عربة الشارع من وإلى سباروز بوينت للتأكد من أنهم لم يضيعوا خلال الأسابيع الأولى من وجودهم في المدينة. كانت توضّب وجبات الغداء لهم إلى أن يقفوا على أقدامهم، ثم ترسل طعاماً إضافياً مع داي إلى أماكن عملهم حتى لا يجوعوا في الفترات ما بين الرواتب. كانت تشجعهم على ضرورة أن يكون لديهم زوجات وصديقات وأحياناً تساعدهم في العثور على زوجات وصديقات جيدات. بقي إيميت في منزل هنرييتا لمدة طويلة، وقدمَت له سريراً في الرواق أعلى الدرج. كان قد غادر قبل بضعة أشهر فقط.

آخر مرة رأى إيميت هنرييتا عندما أخذها لزيارة إلسي في كراونزفيل. وجدوها تجلس خلف الأسلاك الشائكة في ركنٍ من الحديقة خارج ثكنات الطوب حيث تنام. عندما رأتهما قادمين، أصدرت ضجيجاً يشبه صوت الطيور، ثم ركضت ووقفت تحدق بهما. لفّت هنرييتا ذراعيها حول إلسي، ونظرت إليها مطولاً في عينيها، ثم التفتت إلى إيميت.

قالت هنرييتا: «يبدو أنها في حالة أفضل. نعم، تبدو إلسي لطيفة ونظيفة وعلى خير ما يرام». جلسوا في صمت لمدة طويلة. بدا أن هنرييتا شعرت بالارتياح لرؤية إلسي تبدو على ما يرام، بعد أن فقدت الأمل تقريباً. كانت تلك آخر مرة ترى فيها ابنتها، وأدرك إيميت أنها عرفت أنها تودعها. ما لم تعرفه أن ما من أحدٍ سيزور إلسي مرة أخرى.

بعد بضعة أشهر، عندما سمع إيميت أن هنرييتا بحاجة إلى الدم، تكدس هو وأخوه وستة أصدقاء في شاحنة وذهبوا مباشرة إلى هوبكنز. قادتهم الممرضة عبر جناح الملونين واجتازوا صفوفاً من أسرّة المستشفى إلى المكان الذي كانت تستلقي فيه هنرييتا. كانت قد ذبلت وتراجع وزنها من ١٤٠ رطلاً إلى حوالي ١٠٠ رطل. جلست سادي وشقيقة هنرييتا غلاديس بجانبها، وقد تورمت عيونهما من شدة البكاء وقلة النوم. جاءت غلاديس من كلوفر في حافلة غرايهاوند بمجرد أن سمعت أن هنرييتا في المستشفى. لم تكن الأختان مقربتان من بعضهما، ولا يزال الناس إلى اليوم يضايقون غلاديس، قائلين إنها كانت لئيمة وقبيحة للغاية بحيث لا يمكن أن تكون أخت هنرييتا. لكن هنرييتا كانت من العائلة، لذا جلست غلاديس بجانبها تمسك بوسادة في حضنها.

وقفت الممرضة في الزاوية تشاهد الرجال الثمانية الكبار يتجمعون حول السرير. عندما حاولت هنرييتا تحريك ذراعها لرفع نفسها، رأى إيميت الأشرطة حول معصميها وكاحليها والتي تربطها بإطار السرير.

«ماذا تفعلون هنا؟» قالت هنرييتا وهي تأنّ من الألم.

قال إيميت نيابة عن الرجال الآخرين: «لقد أتينا لنجعلك تتحسنين».

لم تنطق هنرييتا بكلمة. بل وضعت رأسها على الوسادة.

فجأة أصبحت جسدها صلباً مثل لوح حجري. صرخت عندما ركضت الممرضة إلى السرير، وشدت الأشرطة حول ذراعي هنرييتا وساقيها لمنعها من الانهيار على الأرض كما فعلت عدة مرات من قبل. دفعت غلاديس الوسادة من حضنها إلى فم هنرييتا لمنعها من عض لسانها وهي تتشنج من شدة الألم. بكت سادي ومسّدت شعر هنرييتا.

قال لي إيميت بعد سنوات: «يا إلهي. انتفضت هنرييتا في ذلك السرير وكأن شيطان الألم شخصياً استحوذ عليها».

أخرجت الممرضة إيميت وأخوته من الجناح إلى الغرفة المخصصة لجمع دم الملونين حيث سيتبرعون بثمانية مكاييل من الدم. عندما مرّ إيميت من جانب سرير هنرييتا، استدار ليجد أنّ النوبة انتهت وقد أزالت غلاديس الوسادة من فم هنرييتا.

قال لي بعد سنوات: «سأحمل تلك الذكرى معي إلى قبري. عندما كانت تهاجمها نوبة الألم، بدا أن عقلها يقول لها، هنرييتا من الأفضل أن ترحلي. لقد كانت مريضة لدرجةٍ لم أشهدها من قبل. كانت ألطف فتاة عرفتها يوماً وأجمل فتاة. لكن خلاياها يا إلهي، خلاياها شيء آخر. لا عجب أنهم لم يتمكنوا من قتل خلاياها... كان ذلك السرطان شيئاً فظيعاً».

بعد فترة وجيزة من زيارة إيميت وأصدقائه، في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٥١، حقن الطبيب هنرييتا بجرعة كبيرة من المورفين وكتب في سجلها: «إيقاف جميع الأدوية والعلاجات

باستثناء المسكنات». بعد يومين، استيقظت هنرييتا مرعوبة ومشوشة، وتريد أن تعرف أين كانت وماذا يفعل الأطباء بها. ونسيت اسمها لبرهة. ثم التفتت إلى غلاديس بعد هنيهات وأخبرتها أنها ستموت.

قالت هنرييتا لأختها والدموع تنهمر على وجهها: «احرصي على أن يعتني داي بأطفالي. ابنتي ديبورا على وجه الخصوص». كان عمر ديبورا أكثر من عام عندما دخلت هنرييتا المستشفى. أرادت هنرييتا أن تحمل ديبورا وتلبسها ملابس جميلة وتضفر شعرها وتعلمها كيفية طلاء أظافرها وتجعيد شعرها والتعامل مع الرجال.

نظرت هنرييتا إلى غلاديس وهمست: «لا تدعي مكروهاً يصيب هؤلاء الأطفال عندما أرحل».

ثم استدارت وأعطت ظهرها لـ غلاديس، وأغلقت عينيها. خرجت غلاديس من المستشفى واستقلت حافلة غرايهاوند عائدةً إلى كلوفر. في تلك الليلة، اتصلت بـ داي.

قالت له: «هنرييتا ستموت الليلة. إنها تريدك أن تعتني بالأطفال – وعدتها أن أخبرك بذلك. لا تدع أيّ مكروهٍ يصيبهم».

توفيت هنرييتا في الساعة ١٢:١٥ صباحاً في الرابع من أكتوبر عام ١٩٥١.

الجزء الثاني

الموت

(١٩٥١)

(١٢)

العاصفة

لم يكن ثمّةَ نعي لـ هنرييتا لاكس، بيدَ أنّ نبأ وفاتها وصل إلى مختبر غاي بسرعة. عندما وضعت جثة هنرييتا في ثلاجة «الملونين»، سأل غاي أطبائها عما إذا كانوا سيقومون بتشريح الجثة، إذ كان علماء زراعة الأنسجة في جميع أنحاء العالم يحاولون إنشاء مكتبة من الخلايا الخالدة مثل خلايا هنرييتا، وأراد غاي عينات من أكبر عدد ممكن من الأعضاء في جسدها لمعرفة ما إذا كانت ستنمو مثل هيلا. ولكن للحصول على تلك العينات بعد وفاتها، لا بدّ من طلب إذنٍ من زوج هنرييتا.

وعلى الرغم من عدم وجود أيّ قانون أو مدونة أخلاقية تشترط على الأطباء طلب الإذن قبل أخذ الأنسجة من مريض حي، فقد أوضح القانون بجلاء أن إجراء تشريح أو إزالة الأنسجة من الموتى دون إذن أمر غير قانوني.

يذكر داي أنّ شخصاً اتصل من هوبكنز ليخبره نبأ وفاة هنرييتا، ويطلب منه الإذن لتشريح الجثة، لكن داي رفض طلبه. بعد بضع

ساعات، عندما ذهب داي إلى هوبكنز مع ابن عمه لرؤية جثة هنرييتا وتوقيع بعض الأوراق، سأله الأطباء مرة أخرى الأذن بتشريح الجثة. قالوا إنهم يريدون إجراء اختبارات قد تكون ذات نفعٍ لأطفاله يوماً ما. وحثّه ابن عمه قائلاً إن هذا لن يضر لذلك وافق داي في النهاية ووقع على استمارة إذن التشريح.

سرعان ما استلقى جسم هنرييتا على طاولة من الفولاذ المقاوم للصدأ في مشرحة الطابق السفلي الكهفي، ووقفت ماري، مساعدة غاي، في المدخل تتنفس بسرعة وشعرت أنه قد يغمى عليها. فهي لم تر جثةً من قبل. وها هي الآن أمام جثةٍ وكومةٍ من أطباق بتري وطبيب الأمراض، الدكتور ويلبر، الذي وقف محنيّ الظهر فوق منضدة التشريح. مدّد ذراعي هنرييتا كما لو كانت تمد يدها فوق رأسها. سارت ماري نحو الطاولة تهمس لنفسها: «تماسكي، لن تجعلي من نفسك أضحوكة ولن يغمى عليكِ».

خطت بالقرب من إحدى ذراعي هنرييتا وأخذت مكانها بجانب ويلبور، ووركها في إبط هنرييتا. قال لها: مرحباً، وردّت ماري التحية. ثم لاذا بالصمت كلاهما. أراد داي أن يكون مظهر هنرييتا مناسباً للجنازة، لذا أعطى الإذن فقط لتشريح جزئي، مما يعني عدم وجود شق في صدرها وعدم إزالة أطرافها أو رأسها. فتحت ماري الأطباق واحداً تلو الآخر، وحملتها لتجمع فيها العينات التي قطعها ويلبر من جسم هنرييتا: قطعٌ من نسيج المثانة والأمعاء والرحم والكلى والمهبل والمبيض والزائدة الدودية والكبد والقلب والرئتين. وبعد

إسقاط كلّ عينة في طبق بتري، وضع ويلبور قطعاً من ورم هنرييتا الذي غطى عنق الرحم في حاويات مليئة بالفورمالديهايد لحفظها للاستخدام مستقبلاً.

أعلن أنّ السبب الرسمي لوفاة هنرييتا هو يوريميا عضال: تسمم الدم من جراء تراكم السموم التي يتخلص الجسم منها عادةً عن طريق البول. كانت الأورام قد سدّت مجرى البول تماماً، مما جعل أطبائها غير قادرين على تمرير قسطرة إلى مثانتها لتفريغها. وكادت الأورام التي بلغ حجم كلّ منها كرة البيسبول أن تحل محل كليتيها ومثانتها ومبايضها ورحمها. كما غطت أعضائها الأخرى أورامٌ بيضاء صغيرة بدت كما لو أن أحدهم ملأ جسم هنرييتا باللؤلؤ.

وقفت ماري بجانب ويلبور، تنتظره بينما يفرغ من خياطة بطن هنرييتا. أرادت الهروب من المشرحة والعودة إلى المختبر بأسرع وقت، لكنها وقفت تحدّق في ذراعي هنرييتا وساقيها محاولة تجنب النظر في عينيها اللتين جمدت فيهما الحياة إلى الأبد. ثم وقع نظر ماري على قدمي هنرييتا وأصابها الذهول: كانت أظافر هنرييتا مطلية بطلاءٍ أحمر لامع.

قالت لي ماري بعد سنوات: «عندما رأيت أظافرها المطلية، كدت أفقد الوعي. فكرت بيني وبين نفسي: يا إلهي، إنها إنسانة حقيقية. تخيلت كيف تجلس في حمّامها تطلي أظافر قدميها، ولأول مرة أشعر بالصدمة من أن تلك الخلايا التي كنا نعمل معها طوال

هذا الوقت ونرسلها إلى جميع أنحاء العالم، أتت من امرأة حية. لم أفكَر في الموضوع يوماً على هذا النحو».

بعد بضعة أيام، سافر جسد هنرييتا عبر رحلة قطار طويلة ومتعرجة من بالتيمور إلى كلوفر في صندوق بسيطٍ من الصنوبر، والذي كان أفضل ما استطاع داي دفع ثمنه. كانت تمطر عندما استلم الحانوتي المحلي نعش هنرييتا في مستودع كلوفر ووضعه في مؤخرة شاحنة صدئة. طافَ وسط مدينة كلوفر، واجتاز متجر الخردوات حيث اعتادت هنرييتا مشاهدة الرجال البيض العجائز يلعبون الداما، واتجه نحو طريق لاكس تاون، واستدار قبل الملهى مباشرة، حيث كانت ترقص قبل بضعة أشهر فقط. بينما كان الحانوتي يقود سيارته إلى لاكس تاون، خرج أبناء العم إلى الشرفات لمشاهدة مرور جثمان هنرييتا وأيديهم تستند إلى أوراكهم أو ممسكين بالأطفال وهم يهزون رؤوسهم ويهمسون للربّ.

نزل كوتي إلى فناء منزله، ونظر مباشرة إلى السماء تحت المطر المنهمر بغزارةً وصرخ: «يا إلهي الطيب، دع تلك المرأة المسكينة ترتاح، أرجوك استجب لدعائي؟ لقد عانت بما يكفي».

وتردد صدى «آمين» من كلّ شرفةٍ قريبة.

على بعد ربع ميل من الطريق، جلست غلاديس وسادي على السلالم الخشبية المكسورة للمنزل، وثمة فستان وردي طويل يتدلى على حجريهما وسلة عند أقدامهما مليئة بالمكياج ولفافات الشعر وطلاء الأظافر الأحمر، وبنسين ستضعانها على عيني هنرييتا لإبقائهما

مغلقتين عن الناظرين. راقبتا بصمتٍ الحانوتي يتقدم بعربته عبر الحقل بين الطريق والمنزل وتغرق إطاراته في برك من الطين الأحمر.

وقف كلّ من كليف وفريد في المقبرة خلف المنزل وملابسهما تقطر ماءً بفعل المطرِ الغزير. قضيا معظم اليوم في حفر أرض المقبرة الصخرية بالمجارف لتجهيز قبرٍ لـ هنريبتا. حفرا في بقعة، ثم انتقلا إلى أخرى كلما ضربت مجارفهم توابيت أقارب مجهولين مدفونين دون شواهد لقبورهم. في نهاية المطاف وجدوا بقعة فارغة لـ هنرييتا بالقرب من شاهد قبر والدتها.

عندما سمع كليف وفريد صوت شاحنة الحانوتي، اتجها نحو المنزل للمساعدة في حمل نعش هنرييتا. أدخلوها ردهة المنزل وفتحوا صندوق الصنوبر، فشرعت سادي تبكي بحرقة. أكثر ما أثار حزنها لم يكن منظر جسد هنرييتا الذي فارقته الحياة؛ بل منظر أظافر قدميها، فقد كانت هنرييتا تفضل الموت على أن يصبح طلاء أظافرها مشققاً على هذا النحو.

صرخت سادي: «يا رب. هل لا بدّ أن هيني تعاني مما هو أسوأ من الموت».

لعدة أيام، ظلّت جثة هنرييتا في رواق المنزل، وكانت الأبواب مفتوحة من كلّ ناحية للسماح بدخول النسيم الرطب البارد الذي من شأنه أن يحمي جسدها من التلف. انتشرت العائلة والجيران في الحقل لتقديم التعازي، واستمر المطر ضيفَ الحدث طوال الوقت.

في صباح جنازة هنرييتا، سار داي في الوحل مع ديبورا وجو وسوني ولورانس. ولكن دون إلسي. كانت لا تزال في كراونزفيل ولم تعرف حتى أن والدتها ماتت.

لا يذكر أبناء لاكس الكثير عن حفل التأبين، بعضهم ذكر أن بعض الكلمات ألقيت تأبيناً لها وعُزفت أغنية أو ربما اثنتان. لكنهم جميعاً يتذكرون ما حدث بعد ذلك. عندما أنزل كليف وفريد تابوت هنرييتا إلى قبرها وبدأوا في تغطيتها بحفناتٍ من التراب، تحولت السماء إلى اللون الأسود مثل دبس السكر. وبدأ المطر يهطل كثيفاً وسريعاً. ثم تبعه رعد هادر مستمر، وصراخ الأطفال واندلاع رياحٍ قوية جداً مزّقت السقف المعدني للحظيرة تحت المقبرة وراح يُحلقَ في الهواء فوق قبر هنرييتا، وجناحاه المعدنيان الطويلان يرفرفان مثل جناحي طائر فضي عملاق. كما تسببت الرياح باندلاع حرائق أكلت حقول التبغ. واقتلعت الأشجار من جذورها، وطارت خطوط الكهرباء لأميال، واقتُلعَت كوخاً خشبياً لأحد أبناء لاكس من أساسه وحمل الرجل داخله من غرفة المعيشة وألقته في حديقته، ثم هبط الكوخ فوقه وتسبب بموته على الفور.

بعد سنوات، عندما نظر بيتر ابن عم هنرييتا إلى الوراء في ذلك اليوم، هز رأسه الأصلع وضحك: «هيني لم يكن أبداً امرأة تحب الألغاز. كان علينا أن ندرك أنها تحاول إخبارنا بشيء ما من خلال تلك العاصفة».

(١٣)
مصنع هيلا

بعد وقت قصير من وفاة هنرييتا، بدأ التخطيط لتشييد مصنع هيلا - وهو مشروع ضخم من شأنه أن ينتج تريليونات من خلايا هيلا كلّ أسبوع. وبُني ليخدم غرضاً واحداً وهو المساعدة في الحدّ من شلل الأطفال.

ففي نهاية عام ١٩٥١، كان العالم يعاني من أكبر وباء لشلل الأطفال في التاريخ. أُغلقت المدارس وأُصيب الآباء بالذعر وأصبح الناس في حاجة ماسة لإيجاد اللقاح. في فبراير ١٩٥٢، أعلن جوناس سالك من جامعة بيتسبرغ أنه طور أول لقاح ضد شلل الأطفال في العالم، لكنه لم يستطع البدء في تقديمه للأطفال حتى يختبره على نطاق واسع لإثبات أنه آمن وفعال. والقيام بذلك يتطلب زراعة الخلايا على نطاق صناعي هائل، وهو ما لم يفعله أحد من قبل.

عمدت المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال (NFIP) -وهي مؤسسة خيرية أنشأها الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت، الذي أُصيب هو نفسه بالشلل بسبب فيروس شلل الأطفال- إلى الشروع بتنظيم

أكبر تجربة ميدانية أُجريت على الإطلاق لاختبار لقاح شلل الأطفال. أعطى سالك اللقاح لمليوني طفل في حين قامت المؤسسة بفحص دمهم لترى مدى تجاوب مناعتهم مع اللقاح. لكن القيام بذلك يتطلب إجراء الملايين من اختبارات التعادل، والتي تتضمن خلط مصل الدم من الأطفال الذين تم تطعيمهم حديثاً بفيروس شلل الأطفال الحي والخلايا في المزرعة. إذا نجح اللقاح، فإن مصل دم الطفل الملقح سيثبط فيروس شلل الأطفال ويحمي الخلايا. وإذا لم ينجح، فإن الفيروس سوف يصيب الخلايا، مسبباً أضراراً يمكن للعلماء رؤيتها باستخدام المجهر.

كانت المشكلة التي واجهتهم في تلك المرحلة، أن الخلايا المستخدمة في اختبارات التعادل أُخذت من القرود التي قُتلت في هذه العملية. كانت هذه مشكلة، ليس بسبب القلق على سلامة الحيوان، والتي لم تكن قضية ذات أهمية آنذاك كما هي اليوم، بل لأن القرود كانت باهظة الثمن. القيام بملايين من اختبارات التحييد باستخدام خلايا القرود سيكلف ملايين الدولارات. لذا، اختارت المؤسسة السعي الحثيث للبحث عن خلية مزروعة يمكن أن تنمو على نطاق واسع وتكون أرخص كلفةً من القرود.

لجأت المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال إلى غاي وعدد من خبراء زراعة الخلايا الآخرين طلباً للمساعدة، وقبلَ غاي باغتنام الفرصة لأنها في نظره تشكّل منجم ذهب لمجال الأبحاث هذا. نجحت مبادرة مارش أوف دايمز March of Dimes التابعة للمؤسسة في جمع

حوالي ٥٠ مليون دولار في شكل تبرعات كلّ عام، وأراد مديرها أن يقدم جزءاً كبيراً من تلك الأموال لأخصائيي زراعة الخلايا حتى يتمكنوا من العثور على طريقة لإنتاج الخلايا بكميات كبيرة، وهو ما كانوا يريدون القيام به لسنوات على أيّ حال.

كان التوقيت مثالياً؛ إذ بعد فترة وجيزة من اتصال المؤسسة بـ غاي للحصول على المساعدة، أدرك أن خلايا هنرييتا نمت على عكس أيّ خلايا بشرية رآها.

حيث نمت معظم الخلايا في المزرعة في طبقة مفردة على شكل خثرة على سطح زجاجي، مما يعني أنها شغلت المكان كله بسرعة. كانت زيادة أعدادها على هذا النحو مرهقة للعاملين في المختبر، فقد اضطر العلماء إلى كشط الخلايا مراراً وتكراراً من أنبوب الزرع وتقسيمها إلى أنبوبين جديدين لإعطائها مساحة أكبر. اتضح أن خلايا هيلا لم تكن صعبة المراس ولم تكن بحاجة إلى سطح زجاجي لتنمو. بل يمكنها النمو وهي تطفو وسط مزرعة يمكن تحريكها باستمرار بواسطة جهاز مغناطيسي، وهي تقنية مهمة ابتكرها غاي، وتسمى الآن بالنمو في المعلّق. هذا يعني أن خلايا هيلا لم تكن مقيدة بالمساحة كما كان الحال مع الخلايا الأخرى؛ يمكن أن تنقسم ببساطة حتى نفاد وسط الزرع. وكلما كبر وعاء وسط الزرع، نمت الخلايا أكثر. هذا الاكتشاف يعني أنه إذا كانت هيلا عرضة لفيروس شلل الأطفال، حيث لم تكن جميع الخلايا كذلك، فإنه سيحل مشكلة الإنتاج الشامل ويجعل من الممكن اختبار اللقاح دون الحاجة للملايين من القرود.

لذلك، في أبريل ١٩٥٢، حاول غاي وأحد زملائه من اللجنة الاستشارية للمؤسسة الوطنية لشلل الأطفال، ويليام شيرَر، وهو زميل شاب في مرحلة ما بعد الدكتوراه في جامعة مينيسوتا، إصابة خلايا هنرييتا بفيروس شلل الأطفال. في غضون أيام وجدوا أن هيلا أكثر عرضة للفيروس من أيّ خلايا مزروعة أخرى. وعندما أدركوا هذا، عرفوا أنهم وجدوا بالضبط ما تبحث عنه المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال.

كانوا يعلمون أيضاً أنه قبل إنتاج أيّ خلايا بشكل كبير، عليهم العثور على طريقة جديدة لشحنها. عمل نظام الشحن الجوي الذي اعتمده غاي بشكل جيد لإرسال بعض الخلايا إلى الزملاء هنا وهناك، لكنه كان مكلفاً جداً للشحن على نطاق واسع. ولن يساعد نمو الخلايا بالمليارات أيّ شخص إذا لم يتمكن من الحصول على تلك الخلايا في المكان الذي يحتاجها فيه. لذلك، بدأوا في إجراء التجارب.

في يوم الذكرى من العام ١٩٥٢، جمع غاي حفنة من الأنابيب التي تحتوي على خلايا هيلا وما يكفي من أوساط الزرع لكي يبقيها على قيد الحياة لبضعة أيام، وعبأها في علبة قصدير مبطنة بالفلين ومملوءة بالثلج لمنع ارتفاع درجة الحرارة. ثم كتب تعليمات دقيقة بشأن التغذية والتعامل معها، وأرسل ماري إلى مكتب البريد لشحنها إلى شيرَر في مينيسوتا. وكانت جميع مكاتب البريد في بالتيمور مغلقة لقضاء العطلة باستثناء الفرع الرئيسي في وسط

المدينة. فاضطرت ماري لأخذ عدة عربات للوصول إلى هناك، لكنها نجحت في نهاية المطاف. وكذلك الخلايا: عندما وصل الطرد إلى مينيابوليس بعد حوالي أربعة أيام، وضع شيرَر الخلايا في الحاضنة وسرعان ما بدأت في النمو. لقد كانت أول خلايا حية تشحن بنجاح في البريد.

وطوال الأشهر اللاحقة لاختبار طرق التسليم المختلفة، والتأكد من أن الخلايا يمكن أن تنجو من رحلات طويلة في أيّ مناخ، أرسل غاي وشيرَر أنابيب من خلايا هيلا إلى جميع أنحاء البلاد عبر الطائرة والقطار والشاحنة، من مينيابوليس إلى نورويتش إلى نيويورك والعودة مرة أخرى. ولم يمت سوى أنبوب واحد فقط.

عندما سمعت المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال الأخبار التي تفيد بأن هيلا كانت عرضة لفيروس شلل الأطفال ويمكن أن تنمو بكميات كبيرة مقابل كلفة زهيدة من المال، تعاقدت على الفور مع ويليام شيرَر للإشراف على تطوير مركز توزيع خلايا هيلا في معهد توسكيجي الذي يعد من أهم جامعات السود المرموقة في البلاد. اختارت المؤسسة معهد توسكيجي للمشروع بسبب تشارلز باينوم، مدير «الأنشطة الزنجية» للمؤسسة. أراد باينوم، مدرّس العلوم والناشط في الحقوق المدنية الذي كان أول مدير تنفيذي أسود للمؤسسة في البلاد أن يكون مقر المركز في توسكيجي لأنه سيوفر مئات الآلاف من الدولارات من التمويل، والعديد من الوظائف وفرص التدريب للعلماء السود الشباب.

في غضون بضعة أشهر فقط، قام طاقم من ستة علماء وفنيين سود ببناء مصنع في توسكيجي لا مثيل له من قبل. كانت تتكدس على رفوف جدرانه أجهزة أوتوكلاف الفولاذية الصناعية للتعقيم بالبخار؛ وتكدست صفوف متتالية من حاويات أوساط الزرع الضخمة التي تحرّك ميكانيكياً؛ وحاضنات؛ وأوعية الزراعة الزجاجية المكدسة على جوانبها؛ وموزعات الخلايا الأوتوماتيكية على شكل أداة طويلة ذات أذرع معدنية رفيعة وطويلة تقوم بضخ خلايا هيلا في أنبوب اختبار تلو الآخر. قام فريق توسكيجي بخلط آلاف اللترات من وسط الزرع الذي ابتكره غاي كلّ أسبوع، وذلك باستخدام الأملاح والمعادن والمصل الذي جمعوه من العديد من الطلاب والجنود ومزارعي القطن الذين استجابوا للإعلانات في الصحيفة المحلية الذي عرض التبرع بالدم مقابل المال.

وعمل العديد من الفنيين في خط التجميع لمراقبة الجودة، يحدقون من خلال عدسات المجاهر في مئات الآلاف من مزارع هيلا كلّ أسبوع للتأكد من أن العينات حية وسليمة. وشحنها آخرون وفق جدول زمني صارمٍ إلى الباحثين في ثلاثة وعشرين مركزاً لاختبار شلل الأطفال في جميع أنحاء البلاد.

في نهاية المطاف، بلغ عدد العاملين في توسكيجي خمسة وثلاثين عالماً وفنياً، أنتجوا عشرين ألف أنبوب من خلايا هيلا أيّ حوالي ٦ تريليون خلية كلّ أسبوع. كان أول مصنع لإنتاج الخلايا على

الإطلاق، وبدأ بقارورة واحدة من هيلا أرسلها غاي إلى شيرَر في أول تجربة شحن، بعد مدةٍ قصيرةٍ من وفاة هنرييتا.

ومن خلال تلك الخلايا، ساعد العلماء في إثبات فعالية لقاح سالك. ولاحقاً عرضت صحيفة نيويورك تايمز صوراً لنساء سود منحنيات فوق المجاهر يفحصن الخلايا، وأيدي سوداء تحمل قوارير من هيلا، والعنوان الرئيسي:

الوحدة في توسكيجي تساعد على مكافحة شلل الأطفال
فريق من العلماء الزنوج يضطلع بدورٍ رئيسي
في تقييم لقاح الدكتور سالك
خلايا هيلا تستمر في النمو

استخدم العلماء والفنيون السود، والعديد منهم من النساء، خلايا من امرأة سوداء للمساعدة في إنقاذ حياة ملايين الأمريكيين، معظمهم من البيض. وفعلوا ذلك في الحرم الجامعي نفسه وفي التوقيت نفسه الذي كان يجري فيه مسؤولو الدولة دراسات الزهري سيئة السمعة في توسكيجي.

في بداية الأمر، قدم مركز توسكيجي خلايا هيلا لمختبرات اختبار شلل الأطفال فقط. ولكن عندما أصبح من الواضح أنه لم يكن هناك أيّ خطر من نقص خلايا هيلا، بدأوا في إرسال الخلايا إلى أيّ عالِم مهتم بشرائها مقابل عشرة دولارات بالإضافة إلى رسوم الشحن عبر شركة إير إكسبريس. إذا أراد الباحثون معرفة سلوك الخلايا في بيئة معينة، أو كيف تفاعلت مع مادة كيميائية معينة، أو

أنتجت بروتيناً معيناً، فإنهم يلجؤون إلى خلايا هنرييتا. لقد فعلوا ذلك لأنه على الرغم من كونها خلايا سرطانية، فإن هيلا لا تزال تشترك في العديد من الخصائص الأساسية مع الخلايا الطبيعية: فهي تنتج البروتينات وتتواصل مع بعضها مثل الخلايا الطبيعية، وتنقسم وتنتج الطاقة، وتستنسخ الجينات وتنظمها، وهي عرضة للمرض، مما يجعلها أداة مثالية لاصطناع ودراسة عدد من الأمور في وسط الزرع، بما في ذلك البكتيريا والهرمونات والبروتينات، وخاصة الفيروسات.

تتكاثر الفيروسات عن طريق حقن أجزاء من مادتها الوراثية في خلية حية، مما يعيد برمجة الخلية بحيث تعيد إنتاج الفيروس بدلاً من أن يفعل ذلك بنفسه. وعندما يتعلق الأمر بنمو الفيروسات -كما هو الحال مع العديد من الأشياء الأخرى- فإن حقيقة أن هيلا كانت خلايا خبيثاً جعلها أكثر فائدة. نمت خلايا هيلا أسرع بكثير من الخلايا الطبيعية، وبالتالي أعطت نتائج أسرع. كانت هيلا خلايا كادحة تعمل بجدّ دون كلفةٍ تذكر ومتاحة في كلّ مكان.

وكان التوقيت مثالياً. في أوائل الخمسينيات، كان العلماء قد بدأوا للتو في فهم الفيروسات، لذلك مع وصول خلايا هنرييتا إلى المختبرات في جميع أنحاء البلاد، عمل الباحثون على تعريضها للفيروسات من جميع الأنواع مثل الهربس والحصبة والنكاف والجدري والتهاب الدماغ الخيلي، وذلك بغية دراسة كيفية دخول كلّ واحد منها إلى الخلايا وتكاثرها وانتشارها.

لقد ساعدت خلايا هنرييتا في فسح المجال أمام الحقل الناشئ لعلم الفيروسات، لكن تلك كانت البداية فحسب. في السنوات التي تلت وفاة هنرييتا، حقق الباحثون في جميع أنحاء العالم تقدماً علمياً مهماً على العديد من الصعد وفق تعاقب سريع وذلك باستخدام الأنابيب الأولى من خلاياها. بدايةً، استخدم مجموعة من الباحثين خلايا هيلا لتطوير طرق لتجميد الخلايا دون الإضرار بها أو تغييرها. مما جعل من الممكن إرسال الخلايا إلى كافة أرجاء العالم باستخدام الطريقة القياسية نفسها المستخدمة لشحن الطعام المجمد والنطاف المجمدة للماشية. كما مكّن الباحثين أيضاً من حفظ الخلايا بين التجارب دون القلق بشأن تغذيتها وتعقيمها. لكن أكثر ما أثار حماسة العلماء أن التجميد أعطاهم وسيلة لتعليق الخلايا في حالات مختلفة من الحياة.

كان تجميد الخلية أشبه بالضغط على زر الإيقاف المؤقت في مراحل مختلفة مثل انقسام الخلية أو الاستقلاب وعندئذٍ كلّ شيء آخر يتوقف ببساطة ثم يُستأنف بعد الذوبان كما لو أنك ضغطت على زر التشغيل مرة أخرى. يمكن للعلماء الآن إيقاف الخلايا مؤقتاً على فترات مختلفة أثناء التجربة حتى يتمكنوا من مقارنة كيفية تفاعل خلايا معينة مع عقار معين خلال أسبوع واحد، ثم اثنين، ثم ستة من بعد التعرض له. يمكنهم البحث عن خلايا متطابقة في مراحل زمنية مختلفة لدراسة كيف تغيرت مع التقدم في العمر. ومن خلال تجميد الخلايا في مراحل مختلفة، اعتقدوا أن بوسعهم رؤية اللحظة

الفعلية التي تنمو عندها خلية طبيعية في وسط الزرع لتصبح خلية خبيثة، وهي ظاهرة أطلقوا عليها اسم التحول التلقائي.

ولعل التجميد كان التحسين الأول من بين العديد من التحسينات المتلاحقة التي ساعدت خلايا هيلا في إدخالها إلى حقل زراعة الأنسجة. ومن أهمها توحيد ميدان العمل الذي كان فوضوياً بعض الشيء في تلك المرحلة. كان غاي وزملاؤه يشتكون من أنهم يضيعون الكثير من الوقت لمجرد تحضير وسط الزرع ومحاولة الحفاظ على الخلايا على قيد الحياة. لكن قلقهم الأكبر كان من أنه نظراً لأن الجميع استخدموا مكونات أوساط زرع مختلفة ووصفات وخلايا وتقنيات مختلفة، وقلما اطلعوا على أساليب أقرانهم، كان من الصعب، إن لم نقل من المستحيل، تكرار تجارب بعضهم البعض. وتكرار التجارب جزء أساسي من العلم: لا يعتبر الاكتشاف صالحاً إذا لم يتمكن الآخرون من تكراره والحصول على نفس النتيجة. وبسبب غياب أيّ مواد أو أساليب موحدة، كانوا قلقين من أن مجال زراعة الأنسجة سوف يتراجع.

وكان غاي وعدد من زملائه قد نظموا للتوّ لجنةً لتطوير إجراءات «تبسيط وتوحيد تقنية زراعة الأنسجة». كما أقنعوا أيضاً شركتين ناشئتين في مجال الإمداد البيولوجي، ميكروبيولوجي أسوسيتس ومختبرات ديفكو، بالبدء في إنتاج وبيع مكونات وسائط الزرع، وشرحوا لهما التقنيات اللازمة للقيام بذلك. كانت تلك الشركتين قد بدأتا للتو في بيع مكونات أوساط الزرع، ولكن لا

يزال يتعين على زارعي الخلايا صنع أوساط الزرع بأنفسهم، وجميعهم يستخدمون وصفات مختلفة.

لم يكن توحيد المجال ممكناً حتى حدثت عدة أشياء: أولاً، بدأت توسكيجي في إنتاج خلايا هيلا بكميات كبيرة؛ ثانياً، استخدم باحث يدعى هاري إيجل في معاهد الصحة الوطنية (NIH) خلايا هيلا لتطوير أول وسط زراعة موحد يمكن صنعه بالغالونات وشحنه جاهزاً للاستخدام؛ وثالثاً، استخدم غاي وعدة أشخاص آخرين هيلا لتحديد أيّ الأواني الزجاجية وسدادات أنابيب الاختبار كانت أقل سمية للخلايا.

عندئذٍ فقط، ولأول مرة، بات بوسع الباحثين في جميع أنحاء العالم العمل مع الخلايا نفسها التي تنمو في وسط الزرع نفسه باستخدام المعدات نفسها والتي يمكنهم شراؤها وتسليمها إلى مختبراتهم. وسرعان ما سيتمكنون من استخدام أول استنساخ للخلايا البشرية، وهو شيء كانوا يعملون من أجله لسنوات.

اليوم، عندما نسمع كلمة استنساخ، نتخيل العلماء يصنعون حيوانات حية كاملة باستخدام الحمض النووي من أحد الوالدين، مثل دوللي النعجة المستنسخة الشهيرة. ولكن قبل استنساخ الحيوانات كاملة، كان هناك استنساخ الخلايا الفردية - خلايا هنرييتا.

ولفهم سبب أهمية الاستنساخ الخلوي، تحتاج إلى معرفة أمرين: أولاً، لم تنمو هيلا من إحدى خلايا هنرييتا. بل نمت من خزعة مستأصلةٍ من ورمها، والتي كانت مجموعة عنقودية من

الخلايا. ثانياً، غالباً ما تسلك الخلايا سلوكاً متفاوتاً، حتى لو كانت جميعها من العينة نفسها، مما يعني أن بعضها ينمو أسرع من غيرها، وبعضها ينتج المزيد من فيروسات شلل الأطفال، وبعضها مقاوم لبعض المضادات الحيوية. أراد العلماء زرع المستنسخات الخلوية، أيّ سلالات الخلايا التي تنحدر من خلايا فردية، حتى يتمكنوا من تسخير هذه السمات الفريدة. وبوجود هيلا، نجحت مساعي مجموعة من العلماء في كولورادو، وسرعان ما امتلك العالم ليس فقط هيلا بل المئات، ثم الآلاف من المستنسخات.

ساعدت الزراعة المبكرة للخلايا وتكنولوجيا الاستنساخ التي طُوّرت باستخدام هيلا في تحقيق العديد من القفزات اللاحقة التي تتطلب القدرة على ضمان زراعة خلايا مفردة في وسط الزرع، بما في ذلك عزل الخلايا الجذعية، واستنساخ حيوانات كاملة، والتخصيب في المختبر. في هذه الأثناء، وباعتبارها الخلية البشرية القياسية في معظم المختبرات، استخدمت هيلا أيضاً في الأبحاث التي من شأنها أن تعزز المجال الجديد لعلم الوراثة البشرية.

لطالما اعتقد الباحثون أن الخلايا البشرية تحتوي على ثمانية وأربعين كروموسوماً، وهي خيوط من الحمض النووي داخل الخلايا تحمل جميع معلوماتنا الجينية. لكن الكروموسومات تتكتّل معاً، مما يجعل من المستحيل إحصاء العدد الدقيق. ثم في عام ١٩٥٣، قام عالِم جينات في تكساس عن طريق الخطأ بخلط السائل الخطأ مع خلايا هيلا وعدد من الخلايا الأخرى، واتضح أنه كان خطأً

موفقاً. تضخمت الكروموسومات داخل الخلايا وانتشرت، وللمرة الأولى، تمكن العلماء من رؤية كلّ منها بوضوح. كان هذا الاكتشاف العرضي هو الأول من بين العديد من التطورات التي من شأنها أن تسمح لباحثين اثنين من إسبانيا والسويد باكتشاف أن الخلايا البشرية الطبيعية تحتوي على ستة وأربعين كروموسوماً.

وبمجرد أن يعرف العلماء عدد الكروموسومات التي من المفترض أن يمتلكها البشر، يمكنهم عندئذٍ معرفة متى يكون لدى الشخص عدد كبير جداً أو قليل جداً، مما يجعل من الممكن تشخيص الأمراض الوراثية. وشرع الباحثون في جميع أنحاء العالم في تحديد الاضطرابات الكروموسومية، واكتشاف أن المرضى الذين يعانون من متلازمة داون لديهم كروموسوم إضافي رقم ٢١، والمرضى الذين يعانون من متلازمة كلاينفلتر لديهم كروموسوم جنسي إضافي، وأولئك الذين يعانون من متلازمة تيرنر يفتقرون إلى كلّ أو جزء من كروموسوم محدد.

وفي ضوء كلّ هذه التطورات الجديدة، زاد الطلب على هيلا، ولم تكن توسكيجي كبيرة بما يكفي لمواكبة ذلك. لم يكن صاحب شركة ميكروبيولوجي أسوسيتس، وهو رجل عسكري يدعى صاموئيل ريدر، يعرف شيئاً عن العلم، لكن شريكه في العمل، مونرو فينسينت، كان باحثاً يفهم السوق المحتملة للخلايا. إذ يحتاج العديد من العلماء إلى خلايا، ولكن القليل منهم لديه الوقت أو القدرة على زراعتها بكميات كبيرة بما يكفي. هم أرادوا شِرائها

وحسب. لذلك استخدم كلاً من ريدر وفنسنت خلايا هيلا نقطةَ انطلاقٍ لأول مركز توزيع خلايا ربحي على نطاق صناعي.

بدأ بما أشار إليه ريدر بمحبة باسم مصنع الخلايا. في بيثيسدا، ماريلاند، وسط مستودع واسع كان في وقت من الأوقات مصنع رقائق الذرة فريتوس، قام ببناء غرفة زجاجية مغلقة تحتوي على حزام ناقل دوار مع مئات من حاملات أنابيب الاختبار المدمجة فيه. وخارج الغرفة الزجاجية، كان لديه منصة عمل مثل توسكيجي، مع أوعية ضخمة من وسط الزرع ولكن أكبر. عندما تصبح الخلايا جاهزة للشحن، يطلق صوت جرس عالٍ وكان جميع العمال في المبنى، بما فيهم كتبة غرفة البريد، يوقفون ما يفعلونه، ويفركون أنفسهم في محطة التعقيم، ويأخذون قبعة ورداء، ويصطفون أمام حزام الناقل. بعضهم يملأ الأنابيب والبعض الآخر يضع السدادات المطاطية أو يحكم إغلاق الأنابيب، أو يكدسها داخل غرف حاضنة حيث تبقى هناك إلى أنّ يتم تعبئتها للشحن.

كان أكبر عملاء شركة ميكروبيولوجي أسوسيتس مختبرات مهمة مثل معاهد الصحة الوطنية، والذي أرسل طلبات مستمرة لشراء الملايين من خلايا هيلا وتسليمها له وفقاً لجداول زمنية محددة. وتمكّن العلماء من جميع أنحاء العالم من شراء طلبيات متعددة مقابل أقل من خمسين دولاراً، لتقوم الشركة ببيعهم قوارير خلايا هيلا من إنتاج ليلة واحدة وحسب. أبرم ريدر عقوداً مع العديد من شركات الطيران الكبرى، لذلك كلما تلقّى طلبية، كان يرسل ساعياً يحمل

الخلايا للحاق بالرحلة التالية، ثم يقوم بتوصيل الخلايا من المطار وتسليمها إلى المختبرات بواسطة سيارة أجرة. شيئاً فشيئاً، وُلدت صناعة تقدّر بمليارات الدولارات تبيع مواد بيولوجية بشرية.

وظّف ريدر كبار العقول في هذا المجال لاطلاعه على المنتجات التي يحتاجونها أكثر من غيرها وتوضيح كيفية صنعها. وكان ليونارد هايفليك من ضمن العلماء الذين استشارهم ريدر، ويمكن القول إنه الأشهر بين زارعي الخلايا الأوائل في هذا المجال اليوم. عندما تحدثت معه، قال: «حققت شركة ميكروبيولوجي أسوسيتس وسام ريدر ثورة مطلقة في هذا المجال، وأنا لست من الذين يستخدمون كلمة ثورة بسهولة».

مع نمو أعمال ريدر، انخفض الطلب على الخلايا من توسكيجي. أغلقت المؤسسة الوطنية لشلل الأطفال مركز إنتاج خلايا هيلا لأن أماكن مثل شركة ميكروبيولوجي أسوسيتس باتت تزود العلماء بجميع الخلايا التي يحتاجون إليها. لاحقاً، لم تكن خلايا هيلا الوحيدة التي تباع وتشترى للأبحاث مع توحيد أوساط الزرع والمعدات القياسية، بل أصبحت الزراعة أسهل، وبدأ الباحثون في زراعة الخلايا من جميع الأنواع. ولكن لم ينمو أيّ منها بكميات ضخمة مثل هيلا.

مع تصاعد الحرب الباردة، عرّض بعض العلماء خلايا هنرييتا لجرعات هائلة من الإشعاع لدراسة كيفية تدمير القنابل النووية للخلايا وإيجاد طرق لعكس هذا الضرر. وضعها آخرون في طارداتٍ

مركزية خاصة تدور بسرعة كبيرة وكان الضغط في الداخل أكثر من الجاذبية بمئة ألف مرة، وذلك لرؤية ما يحدث للخلايا البشرية في ظل الظروف القصوى للغوص في أعماق البحار أو الطيران في الفضاء.

وبدا أنّ الاحتمالات لا حصر لها. في إحدى المرات، سمعَت مديرة التربية الصحية في جمعية الشابات المسيحيات عن زراعة الأنسجة وكتبت رسالة إلى مجموعة من الباحثين تقول فيها إنها تأمل في أن يتمكنوا من استخدامها لمساعدة المسنات في جمعية الشابات المسيحية. وكتبَت: «إنهن يشكين من أن جلد وأنسجة الوجه والرقبة تظهر حتماً ترهلاً وتجاعيد مع مرور السنين. وخطر لي أنه بما أنكم تعرفون كيفية الحفاظ على الأنسجة على قيد الحياة، فلا بد من وجود طريقة ما لموازنة الإمدادات التي تغذي خلايا العنق والوجه».

لم تستطع خلايا هنرييتا أن تساعد في إعادة الشباب إلى أعناق النساء، لكن شركات مستحضرات التجميل والمستحضرات الصيدلانية في جميع أنحاء الولايات المتحدة وأوروبا بدأت في استخدامها بدلاً من حيوانات المختبرات لاختبار ما إذا كانت المنتجات والأدوية الجديدة تسبب أضراراً خلوية. قطع العلماء خلايا هيلا إلى نصفين لإظهار أن الخلايا يمكن أن تعيش بعد إزالة نواتها، واستخدموها لتطوير طرق لحقن المواد في الخلايا دون تدميرها. استخدموا هيلا لاختبار آثار المنشطات وأدوية العلاج

الكيميائي والهرمونات والفيتامينات والإجهاد البيئي، كما عرضوها للإصابة بالسل والسالمونيلا والبكتيريا التي تسبب التهاب المهبل.

بناء على طلب من حكومة الولايات المتحدة، أخذ غاي خلايا هنرييتا معه إلى الشرق الأقصى في عام ١٩٥٣ لدراسة الحمى النزفية التي كانت تقتل القوات الأمريكية. وحقنها في الفئران لمعرفة ما إذا كانت تسبب السرطان. لكنه حاول في الغالب الاستقلال عن هيلا، مع التركيز بدلاً من ذلك على نمو الخلايا الطبيعية والسرطانية لدى المريض نفسه، حتى يتمكن من مقارنتها ببعضها البعض. لكنه لم يستطع الهروب من الأسئلة التي لا نهاية لها على ما يبدو حول هيلا وزراعة الخلايا من العلماء الآخرين. جاء الباحثون إلى مختبره عدة مرات كلّ أسبوع يرغبون في تعلم تقنياته، وغالباً ما كان يسافر إلى المختبرات في جميع أنحاء العالم للمساعدة في إنشاء مرافق زراعة الخلايا.

ضغط على غاي العديد من زملائه لنشر أوراق بحثية حتى يتمكن من الحصول على الفضل في عمله، لكنه قال دائماً إنه مشغول جداً. حتى في المنزل، ظل مستيقظاً طوال الليل للعمل. وتقدم بطلب لتمديد المنح، وكثيرا ما استغرق شهوراً للردّ على الرسائل، واستمر في وقت من الأوقات في دفع راتب موظفٍ متوفٍ لمدة ثلاثة أشهر قبل أن يلاحظ أحد. استغرق الأمر عاماً من الإلحاح من ماري ومارغريت من أجل أن ينشر جورج أيّ شيء عن زراعة هيلا؛ وفي النهاية، كتب ملخصاً قصيراً لمؤتمر ما وأرسلته مارغريت للنشر.

وعمدت بعد ذلك إلى الكتابة بشكل دوريّ عن عمله وإرسال ما تكتبه باسمه.

ولكن في منتصف الخمسينيات، عندما بدأ المزيد من العلماء في العمل على زراعة الأنسجة، أصبح غاي مرهقاً. كتب إلى الأصدقاء والزملاء قائلاً: «يجب على شخص ما صياغة عبارة معاصرة تصف الفترة الراهنة على الأقل وتقول: «لقد فقدّ العالم صوابه بشأن زراعة الأنسجة وإمكاناتها»، آمل أن بعضاً من هذه الضجة حيال زراعة الأنسجة حققت على الأقل بعض النقاط الجيدة التي ساعدت الآخرين.. ومع ذلك، أتمنى في معظم الأحيان أن تهدأ الأمور قليلاً».

كان غاي منزعجاً من التركيز واسع النطاق على هيلا. ففي نهاية المطاف، ثمة خلايا أخرى يجب العمل عليها، بما فيها بعض الخلايا التي عمل بنفسه على زراعتها: A.FI وD-1 Re، وكل من هذين الاسمين مشتق من اسم المريض الذي جاءت منه. كان يعرضها بانتظام على العلماء، لكن زراعتها كانت أصعب، لذلك لم تلقَ رواجاً قطّ مثل خلايا هنرييتا. شعر غاي بالارتياح لأن الشركات استحوذت على توزيع هيلا حتى لا يضطر إلى القيام بذلك بنفسه، لكنه لم يعجبه حقيقة أن هيلا باتت الآن خارج سيطرته تماماً.

منذ إطلاق مصنع إنتاج هيلا في توسكيجي، كتب غاي سيلاً مستمراً من الرسائل إلى العلماء الآخرين، في محاولة لتقييد الطريقة التي يستخدمون بها خلايا هنرييتا. في مرحلة ما كتب إلى صديقه وزميله تشارلز بوميرات، معرباً عن أسفه لحقيقة أن آخرين، بما فيهم

البعض في مختبر بوميرات، يستخدمون هيلا في أبحاثٍ كان غاي «أكثر قدرة» على القيام بها بنفسه، وفي بعض الحالات كان قد فعل ذلك بالفعل، ولكن لم ينشرها بعد. أجاب بوميرات:

> «فيما يتعلق برفضك لاستكشاف واسع النطاق اعتماداً على خلايا هيلا، لا أرى كيف يمكنك أن تأمل في منع التقدم في هذا الاتجاه منذ أن أطلقت السلالة على نطاق واسع بحيث يمكن شراؤها الآن تجارياً. هذا يشبه نوعاً ما مطالبة الناس بعدم العمل على الهامستر الذهبي! أدرك أن طيبة قلبك هي التي جعلت خلايا هيلا متاحة للجميع ولهذا السبب تجد الآن أن الجميع يريد أن ينتزع الدور منك».

اقترح بوميرات أنه كان على غاي إنهاء أبحاثه الخاصة بشأن هيلا قبل «إطلاق [هيلا] للعموم، لأنه منذ أن أطلقها أصبحت ملكية علمية عامة».

لكن غاي لم يفعل ذلك. وبمجرد أن أصبحت هيلا «ملكية علمية عامة»، بدأ الناس يتساءلون عن المرأة التي تعود إليها تلك الخلايا.

(١٤)

هيلين لين

عرف الكثير من الناس اسم هنرييتا، ولا بدّ أنّ شخصاً ما سرّبه. أخبر غاي ويليام شيرَر ومستشاره جيروم سيفرتون في مينيابوليس، بالإضافة إلى الأشخاص في المؤسسة الوطنية لشلل الاطفال، الذين ربما أخبروا بدورهم الفريق في توسكيجي. عرف الجميع في مختبر غاي اسمها، وكذلك هوارد جونز وريتشارد تيليندي والأطباء الآخرون الذين عالجوها في هوبكنز.

وفي ٢ نوفمبر ١٩٥٣، أصبحت صحيفة مينيابوليس ستار أول من ينشر اسم المرأة التي تعود إليها خلايا هيلا. باستثناء شيء واحد فقط، لقد أخطأ المراسل في اسمها. ذكرت المقالة أن هيلا كانت «من امرأة من بالتيمور تدعى هنرييتا ليكس».

لا أحد يعرف من سرب النسخة شبه الصحيحة من اسم هنرييتا إلى مينيابوليس ستار. بعد فترة وجيزة من نشر المقال، تلقى غاي رسالة من جيروم سيفرتون، يقول فيها: «أكتب إليكم لأؤكد

لكم أنه لا بيل ولا أنا زودنا [مينيابوليس ستار] باسم المريضة. كما تعلمون، نتفق أنا وبيل مع رأيكم بأنه يجب الإشارة إلى سلالة الخلية باسم هيلا وأنه لا ينبغي استخدام اسم المريضة».

لكن الاسم نشر على الملأ رغم كلّ ما سبق. وبعد يومين من نشره، أرسل رولاند ه. بيرغ، وهو مسؤول صحفي في المؤسسة الوطنية لشلل الاطفال، رسالة إلى غاي يقول فيها إنه يخطط لكتابة مقال أكثر تفصيلاً عن خلايا هيلا لمجلة معروفة. كتب بيرغ: «أنا مفتون بالعناصر العلمية والجوانب الإنسانية في هذه القصة»، وأراد معرفة المزيد عنها.

أجابه غاي قائلاً: «لقد ناقشت الأمر مع الدكتور تيليندي، ووافق على السماح بعرض هذه المادة في مقال. ولكن علينا حجب اسم المريضة».

لكن بيرغ أصرّ قائلاً:

«ربما يجب أن أوضح لكم المزيد من أفكاري حول هذه المقالة، خاصة في ضوء بيانكم بأنه يجب حجب اسم المريضة... إن كانت غايتنا إطلاع [الجمهور] على الوقائع علينا أيضاً أن نُثير اهتمامهم... لا يمكنك جذب انتباه القارئ ما لم تتضمن قصتك مقومات أساسية ذات طابع بشري. وقصة خلايا هيلا، كما عرفت منكم الآن، غنية بتلك المقومات...

ولعلّ جزءاً جوهرياً من هذه القصة يتعلق بوصف كيفية زراعة هذه الخلايا التي استؤصلت أساساً من هنرييتا ليكس، واستخدامها لصالح البشرية....وفي قصة مثل هذه، يعدّ اسم الفرد جوهرياً. في واقع الأمر، إن كنت سأمضي قدماً في هذه المهمة، فإن خطتي تقتضي إجراء مقابلة مع أقارب السيدة ليكس. كما أنني لن أنشر القصة دون التعاون والموافقة التامة من قبل أسرة السيدة ليكس. بالمناسبة، قد لا تكون على علم، لكن هوية المريضة باتت بالفعل مسألة رأي عام حيث إن تقارير الصحف قد حددت هوية السيدة تماماً. وعلى سبيل المثال، يمكنني أن أحيلك إلى المقالة التي نشرت في مينيابوليس ستار بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٥٣.

أنا متعاطف تماماً مع أسبابك لحجب اسم المريضة وبالتالي تجنّب انتهاكٍ محتملٍ للخصوصية. ومع ذلك، أعتقد أنه في هذا النوع من المقالات التي أطرحها سيكون هناك حماية كاملة لحقوق جميع الأفراد».

لم يشرح بيرغ كيف أن الإفصاح عن اسم هنرييتا للجمهور سيحمي خصوصية أو حقوق عائلتها. في الواقع، كان من شأن القيام بذلك أن يربط هنرييتا وعائلتها بتلك الخلايا وبأي معلومات طبية مستمدة من حمضهم النووي. هذا لم يكن ليحمي خصوصية آل لاكس لكنه سيغير مجرى حياتهم بالتأكيد. كانوا سيعلمون جراء

ذلك أن خلايا هنرييتا لا تزال على قيد الحياة، وأنه جرى تداولها وبيعها وشراءها واستخدامها في البحث دون علم صاحبتها أو علمهم هم أنفسهم.

أحالَ غاي الرسالة إلى تيليندي وآخرين في هوبكنز، بما فيهم رئيس العلاقات العامة، وتساءل كيف عليه أن يرد على الصحفي.

أجاب تيليندي: «لا أرى سبباً لعدم إمكانية صنع قصة مثيرة للاهتمام دون استخدام اسمها. نظراً لعدم وجود سبب مقنع للقيام بذلك، لا أرى أيّ فائدة من المخاطرة بالتورط في مشكلة من خلال الكشف عن اسمها».

لم يذكر تيليندي ما «المشكلة» التي كان يخشى أن يتورطوا فيها في حال الإفصاح عن اسم هنرييتا. كان الحفاظ على سرية معلومات المريض يبرز هنا على اعتباره ممارسة قياسية، لكنه لم يكن قانوناً، لذا فإن الإفصاح عنه لم يكن أمراً غير واردٍ. في الواقع، كتب لـ غاي: «إذا اختلفت معي جدياً في هذا الشأن، يسعدني لو أستطيع التحدث معك».

وردّ غاي على بيرغ قائلاً: «يمكن بناء قصة مثيرة للاهتمام حول اسم وهمي». لكنه لم يكن معارضاً تماماً لفكرة الإفصاح عن اسمها الحقيقي. كتب: «ربما لا تزال هناك فرصة لك للفوز بوجهة نظرك. أدرك تماماً أهمية المقومات الأساسية ذات الطابع البشري في قصة مثل هذه، ولذلك أقترح عليك الحضور لمقابلتي أنا والدكتور تيليندي».

لم يخبر غاي بيرج قطّ أن مقال مينيابوليس ستار كتب اسم هنرييتا على نحو خاطئ، ولم يكتب بيرغ مقاله أبداً. لكن الصحافة لم تغب طويلاً. بعد بضعة أشهر، اتصل مراسل من مجلة كولير يدعى بيل ديفيدسون بـ غاي، وكان ينوي كتابة قصة مطابقة لتلك التي اقترحها بيرغ. هذه المرة اتخذ غاي موقفاً أكثر تشدداً، ربما لأن ديفيدسون لم يكن مرتبطاً بإحدى مؤسسات تمويل غاي الرئيسية كما كان بيرغ. وافق غاي على إجراء المقابلة تحت شرطين: أن يُسمح له بقراءة المقال النهائي والموافقة عليه، وألا تتضمن المجلة القصة الشخصية أو الاسم الكامل للمريض الذي أخذت منه الخلايا.

ورفضت محررة القصة هذين الشرطين. وكتبَت ما كتبه بيرغ عن أن «القصة البشرية وراء هذه الخلايا ستكون ذات أهمية كبيرة للجمهور». لكن غاي لم يتزحزح عن رأيه. إذا أرادت أن يتحدث هو أو أيّ من زملائه مع ديفيدسون، سيتعين على كولير نشر المقالة دون ذكر اسم المريض.

وافقت المحررة في النهاية، وفي ١٤ مايو ١٩٥٤، نشرت مجلة كولير قصة عن قوة زراعة الأنسجة والمستقبل الواعد الذي سيتحقق بفضلها. كتب ديفيدسون وهو يشاهد خلايا هيلا تنقسم عبر الشاشة: «ما شاهدته كان بمثابة لمحة عن الخلود». وقال إنه بسبب زراعة الخلايا، كان العالم «على عتبة عصر جديد مفعم بالأمل حيث سيضع حداً للسرطان والمرض العقلي وجميع الأمراض التي تعتبر الآن غير قابلة للشفاء ويوقف عذاب الإنسان». والكثير من

ذلك كان بفضل خلايا امرأة واحدة، «بطلة الطب غير المتوّجة». ذكرت المقالة أن اسمها هيلين ل. «امرأة شابة في الثلاثينيات من عمرها دخلت مستشفى جونز هوبكنز بسبب معاناتها من سرطان عنق الرحم غير القابل للشفاء». وورد فيها أيضاً أن غاي نجح في زرع خلايا هيلين ل. من عينة أخذت بعد وفاتها، وليس من قبل.

ولا يوجد دليل يوضح من أين جاءت هاتان الفقرتان من المعلومات الخاطئة، ولكن من المنطقي أن نفترض أنها جاءت من داخل جدران هوبكنز. وبناء على الاتفاق المسبق، أرسلت محررة كولير القصة إلى غاي قبل النشر لمراجعتها. وبعد أسبوع استلمت نسخة مصححة من جوزيف كيلي، رئيس العلاقات العامة في هوبكنز. كان كيلي قد أعاد كتابة المقال، بمساعدة غاي كما يفترض، وقد صحح العديد من الأخطاء العلمية لكنه ترك اثنين منها دون تصحيح: توقيت زرع الخلايا واسم هيلين ل.

بعد عقود، عندما سألَ مراسلة صحيفة رولينغ ستون مارغريت غاي من أين جاء اسم هيلين لين، أجابت: «أوه، لا أعرف. لقد اختلط الأمر على الناشر في مينيابوليس. لم يكن من المفترض أن يُكشف عن الاسم على الإطلاق. وحدث ما حدث بسبب خطأ شخصٍ ما».

أخبرني أحد زملاء غاي أن غاي ابتكر الاسم المستعار لإبعاد الصحفيين عن هوية هنرييتا الحقيقية وقد نجح في ذلك. منذ اللحظة التي ظهرت فيها مقالة مجلة كولير حتى السبعينيات، كانت المرأة التي أُخذت منها خلايا هيلا تعرف في كثير من الأحيان باسم هيلين

لين، وأحياناً باسم هيلين لارسون، ولكن أبداً لم يذكر اسم هنرييتا لاكس. ونتيجة ذلك، لم يكن لدى عائلتها أيّ فكرة عن أنّ خلاياها على قيد الحياة.

(١٥)

«أصغر من أن تذكر»...

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد جنازة هنرييتا، جاء أبناء العم من كلوفر في جميع أنحاء محطة تيرنر للمساعدة في طهي الطعام لعائلتها ورعاية الأطفال. حضروا ورحلوا بالعشرات، يحضرون معهم الأطفال والأحفاد وأبناء وبنات الأخ والأخوات. ونقل شخص ما داء السل للعائلة. في غضون أسابيع من وفاة هنرييتا، أثبتت الفحوصات إصابة سوني وديبورا والطفل جو بداء السل، وجميعهم تتراوح أعمارهم بين سنة وأربع سنوات.

أرسل الطبيب ديبورا إلى المنزل بعد أن وصف لها حبوب علاج السل الكبيرة بحجم الرصاصة كلّ منها، لكن حالة شقيقها الصغير جو كانت حكاية أخرى. إذ بالكاد كان قد بلغ من العمر سنة، وأوشك السل على قتله. أمضى جو الكثير من سنته الثانية في المستشفى يسعل دماً في غرفة العزل. ثم قضى أشهراً طويلة متنقلاً من منزل ابن عمٍ إلى منزل ابن عمٍ آخر.

وبما أن داي كان يعمل في وظيفتين، ترك لورانس المدرسة

وقضى معظم وقته في رعاية إخوته وديبورا، لكنه أراد الخروج من المنزل بين الحين والآخر للذهاب إلى صالات البلياردو. في السادسة عشرة من عمره كان صغيراً جداً على دخول صالة البلياردو، لذلك كذب بشأن عمره وحصل على بطاقة تسجيل ناخب تفيد بأنه كان في الثامنة عشرة من عمره. لم يستطع أحد إثبات أنه يكذب لأنه ولد على أرضية المنزل ولم يكن لديه شهادة ميلاد أو بطاقة ضمان اجتماعي. لكن خطته أتت بنتائج عكسية. إذ بسبب الحرب الكورية، خفض الكونجرس الحد الأدنى لسن الخدمة العسكرية إلى ثمانية عشر عاماً ونصف، لذلك جُنّد لورانس في سن السادسة عشرة. أرسلوه إلى فرجينيا حيث قضى عامين في وحدة طبية في فورت بلفوار. ومع رحيل لورانس، كان على شخص آخر تربية أطفال عائلة لاكس.

لم يخبر أحد سوني أو ديبورا أو جو بما حدث لأمهم، وكانوا يخشون من طرح هذا السؤال. في ذلك الوقت، كانت القاعدة المتبعة في المنزل: «نفّذ ما يقوله البالغون، وإلا تعرّضت للأذى». كانوا يجلسون مكتوفي الأيدي دون أن يجرؤوا على نطق كلمة واحدة ما لم يطرح عليهم شخص ما سؤالاً. على حدّ علم الأطفال، كانت والدتهم موجودة هناك في أحد الأيام، ورحلت في اليوم التالي. ولم تعدْ أبداً، بل وضعوا إيثل مكانها.

كانت إيثل المرأة التي اختبأت منها سادي وهنرييتا ذات مرة في ساحة الرقص، والمرأة التي أقسمت سادي ومارغريت بأنها تغار من هنرييتا. أطلقوا عليها لقب «المرأة البغيضة»، وعندما انتقلت

مع زوجها، جالين، إلى المنزل بحجة المساعدة في رعاية الأطفال، ظنّت سادي ومارغريت أن إيثل تحاول التقرب من داي. وسرعان ما بدأت القصص تنتشر عن أن إيثل تنام مع داي بدلاً من زوجها جالين. ولا تزال ثلّة من أبناء العم تعتقد حتى اليوم أنّ إيثل انتقلت إلى ذلك المنزل ووطدت علاقتها مع داي فقط لتفريغ كراهيتها لـ هنرييتا من خلال تعذيب أطفالها.

ترعرع أطفال هنرييتا وسط الجوع والقهر. تطعمهم إيثل كلّ صباح بسكويتاً بارداً الذي كان عليه أن يسد جوعهم حتى العشاء وضعت مزاليج ومسامير على الثلاجة وأبواب الخزانة لحرمان الأطفال من الطعام بين الوجبتين. لم يُسمح لهم بوضع الثلج في مياههم لأنه يحدث صوتاً مزعجاً. وإذا رضيت عن سلوكهم، كانت تعطيهم أحياناً شريحة من النقانق الباردة، أو ربما تصب الشحم من مقلاة لحم الخنزير المقدد على البسكويت، أو تخلط بعض الماء مع الخل والسكر للتحلية. لكنها نادراً ما رضيت عن سلوكهم.

عاد لورانس إلى المنزل من الجيش عام ١٩٥٣ وانتقل إلى منزل خاص به ولم يكن لديه أيّ فكرة عما كانت تفعله إيثل لإخوته وديبورا. وحينما كبر الأطفال، صارت إيثل توقظهم عند الفجر لتنظيف المنزل والطهي والتسوق وغسل الملابس. وفي الصيف تأخذهم إلى كلوفر، حيث كانت ترسلهم إلى الحقول لالتقاط الديدان عن أوراق التبغ باليد. لطخ عصير التبغ أصابعهم وجعلهم يمرضون عندما دخل إلى أفواههم. لكنهم اعتادوا على ذلك. اضطر

أطفال لاكس إلى العمل من شروق الشمس إلى غروبها؛ لم يُسمح لهم بأخذ فترات راحة، ولم يحصلوا على أيّ طعام أو ماء حتى حلول الظلام، حتى في أشدّ أيام الصيف حرارةً. كانت إيثل تراقبهم من الأريكة أو النافذة، وإذا توقف أحدهم عن العمل قبل أن تطلب منه ذلك، فسوف تضربهم جميعاً. في إحدى المرات، ضربت سوني بشدة بسلك توصيل، وانتهى به الأمر في المستشفى. لكن جو نال الأسوأ من نوبات غضب إيثل.

في بعض الأحيان كانت تضرب جو دون سبب بينما يستلقي على السرير أو يجلس على طاولة العشاء. كانت تضربه بقبضة يدها، أو أياً كان ما تصل إليه يدها سواء الأحذية أو الكراسي أو العصي. جعلته يقف في زاوية القبو المظلم على قدم واحدة، أنفه مضغوط على الحائط والتراب يملأ عينيه. في بعض الأحيان كانت تربطه بالحبل وتتركه هناك لساعات. وتركته هناك طوال الليل في أحيان أخرى. وإذا جاءت ولم تجد قدمه مرفوعة في الهواء، كانت تنهال على ظهره بالحزام. وتزيد من قوة ضرباتها أكثر إذا بكى. ولم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله سوني أو ديبورا لمساعدته؛ وإذا نطقا بحرفٍ كانت تنهال عليهما بضرباتٍ أشد وأسوأ. ولكن بعد فترة وصل الأمر إلى حيث لم يزعج الضرب جو. توقف عن الشعور بالألم؛ وشعر فقط بالغضب.

جاءت الشرطة إلى المنزل أكثر من مرة لإخبار داي أو إيثل بسحب جو عن السطح، حيث كان يستلقي على بطنه، ويطلق النار

على الغرباء المارين على الرصيف بمسدس الخردق. عندما سألت الشرطة عما كان يعتقد أنه يفعله هناك، أخبرهم جو أنه كان يتدرب على أن يكون قناصاً عندما يكبر. واعتقدوا أنه يمزح.

كبر جو ليصبح أكثر طفل لئيم وغاضب عرفته عائلة لاكس على الإطلاق، وبدأت العائلة تشكّ بأن شيئاً ما حدث لدماغه أثناء نموه داخل رحم هنرييتا بجانب ذلك السرطان.

في عام ١٩٥٩، انتقل لورانس إلى منزل جديد مع صديقته، بوبيت كوبر. قبل خمس سنوات شاهدت بوبيت لورانس يمشي في الشارع مرتدياً زيه الرسمي، ووقعت في حبه على الفور. حذرتها جدتها قائلةً: «لا تعبثي مع ذلك الصبي، عيناه خضراوان، وبزته العسكرية خضراء وسيارته خضراء. لا يمكنك الوثوق به». لكن بوبيت لم تصغ لكلام جدتها. انتقلا للعيش معاً عندما بلغت بوبيت العشرين من عمرها وكان لورانس في الرابعة والعشرين، وأنجبا طفلهما الأول في العام نفسه. كما اكتشفا أن إيثل كانت تضرب ديبورا وإخوانها. أصرت بوبيت على أن تنتقل العائلة بأكملها للعيش معها ومع لورانس، وساعدت في تربية سوني وديبورا وجو كما لو كانوا أولادها.

كانت ديبورا تبلغ من العمر عشر سنوات حينها. على الرغم من أن الخروج من منزل إيثل أنهى الإساءة لإخوتها، لكنه لم ينه الإساءة لها. إذ إنّ زوج إيثل، جالين، كان أكبر مشاكل ديبورا، ووجدها أينما ذهبت.

حاولت أن تخبر داي عندما لمسها جالين بطرق لم تعتقد أنه من المفترض أن يفعلها لكن داي لم يصدقها قطّ وإيثل نعتت ديبورا بكلماتٍ لم تسمعها من قبل مثل العاهرة والفاسقة. وفي السيارة عندما يقود داي وتجلس إيثل بجواره، وكل شخص يشرب ما عداها، كانت ديبورا تجلس في الخلف وتضغط جسدها على باب السيارة لتبتعد عن جالين قدر الإمكان. لكنه كان يقترب منها. بينما كان داي يقود العربة وذراعه ملتفٌ حول إيثل في الأمام، كان جالين يمسك ديبورا في المقعد الخلفي، ويقحم يديه تحت قميصها وفي سروالها وبين ساقيها. بعد أول مرة لمسها فيها، أقسمت ديبورا أنها لن ترتدي أبداً بنطالاً من الجينز له كباسات بدلاً من السحاب مرة أخرى. بيدَ أنّ السحاب لم يمنعه من إقحام يده ولا حتى الأحزمة الضيقة. لذا، كانت ديبورا تحدق من النافذة، وتصلي من أجل أن يقود داي بسرعة أكبر وهي تدفع يد جالين بعيداً مراراً وتكراراً.

ثم ذات يوم، اتصل بـ ديبورا، قائلاً: «دايل، تعالي هنا وخذي بعض المال. تريد إيثل أن تجلبي لها الصودا».

عندما وصلت ديبورا إلى منزل جالين وجدته يستلقي عارياً على السرير. لم يسبق لها أن رأت قضيب رجل ولم تكن تعرف ما يعنيه أن يكون منتصباً، أو لماذا كان يفركه. كلّ ما أدركته أنّ ثمة شيء ينذر بالخطر.

قال جالين لـ ديبورا: «إيثل تريد ست عبوات من الصودا، ثم ربّت على الفراش بجانبه. «المال هنا».

أبقت ديبورا عينيها على الأرض وركضت بأسرع ما يمكن، وانتزعت المال عن السرير، وتملصت عندما أمسك بها، ثم ركضت إلى أسفل الدرج وهو يطاردها عارياً يصرخ «عودي إلى هنا حتى أنتهي منك، دايل! أيتها العاهرة الصغيرة انتظري حتى أخبر والدك!» لكن ديبورا نجحت في الفرار مما جعله ينفجر غضباً.

على الرغم من الضرب والتحرش، شعرت ديبورا بأنها قريبة من جالين أكثر من قربها من داي. ففي الأوقات التي لم يضربها فيها، كان جالين يغمرها بالاهتمام والهدايا. اشترى لها ملابس جميلة، واصطحبها لتناول الآيس كريم. في تلك اللحظات، تظاهرت ديبورا بأنه والدها، وشعرت بأنها فتاة صغيرة طبيعية. ولكن بعد أن طاردها عبر أرجاء المنزل عارياً، لم تشعر أن الأمر يستحق ذلك، وفي النهاية أخبرت جالين أنها لا تريد المزيد من الهدايا.

فقال، وهو يفرك ذراعها: «سأحضر لك زوجاً من الأحذية. لا تقلقي بشأن أيّ شيء. سأرتدي واقياً مطاطياً؛ لا تقلقي بشأن الحمل». لم تسمع ديبورا قط عن الواقي المطاطي، ولم تعرف ما قصده بالحمل، كانت تعرف فقط أنها تريد منه أن يدعها وشأنها.

بدأت ديبورا العمل في تنظيف أرضيات الناس والكي مقابل مبالغ صغيرة من المال. كانت تحاول العودة إلى المنزل مشياً بمفردها بعد العمل، لكن جالين اعتاد أن يقلها بسيارته ويحاول لمسها طوال الطريق. في أحد الأيام بعد عيد ميلادها الثاني عشر بقليل، أوقف

السيارة بجانب ديبورا وطلب منها الصعود. لكنها واصلت السير هذه المرة.

حشر جالين السيارة في المنتزه وصرخ، «اصعدي هذه السيارة اللعينة، أيتها الفتاة!».

ورفضت ديبورا. «لماذا عليّ أن أصعد؟» قالت. «أنا لا أرتكب أيّ خطأ، لا يزال الوقت نهاراً وأنا أسير في طريقي وحسب».

صرخ قائلاً: «والدك يبحث عنك».

فصرخت في وجهه: «دعه يأتي ليأخذني إذن! أنت تفعل أشياء لجسدي ليس من المفترض بك أن تفعلها. لا أريد أن أكون معك في أيّ مكان وحدي بعد الآن. لقد منحني الله ما يكفي من العقل لأدرك ذلك».

استدارت لتركض لكنه ضربها وأمسكها من ذراعها وألقى بها في السيارة واستمر في ما اعتاد على فعله معها. بعد بضعة أسابيع، عندما كانت ديبورا تسير عائدةً إلى منزلها من العمل مع صبي من الحي يُدعى ألفريد «شيتا» كارتر، توقف جالين بجانبهما، صارخاً في وجهها لتصعد السيارة. عندما رفضت ديبورا، انطلق جالين بسيارته في الشارع وهو يصرخ بجنون. بعد مضي بضع دقائق عاد ليقف بسيارته بجانبها مجدداً ولكن مع داي يجلس قربه هذه المرة. قفز جالين من السيارة يلعن ويصرخ ويصفها بأنها عاهرة. أمسك ديبورا من ذراعها وألقى بها في السيارة ولكمها بقوة على وجهها.

لم ينطق والدها بكلمة واحدة بل اكتفى بالتحديق في الزجاج الأمامي.

بكت ديبورا طوال الطريق إلى منزل بوبيت ولورانس، والدم يقطر من حاجبيها المشقوقين، ثم قفزت من السيارة وركضت إلى المنزل مباشرة إلى الخزانة حيث اعتادت أن تختبئ عندما تكون مستاءة. أغلقت الباب بإحكام. رأت بوبيت ديبورا تركض إلى المنزل باكيةً، ولاحظت الدماء على وجهها، فلحقت بها إلى الخزانة. بينما كانت ديبورا تبكي في الداخل، قرعت بوبيت الباب قائلة: «دايل، ما الذي يحدث بحق الجحيم؟».

كانت بوبيت فرداً من العائلة لفترة طويلة بما يكفي لتعرف أن أبناء العم كانوا يتحرشون أحياناً بأبناء العم الآخرين. لكنها لم تعرف أن جالين يؤذي ديبورا، لأن ديبورا لم تخبر أحداً خشية التورط بمشكلة.

سحبت بوبيت ديبورا من الخزانة وأمسكتها من كتفيها قائلةً: «ديل، لن أفهم ما بك إن لم تخبريني بما حدث. أعلم أنك تحبين جالين مثل والدك ولكن عليك أن تخبريني بما يجري».

أخبرت ديبورا بوبيت أن جالين ضربها وأنه أحياناً كان يتحدث معها بكلام قذر في السيارة لم تقل أيّ شيء عن لمس جالين لها، لأنها كانت متأكدة من أن بوبيت ستقتله وشعرت بالقلق من أن وفاة جالين ودخول بوبيت السجن بسبب قتله، سيجعلها تفقد أكثر شخصين يهتمان بها في العالم.

انطلقت بوبيت بغضب نحو منزل جالين وإيثل، واقتحمت بابهما الأمامي صارخة أنه إذا لمس أيّ منهما أحد أطفال لاكس مرة أخرى لن تتوانى عن قتلهما بيديها.

بعد فترة وجيزة، سألت ديبورا بوبيت ما معنى كلمة حامل. فأخبرتها بوبيت ثم أمسكت بكتفي ديبورا مرة أخرى وطلبت منها أن تصغي إليها جيداً. «أعرف أن والدتك ووالدك وجميع أبناء العم تزوجوا من بعضهم بطريقتهم الخاصة، ولكن إياكِ أن تفعلي ذلك أبداً، دايل. لا يجوز أن يمارس الأقارب الجنس مع بعضهم البعض. هذا أمر لا مبرر له».

أومأت ديبورا برأسها.

قالت بوبيت: «عديني ألا تفعلي. اضربيهم إن حاولوا الاقتراب منك ولا تترددي في أن تؤذيهم لو تطلب الأمر. لا تسمحي لهم بأن يضعوا أيديهم على جسدك».

وعدتها ديبورا بأنها لن تسمح لأحد بلمسها.

قالت بوبيت: «عليك فقط الذهاب إلى المدرسة. لا تعبثي مع أبناء عمومتك من الصبيان، ولا تنجبي أطفالاً قبل أن تكبري».

لم تفكر ديبورا في إنجاب الأطفال، ولكن حين بلغت الثالثة عشرة، كانت تفكر في الزواج من ذلك الجار الذي يدعى تشيتا لأنها اعتقدت أن جالين سيتوقف عن لمسها إذا تزوجت. كانت تفكر أيضاً في ترك المدرسة.

لأنها مثل إخوتها، كانت دائماً تعاني في المدرسة لأنها لم تستطع سماع المعلم. لم يستطع أيّ من أطفال لاكس سماع الكثير ما لم يكن الشخص الذي يتحدث قريباً منهم وبصوت عال وببطء شديد. لكنهم تعلموا أن يبقوا صامتين مع البالغين، لذلك لم يخبروا معلميهم قطّ عن مشكلتهم. لم يدرك أيّ منهم أنه يعاني من الصمم أو أنه بحاجة إلى استخدام أجهزة السمع حتى وقت لاحق من حياتهم.

عندما أخبرت ديبورا بوبيت أنها تريد ترك المدرس، قالت بوبيت: «اجلسي في المقدمة إن كنت لا تسمعين. لا يهمني ما تفعلينه، لكن لا تتخلي عن التعليم لأنه أملك الوحيد».

لذا، بقيت ديبورا في المدرسة. أمضت الصيف في كلوفر، وبينما كانت تكبر، حاول أبناء عمومتها الاقتراب منها وممارسة العلاقة الحميمة معها. وحاولوا في بعض الأحيان سحبها إلى حقلٍ ما أو خلف المنزل. لكن ديبورا قاومت بقبضة يدها وأسنانها، وسرعان ما تركها أبناء العم وشأنها. كانوا يسخرون منها، ويخبرونها أنها قبيحة، ويقولون: «ديل لئيمة، ولدت لئيمة وستبقى لئيمة». ومع ذلك، طلب ثلاثة أو أربعة من أبناء عمومتها الزواج منها، فتكتفي بالضحك قائلة: «يا رجل، هل أنت مجنون؟ هذه ليست لعبة، كما تعلم. هذا يؤثر على إنجاب الأطفال».

أخبرتها بوبيت أنها هي وأشقاءها يعانون من مشاكل في السمع لأن والديها كانا أبناء عم من الدرجة الأولى. كانت ديبورا تعرف أن أبناء العم الآخرين لديهم أطفال يعانون من القزامة

أو التخلف العقلي. وتساءلت عما إذا كان لذلك علاقة بما حدث لأختها إلسي.

لم تكن ديبورا تعرف أن لديها أخت في طفولتها. عندما أخبرها داي لاحقاً، كلّ ما قاله لها إن إلسي كانت صماء وغبية وماتت في مؤسسة ما عندما كانت في الخامسة عشرة. مما جعل ديبورا تشعر باستياء شديد. سألت ما إذا كان أيّ شخص قد حاول تعليم أختها لغة الإشارة. وعرفت أنّ ما من أحدٍ فعل ذلك.

توسّلت ديبورا لـ لورانس ليخبرها عن أختهما، لكنّ الشيء الوحيد الذي قاله إنها كانت جميلة، وإنّه اضطرّ لأخذها إلى كلّ مكان ذهب إليه ليتمكن من حمايتها. لم تستطع ديبورا التخلص من فكرة أن إلسي لم تستطع التحدث ولم تستطع قول «لا» للأولاد كما فعلت ديبورا. لاحقت ديبورا أخاها لورانس ليخبرها أيّ شيء يتذكره عن أختهم وأمهم. في النهاية انهار منتحباً وتوقفت ديبورا عن السؤال.

عندما كانت في المدرسة الثانوية، بكت ديبورا واستيقظت في الليل قلقاً من الأشياء الفظيعة التي تخيلت أنها حدثت لأمها وأختها. كانت تسأل داي وأبناء عمها: «ماذا حدث لأختي؟ وماذا عن والدتي؟ ما الذي حدث لها؟» كرر داي الجواب نفسه مراراً وتكراراً: «كان اسمها هنرييتا لاكس، وماتت عندما كنت أصغر من أن تذكري».

(١٩٩٩)

(١٦)

«البقاء في المكان نفسه إلى الأبد»

خلال زيارتي الأولى مع ابن عم هنرييتا، كوتي، حيث جلسنا نشرب العصير، أخبرني أنّ أحداً لم يتحدث عن هنرييتا. لا خلال فترة مرضها، ولا بعد وفاتها، ولا حتى الآن. قال لي: «لم نلفظ كلماتٍ مثل السرطان، ولا نروي قصصاً عن أقاربنا الموتى». أضاف أن العائلة في ذلك الوقت عاشت فترة طويلة دون أن تتحدث عن هنرييتا، وكأنها لم تكن موجودة قطّ، باستثناء أطفالها وتلك الخلايا.

قال: «يبدو الأمر غريباً، لكن خلاياها عاشت لفترة أطول من ذكراها».

وأضاف: «إذا أردتِ معرفة أيّ شيء عن هنرييتا، عليك التحدث إلى ابن عمها كليف، الذي ترعرع معها مثل أخٍ لها».

عندما وصلت إلى منزل كليف، ظنّ أنني من شهود يهوه أو مندوبة مبيعات لشركة تأمين، لأن الأشخاص البيض الوحيدين الذين زاروه كانوا من هؤلاء. ابتسم ولوّح لي قائلاً: «كيف حالك؟».

كان كليف في السبعين من عمره ولا يزال يعتني بحظيرة التبغ خلف المنزل الذي بناه والده قبل عقود من الزمان، ويتحقق من الأفران عدة مرات في اليوم للتأكد من ثبات درجة حرارتها عند ١٢٠ درجة. داخل منزل كليف، كانت الجدران الزرقاء والبيضاء قد استحالت سواداً بفعل لطخاتٍ من الزيوت والأوساخ. وعمل على سدّ السلالم التي تقود إلى الطابق الثاني بالكرتون المقوى والبطانيات لمنع الهواء الدافئ من الصعود والخروج من النوافذ المحطمة، كما قام بترميم الثقوب في سقف المنزل وجدرانه ونوافذه بأوراق الصحف وشريطٍ لاصق. كان ينام في الطابق السفلي على سرير مزدوج بفراشٍ رقيق دون ملاءات على الجانب الآخر من الثلاجة والموقد الخشبي، وبجانبه طاولة قابلة للطي حيث كان يكدس الكثير من الأدوية التي نسي سبب وجودها. ربما كانت لعلاج سرطان البروستات، كما قال. وربما الضغط.

قضى كليف معظم وقته على شرفة منزله يلوح إلى كلّ سيارةٍ تمرّ أمامه، جالساً في كرسي منقوش متآكل للغاية لم يبق منه في الغالب سوى إسفنجة مكشوفة ونوابض. كان طوله حوالي ستة أقدام، أحدب الظهر، وبشرته البنية الفاتحة جافة مثل جلد التمساح، وعيناه خضراوان في المنتصف مع حواف زرقاء غامقة. عمل لعقودٍ في أحواض السفن وحقول التبغ مما جعل يديه خشنتين مثل الخيش وأظافره صفراء متصدعة ومهترئة. عندما شرع كليف في الكلام حدّق في الأرض وثنى أصابعه ذات المفاصل الملتهبة واحداً فوق

الآخر كما لو أنه يشبكها جلباً للحظ الجيد. ثم فكّ تشابكها وبدأ من جديد.

عندما سمع أنني أكتب كتاباً عن هنرييتا، نهض من كرسيه، وسحب سترته، ومشى إلى سيارتي، وصرخ: «هيا بنا، سأريك أين دُفنت».

على بعد حوالي نصف ميل من طريق لاكس تاون، جعلني كليف أركن سيارتي أمام منزل مبني من الطابوق والألواح المضغوطة لا تبلغ مساحته أكثر من ثلاثمئة قدم مربع في الداخل. فتح بوابة من الأسلاك الشائكة التي تقود إلى مرعى وطلب مني أن أمشي خلاله. في نهاية المرعى، وبين الأشجار، انتصب كوخ منذ زمن العبيد مغطاة بالألواح المليئة بفجوات واسعة بما يكفي لنرى من خلالها. نوافذه بلا زجاج بل مغطاة بقطع رقيقة من الخشب ولوحات كوكا كولا صدئة من الخمسينات. مال المنزل واستقرت أركانه على أكوام من صخورٍ ذات أحجام مختلفة حملته فوق الأرض لأكثر من مئتي عام، وكانت قاعدته مرتفعة عن الأرض بما يكفي ليزحف طفل صغير تحته.

«إنه المنزل القديم حيث نشأت هنرييتا». صرخ كليف مشيراً نحو المنزل. مشينا نحوه عبر التربة الحمراء والأوراق الجافة التي تكسرت تحت أقدامنا، ورائحة الهواء المفعم بروائح الورود البرية والصنوبر والأبقار.

قال: «في عهد هنرييتا كان منزلاً لطيفاً، منزلاً حقيقياً. الآن، بالكاد أستطيع التعرف عليه».

كانت الأرضيات في الداخل مغطاة بالقش والسماد؛ وقد انهارت في عدة أماكن تحت وطأة الأبقار التي تتجول الآن طليقة في المكان. في الطابق العلوي، وفي الغرفة التي تشاركتها هنرييتا ذات مرة مع داي، كانت بعض بقايا الحياة متناثرة على الأرض: حذاء عمل ممزق ذو فتحات معدنية ولكن دون أربطة، وزجاجة صودا TruAde ذات ملصق أبيض وأحمر، وحذاء نسائي صغير مفتوح عند الأصابع. سألت إن كان لـ هنرييتا.

«ربما». قال كليف. «بالتأكيد، يبدو مثل حذائها».

أشار نحو ما كان في الماضي الجدار الخلفي الذي انهار قبل سنواتٍ تاركاً أكثر بقليل من إطارات نافذتين طويلتين. قال: «هنا حيث نامت هنرييتا».

اعتادت على الاستلقاء على بطنها والتحديق من تلك النوافذ والنظر إلى الغابة ومقبرة الأسرة التي تبلغ مساحتها ربع فدان مقسّم حيث أحاطت بقايا قليلة من الأسلاك الشائكة الآن نثراً من شواهد القبور. والأبقار نفسها التي دهست أرضية المنزل دمرت عدة أقسام من سور المقبرة. تركت سماداً وآثار الحوافر على القبور، وسحقت الزهور المنسقة حتى صارت أكوام من السيقان، والأشرطة، والسترايفوم وأوقعوا العديد من شواهد القبور، التي أصبحت الآن مستوية على الأرض بجوار قواعدهم. لقد تركوا السماد وبصمات الحوافر على القبور، وتركوا تنسيقات الزهور المسحوقة في أكوام من السيقان والأشرطة والستايروفوم، وأسقطت العديد

من شواهد القبور التي أصبحت الآن مستوية على الأرض بجوار قواعدها.

عندما خرجنا، هزّ كليف رأسه والتقط شظايا لوحةٍ مكسورة. إحدى الشظايا كتب عليها «نحن نحبّ» والأخرى كتب عليها «أمي».

وكانت بعض شواهد القبور العائلية منزلية الصنع من الخرسانة؛ وبعضها يشترى من المحلات ويصنع من الرخام. قال كليف، مشيراً إلى الرخام: «هؤلاء هم الأشخاص الذين كان لديهم بعض المال». وضعت علامات على العديد من القبور بلوحات معدنية بحجم بطاقة الفهرسة مثبتة على عصي وتحمل أسماء وتواريخ؛ ولم توضع علامات على بقية القبور.

قال كليف: «اعتدنا أن نضع علامة على القبور بصخرة حتى نتمكن من العثور عليها. لكن جرى تنظيف المقبرة مرةً باستخدام جرافةٍ أزالت قسماً كبيراً من تلك الصخور». دُفن الكثير من الأشخاص في مقبرة لاكس، كما قال، حتى لم يتبق مساحة شاغرة منذ عقود وبدأوا في تكديس القبور فوق بعضها البعض.

أشار إلى أخدود في الأرض لا يحمل علامة بجانبه. قال: «كان هذا أحد أعز أصدقائي». ثم بدأ يشير حول المقبرة إلى أخاديد أخرى بحجم الجسم موزعة هنا وهناك. «انظري إلى ذلك القبر هناك... وهناك... وهناك... جميعها قبور مجهولة الهوية وتخسف بعد مدة وجيزة جراء تراكم التراب فوق الأجساد». كان يشير أحياناً إلى

صخرة بسيطة صغيرة تبرز من الأرض ويقول إنه قبر ابنة عم أو عمة.

قال: «هناك قبر والدة هنرييتا»، مشيراً إلى شاهد قبر وحيد بالقرب من حافة المقبرة، محاطاً بالأشجار والورود البرية. كان طوله عدة أقدام، واجهة الشاهد خشنة واستحال لونها ترابياً بفعل السنوات والطقس. وكتب عليها:

إليزا

زوجة جي آر

بليزانت

١٢ يوليو ١٨٨٨

٢٨ أكتوبر ١٩٢٤

رَحلَت لكنّها باقيةٌ في الذّاكرة

حتى لحظة قراءة تلك التواريخ، لم أكن قد أجريت الحسابات بعد: كان عمر هنرييتا بالكاد أربع سنوات عندما فقدت والدتها، أيّ حوالي نفس عمر سوني عندما توفيت هنرييتا.

«اعتادت هنرييتا أن تأتي للتحدث مع والدتها، والاعتناء جيداً بقبرها. الآن هنرييتا في مكان ما هنا معها»، قال كليف، وهو يلوح بذراعيه باتجاه فسحةٍ بين شاهد قبر إليزا والشجرة التالية على بعد خمسة عشر قدماً. «لم أتمكن أبداً من تحديد العلامة بدقة، لذلك لا أستطيع إخبارك بالضبط أين دفنت، ولكن يُدفن أفراد

العائلة الواحدة بجانب بعضهم عادةً. لذلك، ربما دفنت هنا في مكان ما».

وأشار إلى ثلاث أخاديد بحجم الجسم في تلك الفسحة وقال: «أي واحد من هذه يمكن أن يكون قبر هنرييتا».

وقفنا صامتَين بينما راح كليف يركل التراب بإصبع قدمه.

قال في النهاية: «لا أعرف ما حدث في مسألة خلايا هنرييتا تلك. لا أحد يتحدث عن الأمر هنا. عرفت فقط أن لديها شيئاً نادراً، لأنها ماتت قبل مدة طويلة نوعاً ما، لكن خلاياها ظلّت حيّة، وهذا مذهل». وعاد يركل الأرض. «سمعت أنهم أجروا الكثير من الأبحاث وأن بعض خلاياها كانت ذات نفع كبير لعلاج الأمراض الأخرى. إنها معجزة، هذا كلّ ما يمكنني قوله». ثم صرخ فجأة وعينه على الأرض كما لو أنه يتحدث مباشرة إلى هنرييتا. «لقد أطلقوا عليها اسم هيلا! وما زالت حيّة!». ركل التراب مرة أخرى.

بعد بضع دقائق، وكأن فكرةً طرأت إلى ذهنه من العدم، أشار إلى التراب وقال: «كما تعلمين، الناس البيض والسود جميعهم مدفونون هنا فوق بعضهم. أعتقد أن الجد الأبيض العجوز وإخوته دفنوا هنا أيضاً لا أحد يعرف من الذين دُفنوا في هذه الأرض الآن». الشيء الوحيد الذي يعرفه على وجه اليقين، كما قال، أن هناك شيئاً جميلاً حول فكرة أن البيض الذين امتلكوا العبيد من آل لاكس مدفونون هنا تحت أقاربهم السود.

قال لي ضاحكاً: «رَحلَوا لكنّهم باقون في الذّاكرة. لا بدّ أنّهم حلوا مشاكلهم الآن!».

والدة جدة هنرييتا كانت أمةً اسمها مورنينغ. ورث رجل أبيض يدعى جون سميث بليزنتس الجدة مورنينغ وزوجها جورج من والده، أحد أوائل أصحاب العبيد في كلوفر. تعود أصول والد بليزنتس إلى عائلة من الكويكرز، وكان أحد أقاربه البعيدين أول من قاتل بنجاح لتحرير عبيده من خلال محاكم فرجينيا. لكن بليزنتس لم يواصل كفاح العائلة ضد العبودية.

استُعبد مورنينغ وجورج في مزرعة تبغ في كلوفر. وحمل ابنهما، جد هنرييتا الأكبر إدموند، اسم عائلة مالكه، وحذف منه حرف السين ليصبح بليزانت. في نهاية المطاف تم تحريره من العبودية في سن الأربعين، لكنه أودع لاحقاً في ملجأ بسبب الخرف. ولكن قبل تحريره، أنجب العديد من الأطفال، جميعهم ولدوا في العبودية، بما فيهم ابنة تدعى هنرييتا بليزنتس، العمة الكبرى لـ هنرييتا لاكس.

على الجانب الآخر من عائلة هنرييتا، كان جدها الأكبر لأمها رجلاً أبيض يدعى ألبرت لاكس، الذي ورث جزءاً من مزرعة لاكس عام ١٨٨٥، عندما قسم والده أرضه بين أبنائه البيض الثلاثة: وينستون وبنيامين وألبرت.

كان ونستون لاكس رجلاً ضخم البنية بلحية طويلة وصلت إلى بطنه. كان يشرب كلّ ليلة تقريباً في صالون مخفي في الطابق السفلي تحت المتجر العام. عندما غرق وينستون في الثمل وبدأ يقاتل

الجميع، عرف السكان المحليون أن الوقت قد حان لعودة الرجل الحزين إلى زوجته فاني. لا توجد سجلات عن حياة فاني، لكنها على الأرجح ولدت عبدة في ملكية لاكس، ومثل معظم عبيد لاكس الذين ظلوا يعملون في المزرعة، لم تغادر قطّ. غالباً ما كانت تركب بجانب وينستون في عربته، وعندما يثمل، كانت تسير إلى الصالون وتنتزعه من مقعد البار من لحيته الطويلة، وتسحبه إلى المنزل.

أما الأخوان الآخران، ألبرت وبنيامين، فقد عاشا حياة أكثر خصوصية وتركا وراءهما ذكريات قليلة بصرف النظر عن الوصيتين وسندات ملكية الأرض. أشار معظم آل لاكس السود الذين تحدثت إليهم على مر السنين إلى بنيامين لاكس باسم «الجد الأبيض العجوز»، على الرغم من أن البعض لا يزال يدعوه «السيد بن»، كما فعل والداهم.

عندما توفي ألبرت في ٢٦ فبراير ١٨٨٩، أُعلن إلغاء العبودية، لكن قلة من السود كانوا يمتلكون أراضيهم الخاصة. لكن ترك ألبرت الأرض لخمسة ورثة «ملونين»، منح معظمهم قطع أرض مساحتها عشرة فدادين، وكان أحد هؤلاء الورثة هو جد هنرييتا وداي، تومي لاكس. لم يتحدث ألبرت عن علاقته مع ورثته، لكن الناس في لاكس تاون عرفوا أنهم كانوا أطفاله وأنه أنجبهم من أَمَةٍ سابقة اسمها ماريا.

بعد وفاة ألبرت، رفع شقيقه بنيامين دعوى قضائية ليأخذ بعضاً من تلك الأراضي من ورثة ألبرت السود، قائلاً إنه نظراً لأنها كانت أرض والده في الأصل، كان له الحق في اختيار أيّ قطعة يريدها. وافقت

المحكمة وقسمت مزرعة لاكس الأصلية إلى قطعتين «متساويتين في القيمة». ذهب القسم السفلي على ضفة النهر إلى بنيامين لاكس؛ أما القسم الأعلى، المعروف الآن باسم لاكس تاون، فقد ذهب إلى عائلة لاكس من السود.

بعد ستة عشر عاماً من قضية المحكمة، عندما كتب بنيامين لاكس وصيته قبل أيام من وفاته، أعطى قطعاً صغيرة من الأرض لكل من أخواته، ثم قسّم الفدادين المتبقية ومساحتها ١٢٤ فداناً وخيوله بين سبعة ورثة «ملونين» من أقربائه، ومن بينهم ابن أخيه تومي لاكس. لا يوجد سجل يثبت أن بنيامين أو ألبرت لاكس تزوج أو أنجب أيّ أطفال بيض وكما هو الحال مع ألبرت، لا يوجد سجل يثبت أن الأطفال السود في وصية بنيامين كانوا أطفاله. لكنه دعاهم «أطفاله الزنوج»، ووفقاً للتاريخ الشفهي لعائلة لاكس السوداء، فإن كلّ شخص يعيش على الأرض في كلوفر التي كانت فيما مضى مزرعة لاكس ينحدر من هذين الأخوين البيض وعشيقاتهم السود اللواتي كنّ إماءً في السابق.

عندما وصلت إلى كلوفر، كان التمييز العرقي لا يزال حاضراً. كان روزلاند «الرفيق الملوّن اللطيف» الذي يدير مطعم روزي قبل إغلاقه؛ وبوبكات «الرجل الأبيض» الذي يدير المتجر الصغير؛ وذهبت هنرييتا إلى سانت ماثيو «كنيسة الملونين». أحد الأشياء الأولى التي قالها كوتي عندما التقيت به: «أنت لا تتصرفين بغرابة معي لأنني أسود. أنتِ لستِ من الجوار».

كُلّ شخص تَكلّمتُ معه أقسم أن العلاقات العرقيةِ ما كَانتْ سيئةَ أبداً في كلوفر. ولكنهم قالوا أيضاً أن لاكس تاون كانت تبعد حوالي اثني عشر ميلاً فقط عن قبيلة لينش تري حيث علقت مشانق السود، وأن قبيلة كو كلوكس ظلّت تعقد اجتماعاتها في ملعب بيسبول مدرسي على بعد أقل من عشرة أميال من شارع كلوفر الرئيسي حتى فترة طويلة من الثمانينيات.

قال لي كليف وهو يقف في المقبرة: «إن عائلة لاكس من البيض يعرفون أقاربهم المدفونين هنا مع عائلتنا. إنهم يعرفون، لكنهم لن يعترفوا بذلك أبداً. يكتفون بالقول: «هم عائلة لاكس السود، وليسوا أقاربنا»».

عندما ذهبت لزيارة كارلتون وروبي لاكس، أقدم فردين من عائلة لاكس البيضاء في كلوفر، ابتسما ودردشا معي وهما يقودانني من بابهما الأمامي إلى غرفة معيشة مليئة بالكراسي الزرقاء المحشوة بشكل مفرط والأعلام الكونفدرالية، واحدة في كلّ منفضة سجائر، والعديد منها على طاولة القهوة، وواحد ب الحجم الكامل على حامل في الزاوية. كارلتون وروبي كانا قريبين بعيدين قبل أن يصبحا زوجاً وزوجة. كلاهما كانا لديهما صلة قرابة بـروبن لاكس والد ألبرت وبين ووينستون لاكس مما يعني أنهما كانا أيضاً من أقرباء هنرييتا وداي البعيدين.

فقد تزوج كارلتون وروبي قبل عقود من الزمن وكان لديهما أطفالٌ وأحفادٌ وأحفادُ أحفادٍ أكثر مما يستطيعان أن يحصيا. كلّ ما

يعرفانه على وجه اليقين أن هناك أكثر من مئة. كان كارلتون رجلاً هزيلاً في أواخر الثمانينات، بشرته شاحبة لدرجة أنه بدا شبه شفاف. نبتت خصلات من الشعر مثل القطن المتبرعم من رأسه وجبينه وأذنيه وفتحتي أنفه وهو جالس في كرسيه المريح يغمغم حول سنوات عمله في البنك في مستودع للتبغ.

قال لنفسه: «لقد كتبت الشيكات. كنت ملك التبغ».

كانت روبي في أواخر الثمانينيات أيضاً، بعقل يقظٍ بدا أصغر بعقود من جسدها الضعيف. لقد تحدثت مع كارلتون وأخبرتني عن أقاربهم الذين زرعوا مزرعة لاكس وعلاقتهما بـ بين وألبرت لاكس. عندما ذكرتُ أن هنرييتا جاءت من لاكس تاون، استقامت روبي في كرسيها.

«حسناً، كانت ملونة!» ردّت بغضب. «لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه. أنت لا تتحدث عن الملونين أليس كذلك؟».

أخبرتها أنني أريد أن أعرف عن كلّ من البيض والسود من عائلة لاكس. قالت: «في الواقع، لم نعرف بعضنا البعض قطّ. البيض والسود لم يختلطوا في ذلك الوقت، ليس كما يفعلون الآن، وهو ما لا أستطيع أن أقول إنني أحبه لأنني لا أعتقد أنه يصب في مصلحة الجميع». توقفت وهزت رأسها. «الاختلاط بهم على هذا النحو في المدرسة والكنيسة وكل مكان، سينتهي بلقاء البيض والسود والزواج وما إلى ذلك... لا أستطيع أن أرى أيّ منطقٍ في ذلك».

عندما سألتُ ما هي صلة القرابة التي تجمعها هي وكارلتون بعائلة لاكس السوداء، نظرا إلى بعضهما عبر طاولة القهوة كما لو أني سألت عما إذا كانوا قد ولدا على المريخ.

قالت روبي: «احتفظ عم والدي بالكثير من أفراد عائلة لاكس الملونين عبيداً لديه. لا بدّ أنّهم حصلوا على اسمهم من هناك. من الواضح أنهم حصلوا عليه عندما غادروا المزرعة. هذا الشيء الوحيد الذي أعرفه».

لاحقاً، سألتُ أخت هنرييتا، غلاديس، عن رأيها في نظريتهما. على الرغم من أنها عاشت معظم سنواتها التسعين على بعد حوالي ميل من كارلتون وروبي لاكس، قالت غلاديس إنها لم تسمع بهما من قبل.

قالت غلاديس: «أفراد عائلة لاكس السود والبيض أقرباء لكننا لا نختلط». أشارت تحت الأريكة حيث كنت أجلس. قالت لابنها غاري: «اجلب رسالة ليليان».

على حد علم غلاديس، جميع أشقاء هنرييتا الآخرين فارقوا الحياة، ما عدا ليليان، الأخت الصغرى. آخر ما سمعه أيّ شخص عن ليليان هو رسالة كانت قد أرسلتها في وقت ما في الثمانينيات، واحتفظت بها غلاديس في صندوق أحذية تحت الأريكة. كتبت ليليان في تلك الرسالة: «سمعت أنّ أبي مات في حريق»، وسألت عما إذا كان ذلك صحيحاً. في الواقع توفي والدها بالفعل عام ١٩٦٩، قبل عقدين من إرسالها لتلك الرسالة. لكن ما أرادت ليليان معرفته

حقاً هو من الذي يتحدث مع الناس عن حياتها. قالت إنها فازت باليانصيب، وصدقت أن شخصاً ما يحاول قتلها لأن البيض كانوا يطرحون أسئلة في الجوار عن حياتها في كلوفر وعائلتها، سيما عن هنرييتا. كتبَت: «كانوا يعرفون أشياء لم أكن أعرفها حتى. لا أعتقد أنه يحقّ لأي شخص التحدث عن الآخرين». ولم يسمع عنها أحد من أفراد الأسرة منذ ذلك الحين.

قالت غلاديس وهي تضم الرسالة إلى صدرها: «تحوّلت ليليان إلى بورتوريكية».

نظرتُ إلى غاري الذي جلس بجانبها.

فأوضح قائلاً: «كانت بشرة ليليان فاتحة جداً، أفتح حتى من بشرة والدتي. تزوجت من بورتوريكي في مكان ما في نيويورك. منذ أن تمكنت من التملص من كونها زنجية، تبرأت من سوادها وتحولت إلى بورتوريكية لأنها لم تعد تريد أن تكون سوداء».

(١٧)

غير قانوني وغير أخلاقي ومستهجن

مع نمو هيلا مثل الأعشاب الضارة في المختبرات في جميع أنحاء العالم، كان لدى عالم الفيروسات المدعو تشيستر ساوثام فكرة مخيفة: ماذا لو كانت خلايا هنرييتا السرطانية يمكن أن تسبب الأذى للعلماء الذين يعملون عليها؟ حيث أظهر غاي وغيره بالفعل أن بعض الفئران تنمو لديها أورام عند حقنها بخلايا هيلا الحية. وبالتالي لم لا تصيب البشر أيضاً؟

كان الباحثون يتنفسون الهواء حول خلايا هيلا ويلمسونها وينقلونها من عبوةٍ إلى أخرى، وحتى يتناولون الغداء على طاولات المختبر بجانبها. استخدمها أحدهم لزراعة لقاح لفيروس شبيه بفيروس نزلة البرد الشائعة، والذي حقنه -إلى جانب قطع من خلايا هيلا- في أكثر من أربعمئة شخص. ومع ذلك لا أحد يعرف ما إذا كان الشخص يمكن أن يصاب بالسرطان من هيلا أو الخلايا السرطانية الأخرى.

كتب ساوثام: «هناك خطر محتمل من تطور الأورام عن طريق

التلقيح العرضي أثناء الفحص المختبري، أو عن طريق الحقن بمثل هذه الخلايا أو منتجات الخلايا إذا استخدمت لإنتاج لقاح الفيروس».

كان ساوثام باحث سرطان له مكانته المرموقة ورئيس قسم علم الفيروسات في معهد سلون كيترينج لأبحاث السرطان. اعتقدَ هو والعديد من العلماء الآخرين أن السرطان كان بسبب فيروس أو عيب في الجهاز المناعي، لذلك قرر ساوثام استخدام هيلا لاختبار تلك النظريات.

في فبراير ١٩٥٤، ملأ ساوثام حقنة بمحلول ملحي ممزوج مع خلايا هيلا. أدخل الإبرة في ساعد امرأة دخلت المستشفى مؤخراً بسبب سرطان الدم، ثم دفع المكبس، وحقن حوالي خمسة ملايين خلية من خلايا هنرييتا في ذراعها. وباستخدام إبرة ثانية، وشم ساوثام نقطة صغيرة من الحبر الهندي بجانب النتوء الصغير الذي تشكل في موقع حقن خلايا هيلا. بهذه الطريقة، سيعرف أين يبحث عندما يعيد فحص المرأة بعد أيام وأسابيع وشهور، لمعرفة ما إذا كان سرطان هنرييتا ينمو على ذراعها. وكرر هذه العملية مع حوالي عشرة مرضى مصابين بالسرطان. أخبرهم أنه يختبر جهازهم المناعي؛ ولم يقل شيئاً عن حقنهم بخلايا خبيثة لشخص آخر.

في غضون ساعات، صارت أذرع المرضى حمراء ومتورمة. وبعد خمسة إلى عشرة أيام، بدأت العقيدات الصلبة تنمو في مواقع الحقن.

استأصل ساوثام بعض العقيدات للتحقق من كونها سرطانية، لكنه ترك العديد منها لمعرفة ما إذا كانت أجهزة المناعة لدى المرضى سترفضها أم سينتشر السرطان. في غضون أسبوعين، نمت بعض العقيدات بطول سنتيمترين، أيّ حوالي حجم ورم هنرييتا نفسه عندما ذهبت للحصول على علاج الراديوم.

قام ساوثام في النهاية بإزالة معظم أورام هيلا، وتلك التي لم يقم بإزالتها اختفت من تلقاء نفسها في غضون بضعة أشهر. ولكن نمت العقيدات مرة أخرى لدى أربعة مرضى. قام بإزالتها، لكنها عادت مراراً وتكراراً. ولدى إحدى المرضى، انتقلت الخلايا السرطانية لـ هنرييتا إلى العقد الليمفاوية للمريضة.

ونظراً لأن جميع هؤلاء المرضى مصابون بالسرطان أساساً، أراد ساوثام أن يرى كيف يتفاعل الأشخاص الأصحاء مع الحقن، من أجل المقارنة. لذلك، في مايو ١٩٥٦، وضع إعلاناً في الصحيفة الإخبارية لسجن ولاية أوهايو: طبيب يبحث عن ٢٥ متطوعاً لأبحاث السرطان. وبعد بضعة أيام، كان لديه ستة وتسعون متطوعاً، وسرعان ما زاد عددهم إلى ١٥٠ متطوعاً.

لقد اختار سجن أوهايو لأن نزلائه تعاونوا في العديد من الدراسات الأخرى دون مقاومة، بما في ذلك دراسة أصيبوا فيها بمرض قاتل يدعى التولاريميا. فيما بعد سيخضع إجراء البحوث على السجناء للتدقيق ويبدأ في الخضوع لقواعد تنظيمية صارمة بعد حوالي خمسة عشر عاماً، لأنهم سيُعتبرون فئة سكانية ضعيفة

غير قادرة على إعطاء الموافقة المستنيرة. ولكن في ذلك الوقت، كان يتم الاستعانة بالسجناء في جميع أنحاء البلاد للبحوث بجميع أنواعها، بدءاً من اختبار أسلحة الحرب الكيميائية إلى تحديد كيفية تأثير توجيه الأشعة السينية على الخصيتين على عدد الحيوانات المنوية.

بدأ ساوثام بحقن السجناء في يونيو ١٩٥٦ باستخدام خلايا هيلا التي حملتها زميلته أليس مور من نيويورك إلى أوهايو في حقيبة يد. اصطف خمسة وستون سجيناً ومن بينهم القتلة والمختلسون واللصوص والمزورون، على مقاعد خشبية لحقنهم. كان البعض يرتدي ملابس المستشفى البيضاء؛ بينما جاء البعض الآخر من نوبات العمل مرتدين ملابس العمل الزرقاء. سرعان ما نمت الأورام على أذرع السجناء تماماً كما نمت لدى مرضى السرطان. نشرت الصحافة قصة تلو الأخرى عن الرجال الشجعان في سجن أوهايو، مشيدة بهم على أنهم «أول بشر أصحاء يوافقون على مثل هذه التجارب الصارمة للسرطان». واستشهدوا برجل قال: «أكذب لو قلت إنني لست قلقاً. تخيّل أنك تستلقي هناك على سريرك عارفاً أن لديك سرطان في ذراعك... ماذا سيخطر في بالك حينها؟!».

وسأل الصحفيون مرة تلو الأخرى: «لماذا تطوعتم لهذا الاختبار؟».

كانت ردود السجناء متشابهة من قبيل: «لقد ظلمت تلك الفتاة ظلماً شديداً، وأعتقد أن هذا عقاب عادل لقاء ما فعلته بها».

«أعتقد أنني ارتكبت خطأ، وما أفعله قد يصحح الوضع في نظر المجتمع».

أعطى ساوثام عدة حقن من الخلايا السرطانية لكل سجين، وعلى عكس المرضى الذين يعانون من أمراض لا شفاء منها، حارب هؤلاء الرجال السرطان تماماً. ومع كلّ حقنة جديدة، كانت أجسادهم تستجيب بشكل أسرع، مما يشير على ما يبدو إلى أن الخلايا كانت تزيد من مناعة السجناء ضد السرطان. عندما نشر ساوثام نتائجه، أشادت بها الصحافة على أنها تقدم هائل يمكن أن يؤدي في يوم من الأيام إلى لقاح ضد السرطان. وفي غضون السنوات القادمة، حقن ساوثام خلايا هيلا وخلايا سرطانية حية أخرى في أكثر من ستمئة شخص من أجل أبحاثه، حوالي نصفهم من مرضى السرطان. كما بدأ بحقنها في كلّ مريضة جراحة نسائية أتت إلى مستشفى سلون كيترينج التذكاري أو مستشفى جيمس إوينغ التابع لها. ولو شرح أيّ شيء لهن، كان يكتفي بالقول إنه يختبرهن للكشف عن إصابتهن بالسرطان. وهذا ما اعتقد أنه يفعله، إذ نظراً لأن الأشخاص المصابين بالسرطان يبدو أنهم يرفضون الخلايا ببطء أكثر من الأشخاص الأصحاء، اعتقد ساوثام أنه من خلال توقيت معدل سرعة الرفض، قد يتمكّن من العثور على حالات غير مشخصة من السرطان.

وكتب ساوثام في تصريح كرره لاحقاً خلال جلسات الاستماع حول بحثه، «بالطبع، من غير المهم ما إذا كانت هذه خلايا سرطانية أم لا، لأنها غريبة على جسم المتلقي وبالتالي سوف يرفضها. العيب الوحيد لاستخدام الخلايا السرطانية هو الخوف والجهل الذي يحيط بكلمة سرطان».

وكتب ساوثام أنه بسبب هذا «الخوف والجهل»، لم يخبر المرضى أن الخلايا سرطانية لأنه لا يريد أن يثير أيّ خوفٍ لا داعٍ له. كما يقول: «إن استخدام كلمة «سرطان» المخيفة عند القيام بأي إجراء سريري على شخص مريض قد يكون ضاراً بسلامة ذلك المريض، لأنه قد يوحي إليه (عن صواب أو خطأ) أن تشخيص حالته هو السرطان أو أن تشخيصه ضعيف.... وبالتالي فإن حجب هذه التفاصيل المثيرة للقلق وغير المهمة من الناحية الطبية ..هو من أفضل تقاليد الممارسات السريرية المسؤولة».

لكن ساوثام لم يكن طبيبهم ولم يكن يحجب معلومات صحية مزعجة. كان الخداع لمصلحته، فهو يحجب المعلومات لأن المرضى ربما يرفضون المشاركة في دراسته إذا يعرفوا ما كان يحقنه في أجسامهم. وربما كان سيستمر ساوثام في القيام بذلك لسنوات لو لم يقم بإبرام اتفاق في ٥ يوليو ١٩٦٣ مع إيمانويل ماندل، المدير الطبي في المستشفى اليهودي للأمراض المزمنة في بروكلين، لاستخدام مرضى المستشفى في أبحاثه. كانت الخطة أن يطلب ماندل من أطباء من طاقمه حقن اثنين وعشرين مريضاً من مرضى المستشفى بخلايا سرطانية من أجل ساوثام. ولكن عندما أمر موظفيه بإعطاء الحقن دون إخبار المرضى أنها تحتوي على خلايا سرطانية، رفض ثلاثة من الأطباء اليهود الشباب، قائلين إنهم لن يجروا أبحاثاً على المرضى دون موافقتهم. كان الثلاثة على درايةٍ بالبحث الذي أجراه النازيون على السجناء اليهود. وعلى درايةٍ أيضاً بتجارب نورمبرغ الشهيرة.

قبل ستة عشر عاماً، في ٢٠ أغسطس ١٩٤٧، حكمت محكمة حرب ترأستها الولايات المتحدة في نورمبرغ، ألمانيا، على سبعة أطباء نازيين بالإعدام شنقاً. كانت جريمتهم إجراء أبحاث لا يمكن تصورها على اليهود دون موافقتهم، مثل خياطة الأشقاء معاً لخلق التوائم السيامية، وتشريح الناس على قيد الحياة لدراسة وظائف الأعضاء.

ووضعت المحكمة مدونة أخلاقية من عشر نقاط تُعرف الآن باسم مدونة نورمبرغ، التي ستحكم جميع التجارب على البشر في جميع أنحاء العالم. ينصّ السطر الأول من هذه المدونة على: «الموافقة الطوعية للفرد البشري ضرورية للغاية». كانت الفكرة ثورية. لم يتطلب قسم أبقراط، المكتوب في القرن الرابع قبل الميلاد، موافقة المريض. وعلى الرغم من أن الجمعية الطبية الأمريكية أصدرت قواعد لحماية حيوانات المختبرات في عام ١٩١٠، لم تصدر قواعد مثل هذه تخصّ البشر حتى نورمبرغ.

لكن مدونة نورمبرغ -مثل المدونات الأخرى التي ستأتي بعدها- لم تكن قانوناً. بل قائمة من التوصيات. لم تدرّس بشكل روتيني في كليات الطب، وادعى العديد من الباحثين الأمريكيين -بما فيهم ساوثام- عدم معرفتهم بوجودها. وكثيراً ما كان هؤلاء الذين على علم بها ينظرون إليها باعتبارها «قانوناً نازياً» ينطبق على البربر والديكتاتوريين، وليس على الأطباء الأميركيين.

عندما بدأ ساوثام حقن الناس بخلايا هيلا عام ١٩٥٤، لم تكن

هناك رقابة بحثية رسمية في الولايات المتحدة. منذ مطلع القرن، كان السياسيون يقدمون قوانين الولاية والقوانين الفيدرالية على أمل تنظيم التجارب على البشر، لكن الأطباء والباحثين احتجوا دائماً. تم التصويت ضد مشاريع القوانين مراراً وتكراراً خوفاً من التدخل في تقدم العلم، على الرغم من أن دولاً أخرى، مثل بروسيا وتلك مفارقة، سنّت لوائح تحكم الأبحاث البشرية في وقت مبكر من عام ١٨٩١.

أما في الولايات المتحدة، فإن الطريقة الوحيدة لإنفاذ أخلاقيات البحث هي اللجوء إلى المحاكم المدنية. وهناك، يمكن للمحامين استخدام مدونة نورمبرغ لتحديد ما إذا كان أحد العلماء يتصرف ضمن الحدود الأخلاقية للمهنة. لكن أخذ باحث إلى المحكمة يتطلب المال والدراية والمعرفة بأنك كنت تتعرض للاستغلال وتُستخدم من أجل البحث في المقام الأول.

ظهر مصطلح الموافقة المستنيرة لأول مرة في وثائق المحكمة في عام ١٩٥٧، في حكم محكمة مدنية في قضية مريض يدعى مارتن سالجو. خضع سالجو للتخدير لما اعتقد أنه إجراء روتيني واستيقظ مشلولاً بشكل دائم من الخصر إلى الأسفل. لم يخبره الطبيب أن العملية تنطوي على أيّ مخاطر على الإطلاق. وحكم القاضي على الطبيب قائلاً: «يخل الطبيب بواجبه تجاه مريضه ويخضع نفسه للمساءلة إذا حجب أيّ حقائق ضرورية لتشكيل أساس لموافقة واعية من المريض على العلاج المقترح». وكتب أنه يجب أن يكون

هناك «إفصاح كامل عن الحقائق اللازمة للحصول على الموافقة المستنيرة».

ركزت الموافقة المستنيرة على ما يجب على الأطباء إخبار مرضاهم؛ وورد فيها إشارة بسيطة إلى كيفية تطبيقها على أبحاث مثل أبحاث ساوثام التي لم يكن الخاضعون للتجربة فيها مرضى الباحث أساساً. ومرّت عقود قبل أن يتساءل أيّ شخص عما إذا كان يجب تطبيق الموافقة المستنيرة في حالات مثل حالة هنرييتا، حيث يجري العلماء أبحاثاً على أنسجةٍ لم تعد مرتبطة بجسم الشخص.

لكن بالنسبة للأطباء الثلاثة الذين رفضوا المساعدة في أبحاث ساوثام، فإن حقن الخلايا السرطانية في شخص دون موافقته كان انتهاكاً واضحاً وصارخاً لحقوق الإنسان الأساسية ومدونة نورمبرغ. بيدَ أنّ ماندل لم يرَ الأمر على هذا النحو. كان لديه طبيب مقيم يعطي الحقن بدلاً عنهم، وفي ٢٧ أغسطس ١٩٦٣، كتب الأطباء الثلاثة خطاب استقالة يشير إلى ممارسات بحثية غير أخلاقية. أرسلوه إلى ماندل ومراسل صحفي واحد على الأقل. عندما تلقى ماندل الخطاب، دعا إلى اجتماع مع أحد الأطباء الثلاثة، واتهمهم بأنهم مفرطون في الحساسية بسبب أصولهم اليهودية.

لكن أحد أعضاء مجلس إدارة المستشفى، وهو محامٍ يدعى ويليام هايمان، لم يعتقد أنهم كانوا حساسين للغاية. وعندما سمع عن استقالة الأطباء، طلب الاطلاع على سجلات المرضى في الدراسة. لكن طلبه رُفض. في الوقت نفسه، بعد أيام قليلة من استقالة الأطباء،

نشرت صحيفة نيويورك تايمز خبراً صغيراً في الصفحات الداخلية للصحيفة تحت العنوان الرئيسي «سويدي يعاقب طبيب أورام»، حول باحث في السرطان يدعى بيرتيل بيوركلوند. كان يعطي نفسه والمرضى حقناً وريدية من اللقاحات المصنوعة من خلايا هيلا، والتي حصل عليها من مختبر جورج غاي بكميات هائلة، وكانوا يمزحون أنه بدلاً من حقنها، يمكن لـ بيوركلوند ملء حمام السباحة بـخلايا هيلا -أو حتى بحيرة- والسباحة فيها من أجل المناعة. تسببت حقن بيوركلاند في طرده من مختبره، وكان هايمان يأمل في الحصول على نتائج مماثلة مع ساوثام. لذلك، في ديسمبر ١٩٦٣ رفع دعوى قضائية على المستشفى للحصول على السجلات الطبية المتعلقة بالدراسة.

قارن هايمان دراسة ساوثام بالأبحاث النازية وحصل على شهادات خطية من الأطباء الثلاثة الذين استقالوا، يصفون فيها بحث ساوثام باستخدام كلمات من قبيل غير قانوني وغير أخلاقي ومستهجن. تلقى هايمان أيضاً شهادة خطية من طبيب رابع يشرح فيها أن المرضى في الدراسة لم يكونوا قادرين على إعطاء موافقة مستنيرة حتى لو طلبها ساوثام؛ إذ كان أحدهم مصاباً بداء باركنسون ولم يتمكن من التحدث، في حين كان الآخرون يتكلمون اللغة اليديشية فقط، وأحدهم يعاني من التصلب المتعدد و«الذهان الاكتئابي». بغض النظر عن ذلك، كتب هايمان: «لقد أبلغوني أن الموافقة ليست ضرورية... أنه من غير المحتمل أن يوافق المرضى اليهود على حقنهم بالخلايا السرطانية الحية».

وقد لفت ذلك انتباه وسائل الإعلام. وصفت المستشفى الدعوى بأنها «مضللة ومغالطة». لكن الصحف والمجلات نشرت عناوين رئيسية تقول:

المرضى الذين حقنوا بالخلايا

لم يبلغهم أحد أنها كانت خلايا سرطانية

علماء يدينون أخلاقيات حقن السرطان

وذكروا أن مدونة نورمبرغ لا تطبّق في الولايات المتحدة، وأنه لا توجد قوانين تحمي الأشخاص الخاضعين لتجارب البحث. ووصفت مجلة ساينس الدعوى بأنها «أكثر المناقشات العامة إثارة حول أخلاقيات مهنة الطب منذ محاكمات نورمبرغ»، وقالت: «يبدو الوضع في الوقت الراهن محفوفاً بالمخاطر بالنسبة للجميع». سأل مراسل من مجلة ساينس ساوثام طالما أنّ الحقن آمنة كما كان يقسم، لماذا لم يحقن نفسه.

فأجاب ساوثام: «دعونا نواجه الواقع، يوجد عدد قليل نسبياً من الباحثين المهرة في مجال السرطان، ويبدو من الغباء أن نجازف ولو قليلاً».

أما المرضى الذين حقنوا بالخلايا السرطانية عن غير علمٍ من قبل ساوثام فقد قرأوا المقالات وبدأوا في الاتصال بالمراسلين. علم المدعي العام لولاية نيويورك لويس ليفكويتز بأبحاث ساوثام من خلال وسائل الإعلام أيضاً، وبدأ على الفور تحقيقه الخاص. وفي

وثيقة من خمس صفحات مليئة بنقاط التعجب، اتهم ساوثام وماندل بالاحتيال والسلوك غير المهني، وطالب مجلس إدارة جامعة ولاية نيويورك بإلغاء تراخيصهما الطبية. كتب ليفكويتز: «لكل إنسان حقّ غير قابل للمصادرة في تحديد ما يجب القيام به مع جسده. ثم كان لهؤلاء المرضى الحق في معرفة... محتويات الحقنة: وإذا كانت هذه المعرفة تسبب الخوف والقلق أو تجعلهم في حالة ذعر، فإن لهم الحق في أن يكونوا خائفين ومذعورين وبالتالي يقولون لا للتجربة».

أدلى العديد من الأطباء بشهاداتهم أمام مجلس أمناء الجامعة ووسائل الإعلام نيابة عن ساوثام، قائلين إنهم أجروا أبحاثاً مماثلة لعقود. جادلوا بأنه ليس من الضروري الكشف عن جميع المعلومات للأفراد الخاضعين لتجارب البحث أو الحصول على موافقة في جميع الحالات، وأن سلوك ساوثام يعتبر أخلاقياً في هذا المجال. ورأى محامو ساوثام أنه: «إذا كانت المهنة بأكملها تقوم بذلك، فكيف يمكنكم وصفها بأنها «سلوك غير مهني»؟».

وقد أثّر هذا بمجلس الأمناء. في ١٠ يونيو ١٩٦٥، وجدَت لجنة التظلمات الطبية أنّ ساوثام وماندل مذنبان بتهمة «الاحتيال أو الخداع والسلوك غير المهني في ممارسة الطب» وأوصت بتعليق تراخيصهما الطبية لمدة عام واحد. كتب المجلس: «يوجد دليل في سجلات هذه الإجراءات على موقف بعض الأطباء بأنّ بوسعهم المضي قدماً وفعل أيّ شيء... وأن موافقة المريض مجرّد إجراء شكلي فارغ. وهذا ما لا يمكننا أن نقبل به».

ودعا قرارهم إلى سنّ مزيد من المبادئ التوجيهية المحددة في البحث السريري، قائلين: «نحن على ثقة من أن هذا التدبير التأديبي سيكون بمثابة تحذير صارم من أنّ حماس البحث يجب ألا يبلغ الحدّ الذي ينتهك الحقوق والحصانات الأساسية للإنسان».

ألغي تعليق رخصتي ساوثام وماندل، ووُضعا تحت المراقبة لمدة عام واحد بدلاً من ذلك. وبدا أن القضية لم يكن لها تأثير يذكر على مكانة ساوثام المهنية؛ فبعد فترة وجيزة من انتهاء فترة الوضع تحت المراقبة، انتُخب ساوثام رئيساً للرابطة الأميركية لأبحاث السرطان. لكن قضيته أحدثت تغييراً يعدّ الأهمّ في مجال الإشراف على الأبحاث في تاريخ التجارب على البشر.

قبل أن يعلن مجلس الأمناء عن قراره، جذبت الصحافة السلبية حول عمل ساوثام انتباه وكالة «معاهد الصحة الوطنية»، التي موّلت أبحاثه واشترطت على باحثيها الحصول على موافقة لجميع الدراسات التي تشمل البشر. واستجابة لقضية ساوثام، تحرّت الوكالة عن جميع مؤسساتها المستفيدة من المنح ووجدت أن تسعة فقط من أصل اثنين وخمسين مؤسسة لديها سياسة قائمة لحماية حقوق الأفراد الخاضعين لتجارب البحث. وستة عشر مؤسسة تستخدم استمارة موافقة المريض. وخلصت وكالة معاهد الصحة الوطنية إلى ما يلي: «في السياق الذي يشارك فيه المريض في مسعى تجريبي، لا يكفي حكم الباحث كأساس للتوصل إلى استنتاج بشأن مجموعة المسائل الأخلاقية والأدبية ذات الصلة بتلك العلاقة».

ونتيجة للتحقيق الذي أجرته وكالة معاهد الصحة الوطنية، خلص إلى أنه للتأهل للحصول على التمويل، يجب الموافقة على جميع المقترحات المتعلقة بالبحوث التي تتضمن تجارب على البشر من قبل مجالس المراجعة (هيئات مستقلة تضمّ محترفين وعامة من أعراق وطبقات وخلفيات متنوعة) لضمان استيفائها لمتطلبات أخلاقيات وكالة معاهد الصحة الوطنية، بما في ذلك الموافقة المستنيرة المفصلة.

قال العلماء إن البحوث الطبية باتت محكوم عليها بالفشل. في رسالة إلى محرر مجلة ساينس، حذّر أحدهم، «عندَ منعنا من محاولة إجراء دراسات آمنة لسلوك السرطان لدى البشر... قد نحتفل بعام ١٩٦٦ باعتباره العام الذي توقف فيه كلّ التقدم الطبي».

في وقت لاحق من ذلك العام، نشر طبيب تخدير في جامعة هارفارد يدعى هنري بيتشر دراسة في مجلة نيو إنجلاند للطب تظهر أن أبحاث ساوثام كانت واحدة فقط من ضمن مئات الدراسات غير الأخلاقية المماثلة. نشر بيتشر قائمة مفصلة بأسوأ اثنين وعشرين جريمة ارتكبت باسم البحث العلمي، من بينها جريمة الباحثين الذين حقنوا الأطفال بفيروس التهاب الكبد وغيرهم ممن سمّموا المرضى تحت التخدير باستخدام ثاني أكسيد الكربون. وأدرجت دراسة ساوثام كمثال رقم ١٧.

على الرغم من مخاوف العلماء، فإن الحملة الأخلاقية لم تثبط التقدم العلمي. بل ازدهرت الأبحاث في الواقع. والكثير منها ساهمت فيه خلايا هيلا.

(١٨)

«أغرب هجين»

في مطلع الستينيات، كان العلماء يمزحون بأن خلايا هيلا كانت قوية جداً لدرجة أنّ بوسعها ربما البقاء حيّةً في مصارف المياه أو على مقابض الأبواب. كانت في كلّ مكان. تمكّن عامة الناس من زرع هيلا في المنزل باتباع تعليماتٍ وردت في مجلة ساينتفك أمريكان، وتمكن العلماء الروس والأمريكيون على حدّ سواء من زرع خلايا هيلا في الفضاء.

سافرت خلايا هنرييتا في ثاني قمر صناعي في العالم يُطلق في المدار عبر برنامج الفضاء الروسي في عام ١٩٦٠، وبعد ذلك مباشرة أطلقت ناسا العديد من قوارير هيلا في الفضاء داخل القمر الصناعي ديسكوفرير الثامن عشر. علم الباحثون من دراسات محاكاة انعدام الجاذبية باستخدام الحيوانات أنّ السفر عبر الفضاء يمكن أن يسبب تغييرات في القلب والأوعية الدموية، وتحلل العظام والعضلات، وخسارة خلايا الدم الحمراء. وعرفوا أيضاً أن مستويات الإشعاع تكون أعلى خلف طبقة الأوزون. لكنهم لم

يعرفوا ما تأثير أيّ من هذا على البشر: هل يسبب تغييرات خلوية، أو حتى موت الخلايا؟

عندما سافر أول أشخاصٍ إلى المدار، سافرت خلايا هنرييتا معهم حتى يتمكن الباحثون من دراسة آثار السفر عبر الفضاء، وكذلك الاحتياجات الغذائية للخلايا في الفضاء، وكيف تستجيب الخلايا السرطانية وغير السرطانية بشكل مختلف لانعدام الجاذبية. ما وجدوه كان مزعجاً؛ إذ في مهمةٍ تلو الأخرى، نمت الخلايا غير السرطانية بشكل طبيعي في المدار، لكن خلايا هيلا صارت أكثر قوة وانقسمت بشكل أسرع مع كلّ رحلة.

ولم تكن خلايا هيلا الوحيدة التي تصرفت بغرابة. منذ بداية العقد، لاحظَ الباحثون شيئين جديدين حول جميع الخلايا المزروعة. أولاً، بدا أنّ جميع الخلايا الطبيعية التي تنمو في المزرعة ماتت في النهاية أو خضعت لتحول تلقائي وأصبحت سرطانية. كانت هذه الظاهرة مثيرة للباحثين الذين يحاولون فهم آليات السرطان، لأنها أوحت بإمكانية دراسة اللحظة التي تصبح فيها الخلية الطبيعية خبيثة. لكن الأمر كان مزعجاً لأولئك الذين يحاولون استغلال زراعة الخلايا لتطوير العلاجات الطبية.

جورج هاييت، طبيب في البحرية يعمل مع المعهد الوطني للسرطان، شهد هذه الظاهرة مباشرة. لقد زرع خلايا جلدٍ بشرية لعلاج الجنود المصابين بحروق شديدة، ثم صنع جرحاً على ذراع ضابط متطوع شاب ووضع الخلايا كلطخة على الجرح، على أمل أن

تنمو لتشكل طبقة جديدة من الجلد. إذا نجح الأمر، فهذا يعني أنّ بوسع الأطباء استخدام زرعاتٍ من خلايا جلدية لعلاج الجروح في الميدان. لقد نمت الخلايا، ولكن عندما فحصها الطبيب جورج هاييت بعد بضعة أسابيع، كانت جميعها سرطانية. لقد أصيب بالذعر، وأزال الخلايا على الفور ولم يحاول زرع خلايا الجلد منذ ذلك الحين.

الشيء الآخر غير العادي الذي لاحظه العلماء حول الخلايا التي تنمو في وسط الزرع أنه بمجرد تحولها إلى خلايا سرطانية، فإنها تبدي جميعها سلوكاً متشابهاً على حد سواء: انقسام متشابه وإنتاج نفس البروتينات والإنزيمات بالضبط، على الرغم من أنها جميعها كانت تنتجها خلايا مختلفة قبل أن تصبح خبيثة. واعتقد لويس كوريل، وهو عالم زراعة خلايا مشهور، أنّ لديه تفسيراً لذلك. ونشر بحثاً يشير إلى أنّ الخلايا «المتحولة» ربما أبدت السلوك نفسه ليس لأنها أصبحت سرطانية، بل لأنها تلوثت بشيء ما -على الأرجح فيروس أو بكتيريا- جعلها تتصرف على ذلك النحو. وبغض النظر عن ذلك، أشار إلى احتمال واحد لم يفكر فيه الباحثون الآخرون: يبدو أن جميع الخلايا المتحولة تتبع سلوكاً مماثلاً لسلوك خلايا هيلا، مما يعني أن هيلا كانت العامل الملوِّث.

بعد فترة وجيزة من نشر بحثه، دعا كوريل وعددٌ من كبار علماء زراعة الأنسجة إلى عقد اجتماع عاجل للحديث عن أوضاع مجال أبحاثهم التي تنذر بأن تتحول إلى كارثة. لقد أتقنوا تقنيات زراعة

الخلايا وبسّطوها لدرجة أنهم، كما قال أحد الباحثين، «جعلوا من الممكن حتى للهواة زراعة بعضها».

في السنوات الأخيرة، وباستخدام عينات الأنسجة المستأصلة من أجسادهم هم أنفسهم وعائلاتهم ومرضاهم، زرع العلماء خلايا من جميع الأنواع، سرطان البروستات والزائدة الدودية والقلفة، وحتى أجزاء من القرنية البشرية، وبسهولة مدهشة في كثير من الأحيان. استخدم الباحثون تلك المكتبة المتنامية من الخلايا لإنجاز اكتشافات تاريخية ومن بينها أن السجائر تسبب سرطان الرئة؛ وأنّ الأشعة السينية وبعض المواد الكيميائية تحوّل الخلايا الطبيعية إلى خلايا خبيثة؛ وتفسير توقف الخلايا الطبيعية عن النمو في حين استمر نمو الخلايا السرطانية. وكان المعهد الوطني للسرطان يستخدم خلايا مختلفة، منها خلايا هيلا، لدراسة أكثر من ثلاثين ألف مادة كيميائية ومستخلصات نباتية والتي نتج عنها العديد من أدوية العلاج الكيميائي الأكثر استخداماً وفعالية اليوم، مثل الفينكريستين والتاكسول.

على الرغم من أهمية هذا البحث، لم يتصرف العديد من العلماء بشكل مهني بشأن خلاياهم المزروعة. فقد احتفظ قلّة منهم بسجلات واضحة عن الخلايا التي زرعوها وعن المتبرعين الذين أخذت منهم تلك الخلايا، وأخطأ العديد منهم في تسمية الخلايا المزروعة وذلك لو فكروا حتى بتسميتها. بالنسبة للعلماء الذين يقومون بأبحاث لا تحتاج إلى خلايا نوعية، مثل تحرّي آثار الإشعاع على الحمض

النووي، فإن عدم معرفة نوع الخلية التي يعملون عليها قد لا يؤثر على نتائج أبحاثهم. ولكن إذا كانت الخلايا ملوثة أو مصنفة خطأ في البحث الذي يحتاج إلى دراسة خلايا نوعية، كما كان الحال في الكثير من الأبحاث، فإن النتائج ستكون عديمة القيمة. بغض النظر عن ذلك، قال علماء زراعة الخلايا المشاركين في ذلك الاجتماع العاجل إنّ الدقة ضرورية في هذا العلم، ويجب على الباحثين معرفة الخلايا التي يستخدمونها، وما إذا كانت ملوثة.

وفقاً لروبرت ستيفنسون، أحد العلماء المشاركين في الاجتماع، كان هدفهم هو منع علم زراعة الخلايا من «الانحدار إلى فوضى كاملة». وشجعت المجموعة الباحثين على استخدام تدابير وقائية، مثل العمل تحت غطاء واقٍ بوجود جهاز الشفط الذي يسحب الهواء والملوثات المحتملة إلى نظام ترشيح. وأوصوا بأن تنشئ وكالة معاهد الصحة الوطنية مجموعة مرجعية من الخلايا، أيّ بنك مركزي يتم فيه اختبار جميع أوساط الزرع وفهرستها وتخزينها تحت أقصى درجات الأمان، باستخدام أحدث التقنيات المعقمة. وافقت الوكالة، وشكلت لجنة لجمع أوساط زرع الخلايا وضمّت أخصائيي زراعة الأنسجة بما فيهم ويليام شيرَر وليو كوريل وروبرت ستيفنسون. كانت مهمتهم إنشاء بنك خلايا فيدرالي غير ربحي في مجموعة زراعة الخلايا الأمريكية (ATCC)، التي كانت توزع وترصد نقاء البكتيريا والفطريات والخميرة والفيروسات منذ عام ١٩٢٥، ولكنها لم تزرع الخلايا.

شرع العلماء في لجنة الجمع في إنشاء حصن نوكس Fort Knox من مزارع الخلايا النقية غير الملوثة. لقد نقلوا مزارع الخلايا في حقائب مقفلة ووضعوا قائمة بالمعايير التي يتعين على جميع الخلايا أن تستوفيها قبل إيداعها في البنوك: يجب اختبار كلّ منها للتأكد من عدم وجود أيّ تلوث محتمل، ويجب أن تأتي جميعها مباشرة من المصدر الأصلي.

كانت الخلية الأولى في مجموعة زراعة الخلايا الأمريكية هي خلايا ل (L-cell)، وهي سلالة خلية الفأر الأصلية الخالدة التي زرعها ويلتون إيرل. أما بالنسبة للخلية الثانية، فقد اتصلت اللجنة بـ غاي تطلب منه عينة من مزرعة خلايا هيلا الأصلية. لكن في غمرة حماسه الأولى، أعطى غاي جميع خلايا هيلا الأصلية لباحثين آخرين ولم يحتفظ بأي منها لنفسه. في نهاية المطاف، تعقب بعضها في مختبر ويليام شيرَر، الذي استخدم بعضاً من عينة خلايا هيلا الأصلية في أبحاث شلل الأطفال.

في البداية، كان بإمكان اللجنة فقط فحص العينات لتحري التلوث الفيروسي والبكتيري، ولكن سرعان ما طور عدد من أعضائها اختباراً لتحري التلوث بين الأنواع حتى يتمكنوا من تحديد ما إذا كانت الخلايا التي صنّفت على أنها من نوع حيواني واحد كانت في الواقع من نوع آخر. سرعان ما وجدوا أن من بين عشرة سلالات خلوية يُعتقد أنها جاءت من تسعة أنواع مختلفة من بينها الكلاب والخنازير والبط، كانت جميعها من الرئيسيات ما عدا سلالة واحدة

فقط. فأعادوا تسمية تلك الخلايا المزروعة على الفور، وبدا أنهم سيطروا على الوضع دون جذب أيّ دعاية سيئة.

اتضح أن وسائل الإعلام كانت أكثر اهتماماً بالأخبار المتعلقة بـخلايا هيلا والتي كانت تقريباً مثيرة مثل قلب الدجاج الخالد لـ ألكسيس كاريل. وبدأ كلّ شيء مع الجنس الخلوي.

في عام ١٩٦٠، اكتشف الباحثون الفرنسيون أنه عندما تكون الخلايا مصابة بفيروسات معينة في وسط الزرع، فإنها تتجمع معاً وأحياناً تندمج. وعندما تندمج، تجتمع المادة الوراثية من خليتين، كما هو الحال في لقاء البويضة مع النطفة. كان الاسم الفني لهذا هو اندماج الخلايا الجسدية، لكن بعض الباحثين أطلقوا عليه «الجنس الخلوي». كان مختلفاً عن جنس النطفة والبويضة من عدة نواحٍ مهمة؛ فالخلايا الجسدية هي خلايا الجسم مثل خلايا الجلد، وينتج عن اتحادها نسلاً كلّ بضع ساعات. ولعلّ الأهم من ذلك أنّ الجنس الخلوي يتم التحكم فيه بالكامل من قبل الباحثين.

من الناحية الوراثية، يعدّ البشر مواضيع تجارب بحثية رهيبة. فنحن مختلطون وراثياً، نتزاوج مع أيّ شخص نختاره، ولا نتعامل بلطفٍ مع العلماء الذين يخبروننا مع من علينا أن نتكاثر. بالإضافة إلى ذلك، وعلى عكس النباتات والفئران، يستغرق الأمر منا عقوداً لإنتاج ما يكفي من النسل لإعطاء العلماء الكثير من البيانات ذات المغزى. منذ منتصف القرن التاسع عشر، درس العلماء الجينات عن طريق تربية سلالات النباتات والحيوانات بطرق نوعية محددة؛ مثل

تزاوج بازلاء ناعمة مع واحدة مجعدة، وفأر بني مع فأر أبيض، ثم تربية نسلهم لمعرفة كيف تنتقل السمات الوراثية من جيل إلى آخر. لكنهم لم يتمكنوا من دراسة علم الوراثة البشرية بنفس الطريقة. بيدَ أنّ الجنس الخلوي حلّ هذه المشكلة، لأنّه مكّن الباحثين من الجمع بين الخلايا التي تحمل السمات التي يريدون ودراسة كيفية تمرير هذه السمات من نسلٍ لآخر.

في عام ١٩٦٥، طوّر العالمان البريطانيان، هنري هاريس وجون واتكينز، الجنس الخلوي درجة مهمة نحو الأمام. لقد دمجا خلايا هيلا مع خلايا الفئران وأنتجا أول خلايا هجينة حيوانية بشرية تحتوي على كميات متساوية من الحمض النووي من هنرييتا والفأر. وعبر القيام بذلك، جعلا من الممكن دراسة ما تفعله الجينات، وكيف تعمل.

بالإضافة إلى هجين الفأر مع هيلا، قام هاريس بدمج خلايا هيلا مع خلايا الدجاج التي فقدت قدرتها على التكاثر. كان حدسه يخبره بأن دمج خلايا الدجاج المعطلة مع خلايا هيلا سيخلق ميزةً ما داخل خلايا هيلا تُعيد تفعيل خلية الدجاج. وتبيّن أنه على حقّ. لم يعرف بالضبط كيف تعمل هذه الآلية، لكن اكتشافه أظهر أن شيئاً ما في تلك الخلايا ينظّم الجينات. وإذا تمكن العلماء من معرفة كيفية تثبيط جينات المرض، فمن الممكن أن ينجحوا في ابتكار شكلٍ من أشكال العلاج الجيني.

بعد وقت قصير من دراسة هاريس لخلايا الدجاج -هيلا، اكتشف زوج من الباحثين في جامعة نيويورك أن هجائن الفئران-

البشر فقدت كروموسوماتها البشرية بمرور الوقت، واستمرت كروموسومات الفئران فقط. وسمح ذلك للعلماء بالبدء في رسم خرائط الجينات البشرية لكروموسومات محددة من خلال تتبع الترتيب الذي اختفت به السمات الجينية. إذا اختفى الكروموسوم وتوقف إنتاج إنزيم معين، يعرف الباحثون أن الجين الخاص بهذا الإنزيم لا بدّ أن يكون على آخر كروموسوم اختفى.

بدأ العلماء في المختبرات في جميع أنحاء أمريكا الشمالية وأوروبا في دمج الخلايا واستخدامها لرسم خرائط السمات الوراثية لكرومو- سومات محددة، مما خلق مقدمة لخريطة الجينوم البشري التي لدينا اليوم. استخدموا الهجائن لصنع أول أجسام مضادة وحيدة النسيلة، وبروتينات خاصة استُخدمت لاحقاً لابتكار علاجات السرطان مثل عقار هيرسيبتين، ولتحديد فئات الدم التي زادت من سلامة عمليات نقل الدم. كما استخدموها لدراسة دور المناعة في زرع الأعضاء. أثبتت الهجائن أنه من الممكن للحمض النووي من فردين غير مرتبطين، وحتى من نوعين مختلفين، البقاء معاً داخل الخلايا دون أن يرفض أحدهما الآخر، مما يعني أن آلية رفض الأعضاء المزروعة يجب أن تكون خارج الخلايا وليس داخلها.

كان العلماء مبتهجين بشأن الهجائن، ولكن في جميع أنحاء الولايات المتحدة وبريطانيا، أصيب الناس بالذعر عندما نشرت وسائل الإعلام عنواناً مثيراً تلو الآخر:

إنتاج خلايا من البشر والحيوانات في المختبر... الخطوة التالية يمكن أن تكون خلايا من البشر والشجر...
العلماء يصنعون الوحوش

وصفت صحيفة تايمز أوف لندن خلايا الفأر -هيلا بأنها «أغرب هجين شوهد يوماً على الإطلاق داخل المختبر- أو خارجه». قالت افتتاحية واشنطن بوست: «لا يمكننا قبول إنتاج بشرٍ - فئران اصطناعياً».

ووصفت البحث بأنه «فظيع» وقالت إن على الباحثين ترك البشر وشأنهم و«العودة إلى خمائرهم وفطرياتهم». نُشرت إحدى المقالات مع صورة لمخلوق نصف بشري ونصف فأر مع ذيل طويل حرشفي؛ ونُشرت مقالة أخرى مع رسم كاريكاتوري لامرأة فرس النهر تقرأ الصحيفة في موقف للحافلات. أطلقت الصحافة البريطانية على هجائن هيلا وصف «الاعتداء على الحياة»، وصورت هاريس على أنّه عالمٌ مجنون. ولم ينقذ هاريس الموقف؛ بل أحدث فوضى عارمة عندما ظهر في فيلم وثائقي لهيئة الإذاعة البريطانية قائلاً إنه أصبح بالإمكان دمج بيض الإنسان والقرد الآن لخلق «الإنسان القرد».

كتب هاريس وواتكينز رسائل إلى المحررين يشكيان من أنه تم تحوير كلامهما خارج سياقه مما جعل قصتهما مثيرة للرعب وعرضةً للتشويه والتحريف. وأكدا لعامة الناس أنهما كانا فقط ينتجان الخلايا، ولا يحاولان «خلق القنطور». لكن ذلك لم ينفعهما. كان

استطلاع الرأي العام حول أبحاثهما سلبياً للغاية، ووصف بأنه عديم الجدوى وخطير، وأنهما مثال «الرجال الذين يحاولون احتلال مرتبة آلهة». ومشكلة العلاقات العامة في مجال زراعة الخلايا كانت تزداد سوءاً بدءاً من تلك الفترة.

(١٩)

«الوقت الأكثر أهمية على هذه الأرض هو الآن»

حملت ديبورا بطفلها الأول في سن السادسة عشرة عندما كانت طالبة في المدرسة الثانوية. وبكت بوبيت بمرارة عندما اكتشفت الأمر. توقفت ديبورا عن الذهاب إلى المدرسة وقالت بوبيت: «لا تركني للراحة كثيراً لأنك ستعودين إليها وتتخرجين». ردّت ديبورا صارخةً بأنها لا تستطيع الذهاب إلى المدرسة وهي حامل وبهذا الحجم.

قالت بوبيت: «لا يهم، ستلتحقين بمدرسة الفتيات الخاصة حيث جميع الفتيات حوامل ولديهن بطون كبيرة مثلك تماماً».

رفضت ديبورا، لكن بوبيت ملأت الطلب وجرتها إلى هناك في أول يوم لها في الفصل. في ١٠ نوفمبر ١٩٦٦، أنجبت ديبورا ألفريد جونيور، على اسم والده، ألفريد «تشيتا» كارتر، الولد الذي شعر جالن بالغيرة منه يوماً. في كلّ صباح، كانت بوبيت تعد غداء ديبورا، وتوصلها إلى المدرسة، ثم تعتني بألفريد طوال اليوم ومعظم الليل حتى تتمكن ديبورا من الذهاب إلى الفصل والدراسة. عندما

تخرجت ديبورا، جعلتها بوبيت تحصل على وظيفتها الأولى، سواء أحبتها ديبورا أم لا، ووعدتها أنها ستساعدها هي والطفل.

أخوة ديبورا الأكبر كانوا يبلون حسناً بمفردهم. شرع لورانس في ممارسة الأعمال التجارية بنفسه، وافتتح متجراً في الطابق السفلي من منزل قديم؛ وتخرج سوني من المدرسة الثانوية، وانضم إلى القوات الجوية، وأصبح رجلاً وسيماً تهواه السيدات. كان له بعض المغامرات هنا وهناك، لكنه ظلّ بعيداً عن المشاكل. أما أخوهم الأصغر، جو، فكانت له قصة أخرى.

لم يكن على وفاقٍ مع السلطة. تجادل مع المعلمين وتعارك مع الطلاب الآخرين. ترك المدرسة في الصف السابع وانتهى به الأمر في المحكمة بتهمة «الاعتداء بالضرب» بعد عيد ميلاده السابع عشر مباشرة. انضم إلى الجيش في سن الثامنة عشرة، لكن غضبه وسلوكه أوقعاه في المزيد من المتاعب هناك. حارب رؤساءه والجنود الآخرين. وانتهى به المطاف في المستشفى في بعض الأحيان، ولكن في كثير من الأحيان، قاده عناده إلى الحبس الانفرادي، وهو جحرٌ مظلم بجدران ترابية تشبه بشكل مشؤوم القبو حيث حبسته إيثل عندما كان طفلاً. كان يفضل أن يكون في ذلك الجحر لأن ذلك يعني ألا يزعجه أحد. وبمجرد أن يطلقوا سراحه، كان يتعارك مع جندي آخر أو مع الضابط المسؤول فيرمونه هناك مرة أخرى. قضى تسعة أشهر في الخدمة، معظمها جالساً في الجحر حيث نما وتصاعد غضبه أكثر فأكثر. بعد تقييمات وعلاجات نفسية متعددة،

سرّح جو من الخدمة لعدم قدرته على التكيف عاطفياً مع الحياة العسكرية.

كانت عائلته تأمل أن يساعد الجيش في السيطرة على غضبه وتعليمه بعض الانضباط واحترام السلطة. ولكن بدلاً من ذلك خرج من الجيش محملاً بالغضب أكثر من أيّ وقت مضى.

بعد أسبوع أو نحو ذلك من عودة جو إلى المنزل من الجيش، سار نحوه صبي طويل ونحيل من الحيّ يدعى آيفي، وجّه نحوه سكيناً وسأله عما إذا كان يريد العراك. وهو الأمر الذي يتجنب معظم الناس فعله مع جو. بعمر التاسعة عشر، كان جو أقصر بأربع بوصات على الأقل من آيفي ووزنه ١٥٥ رطلاً فقط، لكن الناس في الحي أطلقوا عليه اسم «جو المجنون» لأنه يستمتع بالعنف. ولم يأبه آيفي لذلك. كان ثملاً طوال الوقت ويتعاطى حقن الهيروين لسنوات وجسده مغطى بالندوب من آثار العراك. قال لـ جو أنه سيقتله.

لكن جو تجاهل آيفي في المرة الأولى. ثم، بعد نحو ثلاثة أشهر، في ١٢ سبتمبر ١٩٧٠، كان جو يسير في الشارع شرق بالتيمور مع صديقه جون. كانت ليلة السبت، خرجا من الحانة ثملين يحاولان التقرب من مجموعة من الفتيات الشابات عندما اتجه ثلاثة رجال عبر الشارع نحوهم. أحد هؤلاء الرجال كان إلدريدج لي آيفي.

عندما رأى آيفي جو وجون يتحدثان مع الفتيات، صرخ قائلاً أن إحداهن كانت قريبته، ومن الأفضل أن يتوقفا عن العبث معها.

صرخ جون: «لقد سئمت من ألاعيبك».

بدأ الاثنان يتجادلان، وعندما هدد آيفي بلكم جون في وجهه، قفز جو بينهما، وأخبر آيفي بهدوء أنه لن يجرؤ على فعل شيء كهذا.

أمسك آيفي جو من رقبته وخنقه بينما حاول صديقاه سحبه بعيداً عنه. ركل جو وصرخ: «سأقتلك أيها اللعين». لكن آيفي تغلب عليه بينما جون يشاهده وقد شلّه الرعب.

في تلك الليلة، طرق جو باب ديبورا. عيناه تائهتان ومغطى بالدماء، وينطق شرر الغضب والحقد من ملامحه، فاستقبلته وراحت تنظف وجهه ومددته على أريكتها لتحاول أن تجعله يصحو من سكره ببعض أكياس الثلج. حدّق في الجدار طوال الليل، وبدا أكثر رعباً وغضباً من أيّ شخصٍ رأته ديبورا يوماً.

في صباح اليوم التالي، ذهب جو إلى مطبخ ديبورا وأخذ سكينها المسنون ذي المقبض الخشبي الأسود. بعد يومين، في ١٥ سبتمبر ١٩٧٠، ذهب جو إلى العمل في وظيفته كسائقٍ في شركة شاحنات محلية. نحو الساعة الخامسة عصراً تقاسم مع زميله في العمل خمس زجاجة ويسكي ثم نصف لتر آخر. وقبل غياب الشمس خرج جو من العمل وسار إلى تقاطع لانفال ومونتفورد أفنيوز شرق بالتيمور، حيث وقف آيفي على الشرفة الأمامية لمنزله يتحدث إلى بعض الأصدقاء. عبر جو الشارع وقال: «مرحباً آيفي»، ثم طعنه في صدره بسكين ديبورا. اخترق النصل قلب آيفي مباشرةً. ترنح في الشارع محاولاً الوصول إلى منزل أحد الجيران وجو يسير

خلفه، ثم انهار ووجهه إلى الأرض غارقاً في بركة من دمه، وصرخ: «أنا أموت، استدعوا سيارة إسعاف». لكن الأوان قد فات. عند وصول رجال الإطفاء بعد بضع دقائق، كان آيفي قد فارق الحياة للتو.

ابتعد جو عن مسرح الجريمة، وألقى السكين في زقاق قريب، وتوجه إلى هاتف عمومي للاتصال بوالده، لكن الشرطة سبقته إليه. أخبروا داي أن ابنه قتل صبياً. طلب سوني ولورانس من والدهما أن يأخذ جو إلى مزارع التبغ في كلوفر حيث يمكنه الاختباء من الشرطة ويكون في مأمنٍ هناك. قالت ديبورا إنهم مجانين.

قالت لهم: «يجب أن يسلم نفسه. حصلت الشرطة على أمر قضائي يقول إنها تريد القبض عليه حياً أو ميتاً».

لكن الرجال لم يصغوا لها. أعطى داي ابنه جو عشرين دولاراً ووضعه في حافلة إلى كلوفر.

في لاكس تاون، ظلّ جو يعاقر الخمر طوال اليوم، واشتبك مع أبناء عمومته، وهدد بقتل العديد منهم، بما فيهم كوتي. وفي نهاية الأسبوع الأول لـوجود جو في كلوفر، اتصل كوتي بـ داي قائلاً إنه من الأفضل أن يأتي أحد ليأخذ جو قبل أن يقتل شخصاً آخر أو يطلق أحدهم النار عليه.

استعار سوني سيارة داي وأخذ جو من كلوفر إلى العاصمة ليقيم هناك مع صديق. لكن جو لم يستطع التأقلم هناك أيضاً. في

صباح اليوم التالي، اتصل بسوني وقال: «تعال خذني من هنا، أريد أن أسلم نفسي».

في صباح ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠، دخل جو إلى مقر شرطة بالتيمور وقال بهدوء: «أنا جو لاكس. أنا مطلوب لأنني قتلت آيفي». ثم ملأ هذه الاستمارة:

- هل المدعى عليه موظف؟ لا.
- يقبض أجره نقداً أم باليد أم عن طريق البنوك؟ صفر.
- اسم الوالدين؟ ديفيد لاكس
- هل يحضران لزيارتك؟ لا
- هل لديك أصدقاء أو أفراد من عائلتك يمكن أن يساعدوك في تعيين محام؟ لا لا أستطيع تحمل أجرة المحامي.

ثم جلس جو ينتظر. كان يعلم أن المحكمة ستجده مذنباً، وأراد فقط أن يمضي في الأمر. بعد خمسة أشهر من انتظار المحاكمة في زنزانة، كتب جو هذه الرسالة إلى قاضي المحكمة الجنائية:

سيدي العزيز أو حضرة القاضي،

إنّ الوقت الأكثر أهمية على هذه الأرض هو الآن وجراء ما اقترفت يدي من خطأ، لن أقول إنني أسأت فهم الفساد الذي غرقت فيه.

ورّطت نفسي في مشكلة مضللة للغاية لم يكن من

المفترض أن تحدث. أشعر بالإحباط الشديد لأنني جعلت من نفسي رجلاً بغيضاً، لذلك أطلب من حضرتكم (محاكمة سريعة) لأعرف ما ينتظرني في المستقبل. أعلم بالتأكيد أنني أستحق العقاب والتأديب على الخطأ الذي ارتكبته، لذلك أنا مستعد لمواجهة مصيري الآن.

جو لاكس
(محاكمة سريعة)
(شكراً لك)
(سيادة القاضي)

أخيراً، في ٦ أبريل ١٩٧١، بعد سبعة أشهر من وفاة آيفي، وقف جو في قاعة محكمة واعترف بالذنب في جريمة قتلٍ من الدرجة الثانية، وكان سوني جالساً يراقب في مكان قريب. حذَّرت القاضية جو مراراً من أن الإقرار بالذنب يعني التنازل عن حقه في المحاكمة، وحقّه في الشهادة، وحقه في استئناف الحكم. وكان يجيب: «نعم سيدتي» و«لا سيدتي». أخبرها أن الكحول جعله يفقد صوابه وأنه لم يقصد قتل آيفي.

قال جو: «حاولت أن أطعنه في كتفه، فذعر واستدار فجاءت الطعنة في صدره. كنت أحاول جرحه وحسب حتى يكفّ عن أذيتي... أخبرني أنه سيقتلني ليلة السبت ودخلنا في عراك. أتمنى فقط أن تدركي أنني كنت أحاول الدفاع عن نفسي. لم أرغب يوماً بإثارة أيّ مشكلةٍ مع أيّ شخص على الإطلاق».

لكن جار آيفي البالغ من العمر أربعة عشر عاماً، والذي رأى كلّ شيء، قال إن جو سار مباشرة وطعن آيفي في صدره، ثم حاول طعنه مرة أخرى في ظهره وهو يترنح محاولاً الهرب بعيداً.

عندما نزل جو عن المنصة، اقترب محاميه الذي عينته المحكمة من القاضي لإيضاح هذه النقطة النهائية:

> الشيء الوحيد الذي أود أن أضيفه، سيادتك، أنني تحدثت إلى شقيقه عن الشاب، والمشكلة التي واجهها أيضاً في الجيش، ربما تكون المشكلة نفسها التي أوصلته إلى الموقف الذي هو فيه اليوم في المحكمة. لسبب ما، في مرحلة ما في حياته، يبدو أنه عانى من عقدة نقصٍ. ويبدو أنها عقدة كبيرة. إذ كلما واجه شخصاً، يأخذ الأمر على نحو عدواني إلى حد ما أكثر من الفرد الطبيعي... وللعلم، فقد حصل على بعض المساعدة النفسية أثناء وجوده في الخدمة العسكرية، لكنه لم يدخل أبداً أيّ مستشفى.

قال محاميه، دون معرفة أيّ شيء عن حياة جو أو الإساءة التي تعرض لها عندما كان طفلاً: «لديه شعور أنّ عليه حماية نفسه أكثر من الفرد العادي. وربما هذا يثير غضبه على عكس الشخص الطبيعي».

«هل يناديك الناس باسم جو المجنون؟» سألت القاضية.

قال جو: «بعض الأصدقاء ينادونني بهذا الاسم».

قالت: «هل تعرف السبب؟».

قال: «لا، سيدتي».

قبلت القاضية اعتراف جو بالذنب، لكنها طلبت الاطلاع على التقارير الطبية والنفسية قبل البتّ في عقوبته. تلك السجلات مختومة، ولكن مهما كان ما تحتويه، فقد قادها إلى الحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً فقط بدلاً من ثلاثين عاماً. أرسلت الولاية جو إلى إصلاحية ماريلاند في هاجرستاون، وهو سجن متوسط الحراسة على بعد ٧٥ ميلاً غرب بالتيمور.

في البداية، قضى جو وقته في السجن كما قضاه في الجيش، في جحر يعاقب فيها من يتجرأ على العصيان والعراك. ولكن في النهاية توقف عن العراك وركز طاقته على نفسه. تعرّف جو على الإسلام وبدأ يقضي كلّ وقته في دراسة القرآن في زنزانته. وسرعان ما غير اسمه إلى زكريا باري عبد الرحمن.

وفي الوقت نفسه، كانت الأمور تبدو على ما يرام للأخوين لاكس الآخرين في الخارج. سرّح سوني من القوات الجوية بمرتبة شرف وكان لدى لورانس عمل جيد في السكك الحديدية. لكن الأمور لم تكن جيدة بالنسبة لـ ديبورا. في تلك الفترة عندما انتهى المطاف بزكريا في السجن، تزوجت ديبورا من تشيتا في فستان شيفون أزرق في غرفة معيشة بوبيت ولورانس. كانت في الثامنة عشر من عمرها. عندما التقى ديبورا وتشيتا أول مرة، رمى عليها كرة بولينغ على الرصيف أمام منزلها. لقد ظنت أنه يمازحها، لكن الأمور ساءت بعد أن تزوجا. بعد فترة وجيزة من ولادة طفلهما الثاني لاتونيا،

أدمن تشيتا المخدرات وراح يضرب ديبورا عندما يكون منتشياً. ثم بدأ يجوب الشوارع ويختفي مع نساء أخريات ليلاً، ويعود فقط لبيع المخدرات خارج المنزل بينما كان أطفال ديبورا يجلسون ويشاهدون.

في أحد الأيام، بينما كانت ديبورا تقف عند الحوض تغسل الأطباق ويداها مغطاة بفقاعات الصابون، ركض تشيتا إلى المطبخ صارخاً بشيء حول خيانتها له. ثمّ صفعها.مكتبة سُر مَن قرأ

قالت ديبورا وقد جمدت في مكانها ويداها مبللتان بالصابون: «لا تفعل ذلك مرة أخرى».

أمسك تشيتا طبقاً من رف التجفيف وكسره على جانب وجهها.

«لا تمدّ يدك علي بعد الآن». صرخت ديبورا، وأخرجت يدها من الحوض وهي تمسك سكين شرائح اللحم المسنن.

رفع تشيتا ذراعه ليضربها مرة أخرى، لكنه ارتبك بسبب تأثير المخدرات والخمر. صدته ديبورا بيدها الفارغة ودفعته إلى الحائط. وضعت طرف السكين في صدره بعمق كافٍ لجرح الجلد، ثم سحبته نزولاً إلى ما بعد سرته بينما تشيتا يصرخ ويصفها بالجنون.

غاب عنها لبضعة أيام بعد ذلك، لكنه عاد في النهاية إلى المنزل في حالة سكر وانتشاء وبدأ يضربها مرة أخرى. عندما ركلها تشيتا ذات ليلة في غرفة المعيشة، صرخت ديبورا: «لماذا عليك دائماً أن تتجادل وتتشاجر معي؟» عندما لم يجب، قررت ديبورا عندئذٍ أنها تتمنى لو تقتله. استدار وسار مترنحاً نحو سلالم شقتها، ولا يزال

يصرخ، فدفعته ديبورا بقوة قدر استطاعتها. تدحرج نحو الأسفل، حيث استلقى وهو ينزف. حدقت ديبورا في وجهه من أعلى الدرج، ولم تشعر بأي شيء، لا خوف، ولا عاطفة. عندما تحرك، هبطت السلم وجرّته عبر الطابق السفلي إلى الرصيف الخارجي. كان ذلك في منتصف الشتاء والثلج ينهمر بغزارة. رمته ديبورا على الأرض أمام المنزل دون معطف وأغلقت الباب، ثم صعدت إلى الطابق العلوي لتنام.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على أمل أن تراه قد تجمد حتى الموت، لكنها وجدته جالساً على شرفتها الأمامية يأنُّ من الرضوض والبرد.

قال لها: «أظنّ أن بعض الرجال هاجموني وضربوني».

سمحت له بالدخول إلى المنزل وجعلته يغتسل ويأكل، وهي تفكر طوال الوقت يا له من أحمقٍ لعين. عندما خلد تشيتا إلى النوم، اتصلت ديبورا بـ بوبيت، قائلة: «هذا يكفي، سيموت الليلة».

«عمّا تتحدثين؟» سألت بوبيت.

قالت ديبورا: «أحضرت مفتاح الربط. سأبعثرّ شظايا دماغه على كامل الجدار. لقد سئمت من ذلك».

قالت بوبيت: «إياكِ أن تفعلي، يا دايل. انظري ما جرى لـ زكريا، إنّه في السجن. بوسعك قتل الرجل، ولكن ماذا عن أطفالك؟ ارمي مفتاح الربط من يدك، هيا».

في اليوم التالي، بعد مغادرة تشيتا إلى العمل، توقفت شاحنة نقل أثاث أمام المنزل. حمّلت ديبورا الأطفال وكلّ ما يملكونه في تلك الشاحنة، ثم اختبأت في منزل والدها إلى أن تتمكن من العثور على شقتها الخاصة. بينما كانت ديبورا تعمل في وظيفتين وتكافح من أجل الاستقرار في حياتها الجديدة كأم عزباء، لم يكن لديها أيّ فكرة أنها كانت على وشك سماع أخبارٍ يصعب التعامل معها أكثر من أيّ شيء فعله تشيتا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٢٠)

قنبلة هيلا

في سبتمبر ١٩٦٦، صعد عالم جينات يدعى ستانلي غارتلر إلى المنصة في فندق في بيدفورد، بنسلفانيا. هناك، أمام جورج غاي والعمالقة الآخرين في مجال زراعة الخلايا، أعلن غارتلر أنه وجد «مشكلة تقنية» في مجالهم.

حضر غارتلر المؤتمر الاستعراضي الثاني الذي يُعقد كلّ عشر سنوات بشأن الأنسجة الخلوية وزراعة الأعضاء بوجود أكثر من سبعمئة عالم آخر. جاؤوا من شركات التكنولوجيا الحيوية والأوساط الأكاديمية؛ من نيويورك وإنجلترا وهولندا وألاسكا واليابان، ومن كلّ مكان لمناقشة مستقبل زراعة الخلايا. امتلأت الغرفة بالحماسة حيث تحدث الجميع عن استنساخ الخلايا والهجائن ورسم خرائط الجينات البشرية، واستخدام زراعة الخلايا لعلاج السرطان.

لم يسمع سوى قلّةٌ عن ستانلي غارتلر، لكن ذلك كان على وشك أن يتغيّر. انحنى غارتلر إلى الميكروفون وأخبر الجمهور أنه

في أثناء عملية البحث عن علامات وراثية جديدة لأبحاثه، وجد أن ثمانية عشر من أكثر مزارع الخلايا شيوعاً لديها شيء واحد مشترك: تحتوي جميعها على واسمة وراثية نادرة تسمى الجلوكوز ٦ فوسفات ديهيدروجيناز-أ (G6PD-A)، والتي ظهرت بشكل حصري تقريباً لدى الأمريكيين السود. بل كانت نادرة إلى حدّ ما حتى بينهم.

قال غارتلر للحضور: «لم أتمكن من التأكد من الأصل العرقي المفترض لجميع السلالات الثمانية عشر. ومع ذلك، من المعروف أن بعضاً منها على الأقل من القوقازيين، وأن واحدة على الأقل، هي خلايا هيلا، من زنجي». كان يعرف هذا لأنه أرسل خطاباً لـ جورج غاي قبل بضعة أشهر يقول فيه:

> أنا مهتم بالأصل العرقي للشخص الذي جاءت منه خلية هيلا. لقد راجعت عدداً من الأبحاث الأولى التي تصف تطور سلالة خلية هيلا، لكنني لم أتمكن من العثور على أيّ معلومات تتعلق بعرق المتبرع.

عندما أجاب غاي بأن خلايا هيلا جاءت من «امرأة ملونة»، عرف غارتلر أنه وجد مصدر المشكلة.

قال للحضور: «يبدو لي أن التفسير الأبسط، هو أنه جميعها ملوثة بخلايا هيلا».

كان العلماء يعلمون أن عليهم الحفاظ على مزارعهم خالية من التلوث البكتيري والفيروسي، ويعلمون أن من الممكن أن تلوث

الخلايا بعضها إذا اختلطت في وسط الزرع. ولكن عندما وصل الأمر إلى هيلا، لم يكن لديهم أيّ فكرة عما يواجهونه. اتضح أن خلايا هنرييتا يمكن أن تسبح في الهواء على جزيئات الغبار. يمكنها السفر من وسط زرعٍ إلى آخر عبر الأيدي غير المغسولة أو ماصات مستعملة؛ ويمكنها السفر من مختبر إلى مختبر على معاطف وأحذية الباحثين، أو من خلال أنظمة التهوية. وكانت خلايا قوية، إذا سقطت خلية واحدة فقط من نوع هيلا في طبق زرع، فإنها تسيطر على كلّ شيء، وتستهلك جميع الوسط وتملأ كلّ الحيز المتاح.

لم تمرّ النتائج التي توصل إليها غارتلر مرور الكرام. ففي السنوات الخمس عشرة منذ أن زرع جورج غاي لأول مرة خلايا هيلا، زاد عدد المقالات المنشورة التي تتحدث عن زراعة الخلايا أكثر من ثلاثة أضعاف كلّ عام. أنفق العلماء ملايين الدولارات في إجراء أبحاث على تلك الخلايا لدراسة سلوك كلّ نوع من الأنسجة، ومقارنتها ببعضها واختبار الاستجابات الفريدة لأنواع الخلايا المختلفة لعقاقير أو مواد كيميائية أو بيئات محددة. إذا كانت كلّ هذه الخلايا في الواقع هيلا، فهذا يعني أن ملايين الدولارات قد أهدرت، والباحثون الذين وجدوا أن الخلايا المختلفة تصرفت بشكل مختلف في وسط الزرع يمكن أن يكون لديهم تفسير ما لفعل ذلك.

بعد سنوات، قام روبرت ستيفنسون، الذي أصبح رئيساً لمجموعة أنواع زراعة الخلايا الأمريكية، بتفسير حديث غارتلر لي

على هذا النحو: «حضر في ذلك الاجتماع دون أيّ خلفية علمية أو أيّ شيء آخر يتعلق بزراعة الخلايا وشرع في تعقيد الأمور وفلسفتها».

جلس ستيفنسون وأعضاء آخرون في لجنة جمع مزارع الخلايا مذهولين أمام الحضور بينما أشار غارتلر إلى قائمة علقها على الحائط تسرد السلالات الخلوية الثمانية عشر التي تلوثت بواسطة هيلا، جنباً إلى جنب مع أسماء الأشخاص أو الأماكن التي حصل عليها منها. ما لا يقل عن ستة من السلالات الملوثة جاءت من مجموعة زراعة الخلايا الأمريكية ATCC. يبدو أن هيلا اخترقت حصن نوكس.

في تلك المرحلة، ضمت مجموعة زراعة الخلايا الأمريكية ATCC عشرات الأنواع المختلفة من الخلايا، وكلها مضمونة على أنها خالية من التلوث الفيروسي والبكتيري، واختُبرت للتأكد من أنها لم تكن ملوثة بخلايا من أنواع أخرى. ولكن لم يكن هناك اختبار لمعرفة ما إذا كانت خلية بشرية قد لوثت خلية بشرية أخرى. وبالنسبة للعين المجردة، فإن معظم الخلايا التي تنمو في وسط الزرع تبدو متشابهة.

راح غارتلر يخبر الحضور بشكل أساسي أن كلّ تلك السنوات اعتقد الباحثون أنهم كانوا ينشئون مكتبة من الأنسجة البشرية، في حين كانوا يزرعون ويعيدون زرع خلايا هيلا. وأشار إلى أنه قبل بضع سنوات، عندما بدأ العلماء في اتخاذ تدابير وقائية ضد التلوث عبر الأنواع، عبر العمل تحت أغطية معقمة مثلاً، أصبح من الصعب

فجأة زراعة سلالات خلايا جديدة. في الواقع، «أُرسِلت تقارير محدودة العدد جداً عن [سلالات الخلايا البشرية الجديدة] منذ ذلك الحين». وقال إنه ليس ذلك فحسب، بل لم تكن هناك أمثلة جديدة على «ما يسمى بمزارع الخلايا البشرية المتغيرة تلقائياً» منذ ذلك الحين.

ويعرف جميع الحضور ما يعنيه ذلك. علاوة على القول إنهم ربما أهدروا أكثر من عقد من الزمان وملايين الدولارات على البحوث، كان غارتلر يقترح أيضاً أن التحول التلقائي، أحد أكثر الاحتمالات شهرة للعثور على علاج للسرطان، قد لا يكون موجوداً. وذكر أن الخلايا الطبيعية لم تصبح سرطانية تلقائياً؛ بل استولت عليها هيلا ببساطة.

اختتم غارتلر حديثه بالقول: «عندما يفترض الباحث أنّ ثمة أنسجة معينة من أصل سلالة الخلية، أيّ الكبد... أو نقي العظام، فإن العمل مطروح للبحث الجاد، وفي رأيي من الأفضل التخلص منه».

جلس الحضور في القاعة بحالة من الصمت والذهول، حتى تحدث ت. س. هسو، رئيس جلسة غارتلر في المؤتمر. كان هسو عالم وراثة من جامعة تكساس وقد مكنه عمله السابق مع هيلا والخلايا الأخرى من اكتشاف العدد الصحيح من الكروموسومات البشرية.

قال هسو: «قبل بضع سنوات، أعربت عن بعض الشكوك حول تلوث السلالة الخلوية. لذلك، أنا سعيد بالبحث التي أعده

الدكتور غارتلر وأنا متأكد أيضاً من أنه جعل العديد من الناس غير سعداء في الوقت نفسه».

كان على حق، وبدأ الحضور يطرحون الأسئلة بسرعة. «كم من الوقت احتفظت بها في مختبرك؟» سأل أحد العلماء ملمحاً إلى أن غارتلر لوث الخلايا بنفسه بعد وصولها إلى مختبره.

أجاب غارتلر: «لقد خضعت للتحليل قبل أن تزرع في مختبري».

«ألم يرسلوها لك مجمّدة؟» سأل العالم، وهو يعلم أن التلوث يمكن أن يحدث عندما تذوب الخلايا.

قال غارتلر إن ذلك لا يهم؛ لم يكن من الضروري إذابة الخلايا قبل اختبارها.

أراد عالم آخر معرفة ما إذا كان التشابه الذي يراه غارتلر بين سلالات الخلايا هو مجرد تأثير التحول التلقائي الذي يجعل جميع الخلايا تتبع السلوك نفسه.

في نهاية المطاف، تحدث روبرت ستيفنسون رئيس لجنة مجموعة زراعة الخلايا الأمريكية، قائلاً: «يبدو أن ثمّة حاجة إلى مزيد من العمل الاستقصائي لمعرفة ما إذا كان علينا البدء من جديد لعزل بعض سلالات الخلايا البشرية الجديدة».

وتدخل هسو قائلاً: «أود أن أعطي الأولوية على وجه الخصوص لأولئك الذين أطلقوا سلالات الخلايا، الذين هاجمهم الدكتور غارتلر. إن كان لديهم أيّ دفاع، نودّ أن نسمعه».

عندئذٍ قفز من مقعده روبرت تشانغ الباحث من جامعة هارفارد والذي استخدم على نطاق واسع سلالته من خلايا الكبد تشانغ التي أدرجت على قائمة الخلايا الملوثة بخلايا هيلا التي علقها غارتلر. استخدم تشانغ تلك الخلايا لاكتشاف الإنزيمات والجينات الخاصة بخلايا الكبد. إذا كان غارتلر محقاً والخلايا كانت في الواقع من عنق رحم هنرييتا، فإن أبحاث الكبد التي قدمها تشانغ باستخدامها كانت عديمة القيمة.

كان ليونارد هايفليك على اتصال شخصي مع سلالته الخلوية، WISH، والتي أدرجها غارتلر على قائمة الخلايا الملوثة، والتي زرعها باستخدام خلايا من الكيس الأمنيوسي الذي كان جنين ابنته يطفو فيه قبل أن تولد. طرح على غارتلر سؤال ما إذا كان من الممكن العثور على G6PD-A في عينات من الأشخاص البيض.

فأجاب غارتلر: «لم يرصد العلم وجود أفراد قوقازيين لديهم G6PD-A».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، وضمن جلسة نقاش برئاسة جورج غاي، ألقى هايفليك بحثاً حول «حقائق ونظريات» التحول التلقائي للخلايا في وسط الزرع. قبل أن يبدأ محاضرته، وقف هايفليك على المنصة وأعلن أنه نظراً لأن خلايا WISH من المفترض أن تكون إيجابية لعلامات وراثية موجودة فقط لدى السود، فقد اتصل بزوجته خلال الاستراحة ليسألها عما إذا كان، في الواقع، الأب الحقيقي لابنته. قال هايفليك: «أكدَت لي أن أسوأ مخاوفي لا

أساس لها». ضجّت القاعة بالضحك، ومن يومها لم يذكر أحد أيّ شيء آخر علناً حول اكتشافات غارتلر.

لكن عدداً من الناس أخذوا أبحاث غارتلر على محمل الجد؛ إذ قبل مغادرة المؤتمر، التقى ستيفنسون بالعديد من علماء زراعة الخلايا لتناول الغداء. أخبرهم أن يعودوا إلى مختبراتهم بعد المؤتمر ويبدأوا في اختبار الخلايا لتحري الواسمة الوراثية G6PD-A، لمعرفة مدى انتشار هذه المشكلة. وتبين أنّ العديد من سلالات خلاياهم كانت إيجابية، بما في ذلك خلايا الجلد التي زرعها جورج هاييت على ذراع جندي قبل سنوات. نظراً لأن جورج هاييت لم يكن لديه خلايا هيلا في مختبره في ذلك الوقت، فلا بد أن الخلايا في تجربته قد تلوثت قبل وصولها. وعلى الرغم من أن قلّةً أدركوا ذلك، فإنّ الشيء نفسه كان يحدث في المختبرات في جميع أنحاء العالم.

ولكن رفض العديد من العلماء الاعتقاد بأن تلوث هيلا كان حقيقياً. بعد المؤتمر حيث فجّر غارتلر ما أصبح يعرف باسم «قنبلة هيلا»، واصل معظم الباحثين العمل على الخلايا التي قال إنها ملوثة. لكن ستيفنسون وبعض العلماء الآخرين أدركوا النطاق المحتمل لمشكلة تلوث هيلا، لذلك بدأوا العمل على تطوير الاختبارات الجينية التي يمكن أن تحدد على وجه التحديد خلايا هيلا في وسط الزرع بدلاً من مجرد اختبار وجود G6PD-A. وقادتهم تلك الاختبارات الجينية في النهاية إلى عائلة هنرييتا.

(٢١)

أطباء الليل

بعد شهرين من الموعد الذي خلف به سوني لاكس، جلست في انتظاره مرة أخرى، وهذه المرة في بهو فندق بالتيمور هوليداي إن. كان يوم رأس السنة الجديدة، وتأخر ما يقرب من ساعتين. اعتقدتُ أنّه سيخلف بموعده ثانيةً، لذا بَدأتُ أحزم حقائبي للمغادرة. ثم سمعت صوت رجل يصرخ: «إذن أنت هي الآنسة ريبيكا؟».

فجأة، كان سوني يقف بجانبي مع ابتسامة حلوة وخجولة تكشف عن فجوة بين أسنانه جعلته يبدو وكأنه مراهق يبلغ من العمر ٥٠ عاماً. ضحك وربّت على ظهري.

«أنت لا تستسلمين، أليس كذلك؟» قال. «أتعلمين أنّ الشخص الوحيد الذي أعرفه أكثر عناداً منك هو أختي دايل؟» ابتسم وعدّل قبعته السوداء. «حاولت إقناعها بالمجيء لمقابلتك اليوم، لكنها لم تقتنع».

كان سوني يضحك بصوت عال ويغلق عينيه اللعوبتين عندما يبتسم. كان وجهه دافئاً ووسيماً، وبدا منفتحاً على العالم. كان نحيلاً، طوله ستة أقدام على الأكثر، ولديه شارب مصقول بعناية. لقد مد يده ليحمل حقيبتي.

قال: «حسناً إذن، من الأفضل أن نبدأ ما أنتِ بصدده».

تبعته إلى سيارة فولفو كان قد تركها غير مقفلة في موقف السيارات المجاور للفندق. لقد استعارها من إحدى بناته. قال وهو يخفف من سرعة السيارة: «لا أحد يريد أن يركب في شاحنتي القديمة. هل أنت مستعدة لرؤية بيج كاهونا؟».

قلتُ: «بيج كاهونا؟».

قال مبتسماً: «نعم». «تقول ديبورا إنّ عليكِ التحدث إلى شقيقنا لورانس قبل أن يتحدث إليكِ أيّ شخص آخر. سيتحرى أمركِ ويقرر بشأنك. فإذا قال لا بأس، عندئذٍ سيتحدث إليكِ بقيتنا».

قادَ العربة في صمتٍ لعدة مربعات سكنية.

قال سوني في النهاية: «لورانس الوحيد بيننا الذي يتذكر والدتنا. أنا وديبورا لا نعرف شيئاً عنها». ثمّ، ودون أن يحيد نظره عن الطريق، أخبرني سوني بكل ما يعرفه عن والدته.

قال: «يقول الجميع إنها كانت لطيفة حقاً وطاهية بارعة. جميلة أيضاً. فُجّرت خلاياها في قنابل نووية. جاءت من خلاياها كلّ تلك الإبداعات المختلفة، معجزات طبية مثل لقاحات شلل الأطفال،

وبعض أدوية السرطان وأشياء أخرى حتى الإيدز. كانت تحب الاعتناء بالناس، لذلك من المنطقي ما فعلته خلاياها. أعني، يقول الناس دائماً أنها كانت مضيافة، تقوم بتجهيز كلّ شيء بشكل جيد، تجهّز مكاناً مناسباً، وتستيقظ باكراً، وتعدّ الإفطار للجميع، حتى لو كانوا عشرين فرداً».

توقف في زقاق فارغ خلف صفّ من منازل مبنيةٍ من الطوب الأحمر ونظر إلي لأول مرة منذ أن ركبنا السيارة.

«هذا المكان الذي نأخذ إليه العلماء والمراسلين الراغبين في معرفة المزيد عن والدتنا». قال ضاحكاً: «إنه المكان الذي تتجمع فيه الأسرة ضدهم. لكنك تبدين لطيفة، لذلك سأسدي لك معروفاً ولن أحضر أخي زكريا هذه المرة».

خرجت من السيارة وقاد سوني السيارة مبتعداً وهو يصرخ: «حظاً موفقاً» من النافذة.

كل ما أعرفه عن إخوة سوني أنهم غاضبون وأن أحدهم قتل شخصاً ما، لم أكن متأكدة أيهما، أو لأيّ سبب. قبل بضعة أشهر، عندما أعطتني ديبورا رقم هاتف لورانس وأقسَمت أنها لن تتحدث معي أبداً، قالت: «يغضب أخي عندما يأتي أشخاص بيض يسألون عن والدتنا».

بينما كنت أمشي عبر ساحة ضيقة نصفها إسمنتي من الزقاق إلى منزل لورانس، تسربت رائحة دخان عبر الباب الشبكي لمطبخه،

حيث اندلعت شرارة من تلفاز صغير على طاولة قابلة للطي. طرقت الباب، ثم انتظرت. ما من أحدٍ. أقحمت رأسي في المطبخ، حيث كانت قطع من لحم الخنزير الدسم تحترق على الموقد. ناديت: مرحباً. وما من جواب.

أخذت نفساً عميقاً ودخلت. عندما أغلقت الباب خلفي، ظهر لورانس، يبدو أكبر من اثنين مني، قامته البالغ وزنها ٢٧٥ رطلاً، بطول ستة أقدام تمتد على عرض المطبخ الضيق، يد على المنضدة والأخرى على الجدار المقابل.

«حسناً، مرحباً آنسة ريبيكا»، قال، وهو يلقي عليّ نظرة خاطفة. «هل تريدين تذوق اللحم الذي طبخته؟».

لقد مر عقد أو نحو ذلك منذ أن أكلت لحم الخنزير، ولكن فجأة بدا ذلك غير ذي صلة. «كيف لي أن أقاوم؟» قلت.

ظهرت ابتسامة حلوة على وجه لورانس. كان في الرابعة والستين من عمره، ولكن بصرف النظر عن شعره المجعد الرمادي، بدا أصغر بعقود، مع بشرة سمراء ناعمة بلون البندق وعيون خضراء فتية. رفع بنطاله الجينز الأزرق الفضفاض، ومسح يديه على قميصه الملطخ بالدهون، وصفّق.

قال: «حسناً إذن، هذا جيد. هذا جيد جداً. سأقلي لك بعض البيض أيضاً. أنتِ نحيلة للغاية».

بينما كان يطبخ، تحدث لورانس عن الحياة في الريف. «عندما

يذهب كبار السن إلى المدينة لبيع التبغ، كانوا يعودون بقطعة من البولونيا لنتقاسمها نحن الأطفال. وأحياناً لو كنا أطفالاً مطيعين، يسمحون لنا بمسح دهن لحم الخنزير المقدد بقطعة من الخبز». كانت ذاكرته للتفاصيل مثيرة للإعجاب. رسم صوراً لعربة يجرها حصان صنعها داي بأبعاد اثنين في أربعة. وأوضح لي باستخدام الخيوط والمناديل، كيف كان يربط التبغ في حزم ليجف عندما كان طفلاً.

ولكن عندما سألته عن والدته، وقف لورانس صامتاً. وبعد برهةٍ قال: «كانت جميلة». ثم عاد للحديث عن التبغ. سألته عن هنرييتا مرة أخرى، فقال: «اعتاد والدي وأصدقائه على خوض سباق الخيول صعوداً وهبوطاً على طريق لاكس تاون». استمر الحديث يدور في حلقات مثل هذه حتى تنهد وقال لي إنه لا يتذكر والدته. في الواقع، قال إنه لا يتذكر معظم سنوات مراهقته.

«لقد حجبتها عن ذاكرتي بسبب الحزن والألم». ولم يكن لديه نية لإزاحة الستار عنها من جديد.

قال لي: «الذكرى الوحيدة التي لدي عن والدتي أنها كانت صارمة». تذكّر أنها جعلته يغسل الحفاضات يدوياً في المغسلة؛ كان يعلقها لتجفّ، فترميها مرة أخرى في الماء قائلة إنها لم تكن نظيفة بما فيه الكفاية. لكن الأوقات الوحيدة التي جلدته فيها كانت بسبب السباحة عند رصيف الميناء في محطة تيرنر. قال: «كانت تجبرني على الذهاب لإحضار عصا لتضربني بها، ثم ترسلني مرة أخرى

لإحضار واحدة أكبر، ثم أكبر، ثم تلفها جميعاً معاً وتضربني على مؤخرتي».

بينما كان يتحدث، امتلأ المطبخ بالدخان مرة أخرى - نسينا أنه كان يطبخ. دفعني لورانس من طاولة المطبخ إلى غرفة المعيشة، حيث جعلني أجلس أمام حصيرة طعام تحمل رسوم عيد الميلاد ووضع فوقها طبقاً من البيض المقلي وقطعة من لحم الخنزير المحترق بحجم يدي بل أكثر سماكةً. ثم انهار على كرسي خشبي بجانبي، ووضع مرفقيه على ركبتيه، وحدّق في الأرض في صمت بينما رحت آكل.

قال أخيراً: «تؤلفين كتاباً عن أمي».

أومأت برأسي وأنا أمضغ.

قال وقد دمعت عيناه وهو يلوح بذراعيه في الهواء، ويصنع كوكباً حوله: «إن خلاياها تكبر بحجم العالم، وتغطي الأرض بأكملها. هذا... غريب بعض الشيء. إنها تنمو بثبات وعزيمة وتقاتل بثبات وعزيمة كلّ ما عليها أن تقاتله».

انحنى إلى الأمام في كرسيه، ووجهه على بعد بوصات من وجهي، وهمس: «أتعلمين ما سمعته؟ سمعت أنه بحلول عام ٢٠٥٠، سيُحقن الأطفال بمصل مصنوع من خلايا أمي حتى يتمكنوا من العيش حتى عمر ثمانمئة عام». ورمقني بابتسامة تعني «أراهن أنّ أمك لا يمكن أن تتفوق على ذلك». قال: «سيتخلصون من الأمراض. إنها معجزة».

عاد لورانس إلى الخلف مرة أخرى في كرسيه وحدق في حضنه، واختفت ابتسامته. بعد لحظة طويلة من الهدوء، استدار ونظر في عينيّ.

«هل يمكنك إخباري بما فعلته خلايا أمي حقاً؟» قال هامساً. «أعلم أنها حققت شيئاً مهماً، لكن لا أحد يخبرنا بشيء».

عندما سألته ما إذا كان يعرف ما الخلية، حدق في قدميه كما لو أنني ناديته في الفصل ولم يقم بواجباته المنزلية.

قال: «نوعاً ما. لا أعرف بالتحديد».

مزقتُ قطعة من الورق من دفتري، ورسمت دائرة كبيرة مع نقطة سوداء صغيرة في الداخل، وشرحت له ما الخلية، ثم أخبرته بعض الأشياء التي قامت بها هيلا للعلوم، وإلى أيّ مدى تطورت زراعة الخلايا منذ ذلك الحين.

قلت له: «يمكن للعلماء حتى أن يزرعوا القرنية الآن»، وفتحت حقيبتي لأخرج مقالاً كنت قد قصصته من صحيفة. أعطيته إياه وأخبرته أنه باستخدام تقنيات الزراعة التي ساعدت هيلا في تطويرها، يمكن للعلماء الآن أخذ عينة من قرنية شخص ما، وزراعتها في وسط الزرع، ثم زراعتها في عين شخص آخر لعلاجه من العمى.

قال لورانس وهو يهز رأسه: «أتخيل ذلك. إنها معجزة».

فجأة، فتح سوني الباب الشبكي، وصرخ: «لا تزال الآنسة ريبيكا على قيد الحياة هنا؟» انحنى في المدخل بين المطبخ وغرفة المعيشة.

قال وهو يشير إلى طبقي نصف الفارغ: «يبدو أنّكِ اجتزتِ الاختبار».

قال لورانس: «تحدثني الآنسة ريبيكا عن خلايا والدتنا. أخبرتني أشياء رائعة. هل تعلم أن خلايا والدتنا تُستخدم لجعل ستيفي وندر يُبصر مجدداً؟».

قلت متلعثمّة: «أوه، حسناً، في الواقع، ليست خلاياها بالضبط التي توضع في عيون الناس. يستخدم العلماء التكنولوجيا التي ساعدت خلايا والدتكم على تطويرها لزراعة قرنيات الآخرين».

قال سوني: «هذه معجزة. لم أكن أعرف عن ذلك، ولكن منذ مدة ذكر الرئيس كلينتون أن لقاح شلل الأطفال من أهم الأشياء التي حدثت في القرن العشرين، وقد ساهمت خلاياها في ذلك أيضاً».

قال لورانس: «إنها معجزة».

«وهذه معجزة أخرى»، ردّ سوني، ومدّ ذراعيه ببطء وتنحى جانباً ليكشف عن والده البالغ من العمر أربعة وثمانين عاماً، داي، وهو يترنح خلفه متعثراً على ساقيه المنهكتين.

لم يغادر داي المنزل منذ ما يقرب من أسبوع بسبب نزيف الأنف الذي لم يتوقف. وها هو الآن يقف في المدخل مرتدياً جينزاً باهتاً وقميصاً داخلياً ونعالاً بلاستيكياً أزرق، على الرغم من أننا في شهر يناير. كان نحيلاً وواهناً، وبالكاد يقف منتصباً. أصبح وجهه

الأسمر الفاتح قاسياً مع التقدم في العمر، مجعداً ولكن طرياً، مثل زوجٍ من أحذية العمل المهترئة. غطى شعره الفضي بقبعة سوداء تشبه قبعة سوني.

قال سوني: «يعاني من الغنغرينا في قدميه»، مشيراً إلى أصابع قدم داي التي كانت أغمق بعدة درجات من بقية جسده ومغطاة بقروح مفتوحة. «تؤلمه قدماه كثيراً حين يرتدي أحذية عادية». انتشرت الغنغرينا من أصابع قدم داي إلى ركبته؛ وقال طبيبه إن أصابع قدميه بحاجة إلى بتر، لكن داي رفض. قال إنه لا يريد الأطباء أن يقطعوا أجزاء منه كما فعلوا مع هنرييتا. في الثانية والخمسين، عانى سوني من الأمر نفسه؛ فقد أكّد أطبائه أنه بحاجة إلى قسطرة للأوعية الدموية، لكنه أقسم على أنه لن يخضع لهذا أبداً.

جلس داي بجانبي واضعاً نظاراته الشمسية البلاستيكية بنية اللون التي حجبت عينيه الدامعتين باستمرار.

صرخ لورانس: «أبي، هل كنت تعرف أن خلايا أمي ستجعل ستيفي وندر يبصر مجدداً؟».

هز داي رأسه في ما بدا وكأنه حركة بطيئة. «لا»، تمتم. «لم أعرف ذلك حتى الآن. ولا يفاجئني سماع ذلك أيضاً».

ثم كان هناك صوت ارتطام بالسقف وحفيف خطوات شخص ما يتحرك في الأعلى، فقفز لورانس من خلف الطاولة وركض إلى المطبخ. قال: «تتحول زوجتي إلى تنين ينفث النار بدون قهوتها

الصباحية. من الأفضل أن أحضر بعض القهوة». كانت الساعة الثانية ظهراً.

بعد بضع دقائق، نزلت بوبيت لاكس على السلالم وسارت عبر غرفة المعيشة ببطء، مرتدية ثوب استحمام أزرق باهت. توقف الجميع عن الكلام عندما مرت وتوجهت إلى المطبخ دون أن تقول كلمة أو تنظر إلى أيّ شخص.

بدت بوبيت وكأنها شخص صاخب يمرّ بحالة هدوء، مثل امرأة ذات ضحكة هائلة ومزاج متقلب قد يعيش أيّ الحالتين في أيّ لحظة. وجهها يفيض بعبارة «لا تعبث معي» وملامحها صارمة تحدق مباشرة إلى الأمام. كانت تعرف لماذا كنتُ هناك، وكان لديها الكثير لتقوله حول هذا الموضوع، لكنها بدت منهكة تماماً من فكرة التحدث معي وكأنني مجرد شخص أبيض آخر يريد شيئاً من العائلة.

اختفت في المطبخ ووضع سوني قطعة ورق مجعدة في يد داي، وهي نسخة مطبوعة من صورة هنرييتا ويديها على وركيها. أخذ جهاز التسجيل من وسط الطاولة، وسلمه إلى داي، وقال: «حسناً، الآنسة ريبيكا لديها أسئلة لك، يا أبي. أخبرها بما تعرفه».

أخذ داي جهاز التسجيل من يد سوني ولم يقل شيئاً.

قال سوني: «إنها تريد معرفة كلّ شيء تسألك عنه دايل دائماً».

سألت سوني إن كان بإمكانه الاتصال بـ ديبورا لأعرف إن كانت ستأتي، لكن رجال آل لاكس هزوا رؤوسهم وهم يضحكون.

قال سوني: «دايل ترفض التحدث إلى أيّ شخص في الوقت الراهن».

«هذا لأنها سئمَت من ذلك»، تذمر داي. «إنهم يطرحون دائماً أسئلة وأشياء، وتستمر في إعطاء المعلومات دون الحصول على أيّ نتيجة في المقابل. إنهم لا يعطونها حتى بطاقة بريدية».

قال سوني: «نعم، هذا صحيح. كلّ ما يريدونه هو معرفة كلّ شيء. وهذا ما تريده الآنسة ريبيكا أيضاً. لذلك تابع يا أبي، أخبرها ودعنا ننتهي من هذا الأمر».

لكن داي لم يرغب في الحديث عن حياة هنرييتا.

قال مكرراً القصة التي رواها لعشرات المراسلين على مر السنين، حرفياً تقريباً: «في البداية سمعت عن أنها مصابة بالسرطان. اتصلوا بي من هوبكنز، وقالوا تعال لأن زوجتك ماتت. طلبوا مني أن أدعهم يأخذون هنرييتا، لكني رفضت. قلت: «لا أعرف ماذا فعلتم بها، لكنكم قتلتم زوجتي. أرفض أن تستمروا في تقطيعها». لكن بعد فترة، قال ابن عمي إن ما من ضرر في ذلك، فوافقت في نهاية المطاف».

ضغط داي على أسنانه الثلاثة المتبقية. قال: «لم أوقع أيّ أوراق. أخبرتهم أن بوسعهم فقط أخذ عينات من جزئها السفلي. ولا شيء آخر. لم يذكر أطبائها شيئاً عن إبقائها على قيد الحياة داخل أنابيب ولم يذكروا شيئاً عن زراعة أيّ خلايا. كلّ ما أخبروني به أنهم أرادوا

أن يقوموا بعمل «تشريح» ليروا إن كان بإمكانهم مساعدة أطفالي. ولطالما عرفت أنهم الأطباء وبالتالي على المرء أن يصدق ما يقولون دون نقاش. أنا لا أعرف بقدر ما يعرفون. قال الأطباء إذا أعطيتهم زوجتي، يمكنهم استخدامها لدراسة ذلك السرطان وربما مساعدة أطفالي وأحفادي».

«نعم». صرخ سوني. «قالوا إن ذلك سيساعد أطفاله في حالة إصابتهم بالسرطان. كان لديه خمسة أطفال، فماذا كان يفترض به أن يفعل؟».

قال داي وهو يهز رأسه: «كانوا يعرفون أن خلاياها كانت تنمو بالفعل عندما رحت إلى هناك بعد وفاتها. لكنهم لم يخبروني بأي شيء عن ذلك. سألوا فقط عما إذا كان بإمكانهم تشريح جسدها ودراسة ذلك السرطان».

«حسناً، ماذا تتوقع من هوبكنز؟» صرخت بوبيت من المطبخ، حيث جلست تشاهد مسلسلاً تلفزيونياً. «لم أكن لأذهب إلى هناك حتى لأقص أظافري».

صرخ داي «هذا صحيح»، وهو يهز عكازه الفضي على الأرض مثل علامة تعجب.

قال سوني: «في ذلك الوقت كانوا يفعلون أشياءً. خاصةً للسود. كان مستشفى جون هوبكنز معروفاً بتجاربه على السود. كانوا يخطفونهم من الشارع...».

«هذا صحيح!» قالت بوبيت وقد ظهرت في باب المطبخ مع قهوتها. «الجميع يعرف هذا».

قال سوني: «اختطفوهم من الشارع بكل بساطة».

«يختطفون الناس!» صرخت بوبيت، وصوتها يعلو أكثر فأكثر.

«يجرون التجارب عليهم!»، صرخ سوني.

قالت بوبيت وهي تهز رأسها: «سيدهشكِ عدد الأشخاص الذين اختفوا في شرق بالتيمور عندما كنت فتاة. كما أقول لك، لقد عشت هنا في الخمسينات عندما أخذوا هنرييتا، ولم يُسمح لنا بالاقتراب من هوبكنز. عندما يحل الظلام ونحن صغاراً، كان علينا الدخول إلى منازلنا وإلا نال منا العاملون في هوبكنز».

آل لاكس ليسوا الوحيدين الذين سمعوا منذ صغرهم أن هوبكنز والمستشفيات الأخرى يختطفون السود منذ القرن التاسع عشر على الأقل، كان التاريخ الشفوي الأسود مليئاً بحكايات «أطباء الليل» الذين اختطفوا السود لإجراء البحوث. وثمّة حقائق مزعجة وراء تلك القصص.

واستحضر أصحاب المزارع البيض بعض القصص مستفيدين من الاعتقاد الأفريقي الراسخ بأن الأشباح تسبب المرض والموت. ولمنع العبيد من الاتحاد أو الهروب، روى أصحاب العبيد حكايات عن أبحاث مروعة أجريت على أجساد السود، ثم غطوا أنفسهم بأغطية بيضاء وتسللوا في الليل، متظاهرين بأنهم أرواح قادمة

لإصابة السود بالمرض أو لسرقتهم من أجل الأبحاث. وأدت تلك الملاءات في نهاية المطاف إلى ظهور عباءات ذات قلنسوة بيضاء لأخوية كو كلوكس كلان.

لكن أطباء الليل لم يكونوا مجرد خيالات استحضرت لتكون تكتيكات مخيفة. اختبر العديد من الأطباء الأدوية على العبيد وأجروا عمليات جراحية عليهم لتطوير تقنيات جراحية جديدة، غالباً دون استخدام التخدير. ازداد الخوف من أطباء الليل في أوائل القرن العشرين، حيث هاجر السود شمالاً إلى واشنطن العاصمة وبالتيمور، وانتشرت الأخبار بأن كليات الطب هناك كانت تعرض المال مقابل الجثث. استُخرجت الجثث السوداء دورياً من القبور لإجراء البحوث عليها، وزودت تجارة شحن الجثث المدارس في الشمال بجثث سوداء من الجنوب لصفوف علم التشريح. وصلت الجثث في بعض الأحيان بالعشرات أو نحو ذلك في كلّ شحنة، داخل براميل كتب عليها زيت التربنتين.

بسبب هذا التاريخ، اعتقد السكان السود بالقرب من هوبكنز أن المستشفى بُني خصيصاً في حي فقير أسود لصالح العلماء كي يسهّل عليهم الوصول إلى عينات البحث من الأفراد السود. في حين أنه بني في الواقع لخدمة سكان بالتيمور الفقراء.

ولد جون هوبكنز في مزرعة تبغ في ولاية ماريلاند حيث حرر والده عبيده في وقت لاحق قبل ما يقرب من ستين عاماً من تحرير العبيد. جنى هوبكنز الملايين من العمل مصرفياً وبقالاً، وباعَ نوعاً

خاصاً به من الويسكي، لكنه لم يتزوج أبداً ولم يكن لديه أطفال. لذلك، في عام ١٨٧٣، قبل وقت قصير من وفاته، تبرع بـ ٧ ملايين دولار لإنشاء كلية طبية ومستشفى خيري. كتب رسالة إلى إثني عشر رجلاً اختارهم للعمل في مجلس أمناء ووضح لهم رغباته. أوضح في رسائله أنّ الغرض من مستشفى هوبكنز مساعدة الفقراء العاجزين عن الحصول على الرعاية الطبية:

> يستقبل المستشفى مجاناً المرضى المعوزين من هذه المدينة وضواحيها، بغض النظر عن الجنس أو العمر أو اللون، والذين يحتاجون إلى علاج جراحي أو طبي، والذين يمكن استقبالهم في المستشفى دون تعريض النزلاء الآخرين للخطر، وفقراء المدينة والولاية من جميع الأعراق، والمصابين بأي مرض.

وأوضح أن المرضى الوحيدين الذين ينبغي تقاضي أجور منهم هم أولئك الذين يمكنهم تحمل تكلفتها بسهولة، وأن أيّ أموال يدفعونها ينبغي إنفاقها في علاج أولئك الذين لا يملكون المال. كما خصص حوالي مليوني دولار إضافية من العقارات، وعشرين ألف دولارٍ نقدا كلّ عام لمساعدة الأطفال السود على وجه التحديد:

> سيكون من واجبكم فيما بعد توفير... المباني المناسبة لاستقبال وحماية وتعليم الأطفال الملونين اليتامى. أريد منكم توفير أماكن إقامة لثلاثمئة أو أربعمئة طفل من هذه الفئة؛ وأنتم مخولون أيضاً لاستقبال الأطفال الملونين الذين

فقدوا أحد الوالدين فقط في هذا الملجأ، حسب تقديركم، ويمكنكم في حالات استثنائية استقبال الأطفال الملونين الذين ليسوا أيتاماً ولكن ربما يعانون من ظروف تجعلهم بحاجة لمساعدة منكم.

توفي هوبكنز بعد فترة وجيزة من كتابة تلك الرسالة. أسس مجلس أمنائه، الذي ضم العديد من أصدقائه وأفراد عائلته، كليّةً من أفضل كليات الطب في البلاد، ومستشفى تنفق عنابره العامة ملايين الدولارات لتوفير الرعاية المجانية للفقراء، وكثير منهم من السود.

لكن تاريخ مستشفى هوبكنز بالتأكيد ليس نقياً تماماً عندما يتعلق الأمر بالمرضى السود. ففي عام ١٩٦٩، استخدم باحث من هوبكنز عينات دم من أكثر من سبعة آلاف طفل من الجوار، معظمهم من عائلات سوداء فقيرة، للبحث عن استعداد وراثي للسلوك الإجرامي. ولم يحصل الباحث على الموافقة. رفع الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية دعوى يدعي فيها أن الدراسة انتهكت الحقوق المدنية للأولاد وانتهكت سرية العلاقة بين الأطباء والمرضى من خلال تسليم النتائج إلى محاكم الولاية ومحاكم الأحداث. أُوقفت الدراسة، ثم استؤنفت بعد بضعة أشهر باستخدام استمارات الموافقة.

وفي أواخر التسعينيات، رفعت امرأتان دعوى قضائية ضد هوبكنز، تدعيان فيها أن الباحثين في المستشفى عرضوا أطفالهم

عمداً للرصاص، ولم يبلغوهم على الفور عندما كشفت اختبارات الدم أن مستويات الرصاص ارتفعت لدى أطفالهم حتى عندما عانى أحدهم من تسمم بالرصاص. كان البحث جزءاً من دراسة تبحث في طرق خفض تراكيز الرصاص، وكانت جميع العائلات المشاركة من السود. وقد عالج الباحثون عدة منازل بدرجات متفاوتة منه، ثم شجعوا الملاك على تأجير تلك المنازل للأسر التي لديها أطفال حتى يتمكنوا من رصد مستويات الرصاص لدى الأطفال. في البداية، رُفضت القضية. ولكن عند الاستئناف، قارن أحد القضاة الدراسة بحقن ساوثام للأفراد بخلايا هيلا، ودراسة توسكيجي، والبحوث النازية، وسُويت القضية في نهاية المطاف خارج المحكمة. وبدأت وزارة الصحة والخدمات الإنسانية تحقيقاً وخلصت إلى أن استمارات الموافقة على الدراسة «لم تقدم وصفاً كافياً» عن مختلف مستويات خفض الرصاص في المنازل.

ولكن اليوم عندما يتحدث الناس عن تاريخ علاقة هوبكنز بالمجتمع الأسود، فإن القصة التي يعتبرها العديد منهم أسوأ جريمة هي قصة هنرييتا لاكس، المرأة السوداء التي، كما يقولون، استغل العلماء البيض جسدها أسوأ استغلال.

جلس سوني وبوبيت في غرفة معيشة لورانس، وتحدثا بصوت غاضبٍ لمدة ساعة تقريباً عن خطف هوبكنز للأشخاص السود. في النهاية، استند سوني إلى كرسيه وقال: «لم يقدم لنا مستشفى جون هوبكن أيّ معلومات. وذلك كان الجزء الأسوأ. ليس الجزء

المحزن، بل الجزء السيء، لأنني لا أعرف ما إذا كانوا لم يقدموا لنا معلومات لأنهم يكسبون المال منها، أم أنهم أرادوا فقط أن نبقى جاهلين بشأن هذا الموضوع. أعتقد أنهم كسبوا المال من ذلك، لأنهم كانوا يبيعون خلاياها في جميع أنحاء العالم ويشحنونها مقابل الدولارات».

صرخ لورانس: «يقولون في هوبكنز إنهم أعطوهم خلايا بلا مقابل، لكنهم كسبوا الملايين! هذا ليس عدلاً. إنها أهم شخص في العالم وعائلتها تعيش في فقرٍ مدقع. إذا كانت والدتنا مهمة جداً للعلم، فلماذا لا يمكننا الحصول على تأمين صحي؟».

كان داي مصاباً بسرطان البروستات والأسبستوس يملأ رئتيه. وعانى سوني من اعتلال في القلب، وتعاني ديبورا من التهاب المفاصل وهشاشة العظام والصمم العصبي والقلق والاكتئاب. إلى جانب كلّ ذلك وأضف عليه أن العائلة بأسرها تعاني من ارتفاع ضغط الدم وداء السكري، اعتقد آل لاكس أنهم يدعمون صناعة المستحضرات الصيدلانية إلى حدّ كبير، بالإضافة إلى العديد من الأطباء. لكن تأمينهم الصحي لم يكن ثابتاً. وحصل بعضهم على تغطية من خلال برنامج الرعاية الطبية ميدي كير، والبعض الآخر من قبل الأزواج، ولكن صاروا جميعهم دون تغطية أو مالٍ للعلاج.

بينما كان رجال آل لاكس يتحدثون عن هوبكنز والتأمين، تأففت بوبيت باشمئزاز ومشت إلى كرسيها في غرفة المعيشة. «ضغطي يرتفع ولن أموت بسبب هذا، كما تعلمين. الأمر برمته لا

يستحق كلّ هذا الغضب». لكنها لم تستطع منع نفسها، وصرخت فجأة: «كان الجميع يعلم أن السود يختفون لأن هوبكنز كان يجري التجارب عليهم. أعتقد أن الكثير من ذلك كان صحيحاً».

قال سوني: «هو كذلك. وربما الكثير مما قيل أيضاً هو مجرد خرافات. مَن يدري. لكن يوجد شيء واحد نعرفه حقّ المعرفة: خلايا والدتي ليست خرافة».

ضرب داي عكازه بالأرض مرة أخرى.

«هل تعرف ما الخرافة؟» قفزت بوبيت من مقعدها. «لطالما قال الجميع إن هنرييتا لاكس تبرعت بهذه الخلايا. لكنها لم تتبرع بأي شيء. أخذوها منها دون أن يسألوها». وأخذت نفساً عميقاً لتهدئة نفسها. «ما قد يزعج هنرييتا حقاً هو حقيقة أن الدكتور غاي لم يخبر العائلة بأي شيء. لم نكن نعرف شيئاً عن تلك الخلايا ولم يهتم. وقد جعلنا هذا نشعر بسخط شديد. رحت أسأل الجميع: «لماذا لم يطلعوا العائلة على أيّ شيء؟» كانوا يعرفون كيف يتصلون بنا! لو لم يكن الدكتور غاي ميتاً، لقتلته بنفسي».

(٢٢)

«الشهرة التي تستحقها»

بعد ظهر أحد الأيام في أواخر ربيع عام ١٩٧٠، وقف جورج غاي مرتدياً بدلة التخويض المفضلة على ضفاف نهر بوتوماك، حيث كان يصطاد مع العديد من باحثي هوبكنز الآخرين كلّ أربعاء طوال سنوات. فجأة شعر غاي بإرهاق شديد، لدرجة أنه بالكاد استطاع حمل صنارة الصيد. سحبه رفاقه إلى أعلى الضفة إلى سيارة الجيب البيضاء التي اشتراها بالمال الذي كسبه من جائزة أبحاث السرطان.

بعد مدة وجيزة من رحلة الصيد تلك، وفي سن الحادية والسبعين، علم غاي أنه مصابٌ بالمرض الذي قضى طوال حياته يحاول القضاء عليه. كان مصاباً بأحد أكثر أشكاله فتكاً: سرطان البنكرياس. وفي حال لم يقم الأطباء بإجراء عملية جراحية، عرف غاي أنه سيموت في غضون أشهر. وربما يكسب بعض الوقت إذا خضع لتلك العملية. وربما لا.

في ٨ أغسطس ١٩٧٠، حوالي الساعة ٦:٠٠ صباحاً، اتصلت مارغريت بكل موظفٍ من موظفي مختبر غاي، بما فيهم طالب ما بعد الدكتوراه الذي وصل للتو على متن رحلة جوية من أوروبا.

قالت لهم: «تعالوا إلى المختبر بأسرع ما يمكن. هناك إجراء طارئ هذا الصباح». لم تخبرهم ما هذا الإجراء.

قبل الدخول إلى غرفة العمليات، أخبر جورج الجراحين أنه يريدهم أن يأخذوا عينات من ورمه، تماماً كما فعل الدكتور وارتون مع ورم هنرييتا قبل عقود. أعطى غاي موظفي مختبره تعليمات حذرة لزرع الخلايا جي جي GeGe، وهي سلالة من الخلايا السرطانية المأخوذة من بنكرياسه. كان يأمل أن تصبح خلاياه خالدةً مثل خلايا هنرييتا.

«اعملوا طوال النهار والليل إذا تطلّب الأمر»، قال لطالب ما بعد الدكتوراه ومساعديه. «اجعلوه الأمر ممكناً».

حالما جرى تخدير غاي على طاولة العمليات، شقّ الجراحون جسده ووجدوا أن السرطان كان غير قابل للجراحة، فقد غطى المعدة والطحال والكبد والأمعاء. كانوا قلقين من أن استئصال السرطان قد يقتله. وعلى الرغم من رغبة غاي، قاموا بخياطته دون أخذ أيّ عينات. عندما استيقظ من التخدير واكتشف أنه لن يكون هناك سلالة خلايا جي جي، شعر بغضب شديد. إذا كان هذا السرطان سيقتله، أراد غاي على الأقل أن يساعد في تقدم العلم من خلال هذه العملية.

بمجرد أن تعافى من الجراحة بما يكفي للسفر، بدأ غاي في الاتصال بالباحثين في مجال السرطان في جميع أنحاء البلاد، وسأل عمّن كان يجري بحثاً عن سرطان البنكرياس ويحتاج إلى مريض لإجراء التجارب عليه. وانهمرت عليه الردود من بعض من العلماء الذين لم يعرفهم، وآخرين من الأصدقاء والزملاء.

في الأشهر الثلاثة بين جراحته وموته، ذهب غاي إلى مستشفى مايو كلينيك في مينيسوتا لتلقّي أسبوع من العلاج بعقار ياباني تجريبي جعله مريضاً بشكل لا يوصف. جلس ابنه، جورج جونيور، الذي كان قد تخرج للتو في كلية الطب، مع غاي خلال تلك الأحداث وتأكد من أن لديه بدلة مكوية حديثاً كلّ يوم. بعد مغادرته مايو كلينيك، قضى غاي عدة أيام في مدينة نيويورك في سلون كيترينغ لإجراء دراسة أخرى، وخضع للعلاج الكيميائي في هوبكنز باستخدام دواء لم يتم اعتماده بعد للاستخدام لدى البشر.

كان طول غاي ستة أقدام ونصف ووزنه حوالي ٢١٥ رطلاً عند تشخيص مرضه، لكنه ذبل بسرعة. غالباً ما تضاعفت معاناته بسبب آلام البطن، وتقيأ باستمرار، وسرعان ما تركته العلاجات مقيداً إلى كرسي متحرك. لكنه استمر في الظهور في المختبر وكتابة الرسائل لزملائه. قبل وقت قصير من وفاته، أخبر مساعدته السابقة ماري كوبتشيك أنه لا بأس من الكشف عن اسم هنرييتا إذا سأل أيّ شخص، حيث مضى على الأمر العديد من السنوات. لكن ماري لم تخبر أحداً.

توفي جورج غاي في ٨ نوفمبر ١٩٧٠.

بعد بضعة أشهر من وفاة غاي، قرر هوارد جونز والعديد من زملائه في هوبكنز، بما فيهم فيكتور ماك كوسك، عالم الوراثة الرائد، كتابة مقال عن تاريخ سلالة خلية هيلا للإشادة بمسيرة عمل غاي. قبل كتابة المقال، سحب جونز سجلات هنرييتا الطبية لتذكير نفسه بتفاصيل حالتها. وعندما رأى صور خزعتها، أدرك على الفور أن ورمها كان قد شخّص بشكل خاطئ. وللتأكيد، أخرج عينة الخزعة الأصلية، والتي كانت مخزنة على رف منذ عام ١٩٥١.

في ديسمبر ١٩٧١، عندما نشر جونز وزملاؤه إشادتهم بـ غاي في مجلة أمراض النساء والتوليد، أفادوا أن طبيب الأمراض الأصلي «أساء تفسير» و«أساء تسمية» سرطان هنرييتا. كان ورمها من النمط الغازي، ولكن ليس سرطاناً ظهارياً كما تم تشخيصه في الأصل. وأوضح المقال، أنه كان في الواقع: «سرطاناً غدياً شديد العدوانية في عنق الرحم»، مما يعني أنه نشأ من النسيج الغدي في عنق الرحم وليس من النسيج الظهاري.

لم يكن التشخيص الخاطئ من هذا النوع غير مألوف في ذلك الوقت. في عام ١٩٥١، في نفس العام الذي قام فيه جونز بأخذ خزعة من ورم هنرييتا، أفاد باحثون من جامعة كولومبيا أن هذين النوعين من السرطان كان من السهل الخلط بينهما وفي كثير من الأحيان.

وفقاً لـ هوارد جونز وأطباء الأورام النسائية الآخرين الذين تحدثتُ معهم، فإن التشخيص الصحيح لم يكن ليغير طريقة علاج

سرطان هنرييتا. في مطلع عام ١٩٥١، وجدَت اثنتا عشرة دراسة على الأقل أن الأورام السرطانية الغدية في عنق الرحم والسرطانات الظهارية تستجيب بالقدر نفسه للإشعاع، وهو العلاج المفضل لكلا النوعين.

على الرغم من أنه لم يكن ليغير علاج هنرييتا، فإن هذا التشخيص الجديد يمكن أن يساعد في تفسير سبب انتشار السرطان في جميع أنحاء جسمها على نحوٍ أسرع بكثير مما توقعه أطباؤها. غالباً ما تكون الأورام السرطانية الغدية في عنق الرحم أكثر عدوانية من الظهارية. (اتضح أن مرض السفلس (الزهري) الذي عانت منه كان عاملاً مسبباً، كما أن مرض الزهري يمكن أن يثبط الجهاز المناعي ويسمح للسرطان بالانتشار بشكل أسرع من المعتاد).

بغض النظر عن ذلك، كتب جونز وزملاؤه أنّ التشخيص الجديد كان «مجرد إضافة تؤكد عبقرية جورج غاي الثابتة... وكثيراً ما قيل إن الاكتشاف العلمي ينتج عندما يكون الرجل المناسب في المكان المناسب وفي الوقت المناسب». وكان غاي، كما قالوا، يمثل هذا الرجل بالضبط. وكانت هيلا نتيجة ذلك الحظ. «إذا سُمح لها بالنمو دون عائق في ظل ظروف الزرع المثلى، لاستولت هيلا على العالم بحلول هذا الوقت». «لقد منحَت الخزعة المريضة، هنرييتا لاكس، الخلود الذي بلغ الآن ٢٠ عاماً، تحت اسم هيلا.. هل ستعيش إلى الأبد إذا حظيت بالرعاية بأيدي علماء المستقبل؟ حتى الآن هنرييتا لاكس، أولاً هنرييتا ثم هيلا، يبلغ عمرها مجتمعة ٥١ عاماً».

كانت هذه المرة الأولى التي يظهر فيها اسم هنرييتا الحقيقي مطبوعاً. وإلى جانب ذلك، ولأول مرة، تُعرض صورة هنرييتا وهي تقف ويديها على وركيها، في كلّ مكان. وذكر التعليق الاسم «هنرييتا لاكس (هيلا)». ومن خلال هذا المقال، ربط طبيب هنرييتا وزملاؤه إلى الأبد هنرييتا ولورانس وسوني وديبورا وزكريا وأطفالهم وجميع الأجيال المقبلة من لاكس بخلايا هيلا والحمض النووي داخلها. وسرعان ما انتشرت هوية هنرييتا من مختبر إلى آخر بنفس سرعة انتشار خلاياها.

بعد ثلاثة أسابيع فقط من نشر اسم هنرييتا لأول مرة، وقع ريتشارد نيكسون على القانون الوطني للسرطان وأطلق الحرب على السرطان حيث خصص مليار ونصف دولار أمريكي لأبحاث السرطان على مدى السنوات الثلاث المقبلة. وفي خطوة يعتقد الكثيرون أنها تهدف إلى صرف الانتباه عن حرب فيتنام، أعلن نيكسون أن العلماء سيجدون علاجاً للسرطان في غضون خمس سنوات، في الوقت المناسب للاحتفال بالذكرى المئوية الثانية للولايات المتحدة.

مع هذا التمويل الجديد جاء الضغط السياسي المكثف على العلماء للوفاء بالموعد النهائي الذي حدده الرئيس. تسابق الباحثون للعثور على ما يعتقدون أنه فيروس السرطان المراوغ، على أمل تطوير لقاح للوقاية منه. وفي مايو ١٩٧٢، تعهد نيكسون بأن العلماء الأمريكيين والروس سيعملون معاً من خلال برنامج تبادل طبي حيوي للعثور على الفيروس.

على الرغم من أن الكثير من الحرب على السرطان تعتمد على البحث باستخدام مزارع الخلايا، فإن القليل من الناس يعرفون أن هذه المزارع كانت ملوثة بخلايا هيلا. كان مراسل واشنطن بوست في المؤتمر عندما أعلن غارتلر عن مشكلة التلوث، لكنه لم يتطرق لها، وظلّ معظم العلماء ينكرون وجود المشكلة. حتى أن البعض كانوا يجرون دراسات تهدف إلى دحض النتائج التي توصل إليها غارتلر.

لكن المشكلة لم تكن لتختفي. مع نهاية عام ١٩٧٢، عندما ادعى العلماء الروس أنهم وجدوا فيروس سرطان في خلايا من مرضى السرطان الروس، كان لدى الحكومة الأمريكية عينات من الخلايا التي سلّمت باليد إلى مختبر الأبحاث الطبية الحيوية البحرية في كاليفورنيا للاختبار. اتضح أن تلك الخلايا لم تكن من مرضى السرطان الروس على الإطلاق. بل كانت من خلايا هنرييتا لاكس.

والرجل الذي اكتشف هذه الحقيقة كان والتر نيلسون ريس، خبير الكروموسومات الذي كان مدير زراعة الخلايا في المختبر البحري. كان نيلسون ريس بين الحضور عندما قدم غارتلر بحثه سيء السمعة، وكان أحد العلماء القلائل الذين صدقوه. ومنذ ذلك الحين، وظف المعهد الوطني للسرطان نيلسون ريس للمساعدة في وقف مشكلة التلوث. كان يُعرف باسم الحارس الذي نشر «قوائم هيلا هيت» في العلوم، مع ذكر اسم أيّ سلالات ملوثة وجدها، إلى جانب أسماء الباحثين الذين أعطوه الخلايا. لم يحذر الباحثين عندما

وجد أن خلاياهم قد تلوثت بـ هيلا؛ بل نشر أسمائهم وحسب، وهو ما يعادل وضع ملصق قرمزي يحمل الحرف H على باب مختبرك.

على الرغم من كلّ الأدلة، ظلّ معظم الباحثين يرفضون الاعتقاد بوجود مشكلة. ولم تلاحظ وسائل الإعلام، حتى وصلت أخبارٌ بأن الخلايا الروسية تلوثت بالخلايا الأمريكية. حينها فقط نشرت الصحف في لندن وأريزونا ونيويورك وواشنطن عناوين صحفية تقول خلايا امرأة فارقت الحياة منذ أمدٍ تغزو مزارع خلايا الآخرين ونشروا أخباراً عن «ارتباك خطير»، و«أبحاث مضللة»، وملايين الدولارات المهدورة.

فجأة، وللمرة الأولى منذ مقال كولير في الخمسينات، كانت الصحافة مهتمة جداً بالمرأة التي أُخذت منها تلك الخلايا. كتبوا في مقالٍ تلو الآخر عن «خلود امرأةٍ من نوع غير عادي»؛ وأطلقوا عليها اسم هيلين لارسن أو هيلين لين، ولكن لم يذكر قطّ اسم هنرييتا لاكس لأن جونز وماك كوسك نشروا اسمها في مجلة علمية صغيرة يقرأها عدد قليل من الناس.

انتشرت الشائعات حول هوية هذه الغامضة هيلين إل. وقال البعض إنها كانت سكرتيرة غاي، أو ربما عشيقته. وقال آخرون إنها كانت عاهرة تجوب الشوارع بالقرب من هوبكنز أو امرأة من نسج خيال غاي، أيّ أنها شخصية وهمية ابتكرها لإخفاء الهوية الحقيقية للمرأة التي أخذ منها الخلايا.

عندما ظهر اسم هيلين في المقالات مراراً وتكراراً بأسماء مختلفة، بدأ عدد من العلماء يشعرون بالحاجة إلى وضع الأمور في نصابها الصحيح. في ٩ مارس ١٩٧٣، نشرت مجلة نيتشر رسالة من جيه. دوغلاس، عالم الأحياء في جامعة برونيل:

> لقد مر واحد وعشرون عاماً منذ أن أسس جورج غاي خلايا هيلا الشهيرة في وسط الزرع. تشير التقديرات إلى أن وزن هذه الخلايا في العالم اليوم يتجاوز وزن الزنجية الأمريكية التي استؤصلت تلك الخلايا من ورم عنق رحمها. لقد حققت تلك السيدة الخلود الحقيقي، في كلّ من أنبوب الاختبار وفي قلوب وعقول العلماء في جميع أنحاء العالم لأن قيمة خلايا هيلا في البحث والتشخيص وما إلى ذلك، لا تقدر بثمن. ومع ذلك نحن لا نعرف اسمها! لقد قيل عموماً أن الحرفين (الهاء والياء He) والحرفين (اللام والألف La) هما أول حروف من اسمها الكامل ولكن في حين يقول أحد الكتب الأكاديمية أن الاسم كان هيلين لين، يقول آخر هنرييتا لاكس. ورسائلي الموجهة إلى مؤلف المقال، والتي استفسرت فيها عن مصدر معلوماته، مثل الرسالة الموجهة إلى المستشفى التي انبثق عنها بحث غاي، ظلّت دون ردّ. هل يعرف أحدكم الاسم على وجه اليقين؟ وهل سيكون مخالفاً للأخلاقيات الطبية مع استمرار خلايا هيلا المصادقة على

الاسم والسماح لـ هي He... لا La بالاستمتاع بالشهرة التي تستحقها؟

انهمرت الردود بغزارة على دوغلاس. لا يوجد سجل للقراء الذين تناولوا سؤاله حول أخلاقيات مهنة الطبّ، لكنهم صححوا قواعده اللغوية واستخدامه لكلمة «الزنجي» بدلاً من «الزنجية». قدمت العديد من الردود أسماء النساء اللواتي يعتقدون أنّ خلايا هيلا أُخذت منهن مثل هيلغا لارسن، هيذر لانغتري، وحتى الممثلة هايدي لامار. في رسالة متابعة في ٢٠ أبريل ١٩٧٣، أعلن دوغلاس أن جميع هؤلاء النساء يجب أن «ينسحبن بأكبر قدر ممكن من اللباقة»، لأنه تلقى رسالة من هوارد دبليو جونز قضت على «الشك بأن اسم خلايا هيلا مشتق من اسم هنرييتا لاكس».

ولم يكن جونز الوحيد الذي وضع الأمور في نصابها الصحيح حول اسم هنرييتا، إذ قريباً سيرسل فيكتور ماك كوسك، أحد المؤلفين المشاركين لدى جونز، رسالة مماثلة إلى مراسل في مجلة ساينس، لتصحيح سوء استخدامها لاسم هيلين لين. ورداً على ذلك، كتبَت الصحفية مقال متابعة قصير في مجلة ساينس بعنوان «هيلا (من هنرييتا لاكس)».

وأوضحت فيه أنها «كررت عن غير قصد حكاية أصل تلك الخلايا». ثم في مجلة من أكثر المجلات العلمية قراءة على نطاق واسع في العالم، قامت بتصحيح خطأها: «يبدو أن هيلين لين لم تعش قطّ. لكن هنرييتا لاكس كانت حقيقية اختبأت لفترة طويلة خلف الاسم

المستعار هيلين لين». كما ذكرت أن ورم هنرييتا شخّص على نحوٍ خاطئ.

أضافت: «لا شيء من هذا يغير من جودة العمل المنجز مع خلايا هيلا، ولكن ربما من الأفضل معرفة اسمها لأجل التاريخ».

الباب الثالث

الخلود

(٢٣)

«إنها على قيد الحياة»

في يوم ضبابي من عام ١٩٧٣، في منزل من الطوب البني على بعد خمسة أبواب من منزلها، جلست بوبيت لاكس على طاولة طعام صديقتها غاردينيا. جاء صهر غاردينيا إلى البلدة من واشنطن العاصمة، وكانوا قد انتهوا للتو من تناول الغداء. بينما كانت غاردينيا تغسل الأطباق في المطبخ، سأل صهرها بوبيت عما تفعله من أجل كسب لقمة العيش. عندما أخبرته أنها تعمل مساعدة مرضى في مستشفى مدينة بالتيمور، قال: «حقاً؟ أنا أعمل في المعهد الوطني للسرطان».

تحدثا عن الأدوية وعن نباتات غاردينيا التي غطت النوافذ والطاولات. قالت بوبيت: «ستموت هذه الأشياء لو كانت في منزلي»، وضحكا.

«من أيّ بلدةٍ أنتِ؟» سأل.

«شمال بالتيمور».

«هل تمزحين؟ وأنا أيضاً». ما اسم عائلتك؟».

«حسناً، كانت كوبر، ولكن عائلة زوجي لاكس».

«اسمك الأخير لاكس؟».

«نعم، لماذا؟».

قال: «هذا غريب، عملت مع هذه الخلايا في مختبري لسنوات، وقد قرأت للتو مقالاً ورد فيه أنها تعود لامرأة تدعى هنرييتا لاكس. لم أسمع بهذا الاسم من قبل في أيّ مكان آخر».

ضحكت بوبيت. قالت: «هنرييتا لاكس هي والدة زوجي لكنني على يقينٍ بأنك لا تتحدث عنها. لقد ماتت منذ ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً».

«هنرييتا لاكس والدة زوجك؟» سأل، وقد زاد حماسه. «هل ماتت بسبب سرطان عنق الرحم؟».

غابت الابتسامة عن وجه بوبيت وسألت «كيف عرفت ذلك؟».

قال: «لا بدّ أنّ تلك الخلايا في مختبري تعود لها. إنها من امرأة سوداء تدعى هنرييتا لاكس توفيت بسبب سرطان عنق الرحم في هوبكنز في الخمسينيات».

«ماذا؟» صرخت بوبيت وهي تقفز من كرسيها. «ماذا تعني بأنك تعمل على خلاياها في مختبرك؟».

رفع يديه إلى الأعلى محاولاً أن يقول لها اهدئي قليلاً. «طلبتها من مورّد مثل أيّ شخصٍ آخر».

«ماذا تعني بقولك مثل أيّ شخصٍ آخر؟» صرخت بوبيت. «أي مورد؟ من الذي لديه خلايا حماتي؟».

كان الأمر أشبه بكابوسٍ بغيض. لقد قرأت في الصحيفة عن دراسة الزهري في توسكيجي، والتي أوقفتها الحكومة بعد أربعين عاماً، والآن جاء صهر غاردينيا يقول إن هوبكنز لديه جزء من هنرييتا على قيد الحياة وأنّ العلماء في كلّ مكان يجرون أبحاثاً عليها ولم يكن لدى العائلة أيّ فكرة. كان الأمر أشبه بأن تدرك فجأة أنّ كلّ تلك القصص المرعبة التي سمِعَتها عن هوبكنز طوال حياتها ثَبتَ أنها كلها حقيقية، وتتعلق بها أيضاً. وخطر لها إنهم إن كانوا يجرون أبحاثاً على هنرييتا، بالتالي هي مسألة وقت فقط قبل أن يأتوا من أجل أطفال هنرييتا، وربما أحفادها.

أخبرها صهر غاردينيا أنّ خلايا هنرييتا كانت عنواناً بارزاً في جميع نشرات الأخبار مؤخراً لأنها سببت مشاكل من خلال تلويث مزارع الخلايا الأخرى. لكن بوبيت ظلّت تهزّ رأسها وتقول: «كيف لم يخبر أحد عائلتها أنّ جزءاً منها لا يزال على قيد الحياة؟».

قال: «أتمنى لو كنت أعرف». مثل معظم الباحثين، لم يفكر أبداً فيما إذا كانت المرأة صاحبة خلايا هيلا قد تبرعت بها طواعيةً أم لا.

اعتذرت بوبيت وركضت إلى المنزل، بل اندفعت عبر بابِ

المطبخ الشبكي تنادي لورانس: «جزءٌ من والدتك، إنّه على قيد الحياة!».

اتصل لورانس بوالده ليخبره بما سمعته بوبيت ولم يعرف داي ماذا يقول. هنرييتا على قيد الحياة؟ هذا ما فكّر به. هذا غير منطقيٍّ! لقد شاهد جثتها أثناء جنازتها في كلوفر بنفسه. هل أخرجوا جثمانها من القبر؟ أو ربما فعلوا شيئاً لها أثناء تشريح الجثة؟

اتصل لورانس بالمقسم الرئيسي في هوبكنز، قائلاً: «أنا أتصل بشأن والدتي، هنرييتا لاكس، لديكم بعض منها على قيد الحياة». عندما لم يتمكن الموظف من العثور على سجل لمريضة تدعى هنرييتا لاكس في المستشفى، أغلق لورانس الخط ولم يعرف بمن يتصل.

بعد فترة وجيزة من اتصال لورانس بهوبكنز، في يونيو ١٩٧٣، اجتمع مجموعة من الباحثين حول طاولة في جامعة ييل في ورشة العمل الدولية الأولى حول رسم خرائط الجينات البشرية، وهي خطوة أولى نحو مشروع الجينوم البشري. كانوا يتحدثون عن كيفية إيقاف مشكلة التلوث بخلايا هيلا، عندما أشار شخص ما إلى أنه يمكن حل الفوضى بأكملها إذا وجدوا واسماتٍ وراثية خاصة بـ هنرييتا واستخدموها لتحديد الخلايا التي كانت لها والخلايا التي لم تكن لها. لكن القيام بذلك سيتطلب عينات من الحمض النووي لعائلتها المباشرة ويفضل أن تكون من زوجها وكذلك أطفالها لمقارنة حمضهم النووي مع حمض هيلا وإنشاء خريطة لجينات هنرييتا.

وقد صادف وجود فيكتور ماك كوسك، أحد العلماء الذين نشروا اسم هنرييتا أول مرة، حول تلك الطاولة. قال لهم إنّ بوسعه المساعدة بهذا الشأن. وأشار إلى أنّ زوج وأولاد هنرييتا لا يزالون من المرضى الذين يتعالجون في هوبكنز، لذا فإن العثور عليهم لن يكون صعباً. وبصفته طبيباً يعمل هناك، كان لدى ماك كوسك حقّ الوصول إلى سجلاتهم الطبية ومعلومات الاتصال بهم.

شعر علماء الوراثة في المؤتمر ببعض الارتياح. إذ في حال تمكنوا من الوصول إلى الحمض النووي لأولاد هنرييتا، فلن يكون بوسعهم حلّ مشكلة التلوث وحسب بل دراسة خلايا هنرييتا بطرق جديدة تماماً أيضاً. وافق ماك كوسك، لذلك التفت إلى إحدى زميلاته في مرحلة ما بعد الدكتوراه وتدعى سوزان هسو، وقال: «تولّي هذا الأمر بمجرد عودتك إلى بالتيمور».

لم يقدم ماك كوسك تعليمات لـ هسو بأن تشرح حيثيات البحث لآل لاكس. كلّ ما كانت تعرفه هو أن فيكتور ماك كوسك طلب منها أن تتصل بالعائلة.

قالت لي هسو بعد سنوات: «كان أشبه بالآلهة. كان رجلا مشهوراً، درّب معظم علماء الوراثة المعروفين في العالم». وعندما قال لها الدكتور ماك كوسك: «عودي إلى بالتيمور، واسحبي عينات هذا الدم، فإن هذا ما فعلته بالضبط».

عندما عادت هسو من المؤتمر، اتصلت بـ داي لتسأل إن كان بإمكانها سحب الدم من أفراد عائلته.

قال لي داي بعد سنوات: «أخبروني أن زوجتي لديهم وعلى قيد الحياة تقريباً. قالوا إنهم يجرون تجارب عليها وأرادوا المجيء لفحص أولادي لمعرفة ما إذا كانوا مصابين بالسرطان الذي قتل والدتهم».

لكن هسو لم تقل شيئاً عن فحص الأولاد للكشف عن السرطان. لم يكن هناك ما يسمى «اختبار السرطان»، وحتى لو كان موجوداً، فإن مختبر ماك كوسك لم يكن ليفعل ذلك، لأنه لم يكن باحثاً في مجال السرطان. كان ماك كوسك عالم وراثة مشهور أسس أول قسم وراثة بشرية في العالم في هوبكنز، حيث احتفظ بكتالوج لمئات الجينات، من بينها العديد من الجينات التي اكتشفها بنفسه لدى السكان الأميش. وقام بتجميع معلومات حول الجينات المعروفة والأبحاث التي أُجريت عليها في قاعدة بيانات تسمى الميراث المنديلي عند الإنسان، وهو المرجع المقدس في هذا المجال والذي يحتوي الآن على ما يقرب من عشرين ألف إدخال ولا يزال ينمو ويكبر.

كان ماك كوسك وهسو يأملان في استخدام تهجين الخلايا الجسدية لفحص عائلة لاكس بحثاً عن العديد من العلامات الجينية المختلفة، بما في ذلك بروتينات محددة تسمى واسمات مستضدات الكريات البيضاء البشرية أو اختصاراً HLA. ومن خلال إجراء الفحوصات على أولاد هنرييتا، كانوا يأملون في معرفة ما هي واسمات مستضدات الكريات البيض البشرية HLA الخاصة بـ هنرييتا، حتى يتمكنوا من استخدامها للتعرّف على خلاياها.

جاءت هسو إلى أمريكا من الصين، ولم تكن الإنجليزية لغتها الأم. ذكرت هسو أنها عندما اتصلت بـ داي عام ١٩٧٣، أخبرته أنها جاءت لسحب الدم لتحرّي المستضد HLA، وأنها تُعدّ ملفاً تعريفاً للواسمة الوراثية لأنها تمكّنها من استنتاج الكثير عن النمط الجيني لـ هنرييتا لاكس من خلال الأطفال والزوج.

عندما سألتها عما إذا فهم داي ما أخبرته إياه، قالت هسو: «كانوا متجاوبين معنا عندما اتصلنا بهم هاتفياً. إنهم أذكياء جداً. أعتقد أنّ السيد لاكس كان يعرف أن زوجته قدمت مساهمة للعلم ويدرك تماماً قيمة خلايا هيلا. ربما سمعوا الناس يتحدثون عن أن سلالة الخلية مهمة جداً. فالجميع كان يتحدث عن هيلا في ذلك الوقت. إنهم عائلة لطيفة للغاية، لذلك سمحوا لنا بكلّ لطف بسحب عينات الدم».

كانت لكنة هسو حادّة، وكذلك كانت لكنة داي الذي يتحدث بلهجة ريفية جنوبية ثقيلة لدرجة أنّ أولاده غالباً ما يواجهون صعوبة في فهمه. لكن اللغة لم تكن حاجزهم الوحيد. لم يكن داي ليفهم فكرة الخلايا الخالدة أو علامات المستضدات HLA القادمة من أيّ شخص، سواء بلكنته أو بغيرها، فقد ذهب إلى المدرسة لأربع سنوات فقط في حياته، ولم يدرس العلوم قط. النوع الوحيد من الخلايا [تقصد الكاتبة هنا الزنزانات المعنى الآخر لكلمة cells بالإنجليزية] الذي سمع به كان النوع الذي يعيش فيه زكريا في سجن هاجرستاون. لذلك، فعل ما كان يفعله دائماً عندما يصعب عليه فهم ما يقوله الطبيب: يومئ برأسه ويقول نعم.

بعد سنوات، عندما سألت ماك كوسك عما إذا حاول أيّ شخص الحصول على موافقة مستنيرة من عائلة لاكس، قال: «أعتقد أنه لم يُبذل أيّ جهد لشرح أيّ شيء بتفصيل كبير. لكنني لا أظنّ أن أحداً أخبرهم أننا نفحص عينات دمهم لكشف السرطان لأن ذلك لم يكن هو واقع الحال. كانوا يكتفون بالقول: «كانت والدتكم مصابة بالسرطان، وقد نمت خلايا ذلك السرطان في كلّ مكان ودُرست بتفصيل كبير. ومن أجل فهم ذلك بشكل أفضل، نود أن نحصل على عينات الدم منكم»».

عندما طرحت السؤال نفسه على سوزان هسو أجابت: «لا. نحن لم نقدم لهم استمارة الموافقة لأننا ذهبنا فقط لسحب عينات الدم. نحن لا نجري أبحاثاً طبية كما تعلمين، ليس على المدى الطويل. كلّ ما أردناه هو بضعة أنابيب من الدم لإجراء اختبار العلامات الوراثية. وهذا لا شأن له بلجنة أبحاث بشرية أو أشياء من هذا القبيل».

على الرغم من أن هذا الموقف كان شائعاً في ذلك الوقت، فقد نصت إرشادات معاهد الصحة الوطنية إلى أن جميع الأبحاث المجراة على عينات من البشر الممولة من معاهد الصحة الوطنية، كما هو الحال مع أبحاث ماك كوسك، يشترط فيها تقديم كلّ من الموافقة المستنيرة والموافقة من مجلس المراجعات في هوبكنز. وقد نُفذت هذه المبادئ التوجيهية في عام ١٩٦٦، في أعقاب محاكمة ساوثام، ثم وُسعت لتشمل تعريفاً مفصلاً للموافقة المستنيرة في

عام ١٩٧١. كانوا في طور التحول إلى قانون عندما اتصلت هسو بـ داي.

بدأ ماك كوسك بحثه عن عائلة لاكس في وقتٍ تلقى فيه فيضٌ كبير من الرقابة على الأبحاث. وقبل عام واحد فقط، ورداً على دراسة توسكيجي وعدة دراسات أخرى غير أخلاقية، شرعت وزارة الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية في إجراء تحرياتٍ عن الرقابة الاتحادية على بحوث العينات البشرية ووجدت أنها غير كافية. وكما ورد في أحد تقارير الحكومة، فقد كان تلك الفترة مليئةً «بالارتباك على نطاق واسع حول كيفية تقييم المخاطر»، فضلاً عن «رفض بعض الباحثين التعاون» مع الرقابة، و«عدم المبالاة من جانب هؤلاء المكلفين بإدارة البحوث وقواعدها في المؤسسات المحلية». بعد إيقاف دراسة توسكيجي، اقترح في الحال لوائح جديدة لحماية الأفراد الخاضعين للتجارب والتي تتطلب موافقة مستنيرة من بين أمور أخرى. في أكتوبر ١٩٧٣، أيّ بعد بضعة أشهر فقط من اليوم الذي اتصلت فيه هسو، نُشر في السجل الاتحادي مذكرةً تدعو إلى التعليق العام على ذلك القانون الجديد المقترح.

بعد أن أغلق داي الهاتف مع هسو، اتصل بـ لورانس وسوني وديبورا، قائلاً: «تعالوا إلى المنزل غداً، سيأتي الأطباء من هوبكنز لفحص دم الجميع لمعرفة ما إذا كنتم جميعاً مصابون بالسرطان الذي أصاب والدتكم».

عندما توفيت هنرييتا، وافق داي على السماح لأطبائها بإجراء تشريح للجثة لأنهم أخبروه أن هذا قد يساعد أطفاله يوماً ما. وكان داي على ثقةٍ من أنهم يقولون الحقيقة. كان زكريا في رحم هنرييتا عندما أصيبت بالسرطان أول مرة، وقد عانى من كلّ مشاكل الغضب تلك منذ ذلك الحين. وتبلغ ديبورا الآن من العمر أربعة وعشرين عاماً تقريباً، أيّ لم تكن أصغر بكثير من هنرييتا عندما توفيت. وبالتالي كان من المنطقي أن يتصلوا قائلين إن الوقت قد حان لإجراء الاختبار.

أصيبت ديبورا بالذعر. كانت تعلم أن والدتها مرضت في الثلاثين من عمرها، لذلك لطالما شعرت بالخوف من قدوم عيد ميلادها الثلاثين، معتقدة أنّ كلّ ما حدث لأمها في ذلك العمر سيحدث لها أيضاً. وصعُبَ على ديبورا كثيراً أن تتحمل فكرة أن يكبر أطفالها دون أمّ كما حدث لها. في تلك الفترة، كانت لاتونيا في الثانية من عمرها، وألفريد في السادسة، ولم يساهم تشيتا يوماً في نفقة تربية الأولاد. حاولت ديبورا الحصول على إعانات الرعاية الاجتماعية لمدة ثلاثة أشهر لكنها لم تتقبلها، لذلك اضطرت للعمل نهاراً في فرعٍ لمتاجر الألعاب «تويز آر أس» في إحدى الضواحي التي تبعد أكثر من ساعة وثلاث حافلات للوصول إليها، كما عملت في المناوبة الليلية لمطعم هامبرغر يدعى جينو خلف شقتها.

بما أن ديبورا لم تستطع تحمل تكاليف جليسة أطفال، سمح رئيسها في مطعم جينو لتونيا وألفريد بالجلوس في زاوية المطعم ليلاً

إلى أن تنتهي ديبورا من عملها. في استراحة العشاء الساعة الثامنة والنصف، تركض ديبورا خلف المبنى إلى شقتها وتضع الأطفال في السرير. علّمتهم ألا يفتحوا الباب إلا إذا سمعوا صوت القرع السري الذي اتفقوا عليه، ولم يضعوا مصابيح الكيروسين بالقرب من الستائر أو الأغطية. تدربت ديبورا معهم على أساليب التعامل مع الحريق في حالة حدوث خطأ ما أثناء عملها، وعلمتهم الزحف إلى النافذة، ورمي حبل من الملاءات ظلّ أمداً مربوطاً بساق السرير، والتسلق إلى برّ الأمان.

هؤلاء الأطفال كانوا كلّ حياة ديبورا، ولم تكن لتسمح بحدوث أيّ مكروه لهم. لذلك، عندما اتصل والدها قائلاً إن أشخاصاً من هوبكنز أرادوا إجراء فحوصات لكشف ما إذا كانت مصابة بسرطان والدتها، بكت ديبورا وقالت: «أرجو من الله ألا يبعدني عن أطفالي، ليس الآن، وليس بعد كلّ ما مررنا به».

بعد أيام قليلة من مكالمة سوزان هسو الهاتفية، جلس كلّ من داي وسوني ولورانس وديبورا حول مائدة طعام لورانس حيث جمع هسو وطبيب من مختبر ماك كوسك أنابيب من الدم من كلّ واحدٍ منهم.

خلال الأيام القليلة التالية، اتصلت ديبورا بمستشفى هوبكنز مراتٍ لا تحصى، وأخبرت موظفي الهاتف أنها تتصل للحصول على نتائج فحص السرطان الخاصة بها. ولكن لم يعرف أيّ منهم ما الاختبارات التي تتحدث عنها، أو إلى أيّ قسمٍ يرسلها للمساعدة.

ولاحقاً كتبت هسو رسالة إلى لورانس تسأله عما إذا كان بإمكانها إرسال ممرضة إلى هاجرستاون لجمع عينات من زكريا في السجن. أدرجت نسخة من تكريم جورج غاي الذي كتبه ماك كوسك وجونز، قائلة إنها تعتقد أن لورانس يرغب في رؤية مقال عن خلايا والدته. لا أحد في العائلة يتذكر قراءة تلك المقال، وأغلب الظنّ أن لورانس وضعه في درجٍ ونَسوا أمره.

لم يفكر رجال عائلة لاكس كثيراً في خلايا أمهم أو فحوصات السرطان. كان لورانس يعمل بدوام كامل في السكك الحديدية ويعيش في منزل مليء بالأطفال، وزكريا لا يزال قابعاً ي السجن، في حين كان سوني يعاني من ظروف صعبة في ظلّ انشغاله ببيع المخدرات.

لكن ديبورا لم تكفّ عن القلق. كانت خائفة من أن تكون مصابة بالسرطان، واستهلكت أعصابها فكرة أن الباحثين فعلوا أشياء فظيعة لأمها، وربما لا زالوا يفعلون. لقد سمعت قصصاً عن اختطاف أطباء هوبكنز للسود لإجراء البحوث عليهم، وقرأت مقالاً في مجلة جيت Jet حول دراسة توسكيجي التي أشارت إلى أنّ الأطباء ربما حقنوا هؤلاء الرجال بالزهري من أجل دراستهم. وأوضح المقال: «أن حقن العوامل المسببة للأمراض في أشخاص غير مدركين لما يحدث قد وقع من قبل في أبحاث العلوم الطبية الأمريكية. وقد جرى ذلك قبل ثماني سنوات في مدينة نيويورك على يد الدكتور تشيستر ساوثام، اختصاصي أمراض السرطان الذي

حقن الخلايا السرطانية الحية في المرضى المسنين المصابين بأمراض مزمنة».

بدأت ديبورا تتساءل عما إذا كان ماك كوسيك وهسو، قد حقنوا أولاد لاكس في الواقع بالدم السيء نفسه الذي قتل أمهم بدلاً من اختبار الكشف عن السرطان. وراحت تطرح على داي الكثير من الأسئلة حول هنرييتا: كيف مرضت؟ ماذا حدث عندما ماتت؟ ماذا فعل هؤلاء الأطباء لها؟ وبدا أن الإجابات أكدت مخاوفها، إذ أخبرها داي أن هنرييتا لم تبدو مريضة على الإطلاق. قال إنه أخذها إلى هوبكنز وبدأوا بالعلاج ثم تحولت معدتها إلى لون أسود كالفحم وماتت. وقالت سادي الشيء نفسه، وكذلك جميع أبناء العمومة الآخرين. ولكن عندما سألت عن نوع السرطان الذي أصيبت به والدتها، والعلاجات التي أعطاها إياها الأطباء، وأي جزء منها لا يزال على قيد الحياة، لم يكن لدى الأسرة أيّ إجابات.

لذا، عندما اتصل أحد مساعدي ماك كوسك بـ ديبورا وطلب منها القدوم إلى هوبكنز للتبرع بالمزيد من الدم، ذهبت، معتقدة أنه إذا لم تستطع عائلتها الإجابة عن الأسئلة حول والدتها، ربما يستطيع العلماء ذلك. لم تعرف أن الدم المطلوب كان لباحث في كاليفورنيا أراد بعض العينات لأبحاثه الخاصة بـ خلايا هيلا، ولم تعرف لماذا اتصلت مساعدة ماك كوسك بها وليس بإخوتها بل ظنّت أن المشكلة التي عانت منها والدتها لا تؤثر على الأولاد الذكور. وكانت لا تزال تعتقد أنها تخضع لفحوصاتٍ لكشفِ السرطان.

ذهبت ديبورا إلى مكتب ماك كوسك لسحب المزيد من الدم في ٢٦ يونيو ١٩٧٤، قبل أربعة أيام من دخول القانون الفيدرالي الجديد حيّز التنفيذ الذي يتطلب موافقة مجلس المراجعة المؤسسي (IRB) والموافقة المستنيرة على جميع البحوث الممولة من الحكومة الفيدرالية. ينطبق القانون الجديد، والذي نشر في السجل الفيدرالي قبل شهر واحد، على جميع «الأشخاص المعرضين للخطر»، بمعنى «أي فرد قد يتعرض لإمكانية الإصابة، بما في ذلك الإصابة الجسدية أو النفسية أو الاجتماعية، نتيجة للمشاركة كعينة بشرية خاضعة للتجربة». ولكن ما يعتبر أنه يشكل «ضرراً» و«خطراً» كان موضع مناقشةٍ مستفيضة. ناشد العديد من الباحثين وزارة الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية، مطالبين بإعفاء جمع الدم والأنسجة من القانون الجديد. إذ كان الأطباء يسحبون الدم لقرونٍ من أجل الاختبارات التشخيصية، وبصرف النظر عن ألم وخز الإبرة، بدا أنه ما من خطرٍ في ذلك. غير أن الوزارة لم تستثن هذه الإجراءات؛ بل عمدت في الواقع إلى إيضاح القانون فيما بعد وتأكيد إدراج هذه الإجراءات على وجه التحديد.

تزامنت أبحاث ماك كوسك حول عائلة لاكس مع بداية عصر جديد من الأبحاث الوراثية تغيّر فيه مفهوم الخطر على المرضى تماماً. مع القدرة على تحديد الجينات من عينة دمٍ أو حتى خليةٍ واحدة، لم يعد خطر سحب الدم من مجرد احتمال الإصابة بعدوى طفيفة أو ألم وخز الإبرة، بل كان من أن شخصاً ما يمكن أن يكشف معلوماتك الجينية بالكامل. كان حول انتهاك الخصوصية.

قابلت ديبورا الدكتور ماك كوسيك مرة واحدة فقط عندما ذهبت إلى هوبكنز للتبرع بالدم. صافح يدها وقال إن هنرييتا قدمت مساهمة مهمة للعلم. ثم قصفته ديبورا بوابلٍ من الأسئلة: ما الذي جعل والدتها مريضة؟ ما معنى أنّ جزءاً منها لا يزال على قيد الحياة؟ ما الذي عناه ذلك؟ ماذا قدمت هنرييتا للعلم؟ وهل كلّ فحوصات الدم التي يقوم بها كانت تعني أن ديبورا ستموت شابة مثل والدتها؟

لم يفسر ماك كوسك سبب وجود شخصٍ يسحب الدم من ديبورا. بل أخبرها عن خلايا هنرييتا التي تستخدم للقاح شلل الأطفال والبحوث الجينية؛ قال إنها سافرت في أولى البعثات إلى الفضاء واستخدمت في اختبار القنبلة الذرية. سمعت ديبورا هذه الأشياء وتخيلت والدتها على القمر وانفجرت داخل قنبلة. كانت خائفة ولم تستطع التوقف عن التساؤل عما إذا كانت أجزاء والدتها التي كانوا يستخدمونها في البحث يمكن أن تشعر بالفعل بالأشياء التي كان العلماء يفعلونها بها.

عندما طلبت من ماك كوسك أن يشرح المزيد عن الخلايا، أعطاها كتاباً قام بتحريره بعنوان علم الوراثة الطبية، والذي أصبح لاحقاً من أهمّ الكتب المدرسية في هذا المجال. قال إنّ الكتاب سيخبرها عن كلّ شيء تحتاج إلى معرفته ثم وقّع على الغلاف الأمامي الداخلي للكتاب. تحت توقيعه كتب رقم هاتف وأخبرها أن تستخدمه لتحديد مواعيد لإعطاء المزيد من الدم.

قلب ماك كوسك على الصفحة الثانية من المقدمة. هناك، بين الرسوم البيانية لـ «معدل وفيات الرضع بسبب المرض» ووصف «حالة تماثل الزيجوت في التشوهات الخلقية»، كانت صورة هنرييتا الشهيرة ويديها على وركيها. أشار إلى الفقرة التي تتحدث عنها:

> من ناحية أخرى، فإن علماء الوراثة من الأطباء الذين يستخدمون دراسة الخلايا بدلاً من المريض بأكمله «صرفوا المال» على خزان من المعلومات المورفولوجية والكيميائية الحيوية وغيرها من المعلومات في بيولوجيا الخلايا المستمدة إلى حدّ كبير من دراسة سلالة الخلايا الشهيرة التي أخذت من المريضة صاحبة الصورة في هذه الصفحة، هنرييتا لاكس.

كان الكتاب مليئاً بجمل معقدة تشرح عن خلايا هنرييتا بالقول: «ربما يرتبط نسيجها غير النمطي بالسلوك الخبيث بشكل غير الطبيعي للسرطان»، وشيء ما حول «إيجاد العلاقة مع خصوصية الورم».

استغرقت ديبورا وقتاً طويلاً في قراءة المجلات لأنها اضطرت إلى التوقف كثيراً للبحث عن معنى الكلمات في قاموسها. وها هي الآن تجلس في العيادة تمسك كتاب ماك كوسك، ولم تحاول حتى قراءة الكلمات. كل ما كانت تفكر به هو أنها لم ترَ تلك الصورة لوالدتها من قبل. ماذا حدث لها لينتهي بها الحال في هذا المكان؟ تساءلت. وكيف حصل على هذه الصورة؟ أقسم داي أنه لم يعطها أبداً إلى ماك كوسك أو أيّ من أطباء هنرييتا؛ أقسم إخوة ديبورا أنهم لم يفعلوا ذلك أيضاً.

الشيء الوحيد الذي استطاع داي التفكير فيه هو احتمال أنّ هوارد جونز طلب من هنرييتا صورة ثم وضعها في سجلها الطبي. ولكن على حدّ علم داي، لم يطلب منه أحد إذناً لنشرها.

عندما تحدثتُ إلى ماك كوسك قبل عدة سنوات من وفاته عام ٢٠٠٨، كان في التاسعة والسبعين ولا يزال يجري البحوث ويدرّب العلماء الشباب. لم يتذكر من أين حصل على الصورة، لكنه تخيل أن عائلة هنرييتا أعطتها إلى هوارد جونز أو طبيب آخر في هوبكنز. على الرغم من أن ماك كوسك تذكر البحث الذي أجراه عن عائلة لاكس، لكنه لم يتذكر مقابلة ديبورا أو إعطائها كتابه، وقال إنه لم يكن على اتصال مباشر بالعائلة. لقد ترك هذا الأمر لـ هسو.

عندما تحدثتُ إلى سوزان هسو، التي صارت مديرة علم الوراثة الطبية في الصليب الأحمر الأمريكي، أخبرتني أن العمل مع ماك كوسك على خلايا هيلا كان أبرز ما في حياتها المهنية. قالت لي: «أنا فخورة جداً. من المحتمل أن أطبع هذا البحث وأخبر أطفالي أنه بحثٌ مهم». لكن عندما شرحت لها أن آل لاكس ظنوا أنها كانت تختبرهم لتحري إصابتهم بالسرطان، وأنهم شعروا بالاستياء لاستخدام العلماء للخلايا دون علمهم، صُدِمَت.

قالت: «هذا مزعج جداً. كان ينبغي على الأطباء أن يخبروهم. أتعلمين، لم نفكر في ذلك الوقت أنهم لم يفهموا ما نريد منهم».

وحمّلتني رسالة كانت تأمل أن أعطيها لعائلة لاكس عندما أتحدث إليهم لاحقاً مفادها: «أخبريهم أنني ممتنة حقاً. أعتقد أنهم

غاضبون ربما لأنهم لم يدركوا بعد مدى شهرة الخلايا عبر العالم الآن. إنّ ما حدث أمر مؤسف، عليهم أن يكونوا فخورين جداً، لن تموت والدتهم أبداً طالما أن العلوم الطبية موجودة، وستظل دوماً حدثاً مشهوراً».

في نهاية محادثتنا، ذكرت هسو أنها كانت ستكتشف المزيد من اختبار دم العائلة لو أنها أجرته اليوم، لأن تكنولوجيا الحمض النووي تقدمت كثيراً منذ السبعينيات. ثم طلبت مني أن أقول شيئاً آخر لعائلة لاكس شيئاً آخر على لسانها: «أخبريهم إن كانوا على استعداد، فلا مانع لدي من العودة والحصول على المزيد من الدم».

(١٩٧٥)

(٢٤)

«أقلّ ما يمكنهم فعله»

لم يعرف آل لاكس أيّ شيء عن مشكلة التلوث بخلايا هيلا التي قادت ماك كوسك وهسو إليهم حتى ظهر مايكل روجرز، مراسل صحيفة رولينغ ستون الشاب، في منزلهم بشعر طويل وملابس موسيقى الروك أند رول.

كان روجرز أشبه بـ «معجزة الصحافة». قبل عيد ميلاده التاسع عشر، كان قد حصل على شهادة في الكتابة الإبداعية والفيزياء ونشر قصته الأولى في مجلة إسكواير؛ وفي أوائل العشرينات من عمره، عندما بدأ البحث في قصة خلايا هيلا، كان قد نشر للتو كتابين وانضم إلى موظفي رولينغ ستون. في السنوات اللاحقة أصبح محرراً في نيوزويك، وبعد ذلك في صحيفة واشنطن بوست.

سمع روجرز أول مرة عن خلايا هيلا بعد رؤية عبارة «هيلين لين حيّة». مكتوبة على مبولة في حمام كليّة طبية. بدأ في قراءة التقارير الإخبارية حول خلايا هيلا ومشكلة التلوث وأدرك أنها ستكون قصة رائعة لـ رولينغ ستون تجمع مزيجاً مثالياً من العلم والاهتمام

البشري. وهكذا شرع روجرز في البحث عن هيلين لين الغامضة هذه.

اتصل بمارغريت غاي، التي بدت ودودة ومسترسلة في الحديث إلى أن سأل روجرز عن هيلين لين. ثم أخبرته أنه لن يكون من المناسب أن يلتقيا وأنهت المكالمة. في نهاية المطاف وجد روجرز طريقه إلى والتر نيلسون ريس، الذي ذكر عرضاً أن هنرييتا لاكس كان الاسم الحقيقي للمرأة صاحبة الخلايا. سرعان ما عثر روجرز على لورانس لاكس في دليل الهاتف أثناء جلوسه على سريره في فندق بالتيمور في الغرفة المطلة على بُرج ساعة B-R-O-M-O-S-E-L-T-Z-E-R.

كان شتاءُ عام ١٩٧٥، والشوارع غلفها الجليد، وفي طريقه إلى منزل لورانس اصطدمت سيارة الأجرة التي يستقلها روجرز بسيارة أخرى في منتصف إحدى التقاطعات. التفت سيارة الأجرة في الطريق ودارت خمس ثم ست دوائر كاملة، كما لو أن يداً عملاقة امتدت إليها ودورتها مثل زجاجة. عاش روجرز لحظات كثيرة محفوفة بالمخاطر مع العديد من التقارير التي أجراها في جميع أنحاء العالم؛ لكنه الآن يجلس في المقعد الخلفي لسيارة أجرة، ممسكاً مقبض الباب، ويقول لنفسه ما هذا الذي يحدث بحق الجحيم! ألن يكون من الحماقة أن أموت في بالتيمور وأنا أعمل على هذه المهمة من بين كلّ المهام الأخرى! إنها ليست حتى مغامرة خطيرة!

بعد عقود، عندما تحدثت مع روجرز في شقته في بروكلين، وافقني الرأي ما بين المزاح والجدّ بأن دوران سيارة الأجرة ذاك

ربما لم يكن حادثاً. حيث قالت ديبورا لاحقاً إن الحادث كان رسالة تحذير من هنرييتا كي يترك عائلتها وشأنها، لأنه كان على وشك إخبارهم بشيء مزعج. كانت تقول أيضاً إن هنرييتا هي من تسبب بحريق أوكلاند الشهير في كاليفورنيا والذي أحرق منزل روجرز ودمّر جميع الملاحظات والوثائق التي جمعها عن خلايا هيلا وعن عائلة هنرييتا.

عندما وصل روجرز إلى منزل لورانس، توقع الحديث مع عائلة لاكس حول هنرييتا، لكنه وجد نفسه غارقاً في سيلٍ من الأسئلة بدلاً من ذلك.

قال لي روجرز: «كان من الواضح جداً أنه لم يحظوا بمعاملةٍ لائقة. لم يكن لديهم حقاً أدنى فكرة عما حدثَ ويحدث، وأرادوا فعلاً أن يفهموا. لكن الأطباء سحبوا عينات دم دون شرح أيّ شيء وتركوا العائلة في حالة يرثى لها من القلق».

سأله لورانس: «كنت أتساءل حول هذه الخلايا..يقولون إنها قوية وتسيطر على كلّ شيء، هل هذا سيء أم جيد؟ ..هل هذا يعني أننا إذا مرضنا، سنعيش لفترةٍ أطول؟».

أجاب روجرز على أسئلة آل لاكس موضحاً أن الخلايا الخالدة لا تعني أنهم خالدون أيضاً، أو سيموتون بسبب السرطان. لكنه لم يكن واثقاً من أنهم صدقوه. شرح لهم مفهوم الخلايا بأفضل ما يمكن، وأخبرهم عن التقارير الإعلامية التي ظهرت بالفعل عن هيلا، ووعدهم بأن يرسل لهم نسخاً لقراءتها.

في تلك الأثناء لم يلاحظ أن أفراد عائلة هنرييتا مستاؤون بشأن قصة هنرييتا أو وجود تلك الخلايا، باستثناء ديبورا.

قال لي سوني بعد سنوات: «لم أشعر بالكثير من الإثارة بشأن الخلايا عندما عرفت أول مرة أنها حيّة. جيدٌ أنها تساعد شخصاً ما. هذا كلّ ما خطر لي».

لكن هذا تغيّر عندما قرأ هو وأخوته مقال روجرز وعلموا أنّ:

> سلالات خلايا هيلا يجري تبادلها وتداولها وإعادة إرسالها واستعارتها واقتراضها ما بين مؤسسات البحث في جميع أنحاء العالم... وتتراوح المصادر المؤسسية للخلايا الآن من المرافق التي تدعمها [الحكومة] مثل مرافق نيلسون ريس إلى المحلات التجارية التي تعرض ٨٠٠ رقم مجاني يمكن للمرء أن يطلب منه، مقابل حوالي ٢٥ دولاراً، قارورة زجاجية صغيرة من خلايا هيلا.

عند قراءة تلك الفقرة، فجأة أصبح الإخوة لاكس مهتمين جداً بقصة هيلا. كما أصبحوا مقتنعين بأن جورج غاي وجونز هوبكنز سرقوا خلايا والدتهم وربحوا الملايين من بيعها.

لكن في الواقع، يشير تاريخ غاي إلى أنه لم يكن مهتماً بالعلم بغاية الربح، ففي أوائل الأربعينيات رفض طلباً لإنشاء وتشغيل أول مختبر تجاري لزراعة الخلايا. ويُعدّ تسجيل براءات الاختراع لسلالات الخلايا أمراً قياسياً اليوم، لكنه لم يكن معروفاً في الخمسينيات؛ بغض

النظر عن ذلك، يبدو من غير المحتمل أن يكون غاي قد سجل براءة اختراع خلايا هيلا. لم يسجل حتى براءة اختراع أسطوانة الأنابيب الدوارة، والذي لا يزال يستخدم حتى اليوم، وكان بوسعه أن يجني ثروة من خلاله.

في النهاية، تلقّى غاي راتباً مريحاً من هوبكنز، لكنه لم يكن غنياً. عاش هو ومارغريت في منزل متواضع اشتراه من صديق مقابل دفعة أولى قدرها دولار واحد، ثم أمضى سنوات في إصلاحه ودفع أقساطه. أدارت مارغريت مختبر غاي لأكثر من عقد من الزمان دون أجر. في بعض الأحيان لم تتمكن من دفع أقساط المنزل أو شراء البقالة لأن جورج استنزف حسابهما مرة أخرى لشراء معدات المختبر التي لم يتمكنا من تحمل ثمنها. في النهاية جعلته يفتح حساباً منفصلاً للمختبر وأبعدته عن أموالهما الشخصية بقدر ما استطاعت. في الذكرى السنوية الثلاثين لزواجهما، أعطى جورج مارغريت شيكاً بقيمة مئة دولار إلى جانب ملاحظةٍ مكتوبة على ظهر غلاف من ورق الألمنيوم: «لن تكون الثلاثون عاماً القادمة قاسية كالتي سبقتها. أحبك، جورج». لم تصرف مارغريت الشيك أبداً، ولم تتحسن الأمور كثيراً.

أصدر العديد من المتحدثين باسم جونز هوبكنز، من بينهم رئيس جامعة سابق واحد على الأقل، تصريحات أمامي أنا وغيري من الصحفيين على مرّ السنين مفادها أن هوبكنز لم يجني سنتاً واحداً من خلايا هيلا، وأن جورج غاي وهبها جميعها مجاناً.

لا يوجد سجل يثبت أنّ هوبكنز وغاي أخذا المال مقابل خلايا هيلا، لكن العديد من بنوك الخلايا الربحية وشركات التكنولوجيا الحيوية فعلت ذلك. شركة ميكروبيولوجي أسوسيتس التي أصبحت لاحقاً جزءاً من شركتي إنفيتروجين وبيو وايتاكر، وهما من أكبر شركات التكنولوجيا الحيوية في العالم هي أول من باع خلايا هيلا. ونظراً لأن ميكروبيولوجي أسوسيتس كانت مملوكة للقطاع الخاص وتبيع العديد من المنتجات البيولوجية الأخرى، فلا توجد طريقة لمعرفة مقدار إيراداتها على وجه التحديد من بيع خلايا هيلا. وينطبق الشيء نفسه على العديد من الشركات الأخرى. ما نعرفه اليوم هو أن إنفيتروجين تبيع منتجات هيلا التي تكلف من ١٠٠ دولار إلى ما يقرب من ١٠٠٠٠ دولار للقارورة الواحدة. ويظهر البحث في قاعدة بيانات مكتب براءات الاختراع والعلامات التجارية في الولايات المتحدة أكثر من سبعة عشر ألف براءة اختراع تتضمن خلايا هيلا. ولا توجد طريقة لتحديد المكاسب المهنية التي حققها العديد من العلماء بمساعدة هيلا.

أما مجموعة نمط مزارع الخلايا الأمريكية، وهي منظمة غير ربحية توجه أموالها بشكل أساسي نحو الحفاظ على المزارع الخلوية الصافية للبحوث العلمية، فكانت تبيع خلايا هيلا منذ الستينيات. عندما ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة، كان سعر القارورة ٢٥٦ دولاراً. لم تكشف مجموعة مزارع الخلايا الأمريكية عن مقدار الأموال التي تجنيها من مبيعات هيلا كلّ عام، ولكن نظراً لأن

هيلا من أكثر سلالات الخلايا شعبية في العالم، فإن هذا الرقم كبير بالتأكيد.

لم يعرف لورنس وسوني شيئاً من هذا. كلّ ما عرفاه هو أن غاي زرع خلايا والدتهم في هوبكنز، وشخص ما في مكان ما كان يجني المال منها، وهذا الشخص لم يكن من أقرباء هنرييتا لاكس. لذا، في محاولة لجعل هوبكنز يعطيهم ما رأوا أنه حصتهم من أرباح هيلا، وزعوا نشرات حول استحقاق عائلة هنرييتا لاكس، وأعطوها للزبائن في متجر لورانس.

لم ترغب ديبورا في خوض نزاع مع هوبكنز، بل كانت مشغولة جداً بتربية أطفالها ومحاولة تعليم نفسها بنفسها عن خلايا والدتها. واشترت بعض الكتب المدرسية العلمية الأساسية، وقاموساً جيداً، ودفتراً استخدمته لنسخ مقاطع من كتب الأحياء المدرسية: «الخلية جزء دقيق من المادة الحية. إنها تصنع وتجدد كلّ جزء من أجزاء الجسم». ولكن أغلب ما دونته كان مذكرات حول ما يحدث معها:

تستمر المعاناة مع الألم

... يجب أن نعرف ما يجري مع خلاياها من قبل كلّ من وضع يده عليها. قد ترغبين في السؤال لماذا تأخرت كلّ هذا الوقت حتى عرفتِ كلّ هذه الأخبار، حسناً لقد عرضت لسنوات داخل وخارج الصحف والكتب والمجلات وعبر الراديو والتلفزيون وفي شتى أنحاء العالم.... لقد صُدمت. أطرح الأسئلة وما من مجيب. لقد ترعرعت لأكون هادئة لا

أكثر الكلام بل أسمع فقط... ولكن لدي شيء لأتكلم عنه الآن، هنرييتا لاكس، ما الذي خرج عن السيطرة؟ كيف مرّت والدتي بكل هذا الألم لوحدها مع أولئك الأطباء ذوي القلوب الحجرية. يقول والدي أنهم كانوا يطهون جسدها وهي على قيد الحياة باستخدام تلك العلاجات الإشعاعية. ما كان يدور في ذهنها في غضون تلك الأشهر القصيرة. آلامها تتفاقم وبعيدة عن عائلتها. أحاول أن أعيش ذلك اليوم من جديد في عقلي. أصغر أطفالها في المستشفى مصاباً بالسل، وأكبر بناتها في مستشفى آخر، وثلاثة آخرين في المنزل، وزوج، هل تسمعين، زوجٌ عليه أن يعمل رغم كلّ ذلك للتأكد من استمرار قدرته على توفير الطعام لأطفاله. وزوجة تحتضر... منزوية في ذلك الجناح البارد في مستشفى جون هوبكين، الجناح الخاص بالملونين فقط، طبعاً، أنا أعلم. عندما جاء ذلك اليوم، وماتت والدتي، سرقوا خلاياها وعرفوا في مستشفى جون هوبكنز بشأن تلك الخلايا واحتفظوا بها لأنفسهم، وأعطوها لمن أرادوا وحتى غيروا الاسم إلى خلية هيلا وأخفوها عنا لأكثر من عشرين عاماً. يقولون إنها تبرعت بها. لا، لا، لا، بل سرقوها.

لم يوقع والدي أيّ أوراق.... أريدهم أن يروني دليلاً.
أين هو؟

كلما كافحت ديبورا أكثر لفهم حكاية خلايا والدتها، تجعلها أبحاث هيلا تشعر بالرعب. عندما شاهدت مقالاً في نيوزويك بعنوان النباتات البشرية يتحدث عن أن العلماء مزجوا خلايا هنرييتا لاكس بخلايا التبغ، ظنّت ديبورا أنهم خلقوا وحشاً نباتياً بشرياً نصفه أمها ونصفه التبغ. عندما اكتشفت أن العلماء كانوا يستخدمون خلايا هيلا لدراسة فيروسات مثل الإيدز والإيبولا، تخيلت ديبورا أن والدتها ستعاني إلى الأبد من أعراض كلّ مرض: ألم يفتت العظام، ونزيف العينين، والاختناق. وقد أصابها الذعر من تقارير عن «معالج نفسي» قام أثناء إجرائه بحثاً حول ما إذا كان الشفاء الروحي يمكن أن يعالج السرطان، بمحاولة قتل خلايا هيلا عن طريق مباركتها. وكتب:

> بينما كنت أحمل القارورة، ركزت على الصورة التي رسمتها في ذهني للخلايا، وتصورت اضطراباً في حقول الخلايا ورأيتها كيف انفجرت.... أثناء ذلك، شعرت بأن لعبة شد الحبل تدور بين يدي وقدرة الالتصاق القوية لتلك الخلايا.... ثم شعرت أن الحقل يفسح الطريق لشيء ما كما لو أنه يخترقني.. وبدت الخلايا كما لو أن شخصاً ما وضع قنبلة يدوية صغيرة في كلّ واحدة منها فانفجرت بأكملها! وتضاعف عدد الخلايا الطافية الميتة عشرون مرة!

بالنسبة لـ ديبورا، بدا هذا وكأنه اعتداء عنيف على والدتها. ولكن أكثر ما أزعجها هو حقيقة أن العديد من العلماء والصحفيين

حول العالم استمروا في مناداة والدتها باسم هيلين لين. منذ أن تجرأوا وأخذوا خلاياها التي اتضح أنها مهمة جداً للعلم، اعتقدت ديبورا، أن أقل ما يمكنهم فعله هو منح والدتها الفضل في ذلك.

في ٢٥ مارس ١٩٧٦، عندما نُشر مقال مايك روجرز في رولينغ ستون ووزع في أكشاك الصحف، كانت تلك المرة الأولى التي يروي فيها أيّ شخص القصة الحقيقية عن هنرييتا لاكس وعائلتها، والمرة الأولى التي تنشر فيها وسائل الإعلام الكبرى أن المرأة صاحبة خلايا هيلا كانت سوداء. التوقيت كان صاعقاً. كانت أخبار دراسة توسكيجي لا تزال حديثة؛ وقد أنشأ حزب الفهود السود عيادات مجانية للسود في الحدائق المحلية واحتجوا على ما اعتبروه نظام رعاية صحية عنصري؛ وكان من المستحيل تجاهل القصة العنصرية التي تنطوي عليها حكاية خلايا هيلا. كانت هنرييتا امرأة سوداء ولدت في حضن العبودية وشاركت في جني المحاصيل وهربت إلى الشمال بحثاً عن الرفاه فاستخدمت خلاياها كأدوات من قبل العلماء البيض دون موافقتها. لقد كانت حكاية بيع البيض للسود، ومزارع خلايا السود التي «تلوّث» خلايا البيض في عصرٍ اكتسب فيه شخص لديه «قطرة واحدة» من الدم الأسود الحق القانوني مؤخراً للزواج من شخص أبيض. كما كانت قصة خلايا امرأة سوداء مجهولة أصبحت من أهم أدوات الطب. هذه كانت أخباراً غير اعتيادية.

لفتت مقالة روجرز انتباه العديد من الصحفيين الآخرين الذين اتصلوا بآل لاكس. في الأشهر الثلاثة التي تلت قصة روجرز،

نشرت جيت وإيبوني وسميثسونيان وصحف مختلفة أخرى مقالات عن هنرييتا التي اعتبرت «من الشخصيات المحورية في الحملة ضد السرطان».

في غضون ذلك، نشر فيكتور ماك كوسك وسوزان هسو نتائج أبحاثهما في مجلة ساينس: في جدول احتل حوالي نصف صفحة، تحت عناوين «الزوج» و«الولد ١» و«الولد ٢» و«ه. لاكس» و«هيلا»، قام ماك كوسك وهسو والعديد من المؤلفين الآخرين برسم خرائط لثلاثة وأربعين علامة وراثية مختلفة موجودة في الحمض النووي من داي واثنين من أولاد لاكس، واستخدموا هذه الخريطة لإنشاء خريطة للحمض النووي لـ هنرييتا يمكن للعلماء استخدامها للمساعدة في كشف وجود خلايا هيلا في وسط الزرع.

اليوم، لا يحلم أيّ عالم بنشر اسم شخص مع أيّ من معلوماته الجينية، لأننا نعرف ما يمكن استنتاجه من الحمض النووي، بما في ذلك مخاطر الإصابة بأمراض معينة. ومن شأن نشر معلومات طبية شخصية من هذا القبيل أن ينتهك قانون نقل التأمين الصحي والمساءلة (HIPAA) لعام ١٩٩٦ وأن يؤدي إلى فرض غرامات تصل إلى ٢٥٠ ألف دولار وحتى السجن لمدة عشر سنوات. كما يمكن أن ينتهك قانون عدم التمييز في المعلومات الوراثية لعام ٢٠٠٨، الذي أنشئ لحماية الناس من فقدان تأمينهم الصحي أو عملهم بسبب التمييز الوراثي. ولكن لم تكن هناك مثل هذه الرقابة الفيدرالية في ذلك الوقت.

كان بوسع أيّ محامٍ أن يخبر آل لاكس أن بإمكانهم رفع دعوى على أساس انتهاك الخصوصية أو عدم وجود موافقة مستنيرة. لكن آل لاكس لم يتحدثوا إلى محامٍ، لم يكونوا يعرفون حتى أن أحداً قد أجرى بحثاً على حمضهم النووي، ناهيك عن نشره. كانت ديبورا لا تزال تنتظر نتائج ما اعتقدت أنه فحص السرطان، وكان سوني ولورانس لا يزالان مشغولين في محاولة معرفة كيفية الحصول على المال من هوبكنز. لم يعرفوا أنه على الجانب الآخر من البلاد، كان رجل أبيض يدعى جون مور على وشك بدء القتال في نفس المعركة. على عكس عائلة لاكس، كان يعرف من المستفيد من خلاياه، وكم كسبوا من المال. كما كانت لديه الوسائل لتوكيل محام.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(٢٥)
«من أخبرك أن بوسعك بيع طحالي؟»

عام ١٩٧٦، أيّ العام نفسه الذي نشر فيه مايك روجرز مقاله في رولينغ ستون واكتشفت عائلة لاكس أن الناس يشترون ويبيعون خلايا هنرييتا، كان جون مور يعمل لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً طوال أيام الأسبوع بوظيفة مسّاح على خط أنابيب ألاسكا. كان يعتقد أن العمل يقتله. نزفت لثته وتورّم بطنه وغطّت الكدمات جسده. اتضح أنه في سن الحادية والثلاثين، كان مور يعاني من ابيضاض الدم مشعر الخلايا، وهو سرطان نادر ومميت يملأ طحاله بخلايا الدم الخبيثة حتى انتفخ مثل أنبوب داخلي منتبج.

أحاله الطبيب المحلي إلى ديفيد غولد، باحث سرطان بارز في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، الذي قال إن إزالة طحاله هي الطريقة الوحيدة التي أمامه. وقع مور على استمارة موافقة تقول إن المستشفى يمكن أن «يتخلص من أيّ نسيج أو عضو تالف بشدة عن طريق الحرق»، واستأصل غولد طحاله. الطحال الطبيعي يزن أقل من ٥٠٠ غراماً؛ في حين يزن طحال مور حوالي ١٠ كيلوغرامات.

بعد الجراحة، انتقل مور إلى سياتل، وأصبح بائع محار، وواصل حياته. ولكن كلّ بضعة أشهر بين عامي ١٩٧٦ و١٩٨٣، كان يسافر إلى لوس أنجلوس لفحوصات المتابعة مع غولد. في البداية، لم يفكر مور كثيراً بتلك الرحلات، ولكن بعد سنوات من الطيران من سياتل إلى لوس أنجلوس حتى يتمكن غولد من أخذ عينات نخاع العظام والدم والسائل المنوي، بدأ يفكر، ألا يمكن لطبيب في سياتل القيام بذلك؟ عندما أخبر مور غولد أنه يريد البدء في القيام بمتابعاته بالقرب من المنزل، عرض غولد دفع ثمن تذاكر الطائرة وإقناعه للبقاء في فندق بيفرلي ويلشاير. فكّر مور أن هذا غريب، لكنه لم يشك حتى جاء يوم في عام ١٩٨٣ وبعد سبع سنوات من جراحته، حيث أعطته الممرضة استمارة موافقة جديد تنص على:

> أنا (أوافق، لا أوافق) على أن أمنح طواعية لجامعة كاليفورنيا جميع الحقوق التي قد تكون لي، أو لورثتي، في أيّ سلالة خلايا أو أيّ منتج محتمل آخر قد تم تطويره من الدم و/ أو نخاع العظم الذي حصلوا عليه مني.

في البداية، وضع مور دائرة حول «أوافق». بعد سنوات، قال لمجلة ديسكفر: «تشعر في البداية أنك لا تريد إثارة المشاكل. وتظنّ أن هذا الرجل قد يجري لك جراحةً ما وسوف تموت أو شيء من هذا».

لكن مور اشتبه في أن غولد لم يكن صريحاً معه، لذلك عندما أعطته الممرضة استمارةً مماثلة خلال زيارته التالية، سأل مور غولد

عما إذا كان لأي من إجراءات المتابعة التي كان يقوم بها قيمة تجارية. وفقاً لمور، أجاب غولد بالنفي، لكن مور وضع دائرة حول «لا أوافق» فقط تحسباً.

بعد موعده، ذهب مور إلى منزل والديه في مكان قريب. عندما وصل إلى هناك، كان الهاتف يرن. كان غولد، الذي اتصل مرتين منذ أن غادر مور المستشفى. قال إن مور وضع عن طريق الخطأ دائرة حول الخيار الخاطئ في استمارة الموافقة، وطلب منه أن يعود ويصلحها.

قال مور لصحفي بعد سنوات: «لم أشعر بالراحة في مواجهته، لذلك قلت: «يا إلهي يا دكتور، لا أعرف كيف يمكنني ارتكاب هذا الخطأ، لكنني لا أستطيع العودة، كان علي الطيران إلى سياتل»».

سرعان ما ظهرت الاستمارة نفسها في صندوق بريد مور في المنزل مع ملصق مكتوب عليه «ضع دائرة حول أوافق». لم يفعل، بعد بضعة أسابيع تلقى رسالة من غولد يخبره فيها أن يتوقف عن إزعاجه وأن يوقع على الاستمارة. وعندئذٍ أرسل مور الاستمارة إلى محام، والذي وجد أن غولد كرس الكثير من السنوات السبع منذ جراحة مور لتطوير وتسويق سلالة خلايا أطلق عليه اسم «مو».

قال مور لمراسل آخر: «كان من المهين جداً أن يُنظر إلى المرء على أنه «مو»، ويشار إليه باسم «مو» في السجلات الطبية: «رأيت «مو» اليوم». فجأة لم أكن الشخص الذي كان غولد يضع ذراعه حوله بودٍّ، وأصبحت «مو» السلالة الخلوية، وكأنني قطعة من اللحم».

قبل أسابيع من توقيع مور استمارة الموافقة الجديدة، أيّ بعد سنوات من مواعيد «المتابعة»، قدم غولد طلباً للحصول على براءة اختراع لخلايا مور، والعديد من البروتينات القيمة للغاية التي تنتجها هذه الخلايا. لم يكن غولد قد باع بعد حقوق براءة الاختراع، ولكن وفقاً للدعوى القضائية التي رفعها مور في النهاية، أبرم غولد اتفاقيات مع شركة تكنولوجيا حيوية أعطته أسهماً وتمويلاً بقيمة أكثر من ٣,٥ مليون دولار «لتطوير» و«دراسة» خط خلايا «مو». وفي ذلك الوقت قدرت قيمتها السوقية بنحو ٣ مليارات دولار.

لم يُعتبر أيّ شيء بيولوجي قابلاً للحصول على براءة اختراع حتى قبل سنوات قليلة من دعوى مور القضائية، في عام ١٩٨٠، عندما أصدرت المحكمة العليا حكمها في قضية أناندا موهان شاكرابارتي، وهو عالم يعمل في جنرال إلكتريك والذي ابتكر بكتيريا معدلة وراثياً لاستهلاك النفط والمساعدة في تنظيف التسرب النفطي. وقدم طلباً للحصول على براءة اختراع رُفض على أساس أنه لا يمكن اعتبار أيّ كائن حي اختراعاً. جادل محامو شاكرابارتي بأنه نظراً لأن البكتيريا العادية لا تستهلك النفط، فإن بكتيريا شاكرابارتي لم تنشأ بشكل طبيعي بل كانت موجودة فقط لأنه قام بتعديلها باستخدام «الإبداع البشري».

فتح انتصار شاكرابارتي إمكانية تسجيل براءات اختراع لأشياء حية أخرى، بما فيها الحيوانات المعدلة وراثياً وسلالات الخلايا، والتي لم تنشأ بشكل طبيعي خارج الجسم. ولم يتطلب تسجيل

براءات الاختراع لسلالات الخلايا إبلاغ أو الحصول على إذن من «المتبرعين بالخلايا».

وسرعان ما أشار العلماء إلى أن خلايا جون مور كانت استثنائية، وأنّ عدداً قليلاً من السلالات الخلوية تستحق في الواقع براءة الاختراع. تنتج خلايا مور بروتينات نادرة يمكن لشركات الأدوية استخدامها لعلاج الإنتانات والسرطان. كما أنها حملت فيروساً نادراً يدعى فيروس تي- الليمفاوي البشري HTLV، وهو ابن عم بعيد لفيروس نقص المناعة البشرية، يأمل الباحثون في استخدامه لاصطناع لقاح يمكن أن يوقف وباء الإيدز. ولهذا السبب، كانت شركات الأدوية على استعداد لدفع مبالغ هائلة للعمل مع خلاياه. لو كان مور يعرف هذا قبل أن يسجل غولد براءة اختراعها، لكان بإمكانه الاتصال بالشركات مباشرة وعقد صفقة لبيع الخلايا بنفسه.

في أوائل السبعينيات كان رجل يدعى تيد سلافين قد فعل ذلك بالضبط مع الأجسام المضادة المأخوذة من دمه. ولد سلافن مصاباً بالناعور (الهيموفيليا) في الخمسينيات عندما كان العلاج الوحيد المتاح يتضمن حقن عوامل التخثر من دم المتبرع الذي لا يفحص أولاً لتحري إصابته بالأمراض. وبسبب ذلك، تعرض لفيروس التهاب الكبد B مراراً وتكراراً، على الرغم من أنه لم يكتشف ذلك إلا بعد عقود عندما أظهر فحص الدم تراكيز عالية للغاية من الأجسام المضادة لالتهاب الكبد B في دمه. عندما ظهرت نتائج فحص الدم،

أخبر الطبيب سلافن، على عكس ما فعل طبيب مور، أن جسده ينتج شيئاً قيماً للغاية.

كان الباحثون في جميع أنحاء العالم يعملون على تطوير لقاح لالتهاب الكبد الوبائي ب، ويتطلب القيام بذلك إمدادات ثابتة من الأجسام المضادة مثل تلك التي في دم سلافين، والتي كانت شركات الأدوية على استعداد لدفع مبالغ كبيرة من أجلها. كان هذا مواتياً، لأن سلافن كان بحاجة إلى المال. كان يعمل في وظائف متواضعة مثل خدمة الطاولات في المطاعم والبناء، لكنه أصيب في النهاية بنوبة أخرى من الهيموفيليا وانتهى به الأمر عاطلاً عن العمل مرة أخرى. لذلك اتصل سلافين بالمختبرات وشركات الأدوية لسؤالهم عما إذا كانوا يرغبون في شراء أجسامه المضادة. ووافق الجميع دون تردد.

بدأ سلافين في بيع مصله مقابل ما يصل إلى عشرة دولارات للملليلتر -بما يصل إلى ٥٠٠ ملليلتر لكل طلب- لأي شخص يريد ذلك. لكنه لم يكن يسعى وراء المال فقط. أراد أن يتمكن شخص ما من علاج التهاب الكبد ب، لذلك كتب رسالة إلى عالم الفيروسات الحائز على جائزة نوبل باروخ بلومبرغ، الذي اكتشف مستضد التهاب الكبد ب وابتكر اختبار الدم الذي اكتشف وجود الأجسام المضادة لـ سلافين في المقام الأول. عرض سلافين على بلومبرغ استخداماً مجانياً غير محدود لدمه وأنسجته في أبحاثه، فبدأت شراكة بينهما استمرت سنوات. بمساعدة مصل سلافين، كشف بلومبرغ

في نهاية المطاف عن الصلة بين التهاب الكبد الوبائي ب وسرطان الكبد، وخلق أول لقاح لالتهاب الكبد الوبائي ب، مما أنقذ ملايين الأرواح.

أدرك سلافين أنه ربما لم يكن المريض الوحيد ذو الدم الثمين، لذلك قام بتجنيد أشخاص آخرين لديهم الميزة نفسها وأنشأ شركة أطلق عليها اسم إسينشال بيولوجيكالز، والتي اندمجت في النهاية مع شركة منتجات بيولوجية أخرى أكبر. كان سلافين الأول من بين العديد من الذين حولوا أجسادهم منذ ذلك الحين إلى أعمال تجارية، بما فيهم ما يقرب من مليوني أمريكي يبيعون بلازما الدم الخاصة بهم حالياً، وكثير منهم على أساس منتظم.

لكن مور لم يستطع بيع خلايا مو لأن ذلك كان سينتهك براءة اختراع غولد. لذلك، في عام ١٩٨٤، قاضى مور غولد وجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس بتهمة خداعه واستخدام جسده في البحث دون موافقته؛ كما طالب بحقوق الملكية على أنسجته وقاضى غولد بتهمة سرقتها. وبذلك أصبح أول شخص يطالب قانونياً بأنسجته الخاصة ويرفع دعوى للحصول على أرباح وتعويض الأضرار.

عندما حكم القاضي جوزيف وابنر، الأكثر شهرة لكونه القاضي في البرنامج التلفزيوني لمحكمة الشعب، في الإفادات، اعتقد مور أن لا أحد سيأخذ القضية على محمل الجد. لكن العلماء في جميع أنحاء العالم أصيبوا بالذعر. إذا أصبحت عينات الأنسجة -بما فيها

خلايا الدم- ملكاً للمرضى، فإن الباحثين الذين يأخذونها دون الحصول على موافقة وحقوق الملكية مقدماً سيخاطرون بالتعرض لتهم السرقة. نشرت الصحافة قصة تلو الأخرى نقلاً عن المحامين والعلماء تقول إن انتصار مور «من شأنه أن يخلق الفوضى للباحثين» و«يدقّ [ناقوس] الخطر لعلماء الطب في الجامعات». فقد أطلقوا عليه وصف «التهديد لاستخدام الأنسجة لأغراض البحث»، وكانوا يخشون أن يعيق المرضى تقدم العلم من خلال الاستمرار في المطالبة بأرباح مفرطة، حتى مع وجود خلايا لا تساوي الملايين مثل خلايا مور.

لكن الكثير من العلوم كانت معلقة بالفعل بسبب رفع الباحثون والجامعات وشركات التكنولوجيا الحيوية دعاوى ضد بعضهم بشأن ملكية سلالات الخلايا المختلفة. وذكرت حالتان فقط من تلك الحالات الأشخاص الذين أخذت منهم تلك الخلايا: الأولى، في عام ١٩٧٦، انطوت على ملكية سلالة هامة من الخلايا الجنينية البشرية. جادل ليونارد هايفليك، الباحث الذي زرع الخلايا في الأصل، بأن هناك العديد من الأطراف التي لها حقوق ملكية مشروعة في أيّ خلايا مزروعة، بما فيهم العالم الذي زرعها، وممولي أيّ عمل ذي صلة، و«المتبرعين» بالعينات الأصلية. وقال إنه في غياب أيّ من هذه المساهمات، لم تكن لتوجد الخلايا المزروعة، ولن تنتج أيّ أموال عن بيعها. لم تشكل هذه القضية سابقة لأنها سوّيت خارج المحكمة، مع تقسيم الحقوق في الخلايا بين الأطراف

المعنية في الدعوى، والتي لم تشمل «المتبرع» بالخلية. وانطبق الشيء نفسه على حالة أخرى بعد ذلك بفترة وجيزة، حيث أخذ عالم شاب سلالة خلوية ساعد في تطويرها في الولايات المتحدة وهرب به إلى وطنه اليابان، مدعياً الملكية لأن الخلايا الأصلية جاءت من والدته.

لم يدرك الجمهور أنه كان هناك الكثير من المال في سلالات الخلية حتى وصلت أخبار قضية مور، وذكرت العناوين الرئيسية في جميع أنحاء البلاد أشياء مثل:

ملكية الخلايا تثير مشاكل بغيضة.

من الذي يجب أن يكون له الحق في خلايا المريض؟

من أخبرك أن بوسعك بيع طحالي؟

ناقش العلماء والمحامون وعلماء الأخلاق وواضعو السياسات القضايا: فقد دعا البعض إلى سن تشريعات من شأنها أن تجعل أخذ الأطباء لخلايا المرضى أو تسويقها دون موافقة والكشف عن الأرباح المحتملة أمراً غير قانوني؛ وزعم آخرون أن القيام بذلك من شأنه أن يخلق كابوساً لوجستياً من شأنه أن يضع حداً للتقدم الطبي.

في نهاية المطاف رفض القاضي دعوى مور، قائلاً إنه لم يكن لديه قضية. ومن المفارقات أن القاضي استشهد في قراره بسلالة خلية هيلا كسابقة لما حدث مع سلالة خلية مو. وقال إن حقيقة أنه لم يقم أحد بمقاضاة زرع أو ملكية سلالة خلية هيلا، توضح

أن المرضى لا يمانعون عندما يأخذ الأطباء خلاياهم ويحولونها إلى منتجات تجارية. اعتقد القاضي أن مور كان غريباً في اعتراضاته. ولكن في الواقع، كان ببساطة أول من أدرك أن ثمة شيء مريب وغير مقبول يحدث.

استأنف مور، وفي عام ١٩٨٨ حكمت محكمة الاستئناف في كاليفورنيا لصالحه، مشيرة إلى قانون حماية الأشخاص البشر في التجارب الطبية، وهو قانون أساسي في كاليفورنيا لعام ١٩٧٨ يتطلب أن تحترم الأبحاث على البشر «حق الأفراد في تحديد ما يجرى على أجسادهم». كتب القضاة: «يجب أن يتمتع المريض بالسلطة المطلقة للتحكم في ما يحدث لأنسجته. والعمل بخلاف ذلك من شأنه أن يفتح الباب أمام انتهاك واسع النطاق لخصوصية الإنسان وكرامته باسم التقدم الطبي».

لكن غولد استأنف وربح. ومع كلّ قرار جديد في القضية، تنقلب العناوين الرئيسية:

المحكمة تحكم بأنّ الخلايا ملكٌ للمريض...
المحكمة تدعم حقّ الأطباء في استخدام أنسجة المرضى

بعد ما يقرب من سبع سنوات من رفع مور الدعوى في الأصل، حكمت المحكمة العليا في كاليفورنيا ضده في ما أصبح البيان النهائي حول هذه المسألة: عندما تتم إزالة الأنسجة من جسمك، بموافقتك أو دون موافقتك، فإن أيّ مطالبة قد تكون لديك لامتلاكها تصبح باطلة. عندما تترك نسيجاً منك في عيادة طبيب أو مختبر، فإنك تتركها

كنفايات، ويمكن لأي شخص أن يأخذ قمامتك ويبيعها. ونصّ الحكم على أنه منذ أن تخلى مور عن خلاياه، لم تعد نتاجاً لجسده. بل «تحولت» إلى اختراع وهي الآن نتاج «إبداع إنساني» و«جهد إبداعي» من قبل غولد.

لم يُمنح مور أياً من الأرباح، لكن القاضي اتفق معه على تهمتين: عدم وجود موافقة مستنيرة، لأن غولد لم يكشف عن مصالحه المالية، وخرق الواجب الائتماني، مما يعني أن غولد استغل منصبه كطبيب وانتهك ثقة المريض. وقالت المحكمة إنه يجب على الباحثين الكشف عن المصالح المالية في أنسجة المرضى، على الرغم من عدم وجود قانون يتطلب ذلك. كما أشارت إلى عدم وجود لوائح تنظيمية وحماية للمرضى في بحوث الأنسجة، ودعت المشرعين إلى معالجة هذا الوضع. لكنها قالت إن الحكم لصالح مور قد «يدمر الحافز الاقتصادي لإجراء أبحاث طبية مهمة»، وأن منح المرضى حقوق الملكية في أنسجتهم قد «يعيق الأبحاث من خلال تقييد الوصول إلى المواد الخام اللازمة»، وخلق حقل حيث «مع كلّ عينة خلوية يعرّض الباحث نفسه لخطر المقاضاة».

انتصر العلماء واعتدوا بأنفسهم أكثر فأكثر. قال عميد كلية الطب بجامعة ستانفورد لصحفي إنه طالما كشف الباحثون عن مصالحهم المالية، يجب ألا يعترض المرضى على استخدام أنسجتهم. وأضاف: «إذا اعترضت، أعتقد أنه يمكنك الجلوس مع الزائدة الدودية المستأصلة والتفاوض بشأنها».

على الرغم من التغطية الإعلامية واسعة النطاق لقضية مور، لم يكن لدى عائلة لاكس أيّ فكرة عن حدوث أيّ من هذا. وفي حين كان الجدل حول ملكية الأنسجة البشرية يدور في جميع أنحاء البلاد، استمر الإخوة لاكس في إخبار أيّ شخص يصغي إليهم أن مستشفى جونز هوبكنز سرق خلايا والدتهم ومدين لهم بملايين الدولارات. وبدأت ديبورا في توزيع رسائل إخبارية عن والدتها والخلايا، قائلة: «أريدكم أن تقرأوا جميعاً ما في هذه الورقة! وأخبروا الجميع! تناقلوها فيما بينكم. نريد أن يسمع الجميع في العالم عن والدتي».

(٢٦)

انتهاك الخصوصية

على الرغم من مخاوفها، لم تمت ديبورا في عيد ميلادها الثلاثين. بل تابعت تربية أطفالها والعمل في مهن مختلفة مثل مصففة شعرٍ وكاتبة عدل وعاملة خلط كيميائي في مصنع أسمنت، ومحاسبة في متجر بقالة وسائقة ليموزين.

في عام ١٩٨٠، بعد أربع سنوات من طلاقها من تشيتا، أخذت ديبورا سيارتها إلى ميكانيكي يدعى جيمس بولوم، والذي عمل أيضاً في مصنع فولاذ محلي. تزوجا عام ١٩٨١، عندما كانت ديبورا في الحادية والثلاثين وكان بولوم في السادسة والأربعين، بعد فترة وجيزة من دعوته من قبل الربّ ليكون واعظاً. كان لدى بولوم بعض المشاكل مع القانون قبل أن يتم إنقاذه، ولكن معه شعرت ديبورا بالأمان. كان يتجول في بالتيمور على متن دراجته من طراز هارلي مع سكينٍ في جيبه ومسدس قريب من متناول يده. عندما سأل ديبورا لماذا لم يقابل والدتها قط، وضعت مقال رولينغ ستون على السرير ليقرأه، فقال إن عليها أن تذهب إلى المحامي. طلبت منه

ألا يتدخل في هذا الشأن. وفي نهاية المطاف، أسسا كنيسة صغيرة على واجهة المحل، ولفترة من الوقت توقفت ديبورا عن القلق كثيراً بشأن خلايا والدتها.

خرج زكريا من السجن بعد أن قضى سبعة سنوات فقط من مدة حكمه البالغة خمسة عشر عاماً. لقد حصل على شهادة لإصلاح مكيفات الهواء والعمل على الشاحنات، لكنه لا يزال يتصارع مع الغضب والشرب، وفي المناسبات النادرة التي وجد فيها وظائف، كان يفقدها بسرعة. لم يستطع تحمل الإيجار، لذلك نام معظم الليالي على مقعد في حيّ فيدرال هيل وسط مدينة بالتيمور، أو على درج كنيسة على بعدِ شارعٍ من منزل والده. كان داي ينظر أحياناً من نافذة غرفة نومه ويرى ابنه مستلقياً على الخرسانة، ولكن عندما دعاه إلى الدخول، زمجر زكريا وقال إن الأرض أفضل. لطالما لام زكريا والده على وفاة هنرييتا، ويكرهه لدفنها في قبر مجهول، ولا يسامحه أبداً على ترك الأطفال مع إيثل. توقف داي في النهاية عن دعوته للدخول، على الرغم من أنه كان يسير نحوه أحياناً لينام قربه على الرصيف.مكتبة .. سُر مَن قرأ

وذات مرةٍ، لاحظ زكريا إعلاناً يبحث عن متطوعين للدراسات الطبية في هوبكنز، وأدرك أنه يمكن أن يصبح عينة بحث مقابل بعض المال، وبعض الوجبات، وأحياناً مقابل سريرٍ ينام عليه. عندما احتاج إلى شراء نظارات، سمح للباحثين بجعله مصاباً بالملاريا لدراسة دواء جديد. تطوع من أجل بحث عن إدمان الكحول لدفع تكاليف

برنامج تدريب وظيفي جديد، ثم اشترك في دراسة عن الإيدز حيث سمحوا له بالنوم في سريرٍ لمدة أسبوع تقريباً. لكنه انسحب عندما بدأ الباحثون يتحدثون عن الحقن، لأنه اعتقد أنهم سينقلون إليه الإيدز.

لم يدرك أيّ من الأطباء أنهم يجرون أبحاثاً على ابن هنرييتا لاكس لأنه غير اسمه. ورأى زكريا وديبورا أنهم لو اكتشفوا في هوبكنز أنه من آل لاكس لما سمحوا له بالمغادرة.

جاء أكبر يوم حسابٍ شهده أيّ من أولاد لاكس عندما حصل داي وعمال آخرون على تسوية من دعوى قضائية جماعية ضد شركة مصنعة للمراجل بسبب الضرر الذي لحق برئاتهم من جراء التعرض للأسبستوس في معمل بيت لحم للصلب. حصل داي على شيك بـ ١٢ ألف دولار وأعطى ألفي دولار لكل ولد من أولاده. استخدمت ديبورا حصتها لشراء قطعة أرض صغيرة في كلوفر، حتى تتمكن يوماً ما من الانتقال إلى الريف والعيش بالقرب من قبر والدتها.

كانت الفترة العصيبة التي عاشها سوني تزداد سوءاً، فقد جاء معظم دخله الآن من حلقة قسائم طعام التي باعها من متجر لورانس الصغير، وسرعان ما وجد نفسه في السجن بتهمة الاتجار بالمخدرات. وبدا أن ألفريد، نجل ديبورا، يسلك نفس المسار الذي سلكه أخواله؛ ففي سن الثامنة عشرة، كان اعتقل للتو عدة مرات بسبب مخالفات بسيطة، مثل اقتحام المنازل. بعد دفع كفالته عدة مرات، بدأت ديبورا في تركه في السجن كي تلقنه درساً، قائلة: «ابق هناك حتى تصبح قادراً على دفع كفالتك بنفسك». لاحقاً، عندما

انضم إلى مشاة البحرية سرعان ما خرج من هناك دون إذن، لكن ديبورا لاحقته وجعلته يسلم نفسه إلى الشرطة العسكرية. وأعربت عن أملها في أن يقنعه قضاء بعض الوقت في الإصلاحية أنه لا يريد أبداً أن ينتهي به المطاف في سجن. لكن الأمور ساءت بعد أن قام ألفريد بعملية سرقة وعاد إلى المنزل وقد تعاطي المخدرات، فأدركت ديبورا في النهاية أنها لا تستطيع فعل شيء حيال ذلك. قالت له: «لقد نال منك الشيطان، يا فتى، فهذه الأشياء التي تتعاطاها تجعلك مجنوناً. أنا لا أعرفك، ولا أريدك هنا بعد الآن».

في خضم كلّ هذا، أخبر شخص ما ديبورا أنه بصفتها من أقرباء هنرييتا، يمكنها طلب نسخة من سجلات والدتها من مستشفى هوبكنز لمعرفة المزيد عن وفاتها. لكن ديبورا لم تفعل ذلك، لأنها كانت خائفة مما قد تجده وكيف يمكن أن يؤثر ذلك عليها. ثم في عام ١٩٨٥، نشرت إحدى الصحف الجامعية كتاباً بقلم مايكل جولد، وهو مراسل من مجلة ساينس ٨٥، حول حملة والتر نيلسون ريس لوقف التلوث بخلايا هيلا. اسم الكتاب (مؤامرة الخلايا: إرثٌ خالد لامرأة والفضيحة الطبية التي تسبب فيها).

لا أحد في عائلة لاكس يتذكر كيف علموا بكتاب غولد، ولكن عندما حصلت ديبورا على نسخة منه، قلبت صفحاته بأسرع ما يمكن بحثاً عن والدتها. وجدت صورة هنرييتا ويديها على وركيها، في مقدمة الكتاب، واسمها في نهاية الفصل الأول. ثم قرأت المقطع بصوت عالٍ لنفسها وهي ترتجف إثارةً:

كانت جميعها خلايا لسيدة أمريكية لم تسافر يوماً على الأرجح أبعد من بضعة أميال عن منزلها في بالتيمور، ماريلاند... وكانت تدعى هنرييتا لاكس.

في الفصل التالي المكون من عشر صفحات، اقتبس غولد باستفاضة من سجلاتها الطبية: الدم الذي لوّث ملابسها الداخلية، والزهري، وتدهور حالتها السريع. لم يسبق لأحد في عائلة هنرييتا أن رأى تلك السجلات الطبية، ناهيك عن إعطاء أيّ شخص في هوبكنز إذناً لمنحها لصحفي لنشرها في كتاب يمكن للعالم كله قراءته. عندئذٍ ودون سابق إنذار، قامت ديبورا بتقليب صفحات كتاب غولد وعثرت على تفاصيل وفاة والدتها: الألم المبرح والحمى والقيء والسموم التي تتراكم في دمها؛ وطبيب يقول: «إيقاف جميع الأدوية والعلاجات باستثناء المسكنات»؛ وعطب جسد هنرييتا أثناء التشريح:

> سحب ذراعا المرأة الميتة لأعلى والخلف حتى يتمكن الطبيب من الوصول إلى صدرها ... قسمت الجثة من الوسط وفتحت على مساحة واسعة ... كريات الورم البيضاء الرمادية ... ملأت الجثة. بدا كما لو كان الجزء الداخلي من الجسم مغطى باللآلئ. وصلت صفوف منها إلى سطح الكبد والحجاب الحاجز والأمعاء والزائدة الدودية والمستقيم والقلب. تكدست عناقيد الورم السميكة فوق المبيضين وقناتي فالوب. منطقة المثانة كانت الأسوأ، مغطاة بكتلة صلبة من الأنسجة السرطانية.

بعد قراءة هذا المقطع، انهارت ديبورا. أمضت أياماً وليالٍ تبكي، تتخيل الألم الذي لا بدّ وأنّ هنرييتا عانت الأمرين بسببه. لم تستطع إغلاق عينيها دون أن ترى جسد والدتها ينقسم إلى نصفين، والذراعان مرفوعان والأورام في كل مكان. جافى عينيها النوم. وسرعان ما باتت غاضبة من هوبكنز مثل إخوتها. بقيت مستيقظة ليلاً تتساءل، من أعطى السجلات الطبية لأمي لذلك الصحفي؟ اعتقد لورانس وزكريا أن مايكل غولد كان على صلةٍ بـ جورج غاي أو طبيب آخر في هوبكنز، وإلا كيف حصل على سجلات والدتهم؟

عندما اتصلتُ بـ مايكل غولد بعد سنوات لم يتذكر من أعطاه السجلات. قال إنه أجرى «محادثات طويلة مثمرة» مع فيكتور ماك كوسك وهاورد جونز، وكان متأكداً تماماً من أن جونز هو من أعطاه صورة هنرييتا. لكنه لم يكن متأكداً من السجلات. قال لي: «كانت في درج مكتب شخصٍ ما. لا أتذكر ما إذا كان فيكتور ماك كوسك أو هوارد جونز». عندما تحدثت إلى جونز، لم يكن لديه أيّ ذاكرة عن غولد أو كتابه، وأنكر أنه أعطى هو أو ماك كوسك سجلات هنرييتا الطبية لأي شخص.

لم يكن من غير القانوني أن ينشر الصحفي معلومات طبية قدمها له مصدر، ولكن القيام بذلك دون الاتصال بأسرة الشخص المعني لطرح أسئلة إضافية والتحقق من المعلومات وإعلامهم بأن هذه المعلومات الخاصة ستنشر يمكن بالتأكيد اعتباره حكماً مشكوكاً فيه. عندما سألتُ جولد عما إذا حاول التحدث إلى عائلة لاكس،

قال: «أعتقد أنني كتبت بعض الرسائل وأجريت بعض المكالمات، لكن العناوين وأرقام الهواتف لم تكن أبداً محدثة. ولأكون صادقاً، لم تكن العائلة حقاً محور تركيزي... اعتقدت فقط أنهم قد يضيفون بعض الألوان المثيرة للاهتمام للقصة العلمية».

وبغض النظر عن ذلك، لم يكن من المعتاد أن يسلم الطبيب السجلات الطبية للمريض إلى المراسل. كانت سرية المريض مبدأ أخلاقياً لقرون: يقول قسم أبقراط، الذي يقسم به معظم الأطباء عند التخرج من كلية الطب، إن كونك طبيباً يتطلب الوعد بالسرية لأنه بدونها، لن يكشف لك المرضى أبداً عن المعلومات الشخصية العميقة اللازمة لإجراء التشخيصات الطبية. ولكن مثل مدونة نورمبرغ ومدونة أخلاقيات الجمعية الطبية الأمريكية، والتي تنص بوضوح على أنه يجب على الأطباء الحفاظ على سرية معلومات المريض، فإن قسم أبقراط ليس قانوناً.

بينما اليوم، يعدّ نشر السجلات الطبية دون إذن انتهاكاً للقانون الفيدرالي. ولكن في أوائل الثمانينات، عندما أعطى شخص ما سجلات هنرييتا الطبية لـ غولد، لم يكن هناك مثل هذا القانون. العديد من الولايات، بل أكثر من ثلاثين ولاية في الواقع، أصدرت قوانين تحمي سرية السجلات الطبية للمريض، لكن ماريلاند لم تكن واحدة منها.

وقد نجح العديد من المرضى في مقاضاة أطبائهم بسبب انتهاكات الخصوصية، من بينهم مريضة نُشرت سجلاتها الطبية دون

موافقتها، وآخرون نشر أطبائهم صوراً أو عرضوا مقاطع فيديو لهم علناً، وكل ذلك دون موافقة. لكن هؤلاء المرضى جميعاً كان يجمعهم شيء واحد لا تملكه هنرييتا: كانوا على قيد الحياة. وليس للموتى الحقّ في الخصوصية حتى لو كان جزء منهم لا يزال على قيد الحياة.

(١٩٨٤-١٩٩٥)

(٢٧)

سرّ الخلود

بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وفاة هنرييتا، ساعدت الأبحاث التي أجريت بالاستعانة بخلايا هيلا أخيراً في الكشف عن كيفية انتشار سرطانها ولماذا لم تمت خلاياها أبداً. في عام ١٩٨٤ اكتشف عالم فيروسات ألماني يدعى هيرالد زور هاوزن سلالة جديدة من فيروس ينتقل عن طريق الاتصال الجنسي يسمى فيروس الورم الحليمي البشري ١٨ (HPV-18). وأدرك أن هذا الفيروس وفيروس الورم الحليمي البشري HPV-16، الذي اكتشفه قبل عام، يسببان سرطان عنق الرحم. وتبين أن اختبار خلايا هيلا في مختبره إيجابي لسلالة فيروس الورم الحليمي البشري ١٨، لكن زور هاوزن طلب من هوبكنز عينة من خزعة هنرييتا الأصلية حتى يتمكن من التأكد من أن خلاياها لم تكن ملوثة بالفيروس في وسط الزرع. لم تكن العينة إيجابية وحسب؛ بل أظهرت أن هنرييتا أصيبت بنسخ متعددة من فيروس الورم الحليمي البشري (HPV- 18)، والذي تبين أنه من أكثر سلالات الفيروس فتكاً.

يوجد أكثر من مئة سلالة من فيروس الورم الحليمي البشري، ثلاثة عشر منها تسبب سرطان عنق الرحم والشرج والفم والقضيب، واليوم، حوالي ٩٠ في المئة من جميع البالغين النشطين جنسياً يصابون بسلالة واحدة منها على الأقل خلال حياتهم. خلال الثمانينيات، وباستخدام هيلا وخلايا أخرى، درس العلماء عدوى فيروس الورم الحليمي البشري وكيف تسبب السرطان. وعرفوا أن فيروس الورم الحليمي البشري يُدخل حمضه النووي في الحمض النووي للخلية المضيفة، حيث ينتج بروتينات تؤدي إلى السرطان. كما وجدوا أنهم عندما ثبطوا الحمض النووي لفيروس الورم الحليمي البشري، لم تعد الخلايا الورم في عنق الرحم سرطانية. ساعدت هذه الاكتشافات في الحصول على لقاح فيروس الورم الحليمي البشري، وفي النهاية فاز زور هاوزن بجائزة نوبل.

كشفت الأبحاث التي أجريت على فيروس الورم الحليمي البشري في نهاية المطاف عن كيفية بدء سرطان هنرييتا: أدخل فيروس الورم الحليمي البشري حمضه النووي في الذراع الطويل لكروموسومها الحادي عشر وعطّل بشكل أساسي المورث p53 المثبّط للورم. ما لم يكتشفه العلماء بعد هو لماذا أنتج هذا خلايا فتاكة بشعة داخل وخارج جسم هنرييتا، خاصة وأن زرع خلايا سرطان عنق الرحم هو الأصعب على الإطلاق.

عندما تحدثت إلى هوارد جونز بعد خمسين عاماً من العثور على الورم على عنق رحم هنرييتا، كان في أوائل التسعينيات من عمره

وشهد آلاف حالات سرطان عنق الرحم. ولكن عندما سألته إن كان يتذكر هنرييتا، ضحك. قال: «لا يمكنني نسيان هذا الورم أبداً، لأنه لم يكن يشبه أيّ شيء رأيته في حياتي».

تحدثت إلى العديد من العلماء عن هيلا، ولم يستطع أحد تفسير سبب نمو خلايا هنرييتا بقوة في حين لم تنج العديد من الخلايا الأخرى. أصبح بوسع العلماء اليوم تخليد الخلايا عن طريق تعريضها لبعض الفيروسات أو المواد الكيميائية، ولكن خلايا قليلة جداً أصبحت خالدة من تلقاء نفسها كما فعلت خلايا هنرييتا.

أوضح فراد عائلة هنرييتا نظرياتهم الخاصة حول سبب نمو خلاياها بقوة؛ فأخت هنرييتا غلاديس لم تسامحها أبداً على الانتقال إلى بالتيمور وترك والدها خلفها لـ غلاديس لتعتني به أثناء تقدمه في السن. لذلك رأت غلاديس أنّ ذلك السرطان كانت طريقة الربّ لمعاقبة هنرييتا لمغادرة المنزل. ورأى غاري ابن غلاديس أنّ كلّ الأمراض كانت بسبب غضب الربّ على آدم لأنه أكل التفاحة من حواء. أما كوتي فقد أكد أنّ الأرواح هي المسببة للأمراض. ولم تعرف سادي، ابنة عم هنرييتا، أبداً بماذا تفكر.

قالت لي ذات مرة: «يا إلهي. عندما سمعتُ عن هذه الخلايا، فكرت، هل يعقل أنّ شيئاً حياً تغلغل فيها، تفهمين قصدي؟ شعرت بالخوف لأننا كنا نتجول سوياً طوال الوقت. أنا وهيني لم نسبح أبداً في ذلك الماء القذر هناك في محطة تيرنر مثل باقي الناس، لم نذهب إلى أيّ شاطئ أو أيّ شيء من هذا القبيل، ولم نخرج أبداً

دون ملابس داخلية، لذا لا أعرف كيف تسرب شيء كهذا داخل هيني. لكن هذا ما حصل. نما شيء في داخلها. ثم ماتت واستمر هو بالعيش. جعلني أبدأ في التفكير في أمور من قبيل أن شيئاً هبط من الفضاء إلى الأرض ومشت فوقه فدخل أحشاءها».

ضحكت سادي عندما قالت هذا لأنها علمت أنه يبدو جنونياً. قالت: «لكن ذلك بالفعل ما خطر في ذهني. أنا لا أكذب. يخطر في ذهنك أشياء كثيرة، كما تعلمين. وإلا كيف تفسرين نمو خلاياها على ذلك النحو؟».

كان لكلّ عقد لحظاته البارزة في أبحاث هيلا، وكان اكتشاف الصلة بين فيروس الورم الحليمي البشري وسرطان عنق الرحم واحداً فقط من بين عدة اكتشافات في الثمانينيات. في بداية وباء الإيدز، قامت مجموعة من الباحثين ومن بينهم عالم الأحياء الجزيئية ريتشارد أكسل الذي فاز لاحقاً بجائزة نوبل، بجعل خلايا هيلا تصاب بفيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز). عادة، يمكن لفيروس نقص المناعة البشرية أن يصيب خلايا الدم فقط، لكن أكسل أدخل تسلسلاً معيناً للحمض النووي من خلايا الدم إلى خلايا هيلا، مما جعل من الممكن لفيروس نقص المناعة البشرية أن يصيبها أيضاً. سمح هذا للعلماء بتحديد ما هو مطلوب لفيروس نقص المناعة البشرية لإصابة خلية، وتلك خطوة مهمة نحو فهم الفيروس، وربما مكافحته.

لفت بحث أكسل انتباه جيريمي ريفكين، وهو مؤلف وناشط شارك بعمق في نقاش عام محتدم حول ما إذا كان يجب على العلماء

تغيير الحمض النووي. يعتقد ريفكين والعديد من زملائه الآخرين أن أيّ تلاعب بالحمض النووي، حتى في بيئة مختبرية خاضعة للرقابة، كان خطيراً لأنه قد يؤدي إلى طفرات وراثية ويجعل من الممكن هندسة «الأطفال المعدلين وراثياً». نظراً لعدم وجود قوانين تحدّ من الهندسة الوراثية، رفع ريفكين دعاوى قضائية باستمرار لوقفها مستنداً إلى أيّ قوانين قائمة قد تنطبق.

في عام ١٩٨٧ رفع دعوى قضائية في المحكمة الفيدرالية لوقف بحث أكسل على أساس أنه انتهك قانون السياسة البيئية الوطنية لعام ١٩٧٥، لأنه لم يثبت أبداً أنه آمن بيئياً. وأشار ريفكين إلى أنه من المعروف على نطاق واسع أن هيلا «سلالة من الخلايا الفتاكة والمعدية بشكل غير عادي» يمكن أن تلوث مزارع الخلايا الأخرى. وقال ريفكين إنه بمجرد أن يعمل أكسل على نقل فيروس نقص المناعة البشرية إلى خلايا هيلا، فإن بوسعها أن تصيب خلايا أخرى وتعرض الباحثين في المختبرات في جميع أنحاء العالم لفيروس نقص المناعة البشرية، «وبالتالي زيادة نطاق مضيف الفيروس وربما تؤدي إلى زيادة خطورة انتشار جينوم فيروس الإيدز».

استجاب أكسل للدعوى من خلال شرح أن الخلايا لا يمكن أن تنمو خارج مزرعة الأنسجة وأن هناك عالماً من الاختلاف بين تلوث المزرعة والإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية. نشرت مجلة ساينس مقالاً عن الدعوى القضائية، وكتبت: «حتى ريفكين يعترف بأن هذه الأحداث مجتمعة تبدو أشبه بحبكة فيلم رعب من

الدرجة B أكثر من كونها ترصد الوضع العادي لسير الأمور في مختبرات الأبحاث الطبية الحيوية في البلاد». في نهاية المطاف رفضت الدعوى، واستمر أكسل في استخدام خلايا هيلا لبحوث فيروس نقص المناعة البشرية، ولم يتحقق سيناريو فيلم الرعب الذي توقعه ريفكين.

ولكن في هذه الأثناء، طور عالمان نظرية حول هيلا بدت وكأنها خيال علمي أكثر من أيّ شيء توصل إليه ريفكين: قالا إن خلايا هيلا لم تعد بشرية.

تتغير الخلايا أثناء نموها في وسط الزرع، تماماً كما تتغير في جسم الإنسان. إنها معرضة للمواد الكيميائية وأشعة الشمس والبيئات المختلفة، وكل تلك العوامل يمكن أن تسبب تغييرات في الحمض النووي. ثم تمرر الخلايا تلك التغييرات إلى كلّ جيل جديد من الخلايا من خلال الانقسام الخلوي، وهي عملية عشوائية تنتج المزيد من التغييرات. إنها تتطور مثلما يتطور البشر.

وقد حدث كلّ هذا لخلايا هنرييتا بمجرد وضعها في وسط الزرع. ونقلت تلك التغييرات إلى خلاياها الوليدة، وخُلقت عائلات جديدة من خلايا هيلا التي تختلف عن بعضها بالطريقة نفسها التي يختلف بها أبناء العم من الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، على الرغم من أنهم يشتركون في سلف مشترك.

في مطلع التسعينيات، أدت العينة الصغيرة من عنق رحم هنرييتا التي وضعتها ماري في وسط الزرع في مختبر غاي إلى ظهور أطنان

من الخلايا الأخرى - وكلها لا تزال معروفة باسم هيلا، ولكنها مختلفة قليلاً عن بعضها البعض، وعن هنرييتا. لذا، كتب «ليه فان فالين»، عالم الأحياء التطوري في جامعة شيكاغو: «إننا نقترح هنا، بكلّ جدية، أنّ [خلايا هيلا] أصبحت نوعاً منفصلاً».

شرح فان فالين هذه الفكرة بعد سنوات قائلاً: «تتطور خلايا هيلا بشكل منفصل عن البشر، ووجود تطور منفصل هو في الواقع التعريف الصريح للنوع». نظراً لأن اسم النوع هيلا قد اشتق أساساً من قبل نوع من السرطان [ويقصد هنا السلطعون CRAB]، اقترح الباحثون أن تسمى أنواع خلايا هيلا الجديدة هيلاسيتون غارتليري، والتي جمعت هيلا مع سيتون، وهو الاسم اليوناني لكلمة «خلية»، وغارتليري، تكريماً لـ ستانلي غارتلر، الذي فجّر «قنبلة هيلا» قبل خمسة وعشرين عاماً.

لم يعترض أحد على هذه الفكرة، ولكن لم يتصرّف أحد بناءً عليها أيضاً، لذلك ظلت خلايا هنرييتا مصنفة على أنها خلايا بشرية. ولكن حتى اليوم، يجادل بعض العلماء بأنه من غير الصحيح في الواقع القول بأن خلايا هيلا مرتبطة بـ هنرييتا، لأن حمضها النووي لم يعد مطابقاً وراثياً لحمض هنرييتا النووي.

ضحك روبرت ستيفنسون، أحد الباحثين الذين كرسوا الكثير من حياتهم المهنية لتصحيح فوضى التلوث بخلايا هيلا، عندما سمع هذه الحجة. قال لي: «إنها مجرد سخافة. لا يحبّ العلماء التفكير في خلايا هيلا على أنها أجزاء صغيرة من هنرييتا لأنه من الأسهل بكثير

ممارسة العلوم عندما تفصل موادك عن الأشخاص الذين جاءت منهم. ولكن إذا تمكنت من الحصول على عينة من جسم هنرييتا اليوم وأخذت بصمة الحمض النووي منها، فإن حمضها النووي سيطابق الحمض النووي لخلايا هيلا».

في الوقت الذي اقترح فيه فان فالين أن هيلا لم تعد بشرية، بدأ الباحثون في استكشاف ما إذا كانت خلايا هنرييتا قد تحمل مفتاح إطالة حياة الإنسان، وربما حتى الخلود، وادعت العناوين مرة أخرى أن العلماء وجدوا ينبوع الشباب.

في أوائل القرن العشرين، يفترض أن خلايا قلب دجاجة كاريل أثبتت أن جميع الخلايا لديها القدرة على الخلود. لكن الخلايا البشرية الطبيعية، سواء في وسط الزرع أو في جسم الإنسان، لا يمكن أن تنمو إلى أجل غير مسمى مثل الخلايا السرطانية. بل تنقسم فقط عدداً محدوداً من المرات، ثم تتوقف عن النمو وتبدأ في الموت. عدد المرات التي يمكنهم فيها الانقسام هو عدد محدد يسمى حدّ هايفليك، نسبةً إلى ليونارد هايفليك الذي نشر بحثاً عام ١٩٦١ يوضح أن الخلايا الطبيعية تصل إلى حدّها عندما تتضاعف حوالي خمسين مرة.

بعد سنوات من عدم التصديق والجدل من قبل العلماء الآخرين، أصبح بحث هايفليك حول حدود الخلايا من أكثر البحوث التي يستشهد بها على نطاق واسع في مجاله. لقد كانت لحظة تجلي: كان العلماء يحاولون منذ عقود أن يزرعوا سلالات الخلايا الخالدة

باستخدام الخلايا الطبيعية بدلاً من الخلايا الخبيثة، لكنها لم تنجح أبداً. كانوا يعتقدون أن التقنية المتبعة هي المشكلة، في حين أن السبب في الواقع كان ببساطة أن عمر الخلايا الطبيعية كان مبرمجاً مسبقاً. فقط الخلايا التي تحولت بسبب فيروس أو طفرة وراثية لديها القدرة على أن تصبح خالدة.

علم العلماء من دراسة هيلا أن الخلايا السرطانية يمكن أن تنقسم إلى أجلٍ غير مسمى، وقد تكهنوا لسنوات حول ما إذا كان السرطان ناتجاً عن خطأ في الآلية التي جعلت الخلايا تموت عندما وصلت إلى حدّ هايفليك. لقد عرفوا أيضاً أن هناك سلسلة من الحمض النووي في نهاية كلّ كروموسوم تسمى التيلومير (القسيم الطرفي)، والتي تقصر قليلاً في كلّ مرة تنقسم فيها الخلية، مثل الوقت الذي ينقص على مدار الساعة. وفي حين تعيش الخلايا الطبيعية حياتها، تَقصُر التيلوميرات مع كلّ انقسام حتى تختفي تقريباً. ثم تتوقف الخلايا عن الانقسام ويبدأ الموت. ترتبط هذه العملية بعمر الشخص: فكلما تقدم بنا السن، تقصر التيلوميرات، ويقلّ عدد المرات التي بقيت لانقسام خلايانا قبل أن تموت.

في مطلع التسعينيات، استخدم عالم في جامعة ييل خلايا هيلا لاكتشاف أن الخلايا السرطانية البشرية تحتوي إنزيماً يسمى تيلوميراز والذي يعيد بناء التيلوميرات الخاصة بتلك الخلايا. وجود التيلوميراز يعني أن الخلايا يمكن أن تستمر في تجديد التيلوميرات الخاصة بها إلى أجل غير مسمى. هذا يفسر ميكانيكاً خلود خلايا هيلا: تيلوميراز

يلف باستمرار الساعة الموقوتة في نهاية كروموسومات هنرييتا حتى لا تكبر أبداً ولا تموت أبداً. كان هذا الخلود، وهذه القوة التي نمت بها خلايا هنرييتا، هي التي مكّنت هيلا من السيطرة على العديد من مزارع الخلايا الأخرى، فقد فاق نموها ببساطة أيّ خلايا أخرى.

(١٩٩٦-١٩٩٩)

(٢٨)

بعد لندن

في النهاية لفتت قصة هنرييتا لاكس انتباه منتج في محطة بي بي سي في لندن يدعى آدم كورتيس، وفي عام ١٩٩٦، بدأ في إنتاج فيلم وثائقي عن هنرييتا والذي صدف أن أشاهده لاحقاً في صالون تجميل كورتني سبيد. عندما وصل كورتيس إلى بالتيمور مع مساعديه وكاميراته وميكروفوناته، اعتقدت ديبورا أنّ كلّ شيء سيتغير، وأنها وبقية العالم سيعرفون القصة الحقيقية لـ خلايا هنرييتا لاكس وهيلا، وستتمكن أخيراً من المضي قدماً في حياتها. وبدأت تشير إلى الفترات في حياتها على أنها ما «قبل لندن» وما «بعد لندن».

غطى كورتيس وطاقمه قصة عائلة لاكس بعمق أكثر من أيّ شخص آخر، وشغلوا عشرات الساعات من الفيديوهات لمقابلة ديبورا، مما دفعها من خلف الكاميرا للتحدث بجمل كاملة، وعدم الخروج عن الموضوع. قالت ديبورا أشياء مثل «اعتدت على الانزواء في ركنٍ منسي بعد زواجي. لم يكن زوجي يعرف أيّ شيء عني، وكنت أكتفي بالحزن والبكاء في وحدتي....وكنت أطرح

هذه الأسئلة في رأسي.... لماذا يا ربّ، لماذا أخذت أمي عندما كنت بحاجةٍ ماسةٍ إليها؟»

سألها المحاور: «ما هو السرطان؟».

أجرت هيئة الإذاعة البريطانية مقابلة مع ديبورا أمام المنزل في كلوفر؛ والتقطوا صوراً لـ داي وسوني متكئين على شاهد قبر والدة هنرييتا، ويتحدثان عن مهارة هنرييتا في الطهي، وكيف أنهما لم يسمعا شيئاً عن الخلايا إلى أن اتصل بهم الباحثون طلباً لعيناتٍ من الدم. وتبعوا عائلة لاكس إلى أتلانتا لحضور مؤتمر نظّمه رولاند باتيلو تكريماً لـ هنرييتا، العالم الذي سيقودني قريباً إلى ديبورا.

نشأ باتيلو في الثلاثينيات، ابن حداد تحوّل إلى عامل سكة حديد في بلدة صغيرة معزولة في لويزيانا. كان أول فردٍ في عائلته يلتحق بالمدرسة، وعندما سمع عن هنرييتا عندما كان زميل ما بعد الدكتوراه في مختبر غاي، شعر على الفور بالتواصل معها. أراد تكريم مساهماتها في العلوم منذ ذلك الحين. لذلك، في ١١ أكتوبر ١٩٩٦، في كلية مورهاوس للطب، نظم ندوة هيلا السنوية الأولى لمكافحة السرطان. ودعا باحثين من جميع أنحاء العالم لتقديم أبحاث علمية حول السرطان لدى الأقليات، وقدم التماساً إلى مدينة أتلانتا لتسمية ١١ أكتوبر، تاريخ المؤتمر، يوم هنرييتا لاكس. ووافقت المدينة وأصدرت بشأن ذلك إعلاناً رسمياً من مكتب العمدة. وطلب من هوارد جونز أن يساهم بمقال يسجل فيه ذكرياته عن تشخيص ورم هنرييتا. فكتب جونز:

من وجهة نظر سريرية، لم تكن السيدة لاكس على ما يرام.. كما قال تشارلز ديكنز في افتتاحية رواية قصة مدينتين: «كان أفضل الأوقات، كان أسوأ الأوقات». كانت تلك أفضل الأوقات للعلم لأن هذا الورم الغريب للغاية أدى إلى ظهور سلالة خلية هيلا.... أما بالنسبة للسيدة لاكس والعائلة التي خلفتها وراءها، كانت أسوأ الأوقات. فالتقدم العلمي، بل والتقدم بجميع أنواعه، كثيراً ما ينطوي على تكلفة باهظة، مثل التضحيات التي قدمتها هنرييتا لاكس.

حصل باتيلو على رقم هاتف ديبورا من خلال صديق طبيب في هوبكنز، واتصل بها. عندما سمعت عن خططه للمؤتمر والتسمية الرسمية لـ يوم هنرييتا لاكس، غمرتها السعادة إذ أخيراً، كان أحد العلماء يكرم والدتها. سرعان ما اجتمعت عائلة لاكس، داي وسوني ولورانس وديبورا وبوبيت وزكريا وحفيد ديبورا ديفون، في مقطورة متنقلة استأجرها باتيلو لهم وانطلقوا إلى أتلانتا، يتبعهم طاقم فيلم بي بي سي الوثائقي.

قرب محطة بنزين على الطريق، ابتسمت ديبورا للكاميرا وشرحت سبب توجههم إلى مورهاوس.

قالت: «سيكون هناك الكثير من الأطباء يتحدثون عن مواضيع مختلفة ومجالات علمية مختلفة. وسيقومون بتسليم لوحات تذكارية لأخي وأبي ولي تكريماً لاسم والدتنا. لذلك، أشعر أنها ستكون مناسبة رائعة».

وكانت كذلك. لأول مرة، تعاملوا مع عائلة لاكس معاملة المشاهير: أقاموا في فندقٍ، وطلب الناس تواقيعهم. ولكن كان هناك بعض الهفوات. وسط كلّ الإثارة التي نتجت عن الحفل، ارتفع ضغط دم سوني بشكل خطير وانتهى به الأمر في المستشفى، وكاد يفوتهم الحدث بأكمله. أفرغ زكريا الثلاجة الصغيرة في غرفته، ثم أفرغ ثلاجة والده وديبورا. صرخ ورمى نشرات برنامج الحفل عندما رأى أنهم أدرجوا اسمه على أنه «جوزيف لاكس» وأن هنرييتا هي المرأة التي «تبرعت» بخلايا هيلا.

فعلت ديبورا قصارى جهدها لتجاهل كلّ ذلك. كانت متوترة جداً عندما صعدت إلى المسرح، حيث اهتزت المنصة عندما لمستها. كانت قلقة لأسابيع من احتمال وجود قناص بين الجمهور أو عالم يرغب في اختطافها لإجراء بحث على جسدها، أو من منع العائلة من التسبب في مشاكل. لكن باتيلو أكدَ لها أنها بأمان.

قالت للجميع في المؤتمر: «عفواً إذا أخطأت في نطق كلمة ما، لكنني أعاني من مشاكل ولم أحصل على التعليم الصحيح عندما كنت في المدرسة. لم يُسمح لي حتى بالحصول على جهاز السمع إلا بعد أن كبرت. أنا لا أخجل من هذا».

ثم، بفضل هتاف باتيلو المشجع من مكان قريب، تنحنحت ديبورا وبدأت خطابها:

> عندما اتصل بي الدكتور باتيلو، أصبح كلّ شيء حقيقي.
> بعد أن بدا كالحلم لسنواتٍ مضت. لا أعرف ما كان يحدث

كلّ هذه السنوات. لم أعرف حتى كيف أتحدث عن ذلك. هل يعقل أن يكون ما يقال بشأن والدتنا صحيحاً؟ لم أعرف إلى من أذهب لأفهم. لم يجد أحد في المجال الطبي الوقت ليشرح لي.

ثم، ودون أيّ توقف، بدأت تتحدث مباشرة إلى والدتها:

نفتقدك يا أمي.... أفكر فيك طوال الوقت وأتمنى لو كان بإمكاني أن أراك وأضمك بين ذراعيّ، كما أعلم أنك ضممتني. قال أبي أنك طلبت منه على فراش الموت أن يعتني بـ ديبورا. شكراً لكِ يا أمي، سنراكِ مجدداً يوماً ما. نقرأ ما نستطيع ونحاول أن نفهم. يتساءل عقلي في كثير من الأحيان كيف ستكون الأمور لو أنّ الله أبقاكِ هنا معي... أحفظ في داخلي كلّ ما أعرفه عنكِ في أعماق نفسي لأنني جزءٌ منكِ وأنتِ جزء مني. نحن نحبك، ماما.

بدا الأمر وكأن كلّ شيء يسير على ما يرام بالنسبة لآل لاكس، كما لو أن هنرييتا ستبدأ أخيراً في الحصول على التقدير الذي تأمله ديبورا.

سرعان ما ظهرت الـ بي بي سي في محطة تيرنر، تسأل السكان المحليين عن الحياة هناك في الأربعينات والخمسينات. أخبار زيارتهم، مثل أخبار كلّ شيء آخر يحدث في محطة تيرنر، سرعان ما وجدت طريقها إلى بقالة سبيد، حيث عرفت كورتني سبيد بقصة هنرييتا لاكس لأول مرة. كانت صدفةً جميلة حيث قامت كورتني

والعديد من النساء مؤخراً بتأسيس لجنة تراث محطة تيرنر، وكن ينظمن فعالياتٍ لجذب الانتباه إلى السود من أهل البلدة الذين كانت لهم مساهمات جيدة في العالم مثل عضو الكونغرس السابق الذي أصبح رئيساً للجمعية الوطنية للنهوض بالملونين، ورائد فضاء، والرجل الذي فاز بالعديد من جوائز إيمي عن صوت إلمو في برنامج الأطفال شارع سمسم.

عندما علمتا بشأن هنرييتا وهيلا، عقدت سبيد وعالمة اجتماع في جامعة ولاية مورغان تدعى باربرا ويتشي العزم على أن تبذلا قصارى جهدهما لدعم المسألة. أرسلتا خطابات إلى الكونغرس ومكتب العمدة تطالبان فيها بالاعتراف بمساهمة هنرييتا في العلوم. كما تواصلتا مع تيري شارر، أمين متحف سميثسونيان القومي للتاريخ الأمريكي، الذي دعا عائلة لاكس إلى حضور فعالية صغيرة في المتحف. أعجب داي هناك بمعدات المزرعة القديمة وأصر على أنه يريد رؤية خلايا زوجته. (كان لدى المتحف قارورة من خلايا هيلا مخزنة في مكان ما، وكان وسط الزرع معتماً مثل البركة الموحلة، لكنها لم تكن معروضة للعامة). جاء الناس لتحية ديبورا والدموع في أعينهم وأخبروها أن خلايا والدتها ساعدتهم على التغلب على السرطان. شعرت ديبورا بالسعادة. بعد سماع أحد الباحثين يتحدث عن الاستنساخ، سألت ديبورا شارر عما إذا كان من الممكن أخذ الحمض النووي من خلايا هيلا ووضعه في أحد بيوض ديبورا لإعادة والدتها إلى الحياة. أجاب شارر بالنفي.

بعد تلك الفعالية، كتب شارر رسالة إلى ويتشي يقترح فيها أن تفكر هي وسبيد في تأسيس متحف صحي للأمريكيين من أصول أفريقية في محطة تيرنر إحياءً لذكرى هنرييتا. وسرعان ما باشرتا بتأسيس مؤسسة متحف هنرييتا لاكس للتاريخ الصحي، وتولت رئاسته. خططت سبيد وريتشي لإقامة فعاليات تضم شبيهات هنرييتا لاكس، وكانت قلةٌ النساء في محطة تيرنر اللواتي يصففن شعرهن مثل هنرييتا ويرتدين بدلات مطابقة لتلك التي كانت ترتديها في صورتها الأيقونية. لزيادة الوعي بمساهمة هنرييتا، استخدمت سبيد مدخراتها لصنع قمصانٍ والتبرع بها، وصنع شخصٌ آخر أقلاماً عليها اسم هنرييتا لاكس. كتبت الصحف المحلية عن خطتهما لافتتاح متحف بقيمة ٧ ملايين دولار، وفتحت سبيد وويتشي حساباً مصرفياً لمؤسسة هنرييتا لاكس، وقدمتا طلباً للحصول على رقم تعريف ضريبي، وبدأتا في محاولة جمع أكبر قدر ممكن من المال والمعلومات للمتحف. ومن أولى أهدافهما كان نصبُ تمثال شمع لـ هنرييتا بالحجم الطبيعي.

لم تعيّن ديبورا موظفة أو عضوةً في مجلس إدارة المؤسسة، لكن سبيد وويتشي اتصلتا من حين لآخر لدعوتها للحديث في احتفالات مختلفة تكريماً لوالدتها تحت خيمة صغيرة بالقرب من بقالية سبيد، وأحياناً في كنيسة قريبة. في نهاية المطاف، اقترح شخص ما أن تتبرع ديبورا بإنجيل كانت تملكه هنرييتا وجدائل شعر من هنرييتا وإلسي مطوية في داخله. قال الناس أن الله سيحميها في حال تعرض منزل

ديبورا لحريقٍ ما. عندما سمعت ديبورا ذلك، ركضت إلى المنزل وأخفت كتاب والدتها المقدس، وأخبرت زوجها، «هذا هو الشيء الوحيد الذي أملكه من والدتي، والآن يريدون أخذه!».

عندما عرفت أن سبيد وويتشي أقامتا مؤسسةً وحساباً مصرفياً باسم والدتها، شعرت ديبورا بالغضب. قالت: «لا تحتاج العائلة إلى متحف، وبالتأكيد لا يحتاجون إلى تمثال شمعٍ لـ هنرييتا. إن أراد شخص جمع المال من أجل غايةٍ ما، فيجب أن تكون من أجل أولاد هنرييتا الذين يستدينون المال لزيارة الطبيب».

لم توافق ديبورا على المساعدة في مشروع المتحف إلا عندما بدا أن سبيد وويتشي قد تقدمان لها معلوماتٍ عن والدتها. علق ثلاثتهن منشورات مكتوبة بخط اليد في بقالة سبيد وفي أرجاء محطة تيرنر، وسألن الناس: «من كان يعرف ترنيمتها المفضلة؟ من يعرف كتابها المقدس المفضل؟ من يعرف لونها المفضل؟ من يعرف لعبتها المفضلة؟» طرحت سبيد أول سؤالين؛ في حين طرحت ديبورا السؤالين الآخرين.

وفي مرةٍ ما دعت سبيد وويتشي مساعدة غاي السابقة، ماري كوبتشيك، إلى احتفالٍ في قبو كنيسة شيلو المعمدانية الجديدة في محطة تيرنر، لتحدث الناس كيف زرعت خلايا هيلا. وقفت ماري خلف منصة صغيرة وقد لفت نفسها بوشاحٍ سميك تداري توترها وعجزها عن رؤية من حولها بسبب سيل الأسئلة الجارف الذي طرحه أبناء عمومة هنرييتا البعيدون والسكان المحليون من غير

أقرباء هنرييتا، يطالبون بمعرفة من الذي يجني المال من الخلايا، وما إذا كانت غاي حصل على براءة اختراع لها.

أجابت ماري، وهي تنقل وزنها من قدمٍ إلى قدم: «بالطبع لا. لا، لا، لا... لم تكن تسجل براءات اختراع لزراعة الخلايا في ذلك الحين». أخبرتهم أنه في الخمسينات، لم يتخيل أحد أن هذا الأمر ممكن حتى. قالت إن غاي قدم الخلايا مجاناً لصالح العلم.

تذمر الناس في الغرفة، وازداد التوتر. وقفت إحدى النساء وقالت: «لقد عالجتني هذه الخلايا من السرطان، وإذا كان لدي خلايا يمكن أن تساعد شخصاً ما مثلما ساعدتني خلاياها، لن أتردد في وهبها للناس». وقالت امرأة أخرى إنها لا تزال تعتقد أن غاي سجل براءة اختراع الخلايا، ثم صرخت: «آمل أن يتمكنوا من تصحيح هذا في المستقبل». تجولت ديبورا في أرجاء الغرفة قائلةً إن خلايا والدتها عالجت السرطان وعلى الجميع أن يعرف قصتها. ثم طلبت من ماري أن تروي قصة رؤيتها لأظافر قدمي والدتها المطلية بالأحمر أثناء تشريح الجثة، والتي قرأتها ديبورا في كتاب غولد. لبّت ماري طلبها وسكت ضجيج الحضور.

في حين راحت سبيد تعمل مع سكان محطة تيرنر الآخرين لجمع ذكرياتٍ عن هنرييتا، كتبت ويتشي رسالة تلو الأخرى في محاولة للحصول على اعترافٍ بـ هنرييتا وجذب المتبرعين لدفع كلفة تأسيس المتحف. وحصلت على نتائج: أرسل مجلس شيوخ ولاية ماريلاند قراراً مكتوباً على ورقٍ فاخر ينصّ على أنه: «ليكن

معروفاً للجميع أن مجلس شيوخ ماريلاند يقدم تهانيه الخالصة لـ هنرييتا لاكس». في ٤ يونيو ١٩٩٧، تحدث النائب روبرت إرليك الابن أمام مجلس النواب الأمريكي، قائلاً: «سيدي الرئيس، أقف هنا اليوم للإشادة بـ هنرييتا لاكس». وروى للكونغرس قصتها، قائلاً: «لم يتم الاعتراف بالسيدة لاكس على أنها متبرعة بالخلايا». وأضاف أن الوقت قد حان لتغيير ذلك. يبدو أن الجميع يوافق أن هذا ما ينبغي على هوبكنز أن تفعله.

كانت ويتشي تعمل على ذلك، حيث كتبت رسالة مفصلة جداً من ثلاث صفحات إلى ويليام برودي رئيس جونز هوبكنز في ذلك الوقت. وصفت هنرييتا بأنها «بطلة محلية منسية»، موضحةً أهمية خلايا هيلا، واستشهدت بمؤرخ يقول إن قصة هيلا كانت «من أكثر القصص دراماتيكية وأهمية في تاريخ البحث في معهد جونز هوبكنز الطبي». وكتبت أيضاً:

> عانت عائلة [لاكس] كثيراً جداً.. تحاول هذه الأسرة، مثل العديد من الأسر الأخرى اليوم، التعامل مع العديد من الأسئلة والقضايا الأخلاقية التي تحيط بـ «ولادة» خلايا هيلا، و«موت» السيدة لاكس.... أسئلةٌ من قبيل ما إذا كانوا قد حصلوا على إذنٍ من «المانحة» أو عائلتها إما «لاستخدام» هيلا في جميع أنحاء العالم أو «للإنتاج» التجاري الضخم والتوزيع والتسويق لخلايا السيدة لاكس.... أو ما إذا كان العلماء وموظفو الحكومة والجامعات وغيرهم قد تصرفوا

بشكل أخلاقي فيما يتعلق بهذين الجانبين أو في تعاملهم مع الأسرة.... كما طرحت تساؤلات اجتماعية أخرى لأن السيدة لاكس كانت امرأة أمريكية من أصل أفريقي.

بعد شهر، ردّ روس جونز، مساعد رئيس هوبكنز. قال إنه «غير متأكد من الدور الذي قد تقوم به هوبكنز في أيّ مشروعٍ للاحتفاء بحياة السيدة لاكس»، لكنه أراد مشاركة هذه المعلومات مع ويتشي:

اسمحوا لي لطفاً أن أؤكد لكم أن هوبكنز لم تستخدم أبداً خلايا هيلا في مشروع تجاري. ولم تسع هوبكنز أبداً إلى تحصيل أيّ أموال من تطوير أو توزيع أو استخدام مزارع خلايا هيلا. وتماشياً مع الممارسات المقبولة عالمياً تقريباً في ذلك الوقت، لم يطلب الأطباء وغيرهم من العلماء في هوبكنز وفي أماكن أخرى الإذن باستخدام الأنسجة التي أزيلت كجزء من إجراءات التشخيص والعلاج. كما أنه تماشياً مع تقاليد البحث الأكاديمي في ذلك الوقت، جرت العادة على تقاسم مزارع الخلايا مجاناً ودون تعويض وبحسن نية مع العلماء الذين يحتاجون إليها في جميع أنحاء العالم. في الواقع، لعلّ استعداد علماء هوبكنز لتسهيل الوصول إلى مزارع الخلايا هو السبب الرئيسي للفوائد العظيمة التي تحققت من استخدامها.

وأنا على يقينٍ بأن كلانا يدركُ كيف تغيّرت العديد

من معايير الممارسات في الطب الأكاديمي بشكل كبير في السنوات الأخيرة، وآمل، بل أثق في أن هناك مراعاة متزايدة لرغبات المرضى ووعياً أكبر بمصالحهم عندما يسعون للحصول على الرعاية الطبية أو المشاركة في البحث. وهذا كله في صالح الطب الأكاديمي والمرضى الذين نقدم خدماتنا لهم.

وأخبر ويتشي أيضاً أنه عمم رسالتها على «آخرين في هوبكنز للتعليق عليها والنظر فيها». سرعان ما اجتمعت مجموعة صغيرة من الأشخاص في هوبكنز بشكل غير رسمي، دون إخبار ويتشي أو سبيد، لمناقشة ما قد تفعله الجامعة لتكريم هنرييتا وعائلة لاكس.

ثم سمعوا عن كوفيلد.

السير كينان كيستر كوفيلد كان ابن عم ابنة زوج ديبورا، أو شيء من هذا القبيل. لا أحد في العائلة يتذكر بالتأكيد. كما أنهم لا يعرفون كيف أو متى عرف بشأن خلايا هنرييتا. ما يتذكرونه هو أن كوفيلد اتصل بـ ديبورا ذات يوم، قائلاً أنه محامٍ وأنها -أي ديبورا- بحاجة لحماية نفسها ووالدتها من خلال امتلاك حقوق الطبع والنشر باسم هنرييتا لاكس. وقال أيضاً إنه يعتقد أن العاملين في هوبكنز مذنبون بتهمة سوء الممارسة الطبية، وأن الوقت قد حان لمقاضاتهم كي تنال عائلتها حصةً من جميع الأموال التي كسبوها من خلايا هنرييتا منذ الخمسينات، والتي سيأخذ نسبة مئوية منها أتعاباً له. لن يتقاضى شيئاً مقدماً، وآل لاكس لن يضطروا للدفع إن لم يكسب القضية.

لم تسمع ديبورا أبداً عن الحاجة إلى حقوق طبع ونشر أيّ شيء، ولكن لطالما اعتقدت العائلة أنه يجب عليهم التحدث إلى محامٍ بشأن الخلايا، وبدا أن بوسعهم تحمل تكليف كوفيلد بالقضية. شعر إخوة ديبورا بسعادة غامرة، وسرعان ما قدمت كوفيلد إلى سبيد وويتشي على أنه محامي العائلة.

راح كوفيلد يقضي أيامه في هوبكنز يبحث في أرشيف كلية الطب ويدون الملاحظات. من بين جميع الناس الذين جاءوا إلى آل لاكس على مرّ السنين يتحدثون عن الخلايا، كان هذا الرجل أول من أخبر العائلة أيّ شيء واضح ومفصل بشأن ما حدث لـ هنرييتا في هوبكنز. وذكر آل لاكس لاحقاً أنّ اكتشافاته أكّدت أسوأ مخاوفهم. أخبرهم أن أحد الأطباء الذين عالجوا هنرييتا لم يكن لديه رخصة طبية، وأن طبيباً آخر طُرد من الجمعية الطبية الأمريكية. علاوة على ذلك، قال كوفيلد إن أطباء هنرييتا أخطأوا في تشخيص نوع السرطان الذي أصابها وربما قتلوها بجرعة زائدة من الإشعاع.

أخبر ديبورا أنه بحاجة إلى قراءة السجلات الطبية التي بحوزتها للتحقيق في كيفية معالجة الأطباء لها، وتوثيق أيّ سوء ممارسة محتمل. ونظراً لأن أفراد عائلة هنرييتا فقط هم المصرح لهم بطلب سجلاتها، وافقت ديبورا على الذهاب معه إلى هوبكنز، حيث ملأت نموذج طلب. لكن آلة التصوير كانت معطلة، لذلك أخبرت المرأة التي تجلس خلف المكتب ديبورا وكوفيلد أنه يتعين عليهما العودة لاحقاً بمجرد إصلاح الجهاز.

عندما عاد كوفيلد وحده، رفض الموظفون إعطاءه السجلات لأنه لم يكن طبيباً أو قريباً للمريض. عندما ذكر كوفيلد أنه الدكتور السير لورد كينان كستر كوفيلد، اتصل موظفو السجلات الطبية في هوبكنز بـ ريتشارد كيدويل، أحد المحامين في هوبكنز. شعر كيدويل بالارتياب في اللحظة التي سمع فيها أن شخصاً ما يبحث حول هوبكنز باستخدام لقب «الدكتور السير لورد»، لذلك أجرى بعض التحريات السريعة.

كينان كيستر كوفيلد لم يكن طبيبا أو محامياً على الإطلاق. في الواقع، قضى كوفيلد سنوات في سجون مختلفة بتهمة الاحتيال، وكثير منها ينطوي احتياله على شيكات مزورة، وقضى وقته في السجن في حضور دوراتٍ في القانون ورفع ما أسماه أحد القضاة دعاوى قضائية «تافهة». حيث قام كوفيلد بمقاضاة الحراس وموظفي الولاية العاملين في السجون التي كان فيها واتهم بالاتصال بحاكم ألاباما من السجن والتهديد بقتله. رفع كوفيلد دعوى قضائية على ماكدونالدز وبرغر كينغ لتلويثهما جسده عن طريق قلي البطاطا في دهن لحم الخنزير، وهدد بمقاضاة العديد من المطاعم بسبب التسمم الغذائي، بما فيها فندق فورسيزونز في مدينة نيويورك، في حين كان مسجوناً وغير قادر على تناول الطعام في أيّ مطاعم. رفع دعوى على شركة كوكاكولا، مدعياً أنّ زجاجة الصودا التي اشتراها كانت مليئة بالزجاج المكسور، على الرغم من أنه كان في سجن لا يقدم سوى منتجات بيبسي في علب الألمنيوم. كما أدين

أيضاً بتهمة الاحتيال بسبب عملية احتيال نشر فيها نعياً لنفسه، ثم رفع دعوى قضائية على الصحيفة بتهمة التشهير وإلحاق أضرارٍ تصل إلى ١٠٠ مليون دولار. أخبر المباحث الفيدرالية أنه رفع على الأقل ١٥٠ دعوى قضائية مماثلة.

في العديد من وثائق المحكمة، وصف القضاة كوفيلد بأنه «فنان محتال»، «ليس أكثر من ذبابة مزعجة يستغلّ نظام المحكمة»، و«أكثر السجناء إثارة للنزاع في النظام». وفي الوقت الذي اتصل فيه كوفيلد بعائلة لاكس بشأن مقاضاة هوبكنز كان قد مُنع من رفع دعاوى قضائية في مقاطعتين على الأقل.

لكن ديبورا لم تعرف شيئاً من هذا. عرّف كوفيلد بنفسه على أنه طبيب ومحامي، وبدا قادراً على الحصول على المعلومات من هوبكنز أكثر مما فعلت العائلة. ولم يتسبب سلوكه بأي أذى. عندما وصفته لي كورتني سبيد بعد بضع سنوات، قالت: «شخصية معتبرة! واوو! أعني، خلاصة اللباقة! على درايةٍ عالية ويعرف شيئاً عن كلّ شيء».

عندما علم كيدويل بحقيقة كوفيلد، كان أول شيء فعله هو حماية ديبورا، وهو شيء لم تتوقعه عائلة لاكس من شخص ما في هوبكنز. أخبرها أن كوفيلد محتال، وجعلها توقع على وثيقة تمنع كوفيلد من الوصول إلى سجلات عائلتها. حسبما يتذكر كلّ من تحدثت إليه في هوبكنز، عندما عاد كوفيلد وعلم أن العائلة منعته من الوصول إلى السجلات، صرخ وطلب نسخاً من السجلات حتى هدده حارس الأمن واتصل بالشرطة.

ثم رفع كوفيلد دعوى قضائية ضد ديبورا ولورانس وكورتني سبيد، ومؤسسة هنرييتا لاكس للتاريخ الصحي، وقائمة طويلة من مسؤولي هوبكنز: الرئيس ومدير السجلات الطبية وأمين الأرشيف وريتشارد كيدويل وغروفر هاتشينز، مدير المشرحة. قام بمقاضاة عشرة متهمين إجمالاً، والعديد من موظفي هوبكنز المتهمين لم يسمعوا قط عن كوفيلد أو هنرييتا لاكس قبل وصول مذكرات الاستدعاء لهم.

اتهم كوفيلد ديبورا وسبيد ومؤسسة المتحف بخرق عقدٍ يخوله الوصول إلى السجلات الطبية لـ هنرييتا، ثم منعه من الوصول. وادعى أن ديبورا لا يمكن أن تحظر عليه قانوناً إجراء بحث لمؤسسة هنرييتا لاكس للتاريخ الصحي، لأنها لم تكن عضواً في مجلس إدارتها، أو تشارك رسمياً في المؤسسة بأي شكل من الأشكال. كما ادعى تعرّضه للتمييز العنصري، قائلاً إنه «تعرض للمضايقة من قبل حارس الأمن الزنجي في جونز هوبكنز، والموظفين في قسم الأرشيف»، وأن «أفعال المدعى عليهم والموظفين كانت جميعها ذات دوافع عنصرية ومناهضة للسود بشكل كبير». وطالب بالاطلاع على السجلات الطبية وتقارير التشريح الخاصة بـ هنرييتا وشقيقة ديبورا، إلسي، بالإضافة إلى تعويضات قدرها ١٥٠٠٠ دولار من كلّ متهم، بالإضافة إلى الفائدة.

كان أكثر التفاصيل إثارة للدهشة في دعوى كوفيلد هو ادعائه بأن عائلة لاكس ليس لها الحق في الحصول على أيّ معلومات عن

هنرييتا لاكس لأنها ولدت لوريتا بليزانت. وبما أنه لم يكن هناك سجل رسمي لتغيير الاسم، فقد جادل كوفيلد بأن هنرييتا بليزانت لم تكن موجودة بالفعل، وبالتالي لم تكن هنرييتا لاكس موجودة. أياً كانت، قال إن العائلة لم تكن مرتبطة بها قانونياً. وفي بيان مليء بالأخطاء النحوية التي جعلت من الصعب فهمه، وصف كوفيلد هذا بأنه «احتيال واضح ومؤامرة» وادعى أن دعواه القضائية «ستؤدي في النهاية إلى العدالة للسيدة هنرييتا لاكس فقط، والآن المدعي الذي دافع عن قضيتها أصبح ضحية احتيال صغير لكن عواقبه كبيرة».

وبدأت أكوام من الوثائق القانونية تصل يومياً تقريباً إلى باب ديبورا: الاستدعاءات والالتماسات والتحديثات والمذكرات. مما أثار لديها شعوراً بالذعر. ذهبت إلى محطة تيرنر واقتحمت متجر بقالة سبيد تصرخ طالبةً أن تعطيها سبيد كلّ ما جمعته فيما يتعلق بـ هنرييتا: الوثائق التي تحتفظ بها سبيد في غطاء وسادة البطل الخارق، وقمصان وأقلام هنرييتا لاكس، ومقطع فيديو لـمقابلة أجرتها ويتشي مع داي في صالون تجميل سبيد. صرخت ديبورا في وجه سبيد واتهمتها بالتآمر مع كوفيلد، وقالت إنها كانت ستوظف محامي أو جي سيمبسون، جوني كوكران، لمقاضاة سبيد على كلّ ما لديها إذا لم تغلق المؤسسة وتوقف جميع الأنشطة المتعلقة بـ هنرييتا.

لكن سبيد لم يكن لديها شيء وكان خائفة مثل ديبورا. كانت أماً عزباء ولديها ستة أبناء، وخططت لإرسالهم جميعاً إلى الجامعات باستخدام المال الذي جمعته من تصفيف الشعر وبيع الرقائق والحلوى

والسجائر. كان متجرها يتعرض للسرقة بانتظام، وكانت تتلقى العديد من الرسائل من المحكمة بسبب كوفيلد كما كانت ديبورا. سرعان ما توقفت سبيد عن فتح الرسائل وتركتها تتراكم في الغرفة الخلفية لمتجرها حتى تكدس ثلاثون ظرفاً. ثم تكدست كومة جديدة. دعت الله أن تتوقف الرسائل، وتمنت لو أن زوجها على قيد الحياة ليتعامل مع كوفيلد.

في تلك الأثناء عُرض فيلم بي بي سي الوثائقي، وكان الصحفيون يتصلون بـ ديبورا، ويطلبون صوراً لـ هنرييتا والعائلة، ويطرحون أسئلة عن والدتها وكيف ماتت. لكن ديبورا لم تكن تعرف أيّ شيء سوى ما قرأته في كتاب جولد. وعندئذٍ قررت أنه حان الوقت لتكتشف ما تقوله السجلات الطبية عن أمها. فطلبت نسخة من هوبكنز وأيضاً نسخة من سجلات شقيقتها.

كما التقت مع كيدويل الذي أخبرها ألا تقلق ووعدها بأن هوبكنز سيحارب كوفيلد. وقد حدث. رفضت القضية في نهاية المطاف، ولكن كلّ من تورط في الأمر كان خائفاً. عندما سمعت المجموعة في هوبكنز التي كانت تعمل على خطةٍ لتكريم هنرييتا عن دعوى كوفيلد، تخلّوا عن الفكرة بهدوء، ولم يخبروا عائلة لاكس حتى أنهم فكروا فيها.

بعد سنوات، عندما تحدثت إلى جروفر هاتشينز، أخصائي علم الأمراض المدرج في دعوى كوفيلد القضائية، هز رأسه وقال: «كان الأمر برمته محزناً للغاية. أرادوا أن يكون لديهم نوع من الاعتراف

بـ هنرييتا، ولكن بعد ذلك أصبح الأمر مزعجاً جداً بسبب كوفيلد والأشياء المجنونة التي قال إن الأسرة اتهمت بها هوبكنز، قرروا أنه من الأفضل الابتعاد عن الشرّ وعدم التورط في أيّ شيء له علاقة بـ لاكس».

عندما التقيت المتحدثة باسم جونز هوبكنز جوان رودجرز، قالت إنه لم يكن هناك أيّ جهد رسمي من قبل هوبكنز لتكريم هنرييتا. «كان جهداً فردياً، من قبل شخص أو شخصين ربما، وعندما رحلوا رحلت الفكرة معهم. ولم تكن أبداً مبادرة مؤسسية».

على الرغم من أن مذكرات الاستدعاء توقفت أخيراً عن القدوم، فإن ديبورا لم تعتقد أن الدعوى القضائية انتهت فعلاً. لم تستطع التخلص من فكرة أن كوفيلد سيرسل الناس إلى منزلها لسرقة كتاب والدتها المقدس أو خصلة الشعر التي احتفظت بها بداخله. أو ربما سيحاول سرقة خلاياها، معتقداً أنها قد تكون ثمينة مثل خلايا أمها. توقفت عن التحقق من بريدها ونادراً ما غادرت المنزل إلا للعمل في نوباتها في قيادة حافلة مدرسية للأطفال ذوي الإعاقة. ثم تعرضت لحادث غريب، حيث هاجمها مراهق على متن الحافلة، وألقى بنفسه فوقها، وعضها وخدشها حتى دخل رجلان إلى الحافلة وسحباه. وبعد بضعة أيام هاجمها نفس الصبي مرة أخرى، وألحق بها هذه المرة أضراراً دائمة في عدة أقراص من عمودها الفقري.

فجعلت ديبورا زوجها يعلق ستائر داكنة على نوافذها وتوقفت عن الردّ على هاتفها. ثم، أثناء جلوسها في غرفة معيشتها المظلمة بعد

عام ونصف من انتهاء دعوى كوفيلد، بدأت أخيراً في قراءة وإعادة قراءة التفاصيل الكاملة لوفاة والدتها في سجلاتها الطبية. ولأول مرة، علمت أن شقيقتها أودعت في مصحٍ عقليّ يدعى كراونزفيل.

وراودها شعور مرعبٌ بأن شيئاً سيئاً قد حدث لأختها في ذلك المستشفى. وفكرت بأنها ربما كانت تُستخدم في نوع من البحوث مثل والدتها. اتصلت ديبورا بـ كراونزفيل للحصول على نسخة من سجلات إلسي، لكن أحد المسؤولين قال إن معظم مستندات كراونزفيل قبل عام ١٩٥٥، وهو العام الذي توفيت فيه إلسي، قد جرى إتلافها. اشتبهت ديبورا على الفور في أن كراونزفيل كانت تخفي معلومات عن شقيقتها، تماماً كما كانت لا تزال تعتقد أن هوبكنز يخفي معلومات عن هنرييتا.

في غضون ساعات من اتصالها بـ كراونزفيل، أصبحت ديبورا مشوشة وتعاني من صعوبة في التنفس. ثم انتشرت في جسدها بقع حمراء غطت وجهها ورقبتها وجسدها، حتى باطن قدميها. عندما دخلت المستشفى، قالت: «كل شيء يحدث مع والدتي وأختي يجعل أعصابي تنهار»، قال طبيبها إن ضغط دمها كان مرتفعاً للغاية لدرجة أنها كادت أن تصاب بسكتة دماغية.

بعد بضعة أسابيع من عودة ديبورا إلى المنزل من المستشفى، ترك رولاند باتيلو رسالة على آلة الرد على المكالمات يقول فيها إنه يتحدث إلى مراسلةٍ أرادت نشر كتابٍ عن هنرييتا وخلاياها، ويرى أن ديبورا يجب أن تتحدث إليها. تلك الصحفية كانت أنا.

(٢٠٠٠)

(٢٩)

قرية هنرييتا

لما يقرب من عام بعد محادثتنا الأولى، رفضت ديبورا التحدث معي. سافرتُ ذهاباً وإياباً إلى كلوفر، جلستُ على الشرفات ومشيتُ في حقول التبغ مع كليف وكوتي وابن غلاديس، غاري. بحثتُ في الأرشيف وأقبية الكنيسة والمبنى المهجور الذي تداعى حيث ذهبت هنرييتا إلى المدرسة. وعلى الطريق، كنت أترك رسائل لـ ديبورا كلّ بضعة أيام، على أملِ إقناعها بأنها إذا تحدثت معي، يمكننا أن نتحرى معلوماتٍ عن هنرييتا معاً.

قلت لها: «مرحباً، أنا في حقل التبغ بالقرب من منزل والدتك. أنا على الشرفة مع ابن العم كليف، يرسل لك تحية». «لقد وجدت سجلات تعميد والدتك اليوم». «لقد تحسنت صحة الخالة غلاديس بعد السكتة الدماغية. أخبرتني بعض القصص الرائعة عن والدتك». تخيلت ديبورا تتكئ على آلة الرد على المكالمات وتستمع، وتكاد تموت لتعرف ما الذي وجدته.

لكنها لم تجب أبداً.

في أحد الأيام، ردّ زوجها، القس جيمس بولوم، على الهاتف بعد الرنة الثانية وبدأ في الصراخ دون إلقاء التحية: «يريدون أن يتأكدوا من أنهم سيحصلون على بعض التعويض النقدي. وإلى أن يقوم شخص ما بإبرام اتفاق أو وضع ذلك على الورق، لن يتحدثوا مع أحدٍ بعد الآن. لقد حصل الجميع على بعض التعويضات باستثناء هذه العائلة، وتلك كانت أمهم. إنهم يَشْعرونَ بالاستياء حيال ذلك. لقد كانت تجربة مريرة لزوجتي، وهي حقاً تحاول الشفاء منها. أرادت فقط أن تقدم جون هوبكين لوالدتها بعض التقدير وأن يشرحوا لها بعض مما يتعلق بتلك الخلايا كي تتمكن من فهم ما حدث لأمها. لكنهم تجاهلونا، ونحن الآن في غاية الغضب». ثم أغلق الهاتف في وجهي.

بعد بضعة أيام، وعشرة أشهر من محادثتنا الأولى، اتصلت بي ديبورا. عندما أجبت على الهاتف، صرخَت: «حسناً، سأتحدث إليك». لم تقل من هي ولم تكن بحاجة لذلك. قالت: «إذا كنت سأفعل هذا، فعليك أن تعديني ببعض الأمور. أولاً، إذا كانت والدتي مشهورة جداً في تاريخ العلوم، فعليك أن تخبري الجميع أن يذكروا اسمها بشكل صحيح. إنها ليست هيلين لين. وثانياً، الجميع يقول أن هنرييتا لاكس لديها أربعة أطفال. هذا غير صحيح، كان لديها خمسة أطفال. أختي ماتت ولا يمكن تركها خارج الكتاب. أنا أعلم أنكِ تودين كتابة قصة عائلة لاكس كاملةً وسيكون فيها الجيد والقبيح بسبب إخوتي. ستعرفين كلّ شيء عنا ولا يهمني ذلك. ما

يهمني هو أن تعرفي ما حدث لأمي وأختي، لأن هذا كلّ ما أحتاج إلى معرفته».

أخذَت نفساً عميقاً، ثم ضحكَت.

قالت: «استعدي يا فتاة. ليس لديك أيّ فكرة عما ورطتِ نفسك فيه».

التقيت أنا وديبورا في ٩ يوليو ٢٠٠٠، في نُزل مبيت وإفطار على زاوية شارع مرصوف بالحصى بالقرب من الميناء في بالتيمور، في حي يسمى فيل بوينت. عندما رأتني أقف في الردهة في انتظارها، أشارت إلى شعرها وقالت: «أترين هذا؟ أنا الابنة التي شاب شعرها لأنني من يقلق على والدتنا. لهذا السبب لم أتحدث إليك طوال العام الماضي. أقسمت أنني لن أتحدث مع أيّ شخص عن والدتي مرة أخرى». تنهّدت. «ولكن هأنذا... آمل ألا أندم على هذا».

كانت ديبورا امرأة كبيرة البنية، طولها حوالي خمسة أقدام وتزن حوالي ٩٠ كيلوغراماً. كان طول شعرها المشدود أقل من بوصة وأسود باستثناء خط رقيق من الشيب الرمادي الطبيعي الذي يلف وجهها مثل عصابة الرأس. كانت في الخمسين من عمرها، لكنها بدت أكبر وأصغر من ذلك بعشر سنوات في نفس الوقت. كانت بشرتها البنية الفاتحة الناعمة منقطة بالنمش والغمازات الكبيرة، وعيناها فاتحتان وشقيتان. كانت ترتدي سروال كابري وحذاءً رياضياً للأطفال وتتحرك ببطء، وتسند معظم وزنها على عصا من الألومنيوم.

تبعتني إلى غرفتي، حيث كان هنا طرد كبير مسطح مغلف بورق تغليف زهري لامع على السرير. أخبرتها أنها هدية لها من باحث سرطان شاب يدعى كريستوف لينغاور. لقد راسلني قبل بضعة أشهر رداً على مقال نشرته في مجلة جونز هوبكنز بعد مقابلة رجال عائلة لاكس. كتب لينغاور: «شعرت بالسوء تجاه عائلة لاكس. لقد استحقوا معاملةً أفضل».

قال إنه كان يعمل مع خلايا هيلا يومياً طوال حياته المهنية، والآن لم يستطع إخراج قصة هنرييتا وعائلتها من ذهنه. لكونه طالب دكتوراه، كان يستخدم هيلا للمساعدة في تطوير شيء يسمى الفلورة في التهجين الموضعي، والمعروف باسم فيش FISH، وهي تقنية لرسم الكروموسومات بأصباغ الفلورسنت متعددة الألوان التي تلمع تحت ضوء الأشعة فوق البنفسجية. بالنسبة للعين المدربة، يمكن لتقنية فيش الكشف عن معلومات مفصلة حول الحمض النووي للشخص. بالنسبة للعين غير المدربة، فإنه ببساطة يخلق فسيفساء جميلة من الكروموسومات الملونة.

قام كريستوف بتأطير صورة بحجم ١٤ × ٢٠ بوصة من كروموسومات هنرييتا التي «رسمها» باستخدام تقنية فيش. بدت وكأنها صورة لسماء ليلية مليئة باليراعات متعددة الألوان متوهجة بالأحمر والأزرق والأصفر والأخضر والأرجواني والفيروزي.

كتب: «أريد أن أخبرهم قليلاً عما تعنيه هيلا بالنسبة لي كباحث شاب في مجال السرطان، ومدى امتناني لهم للتبرع بها قبل سنوات.

أنا لا أمثل هوبكنز، لكنني جزء منه. بطريقة ما قد أرغب في الاعتذار».

ألقت ديبورا حقيبتها القماشية السوداء على الأرض، ومزقت ورق التغليف عن الصورة، ثم أمسكت الإطار على بعد طول ذراع أمامها. لم تقل شيئاً، بل ركضت عبر مجموعة من الأبواب الفرنسية إلى فناءٍ صغير لرؤية الصورة في ضوء الشمس.

«إنها جميلة». صرخَت من الشرفة. «لم أعرف أنها بهذا الجمال». عادت إلى الداخل تمسك الصورة، وقد احمرت وجنتاها. «هل تعلمين ما الغريب؟ حصل العالم على صور لخلايا والدتي أكثر مما حصل على صورة لوجهها. ولهذا السبب لا أحد يعرف من تكون. الشيء الوحيد المتبقي منها هو الخلايا».

جلسَت على السرير وقالت: «أريد الذهاب إلى مختبرات البحث والندوات لمعرفة ما فعلته خلايا والدتي، أريد أن أتحدث إلى الأشخاص الذين شفوا من السرطان». وبدأت تتمايل بحماسة طفلة صغيرة. «مجرد التفكير في ذلك يجعلني أرغب في العودة إلى هناك. لكن دائماً يحدث شيء ما وأعود إلى الاختباء».

أخبرتها أن لينغاور يرغب بأن تزور مختبره. «يريد أن يشكرك ويُريكِ خلايا والدتك شخصياً».

تتبعت ديبورا كروموسومات والدتها في الصورة بإصبعها. قالت: «أريد أن أذهب لرؤية خلاياها، لكنني لست مستعدةً بعد.

يجب أن يرافقني والدي وإخوتي أيضاً، لكنهم يعتقدون أنني مجنونة لمجرد القدوم إلى هنا. دائماً ترتفع أصواتهم غضباً من «هؤلاء البيض الذين أصبحوا أغنياء بفضل والدتنا بينما نحن لا نملك شيئاً». تنهدت ديبورا. «لن نصبح أغنياء بفضل أيّ من الأشياء التي تتعلق بخلايا أمي. إنها هناك تساعد الناس في الطب وهذا أمر جيد، أريد فقط أن يذكر التاريخ الناس بأن والدتي صاحبة خلايا هيلا تدعى هنرييتا لاكس. وأودّ أن أعرف المزيد من المعلومات عن والدتي. أنا متأكدة تماماً من أنها أرضعتني من صدرها لكن ما من أحدٍ يخبرني بذلك أبداً. لا يتحدث الناس عن أمي أو أختي. وكأنهما لم تولدا حتى».

أخذت ديبورا حقيبتها عن الأرض، وأفرغت محتوياتها على السرير. قالت مشيرة إلى كومة على السرير: «هذا كلّ ما حصلت عليه عن والدتي». كانت هناك ساعات من أشرطة الفيديو غير المحررة من فيلم بي بي سي الوثائقي، وقاموس إنجليزي ممزق، ودفتر مذكرات، وكتاب مدرسي في علم الوراثة، والعديد من مقالات المجلات العلمية، وسجلات براءات الاختراع، وبطاقات المعايدة غير المرسلة، بما فيها العديد من بطاقات عيد الميلاد التي اشترتها لـ هنرييتا، وبطاقة عيد الأم التي انتزعتها من الكومة.

قالت وهي تسلمها لي: «لقد حملت هذه في حقيبتي لفترة طويلة». كان الغلاف الخارجي أبيض اللون مع زهور وردية، وفي الداخل كتبت ترنيمة متدفقة تقول: «عسى أن تكون روح ربنا ومخلصنا معك في هذا اليوم الذي تكرّمت فيه لقاءَ كلّ الحبّ الذي أعطيته لعائلتك

وأحبائك. مع أطيب الأمنيات والحب. عيد أمّ سعيد». والتوقيع «محبتي، ديبورا».

ولكن في الغالب كانت حقيبتها مليئة بمقالات الصحف والمجلات القديمة. لقد اقتطعت قصة عن والدتها من صحيفة ويكلي وورلد نيوز. عنوانها المرأة الخالدة! وقد وضعت بين مقالةً عن كلب لديه موهبة التخاطر ومقالة أخرى عن طفلٍ نصف إنسان ونصف تمساح.

أخبرتني ديبورا: «عندما رأيت هذا الشيء في متجر البقالة، شعرت برعبٍ فظيع. ما هذا الجنون الذي يقولون إنه حدث لأمي الآن؟ الجميع يقول إن العاملين في هوبكنز اختطفوا السود وأجروا عليهم تجارب في القبو هناك. لم يستطع أحد إثبات ذلك لذا لم أصدق ذلك حقاً. ولكن عندما علمت بشأن خلايا أمي، لم أعرف ما أفكر فيه باستثناء أنّ كلّ تلك الأقاويل التي انتشرت حول تجاربهم على الناس صحيحة».

قبل بضعة أسابيع فقط، أخبرتني ديبورا، أن زوجة داي الجديدة، مارغريت، عادت إلى المنزل من موعد مع الطبيب تصرخ خوفاً من شيء رأته في الطابق السفلي في هوبكنز. قالت لي ديبورا: «لقد ضغطَت على زر خاطئ في المصعد فأخذها إلى الطابق السفلي حيث كان الظلام حالكاً. فتح الباب ونظرت مباشرة إلى الأمام فرأت أمامها عدداً كبيراً من الأقفاص. راحت تصرخ: «دايل، لن تصدقي ما رأيت، لكن أقفاصهم مليئة بأرانب بحجم الرجل»».

ضحكت ديبورا عندما أخبرتني بالقصة. «لم أصدق ما قالته. بل قلت لها: «أرنبٌ بحجم رجل؟! هل جننتِ؟ أعني، من سمع يوماً عن وجود أرنب بحجم رجل؟ لكن مارغريت عادة ما تكون صادقة معي لذا أعلم أنها رأت شيئاً جعلها خائفة. أعتقد أن أيّ شيء ممكن». ثم، وكما لو أنها تقول معلومةً بديهية من قبيل أنه من المفترض أن تمطر غداً، قالت: «يقوم العلماء بجميع أنواع التجارب ولا نعرف أبداً ما يفعلونه. ما زلت أتساءل عن عدد الأشخاص الذين يتجولون في لندن ويشبهون أمي تماماً».

«ماذا؟» قلت. «لم تظنين أن هناك نساء في لندن يشبهن والدتك؟».

«لقد أجروا ذلك الاستنساخ على والدتي هناك»، قالت متفاجئة لأنني لم أعرف هذه الحقيقة من خلال بحثي. «جاء مراسل إلى هنا من إنجلترا يتحدث عن استنساخ خروف. الآن لديهم تجارب حول استنساخ والدتي في كلّ مكان». سحبت مقالاً من صحيفة الاندبندنت اللندنية وأشارت إلى فقرة حوطتها بدائرة: «نمت خلايا هنرييتا لاكس. وقد تجاوزت بكثيرٍ الآن وزن الشخص الذي جاءت منه وربما سيكون هناك عدد أكثر من كافٍ لملء قرية كاملة من نسخ هنرييتا». أشار الكاتب هنا مازحاً إلى أنه كان على هنرييتا أن تضع عشرة دولارات في البنك في عام ١٩٥١، لأنها لو فعلت ذلك لأصبح المستنسخون عنها أغنياء الآن.

ونظرت إليّ ديبورا رافعةً حاجبيها بثقةٍ وكأنها تقول: أرأيتِ؟ أخبرتكِ.

قلتُ إن العلماء استنسخوا خلايا هنرييتا، وليس هنرييتا نفسها. لكن ديبورا لوحت بيدها في وجهي لأصمت كما لو كنت أقول كلاماً فارغاً، ثم التقطت شريط فيديو من الكومة ورفعته أمامي لأراه. كتب «جوراسيك بارك» على ظهر الغلاف.

قالت: «شاهدت هذا الفيلم عدة مرات. يتحدثون عن الجينات وأخذها من الخلايا لإعادة ذلك الديناصور إلى الحياة وهذا أذهلني فقد حصلت على بحث حول كيفية قيامهم بذلك مع خلايا والدتي أيضاً». رفعَت شريط فيديو آخر، هذا فيلم تلفزيوني اسمه «المستنسخ». فيه حكاية طبيب عقم يحصد سراً أجنة إضافية من إحدى مرضاه ويستخدمها لخلق مستعمرة من مستنسخات ابن المرأة الذي توفي صغيراً إثر حادث سير.

أخبرتني ديبورا: «أخذ ذلك الطبيب خلايا من تلك المرأة وجعلها تبدو مثل طفلها الصغير. لم تكن تلك المرأة المسكينة تعرف حتى بشأن جميع المستنسخين حتى رأت أحدهم يخرج من المتجر. لا أعرف ماذا سأفعل إذا رأيت أحد المستنسخين عن والدتي يتجول في مكان ما».

أدركت ديبورا أن هذه الأفلام خيالية، لكن بالنسبة لها كان الخط الفاصل بين الخيال العلمي والواقع ضبابياً منذ سنواتٍ عندما تلقى والدها أوّل مكالمة تقول إن خلايا هنرييتا لا تزال على قيد الحياة. علمت ديبورا أن خلايا والدتها نمت مثل «فيلم الهلام Blob» حتى صار هناك الكثير منها لدرجة أنها لفت حول الأرض

عدة مرات. بدا الأمر جنونياً، لكنّه كان صحيحاً. قالت ديبورا، وهي تلتقط مقالتين أيضاً من الكومة وتسلمهما لي: «لا فكرة لديك على الإطلاق». عنوان المقالة الأولى «دمج خلايا الإنسان مع خلايا النبات: لاحقاً جزر يمشي على قدمين؟» والمقال الآخر عن ولادة خلايا بشرية حيوانية في المختبر. كلاهما كان حول خلايا أمها ولم تكن خيالاً علمياً.

قالت ديبورا: «لا أدري ماذا فعلوا، لكن كلّ شيء يبدو مثل فيلم جوراسيك بارك بالنسبة لي».

خلال الأيام الثلاثة التالية، جاءت ديبورا إلى غرفتي في الفندق كلّ صباح، وجلست على السرير، وأفرغت ما بجعبتها. عندما احتجنا إلى تغيير المشهد، ركبنا سيارات الأجرة المائية ومشينا على طول ميناء بالتيمور. أكلنا السلطعون والبرغر والبطاطا وقدنا السيارة في شوارع المدينة. زرنا المنازل التي عاشت فيها عندما كانت طفلة ومعظمها الآن بات مغلقاً بألواح خشبية ولوحة «غير مناسب للسكن» معلقة على بوابته الخارجية. قضينا الليل والنهار معاً وتمكنت من استجرار أكبر قدر ممكن من قصتها بسبب قلقي المستمر من أنها ستغير رأيها وتتوقف عن التحدث معي. ولكن في الواقع، بعد أن بدأت ديبورا تتحدث الآن، يبدو أنها لن تتوقف أبداً مرة أخرى.

كان عالم ديبورا خالياً من الصمت. صرخت، وتخللت معظم عباراتها ضحكة خشنة ونبرة عالية، ولديها دائماً تعليق على كلّ

شيء من حولها: «انظري إلى حجم تلك الأشجار!»، «أليست تلك السيارة الخضراء لطيفة؟»، «يا إلهي، لم أر مثل هذه الزهور الجميلة من قبل». سارت في الشارع تتحدث إلى السياح وعمال الصرف الصحي والمشردين، تلوّح بعكازها لكلّ شخص مرّت به، قائلة: «مرحباً، كيف حالك؟» لا تتوقف أبداً.

كانت ديبورا مليئة بالنزوات الساحرة بشكل غريب. كانت تحمل عبوة من منظف لايسول في سيارتها والتي غالباً ما ترشها عشوائياً، من باب المزاح نوعاً ما. رشت منه مباشرة أمام أنفي عدة مرات عندما عطست، ولكن في الغالب كانت ترش منه خارج النافذة عندما نتوقف في مكانٍ يبدو غير نظيف والذي حدث في كثير من الأحيان. كانت تشير بعكازها أثناء حديثها، وغالباً ما تنقر كتفي به لجذب انتباهي، أو تضربه على ساقي للتأكيد على نقطة ما.

المرة الأولى التي ضربتني بها بعصاها، كنا جالستين في غرفتي. قدمت لي نسخةً من مرجع علم الوراثة الطبية الذي كتبه فيكتور ماك كوسك، وقالت: «لقد قابلت هذا الرجل لأنه أراد سحب عينات دمٍ مني لإجراء بعض اختبارات السرطان».

أخبرتها أنه أخذ الدم من أجل إجراء بحثٍ يخصّ خلايا هنرييتا وليس لكشف السرطان لديها ولدى إخوتها. وعندئذٍ ضربتني على ساقي بعصاها.

«سحقاً». صرخَت. «أتخبريني بذلك الآن؟ عندما رحت أطرح عليه أسئلة حول الاختبارات وخلايا والدتي، أعطاني نسخة من

هذا الكتاب، وربت على ظهري، وأرسلني إلى المنزل». مدّت يدها، وفتحت الكتاب. قالت وهي تشير بعينيها: «لقد وضع توقيعه عليه. كان من اللطف لو أنه أخبرني بما يحتويه هذا الشيء اللعين أيضاً».

أنا وديبورا تقاسمنا السرير لساعاتٍ كلّ يوم، نقرأ ملفاتها ونتحدث عن حياتها. وفي نهاية اليوم الثالث تقريباً لاحظت وجود مجلد أسود ضخم فوق الوسادة.

«هل هذه سجلات والدتك الطبية؟» سألتها ومددت يديّ نحو المجلد.

«كلا!» صرخت ديبورا، وقد جحظت عيناها وقفزت فوق المجلد وكأنه كرة قدم، ضمّته إلى صدرها، ولفّت جسدها حوله.

جلستُ مذهولةً، ولا تزال يداي ممدودتان نحو الوسادة حيث كان، اضطربت الكلمات على لساني وقلت: «أنا... أعني... لم أقصد ...».

«نعم صحيح، لا تقصدين». صرخت ديبورا. «ما الذي كنت تنوين فعله بسجلات والدتي الطبية؟!»

«ظننت أنكِ وضعتها هناك من أجلي... أنا آسفة... لا أريد أن أقرأها الآن.. لا بأس».

«لسنا على استعدادٍ لقراءتها الآن». صاحت ديبورا وقد اتسعت عيناها من شدة الشعور بالفزع. أمسكَت حقيبتها بعنفٍ وأعادت كلّ أغراضها إلى داخلها، ثم ركضت نحو الباب.

كنت في غاية الذهول. المرأة التي كنت أرقد بجانبها طوال عدة أيام، نضحك ونتدافع ونواسي بعضنا، تهرب مني الآن كما لو كنت أطاردها.

«ديبورا!» ناديتها. «أنا لا أحاول فعل أيّ شيء سيء لك. أريد فقط أن أعرف قصة والدتك، مثلك تماماً».

كانت تنوح، ولا تزال عيناها مذعورتين: «لا أعرف بمن أثق»، همهمَت، ثم ركضَت خارج الباب، وأغلقَته خلفها.

(٢٠٠٠)

(٣٠)

زكريا

مكتبة
t.me/soramnqraa

في اليوم التالي، اتصلت ديبورا بغرفتي من مكتب الاستقبال وكأن شيئاً لم يحدث. قالت: «تعالي إلى الطابق السفلي. حان الوقت للذهاب والتحدث إلى زكريا. كان يسأل عنك».

لم أكن متحمسة لمقابلة زكريا. لقد سمعت عدة مرات أنه الأكثر غضباً بين آل لاكس بسبب ما حدث لوالدته وأنه كان يتحيّن أيّ فرصةٍ للانتقام. كنت آمل أن أصل إلى عمر الثلاثين، ولكن كوني أوّل شخصٍ أبيض يطرق باب منزل زكريا ويطرح أسئلة عن والدته قد يتعارض مع أملي هذا.

في الخارج، عندما تبعتُ ديبورا إلى سيارتها، قالت: «لم تسر الأمور على ما يرام مع زكريا بعد خروجه من السجن. ولكن لا تقلقي. أنا واثقة من أنه مستعد للحديث عن والدتنا مرة أخرى».

«أنت واثقة؟» قلت.

«في الواقع، اعتدت على عمل نسخ من المعلومات التي أجمعها

حول والدتنا وإعطائها له، لكنه حصل على ما يكفي حتى يلعنني على ما جلبت له. حتى أنه ركض نحوي صارخاً: لا أريد سماع المزيد من الأشياء عن والدتي والطبيب اللعين الذي اغتصب خلاياها! ولم نتحدث عن ذلك منذ ذلك الحين». هزت كتفيها باستهجان. «لكنه يقول إنه لا مانع لديه من طرح الأسئلة اليوم. علينا فقط أن نلحق به قبل أن يبدأ بالشرب».

عدما وصلنا إلى سيارة ديبورا، كان حفيداها ديفون وألفريد، وأعمارهما حوالي ثماني سنوات وأربع سنوات، جالسين في المقعد الخلفي يصرخان على بعضهما البعض. قالت ديبورا: «هذان أعز الناس على قلبي الصغير». كانا طفلين جميلين بشكل لافت للنظر، مع ابتسامات عريضة وعيون داكنة واسعة. جلس ألفريد في الخلف مرتدياً زوجين من النظارات الشمسية البلاستيكية السوداء فوق بعضهما، كلّ منهما أكبر بثلاث مرات تقريباً من وجهه.

«آنسة ريبيكا!» صرخ عندما صعدنا إلى السيارة. «آنسة ريبيكا!».

استدرت نحوه. «نعم».

«أنا أحبك».

«شكراً لك».

استدرتُ نحو ديبورا التي كانت تخبرني ما يجوز أو لا يجوز أن أقوله أمام زكريا.

«آنسة ريبيكا! آنسة ريبيكا!» صاح ألفريد مرة أخرى، ودفع ببطء

كلا الزوجين من النظارات الشمسية إلى طرف أنفه وهز حاجبيه في وجهي.

قال: «أنتِ لي».

«أوه، توقف عن ذلك!» صرخت ديبورا، وهي تضربه من المقعد الأمامي. «يا إلهي، إنه مثل والده، محبوب السيدات». هزت رأسها. «ابني دائماً في الخارج يجول ويدور في الشوارع، يشرب ويتعاطى المخدرات مثل والده. أخشى أنه سيوقع نفسه في مشكلة، لا أعرف ماذا سيحدث لـ ألفريد الصغير عندئذٍ. أخشى أنه تعلّم الكثير للتو». كان ألفريد الصغير يضرب ديفون دائماً على الرغم من أن ديفون أكبر سناً وحجماً لكن ديفون لا يرد عليه أبداً دون إذن ديبورا.

عندما طلبتُ من الولدين أن يخبراني عن خالهما زكريا، نفخ ديفون صدره، واستنشق الهواء من أنفه حتى انتفخت أوداجه، ثم صرخ «اخرج من هنا بحق الجحيم!» صوته أعمق مما كنت أعتقد أنه ممكن لطفل في الثامنة من عمره. انفجر هو وألفريد في الضحك وانهارا فوق بعضهما في المقعد الخلفي. «مثل المصارعين على التلفزيون!» قال ديفون لاهثاً.

صرخ ألفريد وقفز في مقعده. «دبليو دبليو إف! دبليو دبليو إف!!».

نظرت ديبورا إلي وابتسمَت. قالت: «لا تقلقي. أعلم كيف أتعامل معه. أنا أذكره دوماً بأن ريبيكا ليست واحدة من الباحثين

الذين يعملون لدى جون هوبكن. إنها تعمل لحسابها. وظل يقول: «أنا بخير، لن أتصرف بجنون». ولكن إذا لاحظت أيّ شيء سيء، سنغادر المكان على الفور».

قدنا السيارة لبضع مبانٍ في صمت، ومررنا بواجهات المتاجر، وصفوف من مطاعم الوجبات السريعة ومحلات المشروبات الكحولية. في لحظةٍ ما أشار ديفون إلى مدرسته وأخبرنا عن أجهزة الكشف عن المعادن وكيف قاموا بحبس جميع الطلاب في الداخل أثناء الحصص الدراسية. في النهاية انحنت ديبورا نحوي وهمَسَت: «شعر أخي الأصغر دائماً أن الحياة خدعته لأنه والدتي أنجبته بعد أربعة أشهر من اشتداد المرض عليها. غرق أخوتي في شعور ساحقٍ من الغضب. كلّ ما عليكِ هو لفظ اسمه بشكل صحيح».

أخبرتني أنني كنت ألفظه بشكل خاطئ، ولا يمكنني فعل ذلك أمامه. كان يلفظهُ «زوكاريّه» وليس «زَكَريا». عانت بوبيت وسوني الكثير حتى تمكنتا من تذكر هذا اللفظ لذلك أطلقا عليه اسم «عبدول» مشتقاً من اسمه الأوسط. ولكن فقط حين لا يكون في الجوار.

«مهما فعلتِ إياكِ أن تناديهِ باسم جو. ناداه صديق لورانس مرة باسم جو في إحدى احتفالات عيد الشكر، فألقى زكريا بهذا الرجل في وعاء البطاطا المهروسة مباشرة».

كان زكريا على مشارف الخمسين من العمر ويعيش في منزل إعانات ساعدته ديبورا على الحصول عليه عندما كان ينام في

الشارع. لقد تأهل بسبب صممه وحقيقة أنه كان أعمى تقريباً بدون نظارات. ولم يكن قد مضى على سكنه هناك مدة طويلة قبل أن يوضع تحت الاختبار بسبب صخبه واعتدائه على الجوار.

عندما مشيتُ مع ديبورا والصبيان من السيارة نحو الباب الأمامي، تنحنحَت ديبورا بصوت عالٍ وأومأت برأسها نحو هيكل لرجل يعرج خارجاً من المبنى يرتدي سروالاً كاكياً. طوله مترٌ وثمانون سنتمتراً تقريباً ووزنه أقل من مئة وثمانين كيلوغراماً بقليل. كان يرتدي صندلاً أزرق لتقويم العظام، وقميصاً باهتاً لـ بوب مارلي، وقبعة بيسبول بيضاء مكتوب عليها: لحم خنزير، لحم مقدد، نقانق.

«مرحباً زكريا». صرخت ديبورا، وهي تلوح بيديها فوق رأسها.

توقف زكريا عن المشي ونظر إلينا. كان شعره الأسود يتطاير فوق رأسه، ووجهه ناعم وشاب مثل ديبورا باستثناء جبينه الذي امتلأ بالتجاعيد جراء عقودٍ من العبوس. تحت النظارات البلاستيكية السميكة، كانت عيناه متورمتين دمويتين ومحاطتين بهالاتٍ سوداء عميقة. استندت إحدى يديه على عصا معدنية تشبه عصا ديبورا، بينما كانت الأخرى تحمل طبقاً ورقياً كبيراً عليه نصف كيلو على الأقل من الآيس كريم، وربما أكثر. وطوى تحت ذراعه عدة صحفٍ وبقايا مجلات.

صاح: «أخبرتني أنك ستكونين هنا خلال ساعة».

«آه... نعم.. آسفة»، همهمت ديبورا. «كان ثمة زحام في الطريق».

قال: «أنا لست مستعداً بعد»، ثم أمسك حزمة الصحف من تحت ذراعه وضرب ديفون بقوة على وجهه بها. «لماذا أحضرتهم معك؟» صاح. «أنت تعرفين أنني لا أحب وجود الأطفال من حولي».

أمسكت ديبورا رأس ديفون وضغطته إلى حضنها، وفركت خده وتلعثمت بالقول إن على والديهما العمل ولا يوجد غيرها للاعتناء بهما، لكنها أقسمت أنهما لن يصدرا أيّ ضجيج، أليس كذلك؟ استدار زكريا وسار إلى مقعدٍ أمام مبناه دون أن ينطق بكلمة أخرى.

نقرت ديبورا على كتفي وأشارت إلى مقعد آخر على الجانب المقابل من مدخل المبنى، على بعد خمسة عشر قدماً من زكريا. همسَت، «اجلسي هنا معي»، ثم صرخَت، «هيا يا أولاد، لماذا لا تظهرا للآنسة ريبيكا مدى سرعتكما في الركض!».

تسابق ألفريد وديفون حول زقاقٍ خرساني أمام مبنى زكريا، وصرخا: «انظروا إلينا! انظروا إلينا. التقطوا لنا صورة».

جلس زكريا يأكل الآيس كريم ويقرأ إعلانات الجريدة وكأننا غير موجودين. ألقت ديبورا نظرة خاطفة عليه كلّ بضع ثوانٍ، ثم إليّ، ثم إلى الأحفاد، ثم زكريا مرة أخرى. في لحظةٍ ما حولت عينيها وأخرجت لسانها لـ زكريا دون أن يراها.

وأخيراً، تكلّم زكريا.

«هل حصلتِ على المجلة؟» سأل وهو يحدق في الشارع.

أخبر زكريا ديبورا أنه يريد قراءة المقال في مجلة جونز هوبكنز الذي كتبتُه عن والدتهم قبل أن يتحدث معي، وأراد أن أجلس بجانبه بينما يقرأها. دفعتني ديبورا نحو مقعده، ثم نهضت قائلة إنها والأولاد سينتظروننا في الطابق العلوي، لأنه من الأفضل أن نتحدث في الخارج في هذا الجو اللطيف بدلاً من أن نكون محبوسين في الداخل. كان الطقس حاراً والرطوبة مزعجة ولكن لم ترغب كلتانا أن أدخل تلك الشقة وحدي معه.

همست ديبورا: «سأراقب من تلك النافذة هناك». أشارت إلى عدة طوابق في الأعلى. «إذا بدر عنه أيّ سلوك غريب، فقط لوحي لي وسوف أنزل».

في حين سارت ديبورا والأولاد داخل المبنى، جلستُ بجانب زكريا وبدأتُ أخبره عن سبب وجودي هنا. ولكن دون أن ينظر نحوي أو ينطق بكلمة، أخذ المجلة من يدي وراح يقرأ. كان قلبي ينقبض في كلّ مرة يتنهد فيها، وكم كان ذلك كثيراً.

«تباً» صرخ فجأة، مشيراً إلى تعليق صورةٍ يقول إن سوني هو الابن الأصغر لـ هنرييتا. «إنه ليس الأصغر! أنا الأصغر». رمى المجلة ونظر إليها حين قلت أنني أعرف بالطبع أنه الأصغر، والمجلة هي من وضعت التسميات التوضيحية، وليس أنا.

قال: «أعتقد أن ولادتي كانت معجزة. أعتقد أن والدتي لم

تذهب حالاً إلى الطبيب وانتظرت إلى ما بعد ولادتي لأنها أرادت إنجابي أولاً. طفل يولد لأمٍ مليئة بالأورام ومريضة لهذه الدرجة، ولا يفترض بي أن أعاني من أيّ نوع من الأذى الجسدي بسبب ذلك؟ ربما كلّ هذا من عمل الله».

نظر إلي للمرة الأولى منذ وصولي، ثم رفع يده وعدّل وضعيه جهاز السمع على أذنه.

قال وهو يضبط مستوى الصوت حتى يتوقف عن الأزيز: «لقد أطفأته حتى لا أضطر إلى سماع أصوات هؤلاء الأطفال الحمقى. أعتقد أن ما فعله الأطباء كان خطأ. لقد كذبوا علينا طوال خمسة وعشرين عاماً، وأبقوا حكاية خلاياها مخفية عنا، ثم يقولون إن أمي تبرعت بها. لقد سُرقت خلاياها. هؤلاء الحمقى يأتون ويأخذون الدم منا ويقولون أنهم بحاجة لإجراء الفحوصات ولا يخبروننا أنّهم كانوا يكسبون المال من دمنا كلّ هذه السنوات؟ هذا أشبه بتعليق لافتةٍ على ظهورنا تقول: «أنا مغفل، اركلني على مؤخرتي». الناس لا يعرفون أننا مجرد حمقى. ربما يعتقدون أننا من خلال ما فعلته خلايا والدتي أصبحنا في حالة جيدة. أرجو أن يدفن جورج جراي في الجحيم. لو لم يكن ميتاً لأخذتُ مذراة سوداء وغرزتها في مؤخرته».

دون تفكير، وبردّ فعل لا إراديّ تقريباً، قلت: «إنه جورج غاي، وليس غراي».

ردّ بعصبية: «من يهتم لاسمه؟ إنه يخبر الناس دائماً أن اسم والدتي هيلين لين». نهض زكريا والتفت إليّ صارخاً: «ما فعله كان

خطأ! خطأ شنيع. دعي هذه الأمور للرب. يقول الناس إنهم ربما أخذوا خلاياها وجعلوها تعيش إلى الأبد لصنع الأدوية هو ما أراده الله. لكنني لا أظن ذلك. إذا أراد توفير علاج للمرض، فإنه سيوفر علاجاً من عنده، وليس للإنسان أن يتلاعب به. ولا يحق لأحدٍ الكذب أو استنساخ الناس من وراء ظهورهم. هذا خطأ، إنه الانتهاك الأفظع في هذه الحكاية برمتها. وكأنني أدخل إلى حمامك بينما أنتِ في الداخل وقد نزعتِ سروالك. إنها أعلى درجة من عدم الاحترام. لهذا السبب أقول أتمنى أن يحترق في الجحيم. لو كان هنا الآن، لقتلته».

فجأة، ظهرت ديبورا بجانبي مع كوبٍ من الماء. قالت: «اعتقدت أنك قد تكون عطشاناً»، صوتها حازمٌ كما لو أنها تقول ما الذي يحدث هنا، لأنها رأت زكريا يقف فوقي ويصرخ.

«هل كلّ شيء على ما يرام هنا؟» سألَت. «هل ما زلتما تتبادلان الأخبار؟».

قال زكريا: «نعم». لكن ديبورا وضعت يدها على كتفه، قائلة ربما حان الوقت لندخل جميعاً.

وبينما كنا نسير نحو الباب الأمامي لمبناه، التفت زكريا نحوي. «يقول أطباؤها إن خلاياها مهمة للغاية وأنهم فعلوا كلّ هذا وذاك لمساعدة الناس. لكنه هذا لم ينفعها، ولم ينفعنا. إذا احتجنا أنا وأختي إلى أيّ شيء، لا يمكننا حتى الذهاب لعيادة الطبيب لأننا لا نستطيع تحمل تكلفته. والأشخاص الوحيدون الذين حصلوا على أيّ نفعٍ

من خلايا والدتي هم الأشخاص الذين يملكون المال، وأياً كان من يبيعهم خلاياها، فقد أصبح ثرياً بفضل والدتنا وبقينا نحن فقراء». وهزّ رأسه. «أرى أن كلّ هؤلاء الناس لا يستحقون مساعدتها».

كانت شقة زكريا عبارة عن استوديو صغير به ركنٌ للمطبخ حيث كانت ديبورا والأولاد يراقبوننا من النافذة. كان من الممكن أن تتناسب متعلقات زكريا مع الجزء الخلفي من شاحنة صغيرة: طاولة فورميكا صغيرة، وكرسيين خشبيين، ومرتبة كاملة الحجم دون إطار، ومفرش سرير بلاستيكي شفاف، ومجموعة من الملاءات البحرية. لا بطانيات، ولا وسائد. على الجانب الآخر من سريره وضع تلفزيون صغير مع جهاز فيديو متوازن في أعلاه.

كانت جدران بيت زكريا عارية باستثناء صفّ من الصور. صورة لـ هنرييتا مع يديها على وركيها معلقة بجانب الصورة الوحيدة الأخرى المعروفة لها حيث تقف مع داي في استوديو تصوير في فترة الأربعينات، وظهراهما مستقيمان وعيونهما واسعة تحدق نحو الأمام وابتسامتهما جامدة في وضعية غير مريحة. وثمة شخص أضاف لمساتٍ على الصورة ولوّن وجه هنرييتا بلونٍ أصفر غير طبيعي. بجانبها كانت صورة جميلة لأخته إلسي، تقف أمام درابزين شرفة بيضاء بجوار سلة من الزهور المجففة. كانت في السادسة من عمرها، ترتدي ثوباً بحمالاتٍ من قماش منقوش بمربعات، وقميص أبيض، وجوارب مزينة بأشرطة وحذاء، شعرها يخرج من ضفائرها واليد اليمنى تمسك بشيء على صدرها. فمها مفتوح قليلاً وجبينها

مجعّد وقلق وكلتا العينين تنظران إلى أقصى يمين الإطار، حيث تتخيل ديبورا أن والدتها كانت تقف.

وأشار زكريا إلى عدة دبلومات معلقة بالقرب من الصور، للحام والتبريد والديزل. قال: «حصلت على العديد من الشهادات اللعينة، لكنهم يرفضون توظيفي بسبب سجلي الإجرامي وما إلى ذلك، لذلك لا زلت أعاني من كافة أنواع المتاعب». تورط زكريا في مشاكل مع القانون منذ خروجه من السجن، ووُجهت إليه تهم مختلفة بالاعتداء والسكر والسلوك غير المنضبط.

قال: «أعتقد أن خلاياها هي السبب في أنني سيء الطباع للغاية. كان علي أن أبدأ القتال قبل أن أصبح إنساناً حتى. هذه الطريقة الوحيدة التي أعتقد أنني منعتُ بها خلاياها السرطانية من النمو فوقي عندما كنت جنيناً داخل رحمِ أمي. بدأت القتال عندما كنت مجرد جنينٍ في رحمها، ولم أكن أعرف شيئاً آخر».

لكن ديبورا رأت أن الأمر يتعدى ذلك. قالت «إن الشيطانة إيثل زرعت في نفسه الحقد. بثّت كلّ قطرة حقد لديها في جسده الصغير وزرعت في داخله كلّ ما يحمله المجرمون من بغضٍ».

تنهّد زكريا عندما سمع اسم إثيل. «كان العيش مع تلك المرأة المجنونة المؤذية أسوأ من العيش في السجن!» صرخ، وعيناه مغمضتان بألم. «من الصعب التحدث عما فعلته بي. عندما أفكر في تلك القصص، أرغب في قتلها، وقتل والدي. بسببه لا أعرف أين دُفنت أمي. عندما يموت ذلك الأحمق، لا أريد أن أعرف أين يُدفن

أيضاً. هل يحتاج الذهاب إلى المستشفى؟ دعه يستقل سيارة أجرة! والشيء نفسه مع باقي أفراد العائلة الذين دفنوها. لا أريد أن أرى هؤلاء الزنوج بعد الآن».

تأففت ديبورا. قالت وهي تنظر إلي: «هل رأيتِ؟ لا أحد يسمح له بالكلام لأنه يتحدث بالطريقة التي يريدها. وأقول دعه يتحدث، حتى لو كنا مستائين مما يقوله. إنه غاضب، وعليه إخراج غضبه، وإلا فإنه سيستمر في كتمانه وتفجيره على حين غرة».

قال زكريا: «أنا آسف. ربما كانت خلاياها مفيدة لبعض الناس، لكنني أفضل لو بقيت أمي معي. لو لم يضحوا بها، لكنت كبرت وصرت شخصاً أفضل بكثير مما أنا عليه الآن».

نهضت ديبورا عن السرير حيث كانت تجلس ورأسي حفيدها على حضنها. مشت إلى زكريا ووضعت ذراعيها حول خصره. قالت: «هيا، سر بنا إلى السيارة. لدي شيء أريد أن أقدمه لك».

في الخارج، فتحت ديبورا الصندوق الخلفي لسيارتها الجيب وفتشت بين البطانيات والملابس والأوراق حتى استدارت حاملةً صورة كروموسومات هنرييتا التي أهداها إياها كريستوف لينغاور. مررت أصابعها عبر الزجاج، ثم سلمتها إلى زكريا.

«أيفترض أن تكون هذه صورة خلاياها؟» سأل.

أومأت ديبورا برأسها. «انظر أين صُبغت بالألوان الزاهية؟ هذا المكان الذي يحمل كلّ حمضها النووي».

رفع زكريا الصورة إلى مستوى عينيه وحدّق في صمت. فركت ديبورا بيدها على ظهره وهمست: «أعتقد أنه إن كان ثمة شخصٌ يستحق هذه اللوحة، فهو أنت، زكريا».

قلّب زكريا الصورة ليراها من كلّ زاوية. «هل تودين إعطائي إياها؟» قالَ أخيراً.

قالت ديبورا: «نعم، أودّ أن أعطيك إياها، علقها على جدارك».

اغرورقت عينا زكريا بالدموع. وللحظةٍ بدا أن تلك الهالات السوداء اختفت، واسترخى جسده.

قال بصوتٍ ناعمٍ على عكس أيّ شيء سمعناه منه في ذلك اليوم: «نعم». ووضع ذراعه على كتف ديبورا. «شكراً».

لفّت ديبورا ذراعيها حول خصره بقدر ما استطاعت الوصول إليه، وشدّت بقوة. «قال الطبيب الذي أعطاني اللوحة إنه عمل مع والدتنا طوال مسيرته المهنية ولم يعرف أيّ شيء عن مصدرها. وقال بأنه آسف».

نظر إليّ زكريا. «ما اسمه؟». أخبرتُه باسمه، ثم أضفت أنه «يريد أن يلتقي بك ويعرض لك الخلايا».

أومأ زكريا برأسه، ولا يزال ذراعه حول كتف ديبورا. «حسناً. فكرة جميلة. لنفعل ذلك». ثم عاد ببطء إلى مبناه حاملاً الصورة أمامه على مستوى العين، ولا يرى شيئاً أمامه سوى الحمض النووي في خلايا والدته.

(٣١)
هيلا، إلهة الموت

بعد يوم من عودتي إلى المنزل من زيارتنا الماراثونية، اتصل بـ ديبورا رجل لا تعرفه يسألها عما إذا كانت ستركب عوامة هيلا في مسابقة رعاة البقر السود. وحذّرها من أشخاصٍ يبحثون عن مكان قبر هنريتا لأنهم يرغبون في سرقة عظامها، لأن جسدها كان ذا قيمة كبيرة للعلم. أخبرت ديبورا الرجلَ أنّها تتحدّث إليّ من أجل نشرِ كتاب فحذّرها من التحدّث إلى البيض عن قصّتها. أصيبت بالذعر واتصلت بأخيها لورانس، الذي أخبرها أن الرجل على حقّ، لذلك تركت لي رسالة تقول فيها إنها لا تستطيع التحدث معي بعد الآن. لكن في الوقت الذي تلقيت فيه الرسالة واتصلت بها، كانت قد غيرت رأيها.

قالت: «الجميع يصرخ دائماً باسم العنصرية! العنصرية! ذلك الرجل الأبيض سرق خلايا تلك المرأة السوداء. ذلك الرجل الأبيض قتل تلك المرأة السوداء. هذا كلام جنوني. جميعنا سود وبيض وكل شيء آخر - هذه ليست مسألة عنصريةً. يوجد جانبان

للقصة، وهذا ما نريد إلقاء الضوء عليه. لن أعرف الحقيقة عن والدتي إذا كان الأمر يتعلق بالرغبة في تدمير الباحثين. لا يتعلق الأمر بمعاقبة الأطباء أو تشويه سمعة المستشفى. لا أريد ذلك».

أنا وديبورا سنستمر على هذا الحال لمدة عام كامل. في كلّ مرة أزورها، كنا نسير في ميناء بالتيمور، ونركب القوارب، ونقرأ كتب العلوم معاً، ونتحدث عن خلايا والدتها. أخذنا ديفون وألفريد إلى مركز ماريلاند للعلوم، حيث شاهدا جداراً بطول عشرين قدماً مغطى من الأرض إلى السقف بصورٍ لخلايا ملطخة باللون الأخضر الفوسفوري ومكبرة تحت المجهر. أمسك ديفون بيدي وسحبني نحو جدار الخلايا، وصرخ: «آنسة ريبيكا! آنسة ريبيكا! هل هذه الجدة الكبرى هنرييتا؟» حدق الناس الذين يقفون بالقرب منا حين أجبته: «في الواقع، هي كذلك غالباً»، فراح ديفون يقفز ويغني: «الجدة هنرييتا مشهورة! الجدة هنرييتا مشهورة!».

في إحدى المرات، بينما كنت أنا وديبورا نسير على طول الشوارع المرصوفة بالحصى في فيل بوينت في وقت متأخر من الليل، التفتت نحوي ودون أن أطلب منها قالت: «سأحضر سجلاتها الطبية وفقاً لشروطي وعندما أعتقد أن الوقت مناسب». أخبرتني أنه في الليلة التي أخذَت سجلات والدتها الطبية وهربت إلى المنزل، ظنت أنني كنت أحاول سرقتها. قالت: «أحتاج فقط إلى شخص يمكنني الوثوق به، شخص يتحدث معي ولا يبقيني في الظلام». لقد طلبت مني أن أعدها بأنني لن أخفي أيّ شيء عنها. ووعدتها.

بين الرحلات، كنا نقضي أنا وديبورا ساعات كلّ أسبوع نتحدث عبر الهاتف. في بعض الأحيان يقنعها شخصٌ ما بأنها لا تستطيع أن تثق بشخصٍ أبيض ليروي قصة والدتها، وكانت تتصل بي في حالة ذعر، وتطالب بمعرفة ما إذا كان هوبكنز يدفع لي للحصول على معلومات منها كما قال الناس. في مراتٍ أخرى كانت تشكّ بشأن المال، كما جرى عندما اتصل ناشر كتاب عن علم الوراثة يعرض عليها مبلغ ٣٠٠ دولار للحصول على إذن لطباعة صورة هنرييتا. عندما قالت ديبورا أن عليهم دفع ٢٥ ألف دولار ورفضوا، اتصلت بي طالبةً معرفة من كان يدفع لي لنشر كتابي، وكم كنت سأعطيها.

في كلّ مرة أخبرها الشيء نفسه: لم أبع الكتاب بعد، لذلك في تلك المرحلة كنت أدفع نفقات بحثي بواسطة القروض الطلابية وبطاقات الائتمان. وبغض النظر عن ذلك، لم يكن بوسعي أن أدفع لها مقابل قصتها. وبدلاً من ذلك، قلت لها، إذا نُشر الكتاب، سأقوم بإنشاء صندوق منح دراسية لأحفاد هنرييتا لاكس. في أيام مزاج ديبورا الجيد، أجدها متحمسة للفكرة. كانت تقول: «التعليم أساس كلّ شيء. لو تمكنت من تحصيل المزيد من العلم، ربما لم يكن الأمر برمته بشأن والدتي صعباً للغاية. لذلك أطلب من ديفون دائماً أن يستمر في الدراسة، ويتعلّم كلّ ما يستطيع». لكن في أيام مزاجها السيء، كانت تعتقد أنني أكذب وترفض التواصل معي مرة أخرى.

تلك اللحظات لم تدم طويلاً، وتنتهي دوماً بأن تطلب مني ديبورا أن أعدها مرة أخرى أنني لن أخفي أيّ شيء عنها. في النهاية أخبرتها أنها يمكن أن تأتي معي عندما أقوم ببعض أبحاثي إذا أرادت، وقالت: «أريد الذهاب إلى المراكز والكليات وكل أماكن العلم تلك.. وأريد الحصول على السجل الطبي وتقرير تشريح جثة أختي».

رحتُ أرسلُ لها أكواماً من المعلومات التي اكتشفتها عن والدتها مثل مقالات في الصحف العلمية، وصور الخلايا، وحتى رواية أو قصيدة أو قصة قصيرة من حين لآخر يردُ فيها ذكرُ هيلا. في إحداها استخدم عالم مجنون خلايا هيلا كسلاحٍ بيولوجي لنشر داء الكلب؛ وعرضَ شخصٌ طلاء منازل أصفر مصنوع من خلايا هيلا التي يمكن أن تتحدث. أرسلت إلى ديبورا أخباراً عن معارض يُعرض فيها العديد من الفنانين خلايا هنرييتا على الجدران، وعرضت إحداهن مزرعة خلايا على شكل قلبٍ نمت من خلال دمج خلايا الفنانة مع خلايا هيلا. مع كلّ باقة معلوماتٍ، أرسلتُ ملاحظاتٍ تشرح ما يعنيه كلّ شيء، ووصفت بوضوح ما كان خيالاً وما لم يكن، وأرفقت تحذيراً من أيّ شيء قد يزعجها.

في كلّ مرةٍ استلمت ديبورا طرداً، كانت تتصل للتحدث معي عما تقرأه، وبالتدريج أصبحت مكالماتها المذعورة أقل تكراراً. بعد فترة وجيزة وبعد أن أدركت أنني في عمر ابنتها، راحت تناديني بـ «بو»، وأصرت على أن أشتري هاتفاً خلوياً لأنها كانت قلقة بشأن

قيادتي للطرق السريعة بمفردي. في كلّ مرة تحدثت فيها إلى إخوتها، كانت تصرخ عليهم ما بين المزاح والجدّ، قائلة: «لا تحاولوا أن تأخذوا مراسلتي! اذهبوا وأحضروا مراسلاً لكم».

عندما التقينا في رحلتنا الأولى، نزلت ديبورا من سيارتها مرتدية تنورة سوداء بطول الكاحل وصندل أسود بكعب وقميص أسود مغطى بسترةٍ سوداء مفتوحة. بعد أن تعانقنا، قالت: «ارتديت ملابس المراسلة الصحفية!» أشارت إلى قميصي الأسود، وسروالي الأسود، وحذائي الأسود وقالت: «أنت دائماً ترتدين الأسود، لذلك اعتقدت أنه يجب أن ألبس مثلك حتى أندمج معك».

في كلّ رحلة، ملأت ديبورا سيارتها الجيب من الأرضية إلى السقف بكل أنواع الأحذية والملابس التي قد تحتاجها («إذ لا تعرفين أبداً متى يتغير الطقس»). جلبَت وسائد وبطانيات في حال تقطعت بنا السبل في مكان ما، ومروحة دوارة في حال أنها شعرت بالحرّ، بالإضافة إلى جميع معدات حلاقة الشعر وتقليم الأظافر، وصناديق من أشرطة الفيديو وأقراص الموسيقى المدمجة، واللوازم المكتبية، وكل وثيقة لها علاقة بـ هنرييتا. وأخذنا سيارتين لأن ديبورا لم تثق بي بعد بما يكفي لتركب معي. كنت أتبعها، وأشاهد قبعة القيادة السوداء تتراقص صعوداً وهبوطاً على أنغام موسيقاها. في بعض الأحيان، عندما كنا نتعطف عند المنحنيات أو نتوقف عند إشارات المرور، كنت أسمعها تغني: «Born to Be Wild»، أو أغنيتها المفضلة لـ ويليام بيل «I Forgot to Be Your Lover».

في النهاية، سمحت لي ديبورا بالمجيء إلى منزلها. كان المكان معتماً والستائر سميكة ومنسدلة، الأرائك سوداء، والأضواء خافتة، والجدران مغطاة بألواح خشبية بنية علّقت عليها لوحات دينية على خلفياتٍ ذات إنارة سوداء. قضينا كلّ الوقت في مكتبها، حيث كانت تنام معظم الليالي بدلاً من غرفة النوم التي تشاركتها مع بولوم - لقد تشاجرا كثيراً، كما أخبرتني، واحتاجا إلى بعض الهدوء.

عرضُ غرفتها حوالي ستة أقدامٍ وفيها سرير مزدوج مقابل الجدار ومكتبها الصغير مقابله مباشرة، يكاد يلتصق بالسرير. على سطح المكتب تتكدس حزم من الورق وصناديق من المظاريف والرسائل والفواتير وفوق كلّ ذلك كتاب والدتها المقدس وصفحاته المهترئة التي تشققت مع الزمن وغزاها عفن الورق، ولا تزال خصل شعر والدتها وأختها مطوية بين صفحاته.

كانت جدران غرفة ديبورا مغطاة من الأرض إلى السقف بصور ملونة للدببة والخيول والكلاب والقطط التي مزقتها من التقويمات، بالإضافة إلى ما يقرب من اثني عشر مربعاً من اللباد اللامع صنعتها هي وديفون يدوياً. كانت إحداها صفراء كُتب عليها بأحرف كبيرة عبارة «شكراً لك يا يسوع على محبتك لي»؛ وأخرى كتب عليها: «تحققت النبوءات»، وكانت مغطاة بقطع نقدية مصنوعة من ورق الألمنيوم. كان الرف الموجود على رأس سريرها مليئاً بأشرطة الفيديو للإعلانات التجارية لجاكوزي ولمقطورة متنقلة ورحلة إلى ديزني لاند. وفي كلّ ليلة تقريباً، كانت ديبورا تقول: «ديفون، هل تودّ

الذهاب في إجازة؟» وعندما يومئ برأسه موافقاً، تسأله: «أين تريد الذهاب؟ ديزني لاند أم المنتجع الصحي، أو ربما رحلة بالمقطورة المتنقلة؟» لقد شاهدوا كلّ شريط من تلك الأشرطة عدة مرات.

في نهاية إحدى الزيارات، أوضحتُ لـ ديبورا كيفية الاتصال بالإنترنت باستخدام جهاز كمبيوتر قديم أعطاها إياه شخص ما قبل سنوات، ثم علمتها استخدام غوغل. سرعان ما بدأت تتناول عقار أمبيان ليساعدها على النوم، وتجلس ليلاً وقد منحها المهدئ شعوراً بالسكينة، تستمتع إلى أنغام ويليام بيل عبر سماعات الرأس، وتبحر في غوغل بحثاً عن «هنرييتا» و«هيلا».

أشار ديفون إلى الأمبيان الذي تتناوله ديبورا باسم «الدواء الغبي»، لأنه جعلها تتجول في المنزل في منتصف الليل مثل الزومبي، وتقول كلاماً فارغاً وتحاول تحضير طعام الفطور عبر تقطيع رقائق الذرة بسكين جزار. وعندما يبيت معها، غالباً ما استيقظ ديفون في منتصف الليل ليجد ديبورا نائمة فوق جهاز الكمبيوتر، ورأسها نحو الأسفل ويداها على لوحة المفاتيح. كان يدفعها من الكرسي إلى السرير ويضعها فيه. أما عندما لا يكن ديفون هناك، غالباً ما استيقظت ديبورا ووجهها ملتصقٌ بالمكتب ومحاطة بجبل من الصفحات التي سقطت من طابعتها على الأرض: مقالات علمية وطلبات براءات اختراع ومقالات صحفية عشوائية ومقالات مدونة، والعديد من تلك التي لم يكن لها أيّ صلةٍ بوالدتها ولكن ورد فيها كلمة هنرييتا أو لاكس أو هيلا.

والمثير للدهشة، كان هناك الكثير من الصفحات التي ورد فيها كلمة هيلا. حيث إن هيلا هو الاسم الأصلي لدولة سريلانكا ويحمل الناشطون هناك لافتاتٍ تطالب «بالعدالة لأمة هيلا». كما أنه اسم شركة جرارات ألمانية أغلقت منذ زمن واسم كلبٍ شيتزو الحائز على جوائز؛ وأيضاً اسم منتجعٍ على شاطئ البحر في بولندا، وشركة إعلانات في سويسرا، وقارب دنماركي يجتمع فيه الناس لشرب الفودكا ومشاهدة الأفلام، وشخصية كتاب كوميدي من مارفل تظهر في العديد من الألعاب عبر الإنترنت: شخصية إلهة طويلة القامة، نصفها أسود والنصف الآخر أبيض، جزء منها ميت وجزءٌ حي، تمتلك ذكاءً «لا يضاهى»، وقوة «خارقة»، وقدرة «شبيهة بقدرات الآلهة» وقوة تحملٍ لا تقهر، وخمسمئة رطلٍ من العضلات الصلبة. إنها إلهة الأوبئة والمرض والكوارث؛ محصنةٌ ضد النار والإشعاع والسّموم والتلف والمرض والشيخوخة. يمكنها أن تهيمن وتسيطر على عقول الناس.

عندما وجدت ديبورا صفحات تصف شخصية هيلا في كتاب مارفل، اعتقدَت أنّها تصف والدتها، لأن كلّ صفةٍ من صفات هيلا تتطابق بطريقة ما مع ما سمعته ديبورا عن خلايا والدتها. ولكن اتضح أنّ رواية الخيال العلمي هيلا مستوحاة من آلهة الموت النرويجية القديمة، التي تعيش محاصرة في أرض ما بين الجحيم والأرض. لكن ديبورا رأت أن حكاية الإلهة كانت مستوحاة من حكاية والدتها أيضاً.

في أحد الأيام، رنّ هاتفي حوالي الساعة الثالثة فجراً وكنت نائمةً أصارع الحمى إثر إصابتي بالأنفلونزا. صاحت ديبورا على الطرف الآخر: «أخبرتك أن لندن استنسخَت أمي!» كان صوتها بطيئاً ومتلعثماً بسبب عقار الأمبيان.

لقد بحثَت في غوغل عن هيلا، والمستنسخة، ولندن، والحمض النووي، وحصلت على آلاف المقاطع التي تتحدث عن مثل هذا، من نقاش في غرفة الدردشة عبر الإنترنت حول خلايا هيلا: «يحتوي كلّ منها على مخطط جيني لبناء هنرييتا لاكس.... هل يمكننا استنساخها؟» ظهر اسم والدتها تحت العناوين الرئيسية مثل الاستنساخ والزراعة البشرية، وظنّت أن تلك الآلاف من النتائج كانت دليلاً على أن العلماء استنسخوا الآلاف من هنرييتا.

قلت: «لم يستنسخوها. لقد صنعوا فقط نسخاً من خلاياها. صدّقيني».

قالت: «شكراً بو، آسفة لأنني أيقظتك. ولكن إذا كانوا يستنسخون خلاياها، فهل يعني ذلك أنه يوماً ما يمكنهم استنساخ أمي؟».

أجبتها: «لا. طابت ليلتك!».

بعد عدة أسابيع من العثور على ديبورا فاقدةً الوعي وهاتفها في يدها، ووجهها على لوحة المفاتيح، أخبر ديفون والدته أنّ عليه البقاء في منزل جدته طوال الوقت لرعايتها بعد أن تأخذ دوائها.

تناولت ديبورا ما متوسطه أربعة عشر حبة يومياً، مما كلفها حوالي

١٥٠ دولاراً شهرياً بعد تأمين زوجها، بالإضافة إلى ضمان ميديكير وميديك إيد. قالت لي ذات مرة: «أعتقد أنها إحدى عشرة وصفة طبية، ربما اثنتا عشرة واحدة. لا أستطيع عدّها؛ إنّها تتغير طوال الوقت». واحدة لعلاج القلسِ الحمضي ارتفعت كلفتها من ثمانية دولارات في الشهر الأول إلى مئة وخمسة وثلاثين دولاراً في الشهر التالي، لذلك توقفَت عن تناوله، ولاحقاً ألغى تأمين زوجها تغطية وصفاتها الطبية، لذلك بدأت بتقسيم حبوبها إلى نصفين لجعلها تستمر مدةً أطول. عندما نفد الأمبيان توقفت عن النوم إلى أن حصلت على المزيد.

أخبرتني أن أطبائها وصفوا الأدوية لها بدايةً في عام ١٩٩٧ بعد ما شخصوا إصابتها بما أطلقَت عليه اسم «حالة المنقّب عن الذهب»، والتي رفضت أن تحدثني عنها. وحدث ذلك عندما تقدمَت بطلب للحصول على ضمان اجتماعي بسبب الإعاقة، كما قالت، والتي حصلت عليها فقط بعد المثول أمام المحكمة عدة مرات.

قالت لي: «قال موظفو الضمان الاجتماعي إن المشكلة كلها كانت في رأسي. فقرروا إرسالي إلى حوالي خمسة أخصائيين نفسيين ومجموعة من الأطباء. يقولون إنني مصابة بجنون الارتياب، أنا مصابة بالفصام، أنا متوترة. أعاني من القلق والاكتئاب وتنكس الركبة والتهاب الجراب وفتق في أقراص فقرات ظهري، ومصابةٌ أيضاً بداء السكري وهشاشة العظام وارتفاع ضغط الدم والكوليسترول». وقالت: «وثمة أمراض أعاني منها ولا أعرف اسمها. لا أعرف

إن كان ثمة من يعرف. كلّ ما أعرفه أنني حين أكون في هذا المزاج وأشعر بالخوف، ألوذ بنفسي بعيداً عن كلّ شيء».

أخبرتني أن هذا ما حدث في المرة الأولى التي اتصلتُ بها. قالت: «شعرت حينها بالحماسة لأنكِ أخبرتني بأنك تريدين نشر كتابٍ عن والدتي. ثم بدأت الأمور تدور في رأسي وشعرت بالخوف».

قالت: «أعرف أن حياتي يمكن أن تكون أفضل وأتمنى أن تكون كذلك. عندما يسمع الناس عن خلايا أمي، فإنّ أول ما يقولونه دائماً: يجب أن يدرّ عليكم هذا أموالاً وفيرة. يجب أن تقاضوا مستشفى جون هوبكين، ويجب أن تفعلوا هذا وذاك. لكنني لا أريد أن أقاضي أحداً». ضحكَت. «الحق يقال، لا يمكنني أن أغضب من العلم لأنه يساعد الناس على العيش، وسأكون في حالة يرثى لها من دونه. أنا صيدليةٌ تمشي على قدمين. لا يمكنني أن أسيء إلى العلم، لكنني بكلّ صدقٍ أحتاج بعض التأمين الصحي حتى لا أضطر إلى دفع كلّ هذا المال شهراً تلو الآخر مقابل الأدوية التي ربما ساعدَت خلايا والدتي في صنعها».

في نهاية المطاف، عندما أصبحت ديبورا مرتاحة مع الإنترنت، بدأت في استخدامه لأكثر من مجرّد ترويع نفسها في منتصف الليل. فأعدّت قوائم بالأسئلة من أجلي وطبعت مقالاتٍ حول الأبحاث التي أجريت على الأشخاص دون علمهم أو موافقتهم، مثل تجربة لقاحٍ في أوغندا أو اختبار الأدوية على القوات الأمريكية. ثم عمدَت إلى تنظيم المعلومات في مجلدات مصنّفة بعناية: مجلّدٌ عن

الخلايا، والآخر عن السرطان، وثالثٌ مليء بتعريفات المصطلحات القانونية مثل قانون التقادم وسرية المريض. وفي إحدى المرات صادفَت مقالة بعنوان: «ما الذي تبقى من هنرييتا لاكس؟» زالت أثارت غضب ديبورا لأنها قالت إن هنرييتا ربما أصيبت بفيروس الورم الحليمي البشري لأنها «متعددة العلاقات الجنسية».

قالت: «هؤلاء الناس لا يفقهون شيئاً عن العلم. مجرد إصابتها بفيروس الورم الحليمي البشري لا يعني أنّ والدتي كانت ماجنة. معظم الناس يصابون به. قرأت عنه على الإنترنت».

ثم، في أبريل ٢٠٠١، بعد مضيّ حوالي عام من لقائنا الأول، اتصلت ديبورا لتخبرني أن «رئيس نادي السرطان» اتصل بها راغباً في استقبالها على خشبة المسرح في فعاليةٍ تقام لتكريم والدتها. قالت إنها قلقة، وتريد أن أسأل إن كانت الدعوة حقيقية وقانونية.

اتضح أن المتصل هو فرانكلين سالزبري الابن، رئيس المؤسسة الوطنية لأبحاث السرطان. قرر عقد مؤتمر المؤسسة لعام ٢٠٠١ على شرف هنرييتا. وقال إنه في ١٣ سبتمبر، سيجتمع سبعون من كبار الباحثين في مجال السرطان من جميع أنحاء العالم لتقديم أبحاثهم، وستحضر مئات الشخصيات ومن بينهم عمدة واشنطن العاصمة ووزير الصحة. كان يأمل أن تلقي ديبورا كلمة هناك، وتقبل هدية رمزيةً على شرف والدتها.

قال لي: «أفهم أن الأسرة تشعر أنها تعرضت لإساءة شديدة. لا يمكننا منحهم المال، لكنني آمل أن يضع هذا المؤتمر السجل

التاريخي في نصابه الصحيح ويساعدهم على الشعور بالرضا، حتى لو تأخرنا خمسين عاماً».

عندما شرحتُ هذا لـ ديبورا، انفرجت أساريرها. وقالت إنه شبيه بمؤتمر باتيلو في أتلانتا، لكنه أكبر. بدأت على الفور في التخطيط لما سترتديه وتطرح أسئلةً حول ما سيتحدث عنه الباحثون. وقلقَت مرة أخرى بشأن الأمان على خشبة المسرح، أو ما إذا كان هناك قناص في انتظارها.

«ماذا لو اعتقدوا أنني سأثير مشكلةً بشأن أخذهم للخلايا أو ما شابه؟».

قلت: «لا أعتقد أنك بحاجة إلى القلق بشأن ذلك. إن العلماء يتوقون لمقابلتك». وأخبرتها أن المؤتمر سيكون في مبنى فيدرالي مع حراسة مشددة.

قالت: «حسناً. لكن أولاً أريد أن أذهب لرؤية خلايا والدتي، حتى أعرف ما يتحدث عنه الجميع في المؤتمر».

عندما أغلقنا الخط اتصلتُ بـ كريستوف لينغاور، باحث السرطان الذي أعطى ديبورا صورة الكروموسومات المرسومة، لكن قبل أن أتمكن من استخراج رقم هاتفه رنّ هاتفي مرة أخرى. كانت ديبورا تبكي. ظننت أنها مذعورة، أو غيرت رأيها بشأن رؤية الخلايا. لكن بدلاً من ذلك، صاحت: «يا طفلي المسكين! ليساعده الرب، لقد قبضوا عليه ووجدوا بصمات أصابعه على علبة البيتزا».

تورط ابنها ألفريد وصديقه في سلسةٍ من الجرائم، وسرقا ما لا يقل عن خمسة متاجر لبيع الخمور تحت تهديد السلاح. صورت كاميرات المراقبة ألفريد وهو يصرخ في وجه محاسب المتجر ويلوح بزجاجة من النبيذ فوق رأسه. لقد سرق زجاجة بيرة، وزجاجة من النبيذ، وعلبتين من سجائر نيوبورت، وحوالي مئة دولار نقداً. اعتقلته الشرطة أمام منزله وألقته في السيارة بينما كان ابنه الصغير ألفريد يراقب من الحديقة.

قالت ديبورا وهي تبكي: «ما زلت أرغب في رؤية خلاياها. لن أدع هذا يمنعني من تتبع المعلومات عن والدتي وأختي».

(٣٢)
«كل هذه أمي»

في الوقت الذي كانت فيه ديبورا مستعدة لرؤية خلايا والدتها لأول مرة، لم يتمكن داي من القدوم. لقد قال عدة مرات إنه يريد رؤية خلايا زوجته قبل وفاته، لكنه كان في الخامسة والثمانين من عمره، يتردد ذهاباً وإياباً إلى المستشفى ويعاني من مشاكل في القلب وضغط الدم، وقد فقد ساقه بسبب مرض السكري. كان على سوني أن يعمل، وقال لورانس إنه يريد التحدث إلى محامٍ حول مقاضاة هوبكنز بدلاً من رؤية الخلايا التي أشار إليها باسم «شركة بمليارات الدولارات».

لذلك، في ١١ مايو ٢٠٠١، وافقت أنا وديبورا وزكريا على الاجتماع أمام تمثال يسوع في هوبكنز للذهاب لرؤية خلايا هنرييتا. في وقت سابق من ذلك الصباح، حذرتني ديبورا من أن لورانس كان مقتنعاً بأن هوبكنز يدفعون لي لجمع معلومات عن العائلة. واتصل بها عدة مرات في ذلك اليوم قائلاً إنه قادم للحصول على المواد التي جمعَتها عن أمها. لذا، خبأتها ديبورا في مكتبها وأخذت

المفتاح معها، واتصلت بي قائلة: «لا تخبريه أين أنتِ ولا تذهبي لرؤيته من دوني».

عندما وصلتُ إلى تمثال يسوع، يقف تماماً حيث كان عندما وقفت هنرييتا أمامه قبل حوالي خمسين عاماً، شامخ نحو الأعلى على ارتفاع أكثر من عشرة أقدام تحت قبة متدرجة، وعيناه رخاميتان بلا حدقة تحدقان مباشرة نحو الأمام، وذراعاه ممدودتان تغطيهما أروابٌ حجرية. عند قدمي يسوع، ألقى الناس أكواماً من العملات المعدنية وزهور أقحوان ذابلةً ووردتين إحداهما فتيّة وتبرز منها بعض الأشواك، والأخرى قماشية أُلصق عليها قطرات نَدى بلاستيكية. استحال جسم التمثال بنياً رمادياً وقذراً، باستثناء قدمه اليمنى التي توهجت باللون الأبيض المصقول بفضل عقودٍ من الأيدي التي تفركها من أجل الحظ.

لم تكن ديبورا وزكريا هناك، لذلك استندتُ إلى جدارٍ بعيد أراقب طبيباً يرتدي ملابس خضراء يركع أمام التمثال ويصلي في حين كان آخرون يفركون إصبع قدميه في طريقهم إلى المستشفى دون النظر إليه حتى أو التوقف. توقف العديد من الناس لكتابة الصلوات في كتب كبيرة الحجم ترتكز على ركائز خشبية بالقرب من التمثال: «أبانا الذي في السماء: إن كانت هذه مشيئتك، اسمح لي أن أتحدث إلى إدي لآخر مرة». «من فضلك ساعد أبنائي في التغلب على إدمانهم». «أرجوك أن تمنحني وزوجي وظائف لائقة». «شكراً لك يا إلهي لأنك وهبتني فرصةً أخرى».

مشيت نحو التمثال، وصوت كعب حذائي ينقر على الرخام، وضعت يدي على إصبع قدمه الكبير، وكان هذا أقرب شيء إلى الصلاة فعلته يوماً. فجأة كانت ديبورا بجانبي، تهمس: «آمل أن يباركنا في مسعانا». كان صوتها هادئاً تماماً، واختفت ضحكتها العصبية المعتادة.

أجبتها آمل ذلك أيضاً.

أغلقت ديبورا عينيها وبدأت في الصلاة. ثم ظهر زكريا خلفنا وأطلق ضحكة عميقة.

«لا يمكنه فعل شيء لمساعدتك الآن!» صاح زكريا. لقد زاد وزنه منذ أن رأيته آخر مرة، وسرواله الصوفي الرمادي الثقيل ومعطفه الأزرق السميك جعلاه يبدو أكبر حجماً. كان الذراعان البلاستيكيتان السوداوان لنظاراته ضيقان للغاية لدرجة أنهما نحتا حزوزاً عميقة في رأسه، لكنه لم يستطع تحمل تكاليف نظارات جديدة.

نظر إلي وقال: «شقيقتي تلك مجنونة لعدم رغبتها في الحصول على المال من خلايا أمي».

حدّقت ديبورا فيه بغضبٍ وضربت ساقه بعصاها. قالت: «كن مؤدباً وإلا منعتك من المجيء لرؤية الخلايا».

توقف زكريا عن الضحك وتبعنا ونحن نتجه نحو مختبر كريستوف لينغاور. بعد دقائق، أقبل كريستوف نحونا عبر بهو المبنى مبتسماً ويمدّ يده. كان في منتصف الثلاثينيات من عمره، يرتدي جينز قديمٍ للغاية وقميصاً أزرق بمربعاتٍ، وشعره بني

فاتح وأشعث. صافح يدي وديبورا، ثم مد يده إلى زكريا، لكن زكريا لم يتحرك.

«حسناً». قال كريستوف وهو ينظر إلى ديبورا. «لا بدّ أنه من الصعب عليك أن تأتي إلى مختبرٍ في هوبكنز بعد ما مررت به. لكني سعيدٌ برؤيتك هنا». تحدث بلكنة نمساوية، مما جعل ديبورا تهز حاجبيها في وجهي عندما استدار للضغط على زر نداء المصعد. «اعتقدت أننا سنبدأ في غرفة التجميد حتى تشاهدي بنفسك كيف نخزن خلايا والدتك، ثم يمكننا أن نذهب ونلقي نظرة عليها حية تحت المجهر».

قالت ديبورا: «هذا رائع»، كما لو أنه قال للتو شيئاً عادياً تماماً. داخل المصعد، ضغطت جسدها على زكريا، إحدى يديها تتكئ على عصاها، والأخرى تمسك قاموسها الممزق. عندما فتحت الأبواب، لحقنا بـ كريستوف رتلاً واحداً عبر قاعةٍ ضيقةٍ طويلة، اهتزت جدرانها وسقفها بصوت طنينٍ عميق زاد أثناء سيرنا. صاح كريستوف: «هذا صوتُ نظام التهوية. إنه يمتص جميع المواد الكيميائية والخلايا ويطردها إلى الخارج حتى لا نضطر إلى استنشاقها».

فتح بابَ مختبره بحركة كاسحة ولوّح لنا لندخل. «في هذا المكان نحتفظ بجميع الخلايا»، كان يتحدث صراخاً كي يعلو صوته على صوت همهمة ميكانيكية تصم الآذان جعلت المعينات السمعية لـ ديبورا وزكريا تصدران طنيناً مزعجاً. ضرب زكريا أذنه وسحب جهاز السمع منها بعنف. قامت ديبورا بتعديل الصوت

على جهازها، ثم عبرت مع كريستوف إلى غرفة مليئة من الجدار إلى الجدار بمجمدات بيضاء مكدسة واحدة فوق الأخرى، وتصدر قرقرةً مثل بحر من الغسالات في مغسلة صناعية. رمقتني بنظرةٍ يملؤها الرعب.

سحب كريستوف مقبض ثلاجة بيضاء يمتدّ ارتفاعها من الأرض إلى السقف، وفتحها مما أدى إلى إطلاق سحابة من البخار في الغرفة. صرخت ديبورا وقفزت خلف زكريا الذي وقف بلا تعبير ويداه في جيوبه.

صاح كريستوف: «لا تقلقي، ليس خطيراً، إنه بارد فقط. درجة الحرارة في هذه المجمدات ليست ناقص ٢٠ درجة مئوية مثل المجمدات المنزلية، بل ناقص ٨٠. لهذا السبب عندما أفتحها يخرج بخار بارد». وطلب من ديبورا أن تقترب.

قال: «جميع هذه الأنابيب مملوءةٌ بخلاياها».

خففت ديبورا قبضتها على زكريا واندفعت للأمام حتى ضرب النسيم الجليدي وجهها، ووقفت تحدق في آلاف القوارير البلاستيكية المليئة بسائلٍ أحمر.

قالت: «يا إلهي. لا أستطيع أن أصدق أنّ كلّ هذه أمي». بينما وقف زكريا يحدّق في صمت.

مدّ كريستوف يده داخل المجمد، وأخرج قارورة، وأشار إلى الحروف التي تشكل كلمة هيلا على جانبها. قال: «يوجد الملايين

والملايين من خلاياها هنا. ربما المليارات. يمكنك الاحتفاظ بها هنا إلى الأبد. خمسون سنة، مئة سنة، وأكثر من ذلك، ثم نُذيب الثلج عنها وتنمو».

هز قارورة خلايا هيلا ذهاباً وإياباً في يده وراح يتحدث عن مدى الحرص الواجب عند التعامل معها. قال: «لدينا غرفة إضافية للخلايا فقط. هذا ضروري. لأنك إذا لوثتها بأي شيء لن تستطيع استخدامها مجدداً. ولا تريد أن تلوث خلايا هيلا المزارع الأخرى في المختبر».

«هذا ما حدث في روسيا، أليس كذلك؟» قالت ديبورا.

بدا عليه الذهول وابتسم ابتسامةً عريضة. قال «نعم. بالضبط. إنه لأمر رائع أن تعرفي هذه المعلومات». وأوضح كيف حدثت مشكلة تلوث هيلا، ثم قال: «تسببت خلاياها في أضرار بملايين الدولارات. يبدو وكأنها حققت بعض العدالة الشاعرية، أليس كذلك؟».

قالت ديبورا: «كانت أمي تنتقم بذلك من العلماء لإخفائهم حقيقة خلاياها سراً عن العائلة. لا تعبثوا مع هنرييتا وإلا صفعت مؤخراتكم بخلايا هيلا».

ضحك الجميع.

مدّ كريستوف يده إلى المجمّد خلفه، وأخذ قارورة أخرى من خلايا هيلا، وقدمها لـ ديبورا بلطف. وقفَت مذهولة للحظة، تحدق

في يده الممدودة، ثم أمسكَت القارورة وبدأت تفركها بسرعة بين كفيها كما لو كانت تدفئ نفسها في الشتاء.

قالت ديبورا وهي تضم يديها وتنفخ على القارورة: «إنها باردة». طلب منا كريستوف أن نتبعه إلى الحاضنة حيث سيقوم بتدفئة الخلايا، لكن ديبورا لم تتحرك. وبينما كان زكريا وكريستوف يبتعدان، رفعت القارورة وقربتها من شفتيها.

همسَت: «أنتِ مشهورة. ولا أحد يعرف ذلك».

قادنا كريستوف إلى مختبر صغير مليء بالمجاهر والأنابيب والحاويات التي تحمل لصاقاتٍ تحمل عباراتٍ مثل خطر بيولوجي وحمض نووي كتبت على جوانبها. أشار إلى أغطية التهوية التي تغطي طاولاته، وقال: «لا نريد انتشار السرطان في جميع أنحاء المكان، لذلك يمتص هذا الجهاز كلّ الهواء إلى نظام الترشيح الذي يلتقط ويقتل أيّ خليةٍ تطفو».

وأوضح معنى وسط الزرع، وكيف ينقل الخلايا من المجمد إلى الحاضنة للنمو. قال: «في النهاية تملأ الخلايا تلك الزجاجات الضخمة في الخلف»، مشيراً إلى صفوف من الأباريق بحجم جالون. «ثم نقوم بتجاربنا عليها، مثل العثور على دواء جديد للسرطان، حيث نضعه على الخلايا ونرى ما يحدث». أومأ زكريا وديبورا برأسيهما عندما أخبرهما كيف تمر الأدوية باختبارات عديدة عن طريق الخلايا، ثم الحيوانات، وأخيراً البشر.

ركع كريستوف أمام حاضنةٍ ومدّ يده إلى الداخل، ثم سحب طبقاً تنمو فيه خلايا هيلا. قال: «إنّ الخلايا صغيرة جداً جداً. لهذا السبب نتجه إلى المجهر الآن حتى أتمكن من عرضها عليكم». أدارَ مفاتيح الطاقة، ووضع الطبق على منصة المجهر، وأشار إلى شاشة صغيرة متصلة بالمجهر. أضاءت بلونٍ أخضر فلوري، شهقت ديبورا.

«إنه لونٌ جميل!».

انحنى كريستوف فوق المجهر لجعل الخلايا في بؤرة العدسة، وظهرت صورة على الشاشة بدت وكأنها مياه بركة خضراء ضبابية أكثر من كونها خلايا.

قال كريستوف: «في هذا التكبير لا يمكنك رؤية الكثير. الشاشة مملة لأن الخلايا صغيرة جداً، حتى باستخدام المجهر لا يمكنك رؤيتها أحياناً». نقر على مقبضٍ بقربه وكبّر إلى درجاتٍ أعلى وأعلى حتى تحوّل البحر الضبابي من الأخضر إلى شاشة مليئة بمئات الخلايا الفردية، ومراكزها معتمة ومنتفخة.

همست ديبورا: «أووه. ها هي ذي». مدّت يدها ولمست الشاشة، ومررت إصبعها من خليةٍ إلى أخرى.

تعقب كريستوف حدود الخلية بإصبعه. قال: «كلّ هذا خلية واحدة. تبدو أشبه بمثلثٍ مع دائرة في المنتصف، هل ترين ذلك؟».

أمسك بقطعة من الورق وأمضى ما يقرب من نصف ساعة في رسم الرسوم البيانية وشرح البيولوجيا الأساسية للخلايا بينما كانت

ديبورا تطرح الأسئلة. شغّل زكريا جهاز السمع وانحنى بالقرب من كريستوف والورقة.

قالت ديبورا: «يتحدث الجميع دائماً عن الخلايا والحمض النووي، لكنني لا أفهم ما هو الحمض النووي وما هي خلاياها».

«آه!» قال كريستوف، متحمساً: «الحمض النووي هو ما بداخل الخلية! داخل كلّ نواة، إذا تمكنا من التكبير عن قرب، سنرى قطعة من الحمض النووي تبدو هكذا». رسم خطاً طويلاً متعرجاً. «هناك ستة وأربعون قطعة من تلك القطع في الحمض النووي في كلّ نواة بشرية. نطلق عليها اسم كروموسومات – تلك هي الأشياء التي بدت ملونة ومشرقة في تلك الصورة الكبيرة التي أعطيتك إياها».

«أوه!»، قالت ديبورا، ثم نظرَت إلى زكريا: «لقد علّق أخي تلك الصورة على جدار منزله بجوار صور والدتنا وأختنا. هل تعلم أن هذا الرجل هو الذي أعطاك تلك الصورة؟».

نظر زكريا إلى الأرض وأومأ برأسه، وتحوّلت زوايا فمه إلى ابتسامة بالكاد تُرى.

قال لهما كريستوف: «ضمن الحمض النووي في تلك الصورة جميع المعلومات الجينية التي جعلت من هنرييتا هنرييتا. هل كانت والدتك طويلةً أم قصيرة؟».

«قصيرة».

«وكان شعرها داكناً، أليس كذلك؟».

جميعنا أومأ برأسه.

قال: «حسناً، كلّ هذه المعلومات جاءت من حمضها النووي. وكذلك إصابتها بالسرطان نتجت عن خطأ في الحمض النووي».

اكفهر وجه ديبورا. سمعَت عدة مرات أنها ورثت بعض الحمض النووي داخل تلك الخلايا من والدتها. لم ترغب بأن تسمع أن سرطان والدتها موجود في هذا الحمض النووي أيضاً.

قال كريستوف: «يمكن أن تحدث هذه الأخطاء عندما يتعرض المرء للمواد الكيميائية أو الإشعاع. ولكن في حالة والدتك، كان الخطأ ناتجاً عن فيروس الورم الحليمي البشري، فيروس الثآليل التناسلية. الخبر السار بالنسبة لكم هو أن الأطفال لا يرثون هذه الأنواع من التغييرات في الحمض النووي من الأب والأم، إنها تنتج فقط عن التعرض للفيروس».

«إذن، ليس لدينا الشيء الذي جعل خلاياها تنمو إلى الأبد؟» سألت ديبورا. هز كريستوف رأسه. «الآن تخبرني بعد كلّ هذه السنوات!» صاحت ديبورا. «الحمد لله، كان الأمر يشغلني كثيراً».

أشارت إلى خليةٍ على الشاشة بدت أطول من الأخريات. قالت: «هذه خلية سرطان.. صحيح؟ والبقية خلايا طبيعية؟».

قال كريستوف: «في الواقع، خلايا هيلا هي مجرد خلايا سرطانية».

قالت: «تمهّل قليلاً، هل تعني أن أياً من خلايا أمنا الطبيعية ليست على قيد الحياة؟ فقط خلاياها السرطانية؟».

«هذا صحيح».

«أوه! انظر، وكل هذا الوقت اعتقدت أن خلايا أمي الطبيعية لا تزال على قيد الحياة!».

انحنى كريستوف فوق المجهر مرة أخرى وبدأ في تحريك الخلايا بسرعة حول الشاشة حتى صاح: «انظري، هناك! أترين تلك الخلية؟» وأشار إلى مركز الشاشة. «انظري كيف تحتوي على نواة كبيرة تبدو وكأنها مقسمة إلى نصفين في المنتصف؟ تلك الخلية تنقسم إلى خليتين أمام أعيننا مباشرة! وكلاً من هاتين الخليتين ستحتويان على الحمض النووي لوالدتك».

همست ديبورا وهي تغطي فمها بيدها: «رحماك يارب».

استمر كريستوف في الحديث عن انقسام الخلايا، لكن ديبورا لم تكن تصغي. وقفت مفتونة وهي تراقب إحدى خلايا والدتها تنقسم إلى قسمين، تماماً كما فعلت عندما كانت هنرييتا جنيناً في رحم والدتها.

حدقت ديبورا وزكريا في الشاشة وكأنهما دخلا في غيبوبة، وفتحا أفواههما وترهلت وجنتاهما. كانت أقرب لحظة لهما بالقرب من والدتهما وهي حيةً منذ أن كانا طفلين.

بعد صمتٍ طويل، تحدّث زكريا.

قال: «إذا كانت هذه خلايا والدتنا، فكيف لا تكون سوداء على الرغم من أنها سوداء؟».

قال له كريستوف: «تحت المجهر، لا تحتوي الخلايا على لون. جميعها تبدو متشابهة، إنها شفافة فقط إلى أن نضع عليها لوناً مع صبغة. لا يمكنك معرفة لون الشخص من خلاياه». وطلب من زكريا أن يقترب. «هل ترغب في النظر إليها من خلال المجهر؟ إنها تبدو أفضل هناك».

علّم كريستوف ديبورا وزكريا كيفية استخدام المجهر، قائلاً: «انظر من خلال هذا... اخلع نظارتك... الآن أدر هذا المقبض للتركيز». أخيراً، ظهرت الخلايا على مرأى من عيني ديبورا. ومن خلال هذا المجهر، في تلك اللحظة، كلّ ما استطاعت رؤيته هو محيط من خلايا والدتها مصبوغة باللون الأخضر الفلوري.

همست: «إنّها جميلة»، ثم عادت إلى التحديق في الشريحة في صمت. في النهاية، ودون أن تشيح بنظرها بعيداً عن الخلايا، قالت: «يا إلهي، لم أعتقد أبداً أنني سأرى أمي تحت المجهر - لم أكن أحلم أبداً أن يأتي هذا اليوم».

قال كريستوف: «نعم، لقد أخفقوا في هوبكنز إلى حدّ كبير، على ما أعتقد». انتصبت ديبورا ونظرت إليه، فوجئت بسماع عالمٍ من هوبكنز يقول مثل هذا الكلام. ثم نظرَت إلى المجهر وقالت: «جون هوبكين هي مدرسة للتعلم، وهذا أمرٌ مهم. ولكن هذه أمي. لا أحد يبدو أنه يفهم ذلك».

قال كريستوف: «هذا صحيح. أينما قرأنا كتباً عن العلم، نجد دوماً مقطعاً عن هيلا فعلت هذا وهيلا فعلت ذاك. بعض الناس يعرفون أن تلك الأحرف الأولى من اسم شخص، لكنهم لا يعرفون من هو ذلك الشخص. هذا تاريخ مهم».

بدت ديبورا وكأنها ترغب في عناقه. قالت وهي تهز رأسها وتنظر إليه وكأنه سراب: «هذا مذهل».

فجأة، بدأ زكريا يصيح بشيء عن جورج غاي. ضربت ديبورا عصاها على إصبع قدمه فتوقف في منتصف الجملة.

قالت لـ كريستوف: «يحمل زكريا الكثير من الغضب بسبب كلّ ما يحدث. كنت أحاول أن أبقيه هادئاً. في بعض الأحيان ينفجر، لكنه يحاول».

قال كريستوف: «لا ألومك على غضبك». ثم أظهر لهما الكتالوج الذي استخدمه لطلب خلايا هيلا. كانت هناك قائمة طويلة من نسخ خلايا هيلا المختلفة يمكن لأي شخص أن يشتريها مقابل ١٦٧ دولاراً للقارورة.

قال كريستوف لـ ديبورا وزكريا: «يجب أن تحصلا على ذلك».

قالت ديبورا: «نعم، صحيح. ماذا سأفعل بقارورة من خلايا والدتي؟» ضحكَت.

«لا، أعني أنه يجب عليك الحصول على المال. على الأقل البعض مِنْه.

قالت مذهولةً: «أوه. لا بأس بذلك. أتعلمون، عندما يسمع الناس من كانت هيلا، فإن أول ما يتبادر إلى أذهانهم: «يجب أن تكونوا جميعاً مليونيرات!»».

أومأ كريستوف برأسه. قال: «خلاياها لها الفضل في بداية كلّ شيء. بمجرد أن يكون هناك علاج للسرطان، فمن المؤكد أن ذلك يرجع إلى حدّ كبير إلى خلايا والدتكما».

قالت ديبورا: «آمين». ثم، دون أيّ شعورٍ بالغضب، قالت له: «سيكسب الناس دائماً المال من خلاياها، ولا يمكننا فعل شيء حيال ذلك. لكننا لن نحصل على شيء منه».

أجاب كريستوف أنه يعتقد أن هذا خطأ. وقال لماذا لا تعامل الخلايا الثمينة معاملة النفط. عندما يظهر النفط في أرض شخص ما، فإنه لا ينتمي تلقائيا لهم، لكنهم يحصلون على جزء من الأرباح. وقال: «لا أحد يعرف كيفية التعامل مع هذا عندما يتعلق الأمر بالخلايا اليوم. عندما مرضت والدتكم، فعل الأطباء ما أرادوه ولم يطرح المرضى الأسئلة. لكن المرضى في الوقت الحاضر يريدون معرفة ما يحدث».

قالت ديبورا مرة أخرى: «آمين».

أعطاهما كريستوف رقم هاتفه الخلوي وقال أن بوسعهما الاتصال في أيّ وقت لطرح الأسئلة حول خلايا والدتهما. بينما كنا نسير نحو المصعد، اقترب زكريا ولمَس كريستوف على ظهره وقال

شكراً لك. في الخارج، فعل الشيء نفسه معي، ثم استدار للحاق بالحافلة إلى المنزل.

وقفنا أنا وديبورا في صمتٍ، وشاهدناه يبتعد. ثم وضعت ذراعها حولي وقالت: «يا فتاة، لقد شهدتِ معجزةً للتو».

(٢٠٠١)

(٣٣)

مستشفى للزنوج المختلين عقلياً

كانت هناك عدة أشياء وعدتُ ديبورا أننا سنفعلها معاً: رؤية خلايا والدتها كان أولاً؛ معرفة ما حدث لـ إلسي كان ثانياً. لذلك، في اليوم التالي لزيارتنا لمختبر كريستوف، شرعت أنا وديبورا في رحلة لمدة أسبوع تبدأ في كراونزفيل، حيث نأمل في العثور على السجلات الطبية لأختها، ثم نذهب عبر كلوفر وننتهي في رونوك، في المنزل الذي ولدت فيه هنرييتا.

كان عيد الأم، الذي كان دائماً يوماً حزيناً لـ ديبورا، ولم يبدأ هذا اليوم بشكل جيد. كانت تخطط لأخذ حفيدها ألفريد لرؤية والده في السجن قبل أن نغادر المدينة. لكن ابنها اتصل وقال إنه لا يريد زيارة ديبورا أو ألفريد الصغير إلى أن يتمكن من رؤيتهما دون النظر من خلال الزجاج. أخبرها أنه يريد معرفة المزيد عن جدته، هنرييتا، وطلب من ديبورا أن ترسل له أيّ معلومات نجدها في رحلتنا.

قالت لي وهي تبكي: «كنت أنتظر منه أن يقول ذلك طوال حياته. لم أرغب قطّ أن يُحبس في السجن ليفعل ذلك». ولكن مرة

أخرى، قالت: «لن أدع ذلك يوقفني. أريد أن أركز على الخير، مثل رؤية خلايا والدتي، والتعرف على أختي». لذا، قدنا إلى «كراونزفيل» كلّ واحدة منا في سيارتها.

لا أعرف كيف توقعت أن يبدو المستشفى السابق للزنوج المختلين عقلياً، لكنه بالتأكيد لم يكن ما وجدناه. كان مركز مستشفى كراونزفيل في حرم جامعي مترامي الأطراف مساحته ١٢٠٠ فدان، تحيط به تلال خضراء مشرقة ومروج جزّ عشبها بإتقان، ومساراتٍ للمشي، وأشجار كرز تدلّت أغصانها، وطاولات للنزهات. كان مبناها الرئيسي من الطوب الأحمر مع أعمدة بيضاء وتزدان شرفاتها بمقاعد واسعة وثريات. بدا مكاناً جميلاً لاحتساء شراب النعناع أو الشاي الحلو. وأصبح أحد مباني المستشفى القديمة الآن بنكاً للغذاء؛ بينما كان البعض الآخر يضم شعبة التحقيقات الجنائية التابعة للشرطة، ومدرسة ثانوية بديلة، ونادي الروتاري.

داخل المبنى الرئيسي، مررنا بمكاتب فارغة في ردهة بيضاء طويلة فارغة أيضاً، نادينا بأعلى صوتنا: «مرحباً؟» «أين الجميع؟» و«هذا المكان غريب». ثم، في نهاية القاعة كان هناك باب أبيض مغطى بسنواتٍ من التراب وبصمات الأصابع. كتب عليه عبارة السجلات الطبية حروف كبيرة مطبوعة بخط الاستنسيل. وكتب تحتها بحروف أصغر «ممنوع المرور».

أمسكت ديبورا مقبض الباب وأخذَت نفساً عميقاً. «هل نحن مستعدتان لهذا؟» سألت. أومأت برأسي موافقةً. أمسكَت ذراعي

بيدٍ، ودفعَت الباب لتفتحه باليد الأخرى، ودخلنا. وجدنا نفسينا داخل قفص معدني أبيض سميك مفتوح على غرفة السجلات الطبية وهي غرفة فارغة بحجم المستودع خالية من الموظفين أو المرضى أو الكراسي أو حتى الزوار أو السجلات الطبية. كانت نوافذها مغلقة ومغطاة بالأسلاك والأوساخ؛ وثمة سجادةٍ رمادية ممتلئة بتموجات من عقود من مرور الأقدام فوقها. يمتد جدار قاطع بارتفاع الخصر على طول الغرفة ليفصل منطقة الانتظار عن المنطقة التي تحمل علامة الأفراد المصرح لهم فقط، حيث تنتصب عدة صفوف من الأرفف المعدنية الطويلة فارغةً.

همست ديبورا: «لا أستطيع تصديق هذا. هل اختفت كلّ السجلات؟» مدت يدها على الرفوف الفارغة، تتمتم: «كان عام ألف وتسعمئة وخمسة وخمسون هو العام الذي قتلوها فيه... أريد سجلاتها الطبية.. أعلم أنها لم تكن جيدة... وإلا لما تخلصوا منها».

لم يكن على أحد أن يخبرنا أن شيئاً فظيعاً حدث في كراونزفيل، فالجدران كانت تنبئ بذلك.

قلت: «لنذهب للعثور على شخص يمكنه إخبارنا بشيءٍ ما».

تجولنا عبر ممرٍ طويلٍ آخر، وبدأت ديبورا بالصراخ. «عذراً. نحن نبحث عن مكتب السجل الطبي! هل يعرف أحدكم أين هو؟».

في نهاية المطاف، أخرجت امرأة شابة رأسها من إحدى المكاتب وأشارت إلينا عبر القاعة إلى مكتب آخر، حيث وجّهنا شخص ما

إلى مكتبٍ آخر. أخيراً، وجدنا أنفسنا في مكتبِ رجلٍ طويلٍ ذي لحية بيضاء سميكة تشبه لحية سانتا كلوز وحواجب برية كثيفة. مدت ديبورا يدها إليه، قائلة: «مرحباً، أنا ديبورا، وهذه مراسلتي. ربما سمعت عنا، والدتي يذكرها التاريخ مع الخلايا، ونحن بحاجة إلى العثور على بعض السجلات الطبية».

ابتسم الرجل. سأل: «من كانت والدتك، وأيّ خلايا؟».

شرحنا له لماذا كنا هناك، وقال لنا أن السجلات الطبية الحالية كانت في مبنى آخر، وأنه لم يتبق الكثير من السجلات القديمة في كراونزفيل. قال: «أتمنى لو كان لدينا أمين أرشيف. أخشى أنني الشخص الوحيد الذي قد يفيدكما بشيء».

كان اسمه بول لورز، مدير الأداء والتحسين في المستشفى، لكنه كان أيضاً أخصائياً اجتماعياً تخصص في التاريخ الذي كان شغفه. طلب منا أن نأتي ونجلس في مكتبه.

وقال: «لم يكن هناك الكثير من التمويل لعلاج السود في الأربعينات والخمسينات. أخشى أن كراونزفيل لم تكن مكاناً لطيفاً جداً للعلاج فيه في ذلك الوقت». نظر إلى ديبورا. «هل كانت أختك هنا؟».

أومأت برأسها.

«أخبريني عنها».

قالت وهي تمد يدها إلى حقيبتها لتسحب نسخة مجعدة من

شهادة وفاة إلسي: «لطالما قال والدي إنها ظلت طفلة في درجة وعيها»، وبدأت تقرأها ببطء وبصوت عالي: «إلسي لاكس... سبب الوفاة (أ) الفشل التنفسي (ب) الصرع (ج) الشلل الدماغي... قضت خمس سنوات في مستشفى ولاية كراونزفيل». وسلّمت لورز صورة شقيقتها التي علقها زكريا على جداره. «لا أعتقد أن أختي كانت تعاني من كلّ ذلك».

هز لورز رأسه. «لا تبدو مصابةً بالشلل في هذه الصورة. يا لها مِنْ طفلةٍ جميلة».

قالت ديبورا: «لقد أصيبت بنوبات. ولم تستطع أبداً تعلم كيفية استخدام المرحاض. ولكن أعتقد أنها كانت صماء فقط. لقد أصبت أنا وجميع إخوتي بصمم عصبي لأن أبي وأمي أبناء عمومة وكانا مصابين بمرض الزهري. لذا أتساءل في بعض الأحيان لو أنّ شخصاً ما علمها لغة الإشارة، ربما كانت لا تزال على قيد الحياة».

جلس لورز على كرسيه، واضعاً ساقاً على ساق، وراح ينظر إلى صورة إلسي. قال لـ ديبورا بصوته اللطيف: «يجب أن تكوني مستعدةً. في بعض الأحيان قد تكون المعرفة مؤلمة مثل الجهل».

قالت ديبورا وهي تومئ برأسها: «أنا مستعدة».

قال: «كانت لدينا مشكلة أسبستوس خطيرة. معظم سجلاتنا من سنوات الخمسينات وما قبلها كانت ملوثة. وبدلاً من تنظيف

كلّ صفحة من السجلات لحفظها، قررت الإدارة نقلها في حقائب ودفنها».

مشى إلى حجرة تخزينٍ بالقرب من مكتبه، واصطفت على جدرانها الرفوف وخزائن الملفات. في الزاوية الخلفية، كان يحشر مكتباً صغيراً مواجهاً للجدار. عمل لورز في كراونزفيل منذ عام ١٩٦٤، عندما كان طالباً متدرباً في العشرينات من عمره، وكان لديه عادة جمع الوثائق التاريخية الممكنة: سجلات المرضى، ونسخ من تقارير القبول القديمة التي لفتت انتباهه كما عندما دخل رضيع أعمى بعين واحدة مع تشوهات في الوجه ولم يكن عنده عائلة، وثمة طفل أودع في مؤسسة أمراض عقلية دون أيّ اضطراب نفسي واضح.

اختفى لورز في الحجرة وبدأ يتمتم وسط ضجيج صاخبٍ وضوضاء مزعجة. «كان هناك عدد قليل... لقد أخرجتها قبل أسبوعين... آه! ها نحن ذا». خرج من الحجرة حاملاً كومة من الكتب الضخمة مع ملفات جلدية سميكة وأغطية قماشية خضراء داكنة. كانت مهترئة بفعل السنين وقد غلفها الغبار وامتلأت بالورق السميك الأصفر.

قال: «هذه تقارير تشريح الجثث»، وفتح الكتاب الأول حيث ملأت رائحة العفن الغرفة. لقد وجدها أثناء البحث في قبو مبنى مهجور في المستشفى في الثمانينات، كما قال. عندما فتحها أول مرة، زحفت مئات الحشرات من الصفحات إلى مكتبه.

بين عام ١٩١٠، عند افتتاح المستشفى، وأواخر الخمسينات، عندما تبين أن السجلات ملوثة، مرّ عشرات الآلاف من المرضى عبر كراونزفيل. ولو أن سجلاتهم نجت من الضياع لملأت حجرة لورز الصغيرة عدة مرات. والآن هذه الكومة كانت كلّ ما تبقى في كراونزفيل.

أخرج لورز مجلداً تضمن بعض التقارير من عام ١٩٥٥، وهو العام الذي توفيت فيه إلسي، وصاحت ديبورا بحماس.

«ما كان اسمها الكامل؟» سأل لورز، وهو يمرر إصبعه أسفل قائمة الأسماء المكتوبة بخط دقيق بجوار أرقام الصفحات.

قلت: «إلسي لاكس» ورحت أمسح الأسماء من فوق كتفه بينما كان قلبي ينبض بسرعة كبيرة. ثم، في ذهولٍ أشرت إلى اسم إلسي لاكس على الصفحة وقلت: «يا إلهي! ها هي».

شهقت ديبورا، وفجأة أصبح وجهها شاحباً كالرماد. أغمضَت عينيها، وأمسكَت ذراعي لتمنع نفسها من الانهيار، وبدأت تهمس: «أشكرك يا إلهي... أشكرك».

«رائع! هذا يفاجئني حقاً». قال لورز. «كان من المستبعد جداً أن نجدها هنا».

رحت أنا وديبورا نقفز ونصفّق. بغض النظر عما احتواه السجل، فإنه على الأقل سيخبرنا شيئاً عن حياة إلسي، والتي اعتقدنا أنه أفضل من عدم معرفة أيّ شيء على الإطلاق.

فتح لورز صفحة إلسي، ثم أغلق عينيه بسرعة وضمّ الكتاب إلى صدره قبل أن نتمكن من رؤية أيّ شيء. همس: «لم أر صورة في أيّ من هذه التقارير».

ثمّ أنزل الكتاب حتى نستطيع جميعاً أن نرى وفجأة بدا أنّ الوقت قد توقف. وقفنا ثلاثتنا، وكادت رؤوسنا تلمس الصفحة، وانهمرت دموع ديبورا: «يا طفلتي! إنها تشبه ابنتي تماماً! إنها تشبه ديفون... إنها تشبه والدي تماماً.. لديها بشرة آل لاكس الزيتونية الناعمة نفسها».

اكتفيت أنا ولورز في التحديق بصمتٍ عاجزين عن الكلام.

في الصورة، تقف إلسي أمام جدارٍ مطلي بأرقام لقياس الطول. شعرها، الذي قضت هنرييتا ذات مرةٍ ساعات في تمشيطه وتجديله، مشعث، مع ضفائر سميكة يصل طولها إلى ما دون علامة خمسة أقدام خلفها. تجحظ عيناها اللتان كانتا جميلتين يوماً من رأسها، تحيط بهما كدمات طفيفة وتورم جعلهما مغلقتين تقريباً. تحدق في مكان ما أسفل الكاميرا مباشرة وتبكي ووجهها مشوه وبالكاد يمكن التعرف عليه، فتحات أنفها ملتهبة ومتسخة بالمخاط وشفتاها متورمتان إلى ما يقرب من ضعف حجمها الطبيعي تحيط بهما حلقة عميقة داكنة من الجلد المشقق ولسانها سميك يبرز من فمها. يبدو أنها كانت تصرخ. رأسها ينحني بشكل غير طبيعي إلى اليسار والذقن مرفوعة ومثبتة في مكانها بواسطة زوج كبير من الأيدي البيضاء.

همست ديبورا: «إنها لا تريد وضع رأسها بهذه الطريقة. لماذا يمسكون برأسها على هذا النحو؟».

ولم ينطق أيّ منا بحرف. وقفنا جميعاً هناك، نحدق في تلك الأيدي البيضاء الضخمة الملتفة حول عنق إلسي. كانت يدا أنثى أظافرها مشذبة مطلية باللون الوردي، خنصرها مرفوع قليلاً، كانتا يدان تصلحان لإعلان تجاري لطلاء الأظافر، لا للالتفاف حول حلق طفلةٍ تبكي.

وضعت ديبورا الصورة القديمة لـ إلسي وهي فتاة صغيرة بجوار الصورة الجديدة.

همس لورز: «أوه، كانت جميلة».

مررت ديبورا إصبعها على وجه إلسي في صورة كراونزفيل. قالت: «تبدو وكأنها تتساءل أين أنا. تبدو وكأنها بحاجة إلى شقيقتها».

أُرفقت الصورة بالزاوية العلوية من تقرير تشريح إلسي، الذي بدأنا أنا ولورز في قراءته، وقلنا عبارات من حين لآخر بصوت عالٍ: ««تشخيص البلاهة».... مرتبط مباشرة بمرض الزهري».. «القيء الناجم عن التحريض الذاتي عن طريق دفع الأصابع داخل الحلق لمدة ستة أشهر قبل الموت». في النهاية، يقول التقرير إنها كانت «تتقيأ مادة تشبه القهوة المطحونة»، والتي ربما كانت دماً متخثراً.

تماماً عندما قرأ لورز عبارة «تتقيأ مادة تشبه القهوة المطحونة»، بصوت عالٍ، اقتحم رجل قصير مستدير أصلع يرتدي بدلة عمل

داكنة الغرفة وأخبرني بالتوقف عن تدوين الملاحظات وطلب معرفة ما كنا نفعله هناك.

«هذه عائلة المريضة» ردّ لورز. «إنهم هنا للنظر في السجلات الطبية للمريضة».

توقف الرجل، وهو ينظر إلى ديبورا، ثم في وجهي: امرأة سوداء قصيرة في الخمسينات من عمرها، وامرأة بيضاء أطول في العشرينات من عمرها. أمسكت ديبورا بعصاها وحدقَت في عينه بنظرةٍ توسلت إليه أن يعبث معها. مدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت ثلاث نسخٍ من الورق: شهادة ميلادها، وشهادة ميلاد إلسي، والوثيقة القانونية التي تمنحها التوكيل على إلسي، وهو أمر أمضت شهوراً في الحصول عليه، فقط في حالة حاول أيّ شخص منعها من القيام بما كنا نقوم به بالضبط.

سلمَتها إلى الرجل الذي أمسك بكتاب تقرير تشريح الجثة وراح يقرأ. حدقنا أنا وديبورا فيه بغضب واضح لمحاولته إيقافنا ولم تدرك أيّ منا أنه أحد مسؤولي المستشفى الوحيدين الذين حاولوا حماية خصوصية عائلة لاكس.

«هل يمكن لـ ديبورا الحصول على نسخة من تقرير تشريح الجثة؟» سألتُ لورز.

قال: «نعم، يمكنها ذلك، إذا قدمَت طلباً خطياً». أخذ قطعة من الورق من مكتبه وسلمها إلى ديبورا.

«ماذا يفترض بي أن أكتب؟» سألَت.

فراح لورز يمليها: «أنا، ديبورا لاكس...»

في غضون لحظات كان لديها طلب سجل طبي رسمي على قطعة ورق ممزقة. سلمَته إلى لورز وأخبرته أنها تحتاج نسخة جيدة من تلك الصورة أيضاً. قبل أن يغادر لورز لطبع النسخ مع الرجل الأصلع، أعطاني كومة من الصور والمستندات لألقي نظرة عليها أثناء غيابه. كانت أول وثيقة في الكومة مقالة واشنطن بوست من عام ١٩٥٨، بعد ثلاث سنوات من وفاة إلسي، بعنوان رئيسي:

المستشفى المكتظ «يموت» فيه مرضى يمكن شفاؤهم.

نقص الموظفين في كراونزفيل يدفعهم إلى مرحلة مزمنة.

في الثانية التي قرأت فيها العنوان، دفنت المقالة ووجهها نحو الأسفل في حضني. للحظة فكرت في عدم إظهاره لـ ديبورا. فكرت ربما يجب أن أقرأها أولاً، حتى أتمكن من تهيئتها لأي شيء فظيع كنا على وشك أن نعرفه. لكنها سحبتها من يدي وقرأت العنوان بصوت عالٍ، ثم نظرت إليّ بذهولٍ.

قالت: «هذا لطيف»، مشيرة إلى رسم توضيحي كبير أظهر مجموعة من الرجال في أوضاع بائسة، أو يسندون رؤوسهم بأيديهم، أو يستلقون على الأرض، أو يحتشدون في الزوايا. «أودّ الحصول على هذه الصورة لأعلقها على جداري». أعادت المقالة إلي وطلبت أن أقرأها بصوت عالٍ.

«متأكدة؟» سألتُها. «سأقرأ فيه بعض الأشياء المزعجة للغاية على الأرجح. هل أقرأه أولاً ثم أخبرك ما جاء فيه؟»

«لا»، أجابت بحزم. «لقد أخبرنا أنه لم يكن لديهم المال لرعاية السود». اقتربَت لتقف خلفي وتتابع ما أقرأه من فوق كتفي، ثم ألقت نظرة سريعة على الصفحة وأشارت إلى عدة كلمات: «شنيع؟» قالت. «عنابر السود المرعبة».

كانت مستشفى كراونزفيل التي ماتت فيه إلسي أسوأ بكثير مما تخيلته ديبورا. وصل المرضى من مؤسسة قريبة محمّلين في عربة قطار ضيقة. في عام ١٩٥٥، وهو العام الذي ماتت فيه إلسي، بلغ عدد نزلاء كراونزفيل رقماً قياسياً تجاوز ألفين وسبعمئة مريض، أيّ ما يقرب من ثمانمئة فوق السعة القصوى. عام ١٩٤٨، كانت أرقام العام الوحيدة المتاحة تظهر أن متوسط عدد الأطباء في كراونزفيل هو طبيب واحد لكل ٢٢٥ مريضاً، وكان معدل الوفيات فيها أعلى بكثير من معدل الشفاء والخروج من المستشفى. حُبس المرضى في أماكن مغلقة سيئة التهوية مع مصارف على الأرض بدلاً من المراحيض. حشروا الجميع، الرجال والنساء والأطفال السود الذين يعانون من كلّ شيء، من الخرف والسل إلى «العصبية» و«نقص الثقة بالنفس» والصرع في كلّ مكان يمكن تصوره، حتى في غرف الأقبية دون نوافذ والشرفات المسيجة بقضبان حديدة. عندما يوفرون لهم أسرّة، كان ينامَ عادةً مريضين أو أكثر على مرتبة مزدوجة، مستلقين رأساً إلى قدم، ويُجبرون على الزحف عبر بحر

من الأجساد النائمة للوصول إلى أسرّتهم. لم يُفصل النزلاء حسب العمر أو الجنس، وغالباً ما كان من بينهم مرتكبو جرائم جنسية. كانت هناك أعمال شغب وأسلحة يدوية الصنع. جرى تقييد المرضى المشاغبين إلى أسرّتهم أو عزلهم في غرف مغلقة.

عرفتُ لاحقاً أنه أثناء وجود إلسي في كراونزفيل، غالباً ما أجرى العلماء أبحاثاً على المرضى هناك دون موافقة، ومن بين تلك الأبحاث دراسة بعنوان «دراسات تصوير الجمجمة والدماغ المحقون بالغاز بالأشعة السينية لدى ١٠٠ مريض مصاب بالصرع». وتصوير الدماغ المحقون بالغاز كان تقنية ظهرت عام ١٩١٩ لالتقاط صورٍ للدماغ الذي يطفو أساساً في بحرٍ من السوائل. وهذه السوائل تحمي الدماغ عادةً من الأذى، ولكنه يجعل من الصعب جداً التقاط الصور بالأشعة السينية لأن الصور الملتقطة عبر السائل تكون ضبابية. في حين ينطوي تصوير الدماغ المحقون بالغاز على حفر ثقوب في جماجم الأشخاص الخاضعين للتجربة، وتجفيف السائل المحيط بأدمغتهم، ومن ثم ضخّ الهواء أو الهيليوم في الجمجمة بدلاً من السائل للسماح للأشعة السينية بتصوير الدماغ من خلال الجمجمة. وتستمر الآثار الجانبية لهذا الإجراء من صداع لا يحتمل ودوار ونوبات صرعٍ وقيء إلى أن يقوم الجسم بإعادة ملء الجمجمة بشكل طبيعي بسائل النخاع الشوكي، والذي عادة ما يستغرق شهرين إلى ثلاثة أشهر. نظراً لأن تصوير الدماغ المحقون بالغاز يمكن أن يسبب تلفاً دائماً في الدماغ وشللاً، فقد تم التخلي عنه في السبعينيات.

لا يوجد دليل على أن العلماء الذين أجروا بحثاً على المرضى في كراونزفيل حصلوا على موافقةٍ سواء من المرضى أو من ذويهم. استناداً إلى عدد المرضى المُدرجين في دراسة تصوير الدماغ المحقون بالغاز وسنوات إجرائها، أخبرني لورز لاحقاً أنه على الأرجح شمل كلّ طفل مصاب بالصرع في المستشفى بما فيهم إلسي. وينطبق الأمر نفسه على الأرجح على دراسة أخرى على الأقل، تسمى «استخدام الرصاص الصدغي العميق في دراسة الصرع النفسي الحركي»، والتي تضمنت إدخال مسابير معدنية في أدمغة المرضى.

بعد وقت قصير من وفاة إلسي، تولى مأمور جديد المسؤوليات في كراونزفيل وبدأ في إطلاق سراح مئات المرضى الذين تم إيداعهم في المؤسسة دون داعٍ. ونقلت مقالة واشنطن بوست عنه قوله: «أسوأ ما يمكنك فعله لشخص مريض هو إغلاق الباب عليه ونسيانه».

عندما قرأتُ هذا السطر بصوتٍ عالٍ، همست ديبورا: «لم ننسها. توفيت أمي... لم يخبرني أحد أنّها كانت هنا. كنت سأخرجها لو عرفت».

عندما غادرنا كراونزفيل، شكرت ديبورا لورز على المعلومات قائلةً: «كنت أنتظر هذا منذ أمدٍ طويل يا دكتور». عندما سألها عما إذا كانت بخير، اغرورقت عيناها بالدموع وقالت: «كما أقول لإخوتي دوماً، إذا أردتم دخول التاريخ، فلا يمكنكم فعل ذلك بقلبٍ مليءٍ بالكراهية. عليكم أن تتذكروا بأن تلك الأوقات كانت مختلفة».

عندما خرجنا، سألتُ ديبورا إذا كانت متأكدة من أنها بخير. فضحكَت وكأنني مجنونة. قالت: «لقد كانت فكرة جيدة أن نقرر التوقف هنا»، ثم أسرعَت إلى موقف السيارات، وصعدَت إلى سيارتها، وسحبَت النافذة إلى أسفل. «إلى أين سنذهب الآن؟».

ذكر لورز أن السجلات القديمة الأخرى من كراونزفيل كانت مخزنة في أرشيف ولاية ماريلاند في أنابوليس، على بعد حوالي سبعة أميال. لم يعتقد أنهما ستجدان سجلات من الخمسينات، لكنه رأى أنّه لا ضيرَ في البحث.

«سنذهب إلى أنابوليس لنرى ما إذا كان لديهم المزيد من السجلات الطبية عن أختي؟».

قلتُ: «لا أعرف إن كانت هذه فكرةً جيدة. ألا تريدين أخذ استراحة؟».

«مُحال». صرخَت. «لدينا الكثير من التحريات لإنجازها، لقد بدأت الإثارة للتو». صاحت من سيارتها مبتسمةً ولوحَت بالصورة الجديدة لأختها عبر النافذة فصعدتُ سيارتي لأتبعها.

بعد حوالي عشر دقائق، عندما توقفنا في موقف سيارات دائرة أرشيف الولاية، رقصت ديبورا في مقعد سيارتها على موسيقى إنجيلية صاخبة جداً لدرجة أنني سمعتها ونوافذي مرفوعة. عندما دخلنا، ذهبَت مباشرة إلى مكتب الاستقبال ودسَت يدها في حقيبتها لتسحب السجلات الطبية لأمها ولوّحَت بها في الهواء

فوق رأسها، قائلة: «يدعون والدتي هيلا! إنها في جميع أجهزة الكمبيوتر!».

شعرتُ بالارتياح عندما قالت موظفة الاستقبال أنّ الأرشيف ليس لديه سجلات إلسي الطبية. إذ لم أعرف كم يمكن لـ ديبورا أن تصمد أكثر، وشعرتُ بالخوف ممّا قد نجده هناك.

بقية اليوم كان مشوشاً. في طريقنا إلى كلوفر، وفي كلّ مرة توقفنا فيها، كانت ديبورا تقفز من سيارتها ممسكةً بالصورة الجديدة لأختها تدفعها في وجه كلّ شخص قابلناه، سواء امرأة على ناصية الشارع أو الرجل الذي عبأ الوقود في المحطة أو القس في كنيسة صغيرة وحتى النادل في المطعم. تقول في كلّ مرة: «مرحباً، اسمي ديبورا وهذه مراسلتي، ربما سمعت عنا، أمي دخلت التاريخ مع خلاياها، ووجدنا للتوّ هذه الصورة لأختي!».

وفي كلّ مرة كان ردّ الفعل الناس نفسه: الرعب المطلق. لكن ديبورا لم تلاحظ. ابتسمَت وضحكَت قائلة: «أنا سعيدة للغاية لأن تحرياتنا تسير على ما يرام».

ومع مرور اليوم، أصبحت قصة الصورة أكثر تفصيلاً. قالت مرةً: «إنها متورمة قليلاً من البكاء لأنها تفتقد أمي». وفي مرة أخرى قالت لامرأة: «أختي مستاءة لأنها كانت تبحث عني ولم تستطع العثور عليّ».

في بعض الأحيان كانت تتوقف على جانب الطريق وتطلب

مني التوقف بجانبها حتى تتمكن من إخباري بأفكار مختلفة كانت تخطر لها أثناء قيادتها. وفي مرةٍ قررت أنها بحاجة إلى صندوق ودائع آمن لتضع فيه إنجيل والدتها وشعرها؛ وسألتني لاحقاً عما إذا كانت بحاجة إلى حقوق ملكية توقيع هنرييتا حتى لا يسرقه أحد. في محطة الوقود وبينما كنا ننتظر في طابور الحمام، سحبت مطرقةً من حقيبة ظهرها وقالت: «أتمنى أن تعطيني الأسرة المنزل حتى أتمكن من جعله مكاناً تاريخياً. لكنهم لن يفعلوا، لذلك سآخذ مقبض الباب ليكون لديّ على الأقل شيء منه».

لاحقاً، خرجت ديبورا من سيارتها والدموع تكاد تنهمر من عينيها. قالت: «لقد واجهتُ صعوبة في إبقاء عيني على الطريق. لا أتوقف عن النظر إلى صورة أختي». كانت تقود وصورتا إلسي على مقعد الراكب بجانبها، تحدق بهما أثناء قيادتها. «لا أستطيع إخراج كلّ هذه الأفكار من رأسي. أستمر في التفكير فيما مرّت به في تلك السنوات قبل وفاتها».

أردت أن آخذ الصورة منها حتى تتوقف عن تعذيب نفسها بها، لكنها لم تكن لتسمح لي لو حاولتُ. قلت لها ربما من الأفضل أن نعود إلى المنزل، كانت أياماً صعبة، وربما لم تكن مستعدة لهذا القدر الكبير من التحريات في وقت واحد. لكنها في كلّ مرة تقول إنني مجنونة إذا ظننت أنها ستتوقف الآن. لذا، واصلنا المسير.

أكثر من مرة خلال النهار كانت ديبورا تقول إن من الضروري أن آخذ السجلات الطبية لأمها إلى غرفتي في الفندق حيث نتوقف

لقضاء الليل. «أعلم أنه يتعين عليك النظر إلى كلّ صفحة وتدوين الملاحظات وكل شيء لأنك بحاجة إلى جميع الحقائق». وأخيراً، عندما دخلنا إلى فندقٍ في مكانٍ ما بين أنابوليس وكلوفر حوالي الساعة التاسعة ليلاً، أعطتني إياها.

قالت وهي تمشي إلى الغرفة المجاورة لغرفتي: «سأخلد إلى النوم. خذي قسطاً من الراحة».

(٢٠٠١)

(٣٤)

السجلات الطبية

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعد بضع دقائق، دقّت ديبورا بابي. كانت قد ارتدت قميصاً أبيض كبير للغاية يصل إلى ما دون ركبتيها مرسوم عليه صورة لامرأة ذات شكل عصا تخرج الكعك من الفرن، وطبع عليه كلمة «الجدة» بحروف كبيرة تشبه خط الأطفال.

قالت: «قررت ألا أخلد إلى النوم. أريد أن أنظر إلى تلك الأشياء معك». كانت متوترة وقلقة وكأنها تناولت للتو عدة جرعات من الإسبريسو. أمسكَت في إحدى يديها أمسكت صورة كراونزفيل لـ إلسي؛ وفي الأخرى أخذَت الحقيبة المملوءة بسجلات أمها الطبية من الخزانة حيث وضعتُها. ألقت محتويات الحقيبة على سريري كما فعلَت في الليلة الأولى التي التقينا فيها.

قالت: «دعينا نعمل».

كانت هناك أكثر من مئة صفحة، والعديد منها مجعدٌ أو مطوي أو ممزّق، وكلها غير مرتبة. وقفتُ أحدّق للحظة طويلة، مذهولةً

ومغمومة، ثم قلت لها ربما علينا فرزها معاً ثم سأجد مكاناً لتصوير نسخٍ أحتفظ بها لحين حاجتي إليها.

«كلا!» صاحت ديبورا، ثم ابتسمَت ابتسامة عصبية. «يمكننا قراءة كلّ شيء هنا ويمكنك تدوين الملاحظات».

قلت: «سيستغرق ذلك أياماً».

قالت ديبورا، وهي تقفز أمام كومة الأوراق وتجلس وسط السرير: «لا، لن يستغرق كلّ ذلك الوقت».

سحبتُ كرسياً بذراعين، وفتحتُ حاسوبي المحمول، وبدأت في الفرز. كان هناك سند قطعة صغيرة من الأرض من عقار كلوفر اشترته ديبورا بألفي دولار منحها إياها والدها من تسوية قضية الأسبستوس. وهناك صورة من صحيفة عام ١٩٩٧ لابن لورانس مع تعليق يقول، مطلوب. لورانس لاكس، سرقة مع التهديد بسلاح مميت. وهناك نماذج طلبات لشراء خلايا هيلا عبر الإنترنت وإيصالات ورسائل إخبارية من كنيسة ديبورا ونسخ لا نهاية لها على ما يبدو من صورة هنرييتا التي تضع فيها يديها على الوركين. والعشرات من صفحات الدفاتر حيث كتبت ديبورا تعريفات للمصطلحات العلمية والقانونية، وقصائد عن حياتها:

السرطان

الفحص

لا أستطيع تحمل كلفته

يحصل عليه البيض والأغنياء
أمي كانت سوداء
الفقراء السود لا يملكون المال لدفع ثمنه
غاضبة.. نعم أنا غاضبة
لقد اعتدنا على أن يأخذوا دمائنا والكذب علينا
علينا أن ندفع المال لطبيبنا، هل يعقل؟
مستشفى جون هوبكين وجميع الأماكن الأخرى
التي بها خلايا أمّي لا تعطيها شيئاً

بينما كنت أقرأ، أخذت ديبورا العديد من الصفحات المصورة من كتاب علم الوراثة وأمسكَت بها لأرى، قائلة: «هكذا عرفتُ كيف أحصل على توكيل رسمي وإحضار كلّ تلك الأشياء للحصول على معلومات أختي في كراونزفيل. لم يعرفوا مع من كانوا يعبثون!» وبينما تتحدث، كانت تراقب يدي تتحركان خلال كومة الأوراق.

أمسكتُ صفحةً من السجلات بالقرب من وجهي لأتمكن من قراءة الخط الصغير ثم رحت أقرأ بصوت عالٍ، «هذا البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً...شيء ما.. لا أستطيع قراءة خط اليد... «إيجابي الريزوس» «كان القيد بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٤٩.

«أوه، حسناً» قلت فجأة. «هذا قبل ثلاثة أيام من ولادتك، كانت والدتك حاملاً بك هنا».

«ماذا؟ يا إلهي». صاحت ديبورا وهي تنتزع الورقة من يدي وتحدّق فيها وقد فغرت فمها. «ماذا تقول أيضاً؟».

أخبرتها أنه كان فحصاً اعتيادياً. وقلت مشيرةً إلى الصفحة: «انظري هنا. عنق رحمها متوسع بمقدار سنتيمترين.. إنها تستعد لإنجابك».

قفزت ديبورا على السرير، وصفقت بيديها، وأمسكت صفحة أخرى من السجلات الطبية.

«اقرأي هذه».

كان التاريخ ٦ فبراير ١٩٥١. قلت: «هذا بعد حوالي أسبوع من ذهابها لأول مرة إلى المستشفى مصابةً بسرطان عنق الرحم. إنها تستيقظ من التخدير بعد أخذ الخزعة منها. تقول إنها تشعر أنها على ما يرام».

على امتداد الساعات القليلة اللاحقة سحبت ديبورا الأوراق من الكومة لأقرأها وأرتبها. في لحظةٍ كانت تصرخ بفرح بسبب حقيقةٍ اكتشفتُها، وفي الثانية تشعر بالذعر من حقيقةٍ أخرى لم تكن جيدة، أو عندما تراني أمسك بصفحة من السجلات الطبية لوالدتها. في كلّ مرة ينتابها الذعر كان تثور على السرير وتقول: «أين تقرير تشريح شقيقتي؟» أو «أوه لا، أين وضعت مفتاح غرفتي؟».

في بعض الأحيان كانت تخبئ الأوراق تحت الوسادة، ثم تخرجها عندما تقرر أنه لا بأس بأن أراها. قالت مرةً: «ها هو تقرير

تشريح جثة والدتي». وبعد بضع دقائق، سلمتني صفحة قالت إنها المفضلة لديها لأنها تحمل توقيع والدتها - القطعة الوحيدة من خط يد هنرييتا في السجلات. كانت استمارة الموافقة التي وقعَتها قبل المعالجة بالراديوم، عندما أُخذت عينة هيلا الأصلية.

في نهاية المطاف، صارت ديبورا هادئة. استلقت على جانبها وراحت تتأمل صورة كراونزفيل لـ إلسي لفترة طويلة، اعتقدتُ أنها غطّت في النوم. ثم همسَت: «يا إلهي. لا أحب الطريقة التي أمسكوا بها عنقها». رفعت الصورة وأشارت إلى اليد البيضاء.

أجبتها: «لا. لا أحب ذلكَ أيضاً».

«كنتِ تأملين ألا ألاحظ ذلك، صحيح؟».

«لا. أعرف أنكِ لاحظتِ».

أرخت رأسها على الوسادة مرةً أخرى. بقينا على هذا النحو لساعاتٍ، أنا أقرأ وأدون الملاحظات، وديبورا تحدّق في صورة إلسي في صمتٍ طويلٍ كسره تعليقها البسيط فقط: «تبدو أختي خائفة»... «لا أحبّ هذه النظرة على وجهها»... «كانت تخنقُ نفسها؟»... «أعتقد أنها استسلمت بعد أن أدركت أنها لن ترى والدتي مجدداً». في بعض الأحيان كانت تهز رأسها بقوة، كما لو كانت تحاول انتزاع نفسها من شيء ما.

في النهاية انحنيت على كرسيي وفركت عيني. كان الوقت منتصف الليل ولا يزال لدي كومة كبيرة من الورق لفرزها.

قلت: «ربما عليكِ الحصول على نسخة أخرى من السجل الطبي لوالدتك وتدبيسه بجميع الصفحات من أجل الحفاظ على استقامة كلّ شيء».

حدقت ديبورا في وجهي بنظرةِ شكٍّ واضحة. انتقلَت عبر الغرفة إلى السرير الآخر، استلقت على بطنها وراحت تقرأ تقرير تشريح شقيقتها. بعد بضع دقائق، قفزَت وأخذَت قاموسها.

«هل شخصوا حالة شقيقتي بالبلاهة؟» قالت، ثم بدأت في قراءة التعريف بصوت عال. «البلاهة: العجز التام عن الفهم أو الحماقة». ألقت القاموس بعيداً. «هل هذا ما يقولون أنه حال أختي؟ هل كانت حمقاء؟ هل كانت بلهاء؟ كيف يمكنهم فعل هذا؟».

أخبرتها أن الأطباء يستخدمون كلمة حماقة للإشارة إلى التخلف العقلي، وإلى تلف الدماغ المصاحب للسفلس الوراثي. قلت: «إنها كلمة عامة نوعاً ما لوصف شخصٍ بطيء الفهم».

جلست بجانبي وأشارت إلى كلمة مختلفة في تقرير تشريح جثة أختها. «ما الذي تعنيه هذه؟» وأخبرتها. فاكفهر وجهها، وتراخى فكها، وهمست: «لا أريدك أن تضعي هذه الكلمة في الكتاب».

قلت: «لن أفعل»، ثم ارتكبتُ خطأ. ابتسمتُ. ليس لأنني ظننت أن هذا مضحك بل لأنني وجدت أنه من اللطيف أن تحمي شقيقتها. لم تخبرني أبداً أن ثمة ما ترفض ذكره ضمن الكتاب، وكانت

هذه كلمة لم أكن لأدرجها أبداً لأن لا صلة لها بالمحتوى بالنسبة لي. لذلك ابتسمتُ.

حدّقت ديبورا في وجهي. «إياكِ أن تضعيها في الكتاب!» ردّت بغضب.

قلت لها: «لن أفعل ذلك»، وكنت أعني ذلك. لكنني كنت لا أزال أبتسم ولكن الآن بشيءٍ من العصبية أكثر من أيّ سبب آخر.

«أنت تكذبين»، صرخت ديبورا وهي تقلب جهاز التسجيل وتشدّ قبضة يدها.

«لست أكذب، أقسم لكِ، انظري، سأقول ذلك على الشريط ويمكنك مقاضاتي إذا استخدمتها». ضغطتُ على المسجل، وقلت في الميكروفون أنني لن أضع هذه الكلمة في الكتاب، ثم أطفأته. «أنت تكذبين». صرخَت مرة أخرى. قفزَت من السرير ووقفت فوقي، مشيرة بإصبعها في وجهي. «إذا كنت لا تكذبين، لماذا ابتسمتِ؟».

بدأت بحشو الأوراق بشكل محمومٍ في حقيبتها القماشية بينما كنت أحاول تبرير ابتسامتي وإقناعها. فجأة ألقت الحقيبة على السرير وهرعت نحوي. ضربتني بيدها على صدري بقوة ودفعتني إلى الحائط، وراحت تضربني بلا انقطاع وترطم رأسي بالجص.

«لحساب من تعملين؟» ردّدت بغضب. «جون هوبكين؟».

«ماذا؟ لا». صرختُ محاولةً أن ألتقط أنفاسي. «أنت تعرفين أنني أعمل لحسابي».

«من أرسلكِ؟ من يدفعُ لكِ؟» صرخَت، ولا تزال يدها تمسك بي على الحائط. «من دفع ثمن هذه الغرفة؟».

«لقد تحدثنا في هذا الأمر سابقاً». قلت. «أتَذكرين؟ بطاقات الائتمان؟ قروض الطلاب؟».

ثم، وللمرة الأولى منذ التقينا، فقدت صبري مع ديبورا. نزعتُ عني قبضتها وأخبرتها أن تبتعد عني وأن تهدأ. وقفَت على بعد بوصات مني تحدق بي بوحشية مرة أخرى لدقائق طويلة. ثم فجأة ابتسمَت وراحت تمسّد شعري قائلةً: «لم أركِ غاضبةً من قبل. كنت بدأت أتساءل عما إذا كنتِ إنساناً لأنك لم تلفظي كلمات نابية أمامي أبداً».

ثم، ربما تفسيراً لما حدث للتو، أخبرتني أخيراً عن كوفيلد.

قالت: «لقد كان محامياً جيداً. أخبرته أنني سأسير وسط النار قبل أن أدعه يأخذ سجلات أمي الطبية. لا أريد أن يحصل عليها أيّ شخص. حصل الجميع في شتى أنحاء العالم على خلاياها، والشيء الوحيد الذي حصلنا عليه من والدتنا هو فقط سجلاتها وكتابها المقدس. لهذا السبب أنا منزعجة جداً بشأن كوفيلد. كان يحاول أن يأخذ الشيء الوحيد الذي حصلت عليه من والدتي».

أشارت إلى حاسوبي المحمول على السرير وقالت: «لا أريدك أن تكتبي كلّ كلمة ترد في السجلات هنا. اكتبي ما يحتاجه الكتاب، ولكن ليس كلّ شيء. لا أريد لأحد سوى عائلتي أن يحصل على هذه السجلات».

بعد أن وعدتها بعدم نسخ جميع السجلات، قالت ديبورا إنها ذاهبة إلى الفراش مرة أخرى، ولكن طوال الساعات القادمة ظلّت تطرق بابي كلّ خمسة عشر أو عشرين دقيقة. في المرة الأولى كانت تفوح منها رائحة الخوخ وقالت: «كان علي أن أذهب إلى سيارتي من أجل غسولي لذا فكرت في إلقاء التحية». وفي كلّ مرة كان هناك عذرٌ آخر: «لقد نسيت مقص الأظافر في السيارة»... «يعرضون مسلسل إكس فايلز!»... «خطرت الفطائر على بالي فجأةً!». في كلّ مرة طرقت، فتحت بابي على مصراعيه حتى تتمكن من رؤية الغرفة والسجلات الطبية التي تبدو كما كانت عندما غادرَت.

في آخر مرة طرقَت الباب، اقتحَمت الحمام وانحنت فوق المغسلة، ووجهها قريب من المرآة. «هل أنا مريضة؟» صرخَت. دخلتُ إلى الحمام حيث وقفت مشيرةً إلى جبهتها. بدا وكأنه طفح جلدي.

استدارت وسحبت قميصها حتى أتمكن من رؤية رقبتها وظهرها الذي كانت تغطيه بقعٌ حمراء.

قالت: «سأضع بعض الكريم عليه. ربما يجب أن أتناول حبوب النوم أيضاً» عادت إلى غرفتها وبعد لحظةٍ ارتفع صوت تلفازها. استمر الصراخ والبكاء وإطلاق النار من التلفزيون طوال الليل، لكنني لم أرها مرة أخرى حتى الساعة السادسة صباحاً، أيّ بعد ساعة واحدة من ذهابي إلى النوم، حيث طرقَت بابي وهي تصرخ: «إفطار كونتيننتال مجاني».

كانت عيناي حمراوين ومتورمتين تحيط بهما هالات داكنة، وكنت لا أزال أرتدي ملابس اليوم السابق. نظرت ديبورا في وجهي وضحكَت.

«نحن في حالة يرثى لها». قالت، مشيرة إلى الطفح الذي يغطي وجهها الآن. «يا إلهي، لقد كنت قلقة للغاية الليلة الماضية. لم أستطع فعل أيّ شيء لأهدأ لذلك قمت بطلاء أظافري». ومدّت لي يديها كي أرى. «النتيجة مريعة». قالت ضاحكة. «أعتقد أنني فعلتها بعد أن تناولت حبوب النوم».

كانت أظافرها والكثير من الجلد المحيط بها حمراء اللون. قالت: «تبدو جيدةً عن بعد. لكنني سأُطرد حتماً لو عملت في طلاء الأظافر لكسب لقمة العيش».

مشينا إلى البهو لتناول إفطارنا المجاني. بينما راحت ديبورا تلف حفنة من كعكات المافن الصغيرة في منديل لتتناولها لاحقاً، نظرت إلي وقالت: «نحن بخير، بو».

أومأت برأسي وقلت إنني أعرف. ولكن في تلك اللحظة لم أكن متأكدة من أيّ شيء.

(٢٠٠١)

(٣٥)

تطهير الروح

في وقت لاحق من ذلك اليوم، انتشر الطفح التحسسي على ظهر ديبورا، وبات خداها مليئان بالبقع الحمراء، وملأت كدمات طويلة الفراغات تحت كلّ عين. كان كلا الجفنين منتفخين يلمعان كما لو أنها غطتهما بمسحوق الظلال الأحمر الدموي. سألتها مراراً إن كانت بخير، وقلت ربما يجب أن نتوقف في مكان ما حتى تتمكن من رؤية الطبيب. لكنها ضحكت فقط.

قالت: «يحدث هذا طوال الوقت. أنا بخير. أحتاج فقط إلى البينادريل». اشترت زجاجة احتفظت بها في حقيبتها وظلّت تشرب منها طوال اليوم. وبحلول الظهيرة كان حوالي ثلثها قد اختفى.

عندما وصلنا إلى كلوفر، مشينا على طول النهر وعبر الشارع الرئيسي وعبر حقل التبغ الذي كان لـ هنرييتا. زرنا منزلها، حيث قالت ديبورا: «أريدك أن تلتقطي لي صورة هنا مع أختي».

وقفت أمام المنزل، وحملت صورتي إلسي قرب صدرها. جعلتني

ألتقط صوراً لها مع إلسي على جذع شجرة البلوط المفضلة لـ هنرييتا وأمام شاهد قبر والدة هنرييتا، ثم ركعَت على الأرض، بجانب الأخاديد حيث تخيلت أن والدتها وأختها قد دفنتا فيها. قالت: «خذي صورة لي مع أختي بجانب قبرها وقبر والدتي. ستكون الصورة الوحيدة في العالم التي تجمعنا نحن الثلاثة معاً».

وأخيراً، انتهى بنا المطاف في منزل شقيقة هنرييتا، غلاديس، كوخ أصفر صغير وُضعت بعض الكراسي الهزازة على شرفته. في الداخل وجدنا غلاديس تجلس في غرفة معيشتها ذات الألواح الخشبية الداكنة. كان الجو ربيعياً دافئاً، لكن غلاديس جعلت اللهب يتصاعد بقوة من موقدها الخشبي الأسود، وجلست بجانبه تمسح العرق من جبهتها بالمنديل. أصيبت يداها وقدماها بالتهاب المفاصل وكان ظهرها منحنياً لدرجة أن صدرها كاد أن يلمس ركبتيها ما لم تدعم نفسها بمرفق أحد ما. لم تكن ترتدي أيّ ملابس داخلية، بل مجرد ثوب نوم رقيق ارتفع إلى ما فوق خصرها بعد ساعاتٍ من الجلوس على كرسيها المتحرك.

حاولت أن تعدل ثوبها لتغطي نفسها عندما دخلنا، لكن يديها لم تستطع الإمساك به. ففعلت ديبورا ذلك من أجلها، قائلةً: «أين الجميع؟».

لكن غلاديس لم تقل شيئاً. في الغرفة المجاورة، كان زوجها يئن في سريره ويفصله عن الموت أيام قليلة.

قالت ديبورا: «أوه صحيح، إنهم في العمل أليسوا كذلك؟».

لم تقل غلاديس شيئاً، لذلك رفعت ديبورا صوتها لتتأكد من أن غلاديس تسمعها: «لدي إنترنت!» صرخَت. «سأصنع صفحة ويب عن والدتي ونأمل أن أحصل على بعض التبرعات والتمويل حتى أتمكن من العودة إلى هنا ووضع نصب تذكاري على قبرها وتحويل ذلك المنزل القديم إلى متحف يذكر الناس بأمي هنا».

«ماذا وضعتِ هناك؟» سألت غلاديس وكأن ديبورا كانت مجنونة.

قالت ديبورا: «الخلايا. الخلايا، حتى يتمكن الناس من رؤيتها تتضاعف». ثمّ فكرت للحظة. «وصورة كبيرة لها، وربما تمثالٌ من الشمع. بالإضافة الى بعض ملابسها القديمة وذلك الحذاء الذي يقي في المنزل. كلّ هذه الأشياء تعني الكثير».

فجأة فتح الباب الأمامي ودخل غاري ابن غلاديس صارخاً: «أهلاً ابنة العم». كان غاري في الخمسين من عمره، ولديه تلك البشرة الناعمة التي تميز عائلة لاكس، وشارب رقيق وعنفقة، وفجوة بين أسنانه الأمامية لطالما أحبتها الفتيات. كان يرتدي قميص ركبي أحمر وأزرق بأكمام قصيرة يطابق سرواله الجينز الأزرق والأحمر وحذاءه الرياضي.

هتفت ديبورا، وألقت ذراعيها حول عنق غاري، ثم سحبت صورة إلسي من جيبها. «انظر إلى ما حصلنا عليه من كراونزفيل! إنها أختي». توقف غاري عن الابتسام ونظر إلى الصورة.

قالت ديبورا: «هذه لقطة سيئة. إنها تبكي لأن الجو بارد».

«دعيه يرى تلك الصورة لها على الشرفة عندما كانت طفلة».
قلت. «تلك لقطة جيدة». نظر غاري إلي وكأنه يتساءل ما الذي يجري هنا بحق الجحيم؟

قلت: «هذه الصورة جعلتها مستاءة قليلاً».

همس: «أنا أفهم السبب».

قلت له: «بالإضافة إلى أنها رأت للتو خلايا والدتها لأول مرة».

أومأ غاري برأسه. على مر السنين، قضينا أنا وهو ساعات عديدة نتحدث؛ كان يفهم ديبورا وما مرت به أكثر من أيّ شخصٍ آخر في العائلة.

أشارت ديبورا إلى الطفح على وجهها. «أنا أعاني من تحسسٍ وتورم وطفح. أنا أبكي وسعيدة في الوقت نفسه». راحت تسير جيئةً وذهاباً، وجهها يلمع بالعرق بينما تضطرم النار في موقد الخشب الذي بدا أنه يمتص معظم الأكسجين من الغرفة. قالت: «كل هذه الأشياء التي أعرف بشأنها، تجعلني أدرك أن لديّ أمّ مرّت بمأساة حقيقية. إنه لأمر مؤلم لكنني أريد أن أعرف المزيد مثلما أريد أن أعرف عن أختي. إنه يجعلني أشعر أقرب إليهما، لكنّي أفتقدهما. أتمنى لو كانتا هنا».

أبقى غاري عينيه على ديبورا ومشى عبر الغرفة وجلس في كرسي ضخم، ورجانا أن ننضم إليه. لكن ديبورا لم تجلس. كانت تسير ذهاباً

وإياباً عبر أرضية المشمع، تقشر الطلاء الأحمر عن أظافرها وتتحدث بسيلٍ من عبارات غير منطقية عن جريمة قتل سمعَت عنها في الأخبار وعن حركة المرور في أتلانتا. تبعتها عينا غاري من جانب إلى آخر بتركيز ودهشة.

قال أخيراً: «يا ابنة العم. اجلسي من فضلك».

هرعت ديبورا إلى كرسي هزاز قريبٍ من غاري وألقت جسدها عليه، وبدأت تهتز بعنف، وتدفع جسمها العلوي ذهاباً وإياباً وتركل قدميها كما لو كانت تحاول قلبَ الكرسي.

«لن تصدق ما سمعناه». قالت. «لقد حقنوا خلايا والدتي بجميع أنواع السموم والأشياء لفحص ما إذا كانت تقتل الناس».

قال غاري: «ديل، اهدأي».

قالت: «نعم، أنا أحاول. هل تعلم أنهم حقنوا خلاياها في أجساد القتلة في السجون؟».

قال غاري: «أرجوكِ اهدئي. افعلي شيئاً لتسترخي».

قالت ديبورا وهي تلوح له بيدها: «لا أستطيع منع نفسي. أنا قلقة دائماً».

همس غاري: «كما قال الكتاب المقدس، لم يجلب الإنسان شيئاً إلى هذا العالم ولن يأخذ معه شيئاً. أحياناً نهتم بالأشياء كثيراً. نحن قلقون عندما لا يوجد ما يدعو للقلق».

في لحظة من التجلي، أومأت ديبورا برأسها قائلة: «وندمر أجسادنا من جراء ذلك».

«لا تبدين على ما يرام الآن يا ابنة العم». قال غاري: «خصصي بعض الوقت لنفسك. عندما أركب سيارتي وأقود دون هدفٍ محدد فقط أدور على الطريق هنا وهناك. وأحظى بوقتٍ للاسترخاء وحدي. نحن جميعاً بحاجة إلى شيء من هذا القبيل».

قالت ديبورا: «لو توفّر لدي المال يوماً سأشتري بيتاً متنقلاً حيث يمكنني الرحيل حيث أشاء ولا يتعين عليّ أن أكون في نفس المكان على الإطلاق. لا يمكن لأحد أن يزعجك عندما تنتقل».

وقفَت وبدأت تجول في المكان مرة أخرى.

قالت: «الوقت الوحيد الذي أسترخي فيه حقاً هو عندما أقود إلى هنا. لكن هذه المرة كنت أقود طوال الوقت وأنا أفكر فيما حدث لأختي وأمي».

في اللحظة التي قالت فيها ديبورا كلمتي الأخت والأم، أصبح وجهها أكثر احمراراً وبدأت في نوبة ذعر جديدة. «هل تعلم أنهم أطلقوا خلايا والدتي في الفضاء وفجروها بالقنابل النووية؟ حتى أنهم فعلوا ذلك الشيء.... ماذا تسميه...... استنساخ! هذا صحيح، فعلوا ذلك الاستنساخ عليها». تبادلت أنا وغاري نظرةً عصبية وبدأ كلانا بالتحدث في وقت واحد، نحاول جاهدين منعها من الخوض فيما كانت على وشك الوقوع فيه.

قلت: «لا يوجد استنساخ. أتَذكرين؟».

قال غاري: «لا داعي للخوف. تقول كلمة الله إذا نحن كرّمنا أبانا وأمنا، يمكننا أن نعيش طويلاً على الأرض، وأنت تفعلين ذلك، تكرّمين أمك». ابتسم وأغمض عينيه. قال لها: «أحبّ هذا النص المقدس الموجود في المزامير. يقول حتى لو مرض الأب والأم، فإن الله يعتني بك. حتى لو فقدت كلّ شخص مثل والدتك وأختك، فإن محبة الله لن تدير ظهرها لكِ».

لكن ديبورا لم تسمع أيّ شيءٍ من هذا.

قالت: «لن تصدق ذلك. أتعلم أنهم خلطوها بالفئران لصنع فأر بشري؟ يقولون إنها لم تعد بشرية بعد الآن!» ضحكَت ضحكة صاخبة مهووسة وركَضت إلى النافذة. «اللعنة». صرخت: «هل تمطر هناك؟».

همس غاري وهو يهتز ذهاباً وإياباً: «كم نحتاج إلى المطر».

أمسكت ديبورا سلسلة المفاتيح ذات الشريط الأزرق التي كانت معلقة دائماً حَولَ عُنُقِها. مكتوب عليها WWJD. قالت: «ما هذا، محطة إذاعية؟ لم أسمع قط عن WWJD». راحت تسحبها من حول عنقها.

قال غاري: «هيا يا ابنة العم، إنها تعني «ماذا سيفعل المسيح»، أنت تعلمين ذلك».

توقفت ديبورا عن إصدار الضجيج بالمفاتيح وانهارت مرة

أخرى على الكرسي. «هل تصدق أنهم أعطوها فيروس الإيدز وحقنوها في القرود؟» حدقَت في الأرض، وهزت الكرسي بعنف، وارتفع صدرها وهبط بسرعة مع كلّ نفس.

جلس غاري وهو يهتز بهدوء على كرسيه، يراقب حركة ديبورا في كلّ خطوةٍ مثل طبيبٍ يدرس مريضه. همس غاري لـ ديبورا وهي تفرك عينيها: «لا ترهقي نفسك بشيء لا يمكنك فعل شيء حياله. لا يستحق الأمر كلّ ذلك... عليكِ أن تدعي الربّ يتعامل مع الأمر». أغمض عيناه بينما كان يهمس لها: «ماذا تفعل ديبورا لـ ديبورا؟».

عندما لم تجب، نظر إليّ وقال: «كنت أتحدث إلى الله للتو، إنه يأمرني أن أقول أشياء وأن أتحرّك». أطلقت ديبورا على غاري لقب «التلميذ المُريد» لأن لديه عادة ذكر الربّ في خضمّ كلّ محادثة. بدأ الأمر قبل حوالي عشرين عاماً، عندما كان في الثلاثين من عمره منشغلاً بالخمر والنساء في لحظة، وفي اللحظة التالية أصيب بعدة نوبات قلبية واحتشاءات، واستيقظ واعظاً.

قال وهو يرسل لي ابتسامة خجولة: «كنت أحاول إبعاده عن هذا لأن لدينا رفقة. لكنه في بعض الأحيان لا يسمح لي بإبقائه خارج أيّ موضوع».

أصبحت عينا غاري البنيتان فارغتين من أيّ تعبيرٍ وغائمتين، حيث نهض ببطء من كرسيه وبسط ذراعيه على امتدادهما ثم مدّهما نحو ديبورا التي كافحت لتنهض على قدميها وعرجت نحوه ثم

لفت ذراعيها حول خصره. في اللحظة التي لمَسَته فيها ارتعش الجزء العلوي من جسده وكأنه تعرض لصعق كهربائي. ثم أغلق ذراعيه وشبك يديه حول رأس ديبورا، وراحتا كفيه على خديها، وتوزعت أصابعه من خلف جمجمتها إلى جسر أنفها. وبدأ بالاهتزاز. ضغط وجه ديبورا إلى صدره بينما كتفاها ترتعشان في صمت، والدموع تنهمر من عيني غاري.

وبينما كانا يهتزان ذهاباً وإياباً، رفع غاري رأسه إلى السماء وبدأ يدندنُ نغماً جهيراً جميلاً للغاية.

«مرحباً بك إلى هذا العالم.... مرحباً بك إلى هذا القارب المحطم». كان غنائه هادئاً في البداية، ثم ارتفع بصوتٍ أعلى مع كلّ كلمة حتى ملأ المنزل وتدفق إلى حقول التبغ. «ترغب أن ندعو إليك، لذا أرفع يدي، وأرفع قلبي، وأقدم هذا الابتهال لك، يا ربّ».

همس وهو يضغط على رأس ديبورا في راحة يده: «مرحباً بك في هذا القارب المحطم، يا ربّ». فتح عينيه وأغمضهما مرة تلو مرة، وبدأ في الوعظ، وقطرات العرق تتدفق من وجهه.

«بأنك قلت في كلمتك يا رب، إنّ المؤمن يضعّ يديه على المرضى، فيبرأون». ارتفع صوته وهبط، من الهمس إلى الصراخ وبالعكس. «أدركُ يا الله أن الليلة ثمة أشياء التي لا يمكن للأطباء علاجها».

«آمين يا ربّ»، تمتمت ديبورا، وضغطت وجهها على صدره، وبات صوتها مكتوماً.

همس غاري: «نقدم لك شكرنا الليلة. لأننا بحاجة إلى مساعدتك في خلاياها، يا ربّ... نحن بحاجة إلى مساعدتك في رفع عبء الخلايا عن هذه المرأة! ارفع هذا العبء يا ربّ، خذه بعيداً، لسنا بحاجة إليه».

بدأت ديبورا تنشج بين ذراعي غاري، تبكي وتهمس: «شكراً لكَ، يا ربّ. شكراً لكَ يا ربّ» أغمض غاري عينيه بإحكام، وصاح معها: «شكراً لكَ يا ربّ! شكراً لكَ على الليلة. ارتفعت أصواتهما معاً حتى توقف غاري والدموع والعرق يتدفقان من وجهه على ديبورا وهي تصرخ: «أشكرك أيها المسيح». وانطلقا في جوقة من الحمد والتسبيح. تأرجح غاري ذهاباً وإياباً، وبدأ يغني مرة أخرى بصوته العميق القديم، كما لو كان قادماً من الأجيال التي عملت في حقول التبغ من قبله: «أعلم أن الربّ كان طيباً،... أعلم أن الربّ كان صالحاً».

همست ديبورا: «طيب حقاً».

«لقد وضع الطعام على طاولتي...» خفض غاري صوته وهو يهمهم بينما كانت ديبورا تتحدث: «أرشِدني إلى الطريق الذي عليّ أن أسلكه، يا ربّ. أرشِدني أين تريد أن أذهب بهذه الخلايا، يا رب، أتوسل إليك. سأفعل أيّ شيء تريده مني، يا ربّ، فقط ساعدني على حمل هذا العبء. لا أستطيع أن أفعل ذلك وحدي -ظننت أنني أستطيع- ولكن لا أستطيع، يا ربّ».

واستمر غاري يدندن.

«شكراً لك يا إلهي على إعطائي هذه المعلومات عن أمي وأختي، ولكن أتوسل إليك ساعدني، لأنني أعرف أنني لا أستطيع تحمل هذا العبء بنفسي. خذ خلاياها مني، يا ربّ، خذ هذا العبء. انزعه واتركه هناك! لا أستطيع حمله بعد الآن يا ربّ. أردتَ أن أعطيك إياه لكني لم أرغب بذلك، ولكني اليوم أريدك أن تأخذه، يا ربّ. خذه أرجوك. هللويا، آمين».

لأول مرة منذ أن نهض غاري عن كرسيه، نظر إلي مباشرة.

كنت أشاهد كلّ هذا من مكاني على بعد بضعة أقدام مذهولةً أخاف أن أتحرك أو أحدث أيّ ضوضاء، أدوّن الملاحظات بشكلٍ محموم. في أيّ ظرفٍ آخر ربما ظننت أنّ الأمر برمتهِ كان جنونياً. لكن ما حدث بين غاري وديبورا في تلك اللحظة كان أبعد شيء عن الجنون رأيته طوال اليوم. وبينما أشاهد ما يجري فإن كلّ ما فكرت فيه كان: «يا إلهي... أنا من فعل هذا بها». حدّق غاري في عيني وهو يعانق جسد ديبورا الباكي وهمس لها: «أنتِ لستِ وحدكِ».

قال غاري وهو ينظر إلي: «لم تعدْ قادرةً على تحمّل عبءِ هذهِ الخلايا، يا ربّ! لا يمكنها فعل ذلك». ثم رفع ذراعيه فوق رأس ديبورا وصاح: «يا إلهي، أعلم أنَّك أرسلت الآنسة ريبيكا للمساعدة في رفعِ عبء الخلايا». مدّ ذراعيه نحوي، ويداه موجهتان إلى جانبي رأسي. «أعطها إياها». صاح. «دعها تحملها».

جلستُ متجمدة، أحدق في غاري وأفكر، مهلاً، لم يكن من المفترض أن يحدث هذا!

ابتعدَت ديبورا عن حضن غاري، وهزّت رأسها، ومسحت عينيها، ثم تنفّست الصعداء «أوه!» وضحك كلاهما. قالت: «شكراً يا ابن العم، أشعر براحةٍ حقيقية».

قال غاري: «لا بدّ من تحرير بعض الأشياء. كلما كتمت مشاعرك في داخلك أكثر، ازدادت حالتك سوءاً. عندما تحررينها ترحل إلى مكانٍ آخر. يقول الكتاب المقدس إنّ الربّ قادرٌ على تحمّل كلّ هذا العبء».

مدّت يدها ولمست وجهه. «أنت تعرف دائماً ما أحتاجه. أنت تعرف كيف تعتني بي».

قال غاري مبتسماً: «ليس الأمر أنني أراه، بل هو من يراه. لم أعرف كلّ ما كان يخرج من فمي. الربّ هو من خاطبكِ».

قالت ديبورا وهي تضحك: «حسناً، هللويا. سأعود غداً للحصول على المزيد من هذا! آمين».

كانَ المطر خفيفاً في الخارج طوال ساعاتٍ، ولكن فجأة هطلت بغزارة شديدة على سقف الصفيح وتحوّل إلى بَرَدٍ ينقر الأرض بصوت عالٍ لدرجة أن الصوتَ بدا وكأنه تصفيق. مشينا ثلاثتنا إلى الباب الأمامي لننظر ما الأمر.

قال غاري مبتسماً: «يخبرنا الربّ أنه سمعنا. لقد فتح الصنبور على آخره كي يغسلكِ يا ابنة العم».

«المجدُ للربّ». صاحت ديبورا.

عانقها غاري مودعاً، ثم عانقني. أمسكت ديبورا معطفها المطري الأسود الطويل، وفتحته على مصراعيه ثم رفعته فوقها مثل المظلة، وأومأت لي بأن آتي معها. جعلتِ المعطف يغطي رأسينا، ثم وضعت ذراعها حول كتفي.

«هل أنت مستعدةٌ لشيءٍ من تطهير الروح؟» هتفَت، وفتحَت الباب.

(٢٠٠١)

(٣٦)

الأجسام السماوية

في صباح اليوم التالي، تراجع الطفح التحسسي الذي أصاب ديبورا بعض الشيء، لكن عينيها مازالتا متورمتين، لذلك قررَت أنها بحاجة إلى العودة إلى المنزل لرؤية طبيبها. بقيتُ في كلوفر لأنني أردت التحدث مع غاري بشأن الليلة السابقة. عندما دخلتُ إلى غرفة معيشته، كان يقف على كرسي بلاستيكي قابل للطي يرتدي قميصاً فيروزياً لامعاً ويغير لمبة المصباح.

قلت له: «لا أستطيع إخراج تلك الأغنية الجميلة من رأسي. كنت أرددها طوال الصباح». ثم دندنت بعض مقاطعها: مرحباً بك في هذا العالم... مرحباً بك في هذا القارب المحطّم.

قفز غاري عن الكرسي، وضحك رافعاً حاجبيه في وجهي.

«لماذا تعتقدين أن هذا عالق في رأسك؟» سأل. «أعلم أنّك لا تحبين التفكير في الأمر على هذا النحو، لكنه الربّ يحاول أن يخبرك أمراً».

قال إنها ترنيمة، ثم خرج من غرفة المعيشة وعاد حاملاً كتاباً مقدساً ذا لونٍ أزرق ناعم بحروف ذهبية كبيرة على غلافه الأمامي. قال لي وهو ينقر على الغلاف بإصبعه: «أريدك أن تحصلي على هذا. لقد مات المسيح من أجلنا حتى يكون لنا الحق في الحياة الأبدية. والكثير من الناس لا يصدقون ذلك. ولكن يمكنك أن تحظي بحياة أبدية. ألقي نظرة على هنرييتا وحسب».

«هل تعتقد أن هنرييتا في تلك الخلايا؟».

ابتسم ونظر إليّ بعطفٍ كما لو كنتُ طفلةً سخيفة. قال: «هذه الخلايا هي هنرييتا»، واستعاد الكتاب المقدس من يدي وفتحه على إنجيل يوحنا. قال مشيراً إلى جزء من النص: «اقرأي هذا». بدأت أقرأ لنفسي فغطى الكتاب المقدس بيده. قال: «بصوت عالٍ». عندئذٍ قرأت بصوت عال من الكتاب المقدس لأول مرة في حياتي: «مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا، وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ»

انتقل غاري إلى مقطع آخر ليقرأ: «لكِنْ يَقُولُ قَائِلٌ: «كَيْفَ يُقَامُ الأَمْوَاتُ؟ وَبِأَيِّ جِسْمٍ يَأْتُونَ؟ يا غبي! الَّذِي تَزْرَعُهُ لاَ يُحْيَا إِنْ لَمْ يَمُتْ. وَالَّذِي تَزْرَعُهُ، لَسْتَ تَزْرَعُ الْجِسْمَ الَّذِي سَوْفَ يَصِيرُ، بَلْ حَبَّةً مُجَرَّدَةً، رُبَّمَا مِنْ حِنْطَةٍ أَوْ أَحَدِ الْبَوَاقِي. وَلكِنَّ اللهَ يُعْطِيهَا جِسْماً كَمَا أَرَادَ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْبُزُورِ جِسْمَهُ».

همس غاري: «لقد اختيرت هنرييتا. وعندما يختار الرب ملاكاً للقيام بعمله، فلن تعرفي أبداً كيف سيعودون إلى الظهور».

أشار غاري إلى مقطع آخر وأخبرني أن أستمر في القراءة. «وَأَجْسَامٌ سَمَاوِيَّةٌ، وَأَجْسَامٌ أَرْضِيَّةٌ. لكِنَّ مَجْدَ السَّمَاوِيَّاتِ شَيْءٌ، وَمَجْدَ الأَرْضِيَّاتِ آخَرُ».

عندما عرض كريستوف خلايا هنرييتا على الشاشة في مختبره قبل أيام قليلة، قالت ديبورا: «إنها جميلة». وكانت على حقّ. أخضر جميل ومتوهج في عالم آخر ويتحرك مثل الماء هادئاً وأثيرياً، ويبدو تماماً كما تبدو الأجسام السماوية. حتى أنها تطفو في الهواء.

تابعتُ القراءة: «هكَذَا أَيْضاً قِيَامَةُ الأَمْوَاتِ: يُزْرَعُ فِي فَسَادٍ وَيُقَامُ فِي عَدَمِ فَسَادٍ»... «يُوجَدُ جِسْمٌ حَيَوَانِيٌّ وَيُوجَدُ جِسْمٌ رُوحَانِيٌّ». «هيلا؟» سألتُ غاري. «أنت تقول أن هيلا هي جسدها الروحاني؟».

ابتسم غاري وأومأ برأسه.

في تلك اللحظة، وبعد قراءة تلك الآيات، أدركت تماماً كيف يؤمن بعض آل لاكس، دون شكّ، أنّ هنرييتا اختارها الله لتصبح كائناً خالداً. إن كنت تؤمن بأنّ الكتاب المقدس هو الحقيقة المطلقة، فإنّ خلود خلايا هنرييتا يصبح أمراً منطقياً تماماً. بالطبع، كانت تنمو وبقيت على قيد الحياةِ لعقودٍ بعد وفاة هنرييتا، وبالطبع كانت تطفو في الهواء، وبالطبع ساعدت في اكتشاف علاجات للأمراض وأطلقوها في الفضاء. وهذا ما تفعله الملائكة. هذا ما ورد في الكتاب المقدس.

بالنسبة لـ ديبورا وعائلتها، وبالتأكيد بالنسبة للكثيرين في شتى

أنحاء العالم، كانت هذه الإجابة أكثر واقعية بكثير من التفسير الذي قدمه العلم: بأن خلود خلايا هنرييتا له علاقة بتيلوميراتها (قسيماتها الطرفية) وكيفية تفاعل فيروس الورم الحليمي البشري مع حمضها النووي. وفكرة أنّ الله اختار هنرييتا ملاكاً يولدُ من جديدٍ على هيئة خلايا خالدة كانت أكثر منطقية بالنسبة لهم من التفسير الذي قرأته ديبورا قبل سنوات في كتاب فيكتور ماك كوسك في علم الوراثة، مع تفسيره السريري عن «الأنسجة غير النمطية» لـ هيلا و«السلوك الخبيث غير الاعتيادي». واستخدم عباراتٍ مثل «تفرّد الورم» ووصف الخلايا بأنها «مستودعٌ للمعلومات المورفولوجية والكيميائية الحيوية وغيرها».

قال المسيح لأتباعه: «وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ». كلامٌ سهلٌ وبسيطٌ ومباشر.

قال غاري: «من الأفضل أن تكوني حذرة. سرعان ما تجدين نفسكِ قد تحولتِ إلى المسيحية».

قلت له: «أشكّ في ذلك»، وضحك كلانا.

سحب الكتاب المقدس من يدي وقلب صفحاته إلى مقطع آخر، ثم أعاده مشيراً إلى جملة واحدة: «لِمَاذَا يُعَدُّ عِنْدَكُمْ أَمْرًا لاَ يُصَدَّقُ إِنْ أَقَامَ اللهُ أَمْوَاتًا؟»

«أفهمتِ ما أعنيه؟» قال مبتسماً ابتسامة شقيّة.

أومأت برأسي، وأغلق غاري الكتاب المقدس في يدي.

(٢٠٠١)

(٣٧)

«لا شيء يدعو للخوف»

عندما وصلَت ديبورا إلى عيادة طبيبها، كان ضغط دمها والسكر مرتفعين للغاية، ودُهش طبيبها من أنها لم تصاب بسكتة دماغية أو نوبة قلبية أثناء وجودنا في كلوفر. ولو استمرّت هذه المستويات، كما قال، سيظلّ احتمال أن تصاب بسكتة دماغية أو نوبة قلبية قائماً في أيّ دقيقة. فجأة بدا سلوكها الغريب خلال الرحلة أقلّ غرابة. الارتباك والذعر والكلام غير المتماسك كلها أعراض لارتفاع ضغط الدم الشديد وارتفاع سكر الدم، وكلاهما يمكن أن يسببا نوبةً قلبية وسكتة دماغية. وكذلك الاحمرار والتورم، مما يفسر لماذا لم تختفِ الانتفاخات الحمراء على الرغم من كلّ البينادريل الذي شربته.

أخبرها الطبيب أنها بحاجة إلى تجنب الإجهاد تماماً، لذلك قررنا التوقف عن السماح لها بمرافقتي في رحلاتي البحثية. لكنها أصرت على أن أتصل بها من الطريق لأخبرها بما يفوتها. خلال الأشهر القليلة اللاحقة، وبينما أواصل بحثي، أخبرتُ ديبورا فقط بالأشياء الجيدة التي وجدتها، حكاياتٍ عن رقصات هنرييتا ومشاهدة الأولاد

يلعبون البيسبول في منزل كليف، وتفاصيل عن تاريخ عائلتها من سجلات المقاطعة والوصايا.

لكن عرفت كلتانا أن الاستراحة من هيلا لن تدوم، إذ لا يزال من المقرر أن تلقي ديبورا كلمةً في مؤتمر المؤسسة الوطنية لأبحاث السرطان تكريماً لـ هنرييتا. كانت مصممة على القيام بذلك على الرغم من خوفها من فكرة اعتلاء خشبة المسرح، لذلك راحت تمضي أيامها في التخطيط لخطابها.

بعد ظهر أحد الأيام، وفي خضم التحضير للمؤتمر، اتصلَت بي لتقول إنها قررت الالتحاق بالمدرسة. قالت: «أستمر في التفكير أنني لو فهمت بعض العلوم، فإن القصص التي أسمعها عن والدتي وأختي لن تخيفني كثيراً . لذلك، سأقوم بذلك». في غضون أيام، اتصلَت بالعديد من مراكز المجتمع المحلي ووجدَت مدرسةً تقدم دروساً لتعليم الكبار، ووقعت طلباً لإجراء اختبارات لتحديد المستوى في الرياضيات والقراءة.

«بمجرد أن أحصل على مستوى الصف العاشر، أصبح جاهزةً للالتحاق بالكلية!» قالت. «هل تتخيلين؟ عندئذٍ سأتمكن من فهم كلّ هذا العلم عن والدتي!» فكّرَت في أن تصبح مساعدة طبيب أسنان، لكنها كانت تميل نحو تقنية الإشعاع حتى تتمكن من دراسة السرطان ومساعدة المرضى الذين يتلقون علاجاً إشعاعياً مثل والدتها.

مع اقتراب موعد المؤتمر صارت ديبورا هادئة على عكسي. بقيت

أسألها: «هل أنت متأكدة من أنكِ تريدين القيام بذلك؟» و«كيف حال ضغط دمك؟» و«هل يعرف طبيبك أنك تفعلين هذا؟» ظلت تخبرني أنها بخير، حتى طبيبها قال ذلك.

خضعت ديبورا لاختبارات تحديد المستوى للمدرسة وسجلَت في الفصول التي تحتاجها للوصول إلى مستوى الصف العاشر والتأهل لفصول الكلية المجتمعية التي أرادت أن تأخذها. اتصلت بي وهي تهتف وتصرخ: «أبدأ بعد أسبوعٍ من اليوم».

ولكن بدا الأمر وكأن كلّ شيء آخر يسير في الاتجاه الخاطئ. قبل أيامٍ قليلة من المؤتمر، اتصل لورانس وزكريا يتذمران مرةً أخرى حول أنه لا يجوز لها التحدث إلى أيّ شخصٍ، وقالا إنهما يريدان مقاضاة كلّ عالمٍ استغلّ خلايا هنرييتا. طلب منهما سوني ألا يتدخلا، قائلاً: «كل ما تفعله الآن هو الذهاب إلى أماكن لإلقاء كلمةٍ وجمع المعلومات وجميعكم يرفض أن يفعل ذلك، لذا دعوها وشأنها». لكنّ لورانس أصرّ على أن تعطيه ديبورا السجلات التي جمعَتها عن والدتهم.

ثم اتصل ابنها ألفريد من السجن قائلاً إنه سيخضع للمحاكمة أخيراً بعد المؤتمر مباشرة، وتشمل التهم الآن السطو المسلح ومحاولة القتل. وفي نفس اليوم، تلقت ديبورا مكالمةً بشأن أحد أبناء لورانس الذي اعتقل بتهمة السرقة وكان في نفس سجن ألفريد.

قالت لي: «لقد كان الشيطان مشغولاً يا فتاة. أحب هؤلاء الأولاد، لكنني لن أدع أحداً يزعجني الآن».

صباح اليوم التالي كان ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

اتصلتُ بـ ديبورا حوالي الساعة الثامنة صباحاً لأخبرها أنني سأغادر منزلي في بيتسبرغ وأتجه إلى المؤتمر في واشنطن العاصمة. وبعد أقل من ساعة ضربت الطائرة الأولى مركز التجارة العالمي. اتصل صديق مراسل بهاتفي الخلوي وأطلعني على الأخبار قائلاً: «لا تذهبي إلى العاصمة، الوضع غير آمن». أدرت سيارتي عندما اصطدمت الطائرة الثانية، وما أن وصلت إلى المنزل كان التلفاز مزدحماً بلقطاتٍ من حطام البنتاغون والمباني في جميع أنحاء العاصمة التي تم إخلاؤها، بما فيها مبنى رونالد ريغان حيث كان من المفترض أن يُقام حفل المؤتمر لتكريم هنرييتا.

اتصلتُ بـ ديبورا فأجابت مذعورةً. قالت: «إنها أشبه بـ بيرل هاربور مرة أخرى. وأوكلاهوما. من المستحيل أن أذهب إلى العاصمة الآن». ولم تكن هناك حاجةٌ لذلك. جراء إغلاق شركات الطيران وواشنطن، ألغت المؤسسة الوطنية لأبحاث السرطان مؤتمر هنرييتا لاكس، مع عدم وجود خطة لإعادة الجدولة.

خلال الأيام القليلة التالية، تحدثنا أنا وديبورا عدة مرات بينما كنا نحاول استيعاب سبب تلك الهجمات، وحاولت ديبورا قبول فكرة إلغاء المؤتمر. شعرَت بالاكتئاب والقلق من أن الأمر سيستغرق عشر سنوات أخرى ليفكر شخص ما في تكريم والدتها.

ثم، في صباح يوم الأحد، بعد خمسة أيام من أحداث ١١ سبتمبر، ذهبت ديبورا إلى الكنيسة للصلاة من أجل ألفريد الذي كان موعد

محاكمته بعد أيامٍ فقط، ولتدعو الله لإعادة تحديد موعد مؤتمر هنرييتا لاكس. جلسَت في المقعد الأمامي مرتدية بذلة حمراء وقد طوت يديها في حضنها، تستمع إلى زوجها يعظ حول هجمات ١١ سبتمبر. بعد حوالي ساعة من القداس، أدركت ديبورا أنها لا تستطيع تحريك ذراعها.

ديفون، الذي كان قد بلغ من العمر تسع سنوات، يجلس دائماً في الجوقة ويراقب جدته أثناء طقوس الكنيسة. لبرهةٍ عندما بدأ وجه ديبورا يرتخي وانهار جسدها، ظنّ ديفون أنها ربما تناولت عن طريق الخطأ حبوب المنوم قبل القدوم إلى الكنيسة. رأت ديبورا عينيه الصغيرتين تراقبانها وحاولت التلويح له لتخبره أنها تعاني من خطبٍ ما، لكنها لم تستطع الحركة. في نهاية القداس، وقف المصلون في حين تلوّى فم ديبورا وهي تحاول جاهدةً أن تصرخ. جاء الصوت الوحيد من ديفون الذي صرخ: «جدتي ليست على ما يرام». قفز من منصة الجوقة في اللحظة التي سقطت فيها ديبورا إلى الأمام على ركبة واحدة. صرخ ديفون: «جدي! جدي!» ألقى بولوم نظرة سريعةً على ديبورا وصرخ: «سكتة دماغية».

في اللحظة التي سمع فيها ديفون عبارة «سكتة دماغية»، أمسك دفتر جيب ديبورا وأخرج مفاتيح سيارتها، وهرع إلى السيارة. فتح جميع الأبواب على مصراعيها، وجعل مقعد الراكب مسطحاً قدر الإمكان ثم قفز خلف المقود وأقدامه تتدلى بعيداً فوق الدواسات. شغل المحرك حتى يتمكن بولوم من الصعود وبدء القيادة.

سرعان ما كانوا في الطريق المتعرج بعد الكنيسة، تستلقي ديبورا فاقدةً الوعي في مقعد الراكب بينما انحنى ديفون فوقها، يصرخ: «لا تنامي يا جدتي». وصفعها بقوة على وجهها في كلّ مرة تغمض فيها عينيها. استمر بولوم في الصراخ عليه ليتوقف، قائلاً: «يا فتى، ستقتل جدتك». لكن ديفون لم يتوقف.

عندما وصلوا إلى محطة الإطفاء على الطريق، سحب المسعفون ديبورا من السيارة وأعطوها الأكسجين والحقن ووضعوا تسريباً وريدياً في ذراعها ثم حملوها إلى سيارة إسعاف. عندما غادرت سيارة الإسعاف، أخبر رجل إطفاء ديفون أنه كان ذكياً لأنه صفع ديبورا في السيارة.

قال رجل الإطفاء: «يا فتى، لقد أسديت معروفاً لجدتك. لقد أنقذت حياتها».

من أول الأشياء التي قالتها ديبورا عندما استعادت وعيها: «لا بدّ لي من إجراء اختبار». اعتقد موظفو المستشفى أنها تعني أنها بحاجة إلى الأشعة المقطعية أو فحص الدم، لكنها قصدت اختباراً للمدرسة.

عندما سمح الأطباء أخيراً لعائلة ديبورا برؤيتها، ديفون وبولوم وابنة ديبورا، تونيا، دخلوا غرفتها فوجدوها جالسة على السرير وعيناها مفتوحتان على اتساعهما. متعبة، ولكن على قيد الحياة. كان جانبها الأيسر لا يزال ضعيفاً، ولم تستطع تحريك ذراعيها بشكل جيد، لكن الأطباء قالوا إنها كانت محظوظة ومن المحتمل أن تتعافى تماماً.

«المجدُ للربّ». صرخ بولوم.

بعد بضعة أيام، عندما خرجت ديبورا من المستشفى، تركت لي رسالةً صوتية. كان عيد ميلادي، وكنا نخطط للقاء في كلوفر في ذلك اليوم. قالت: «عيد ميلاد سعيد، بو»، كان صوتها هادئاً تماماً. «أنا آسفة لأنني لا أستطيع القدوم للاحتفال معك في الريف، فقد عانيت من بضع سكتات أخرى خلال الأيام الماضية. كان مقدراً لها أن تحدث، ولكن الحمد لله، أنا بخير. لا أستطيع التحدث بشكل جيد من جانب واحد من فمي، ولكن الطبيب يقول أنني سأكون على ما يرام. استمري في إعداد التقارير ولا تقلقي بشأني، أنا بخير. أفضل حالاً من قبل أن أكتشف أنهم أخذوا خلايا والدتي. أشعر أنني خفيفة جداً، تفهمين قصدي؟ لقد رُفع العبء عني. أشكر الله على ما حدث».

أخبر الطبيب ديبورا أنّ السكتة الدماغية الثانية كانت أسوأ من الأولى. قال: «ثقي بي، لا أنصحك بأن تعرضي نفسك لذلك مرة أخرى». أخبرها أنها بحاجة إلى تطلع على حقيقة الأمر وأن تتعلم العلامات التحذيرية، ومعرفة كيفية خفض ضغط دمها والسيطرة على نسبة السكر فيه.

قالت لي: «إنه سبب إضافي يجعلني أصر على الالتحاق بالمدرسة. لقد اشتركت في مقرر داء السكري ومقرر السكتة الدماغية لأحظى بمزيدٍ من الفهم حول ذلك. ربما يمكنني أخذ درس في التغذية لتعلم كيف أتناول الطعام الجيد أيضاً».

وبدا أن السكتة الدماغية تخفف التوتر في الأسرة أيضاً، فقد شرع إخوة ديبورا في الاتصال كلّ يوم للاطمئنان على حالها، حتى أن زكريا قال إنه يرغب بزيارتها. وأملت ديبورا أن يعني هذا أن إخوتها سيتقبلون رغبتها في جمع معلوماتٍ عن والدتهم.

اتصلت بي ضاحكةً تقول: «يا فتاة، يجب أن أنال قسطاً من الراحة حتى نتمكن من العودة إلى الطريق وإجراء المزيد من الأبحاث قبل أن يضيع الأثر. ولكن من الآن فصاعداً، سأركب معك. كلّ شيء سيكون بخير. هذا ما بتّ أدركه الآن. عليّ فقط أن أتحرك أبطأ قليلاً، وأن أعير اهتمامي للأشياء دون أن أسمح لنفسي بأن يسيطر علي الخوف. إذ لا شيء يدعو للخوف مع أمي وخلاياها. لا أريد أن يمنعني أيّ شيء من التعلم بعد الآن».

ولكن في الواقع كان ثمة شيء من شأنه أن يمنع ديبورا من التعلم، إذ لم يكن لديها ما يكفي من المال. بالكاد غطى شيك الضمان الاجتماعي نفقات معيشتها، ناهيك عن الفصول والكتب. جاءت بعدة أفكار لكسب المال، بما في ذلك ابتكار زجاجة أطفال ملونة للاستعمال مرة واحدة تحتوي كميات محددة مسبقاً من الماء والحليب الصناعي، حيث يمكن للأم المشغولة أن تهزه بيد واحدة أثناء حمل الطفل. رسمَت مخططات دقيقة وأرسلَتها مع طلب براءة اختراع، لكنها تخلّت عن الفكرة عندما اكتشفت أن صنع النموذج الأولي يُكلف آلاف الدولارات.

في النهاية توقفت ديبورا عن التفكير في الذهاب إلى المدرسة

شخصياً وبدلاً من ذلك بدأت في التركيز على تعليم أحفادها وأحفاد أخوتها.

أخبرتني ذات يوم عبر الهاتف: «لقد فات الأوان لأولاد هنرييتا. هذه القصة ليست عنا بعد الآن. إنها عن أولاد لاكس الجدد».

بعد شهرين من تعرض ديبورا للسكتة الدماغية، ذهبنا إلى كنيسة بولوم لمشاهدته يعمّد حفيدة سوني البالغة من العمر تسعة أشهر، جابريا. بالكاد وجدتُ مقعداً شاغراً عندما بدأت الخطبة. وقف بولوم خلف المنبر ملفوفاً برداء أسود طويل مع صلبان حمراء على مقدمته، والعرق يقطر من جبهته. شقّ عازف بيانو أعمى طريقه إلى البيانو وبدأ يعزف أثناء غناء الرعيّة: «قف بجانبي، أثناء خوض هذا السباق، لأنني لا أريد خوض هذا السباق عبثاً».

أشار بولوم نحوي وابتسم ابتسامة ماكرة.

«تعالي وقفي بجانبي». صاح.

همست ديبورا، وهي تدفعني بمرفقها: «يا فتاة، أنت في ورطة الآن».

همستُ لها: «لن أصعدَ إلى هناك. فقط تظاهري بأننا لا نستطيع رؤيته».

لوح بولوم بذراعيه فوق رأسه، ثم أشار إلى المنبر من أجل أن أنضمّ إليه. حدقت أنا وديبورا في الجوقة التي خلفه ووجهانا فارغان من التعبير نتظاهر بعدم رؤيته. لكن بولوم صاح عبر الميكروفون:

«لدينا ضيفة معنا اليوم! ريبيكا سكلوت، هلا وقفتِ بجانبنا هذا الصباح؟».

همسَت ديبورا: «أوه»، حيث تبعَت الرعيّة بأكملها إصبعه الموجه للنظر إلي.

وقفتُ.

قال بولوم: «الأخت ريبيكا سكلوت، أعرف أن هذا قد لا يكون الوقت المناسب لك، لكنه الوقت المناسب لي».

قالت ديبورا من مقعدها بجانبي: «آمين»، فجأة أصبح صوتها جاداً.

«جون هوبكنز أخذ جثة والدة زوجتي واستخدم ما يحتاجه منها»، صاح في الميكروفون. «لقد باعوا خلاياها في جميع أنحاء العالم! الآن سأجعل الأخت ريبيكا سكلوت تأتي وتتحدث عما تفعله مع زوجتي وخلاياها».

لم أجلس في محفلٍ من قبل ناهيك عن التحدث أمام الرعية. تورّد وجهي وانقبضت حنجرتي عندما دفعت ديبورا ظهري لتجعلني أتحرك. طلب بولوم من الرعيّة مساعدتي، وهبّت القاعة للتشجيع. مشيت إلى المنبر وأخذت الميكروفون من بولوم الذي ربت على ظهري وهمس في أذني: «قدمي عظةً بكلماتك الخاصة». وهذا ما فعلت. رويت للحضور قصة خلايا هنرييتا وما فعلته من أجل العلم، وكان صوتي يزداد ارتفاعاً كلما صرخت الرعية «آمين!»

و«هللويا». و«وارحمنا يا ربنا». قلت: «يعتقد معظم الناس أن اسمها كان هيلين لين. لكن اسمها في الحقيقة هنرييتا لاكس. كان لديها خمسة أطفال، وواحد منهم يجلس هناك». أشرت إلى ديبورا. كانت تحمل جابريا في حضنها الآن مبتسمة والدموع تنهمر على خديها.

تقدم بولوم إلى الأمام وأخذ الميكروفون، ثم وضع ذراعه حول كتفي وضغط حتى لا أبتعد.

قال: «كنت غاضباً جداً من الأخت ريبيكا عندما بدأت الاتصال بنا. كذلك زوجتي. ثم أخيراً قلنا حسناً، لكننا قلنا لها: عليك التحدث إلينا وكأننا أشخاص عاديون. عليك أن تخبرينا بما يجري».

نظر إلى ديبورا. «سيعرف العالم من تكون والدتك. لكن أنت وسوني وبقية أولاد هنرييتا، ربما لم تعرفوا الفوائد الحقيقية لتلك الخلايا». أومأت ديبورا برأسها بينما رفع بولوم ذراعه الطويلة وأشار إلى جابريا وهي طفلة جميلة بشكل مذهل ترتدي دانتيلاً أبيض مع فيونكة في شعرها.

«ستعرف هذه الطفلة يوماً ما أن جدتها الكبرى هنرييتا ساعدت العالم!» صاح بولوم. ثم أشار في أرجاء القاعة إلى ديفون وأبناء عم جابريا الآخرين قائلا: «وكذلك سيفعل ذلك الطفل... وذلك الطفل... وذلك الطفل. إنها قصتهم الآن. عليهم التمسك بها والسماح لها بتعليمهم أنّ بوسعهم تغيير العالم أيضاً».

رفع ذراعيه فوق رأسه وهتف هللويا. لوحت الطفلة جابريا بيديها وأطلقت ضحكةً سعيدة بصوت عالٍ، فهتفت الرعية آمين.

(٣٨)

الطريق الطويل إلى كلوفر

في ١٨ يناير ٢٠٠٩، في يوم أحد بارد ولكن مشمس، انطلقتُ من الطريق السريع نحو الطريق المؤدي إلى كلوفر. عبرتُ حقلاً أخضر تلو الآخر، وفكرتُ: لا أتذكر أن الطريق إلى كلوفر كان طويلاً إلى هذه الدرجة. ثم أدركت أنني مررت للتوّ بمكتب بريد كلوفر، كان على بعد شارعٍ من حقل كبير فارغ. ولكن أذكر أنه كان في الشارع المقابل لبقية البلدة. لم أفهم. إن كان هذا مكتب البريد، فأين كلّ شيء آخر؟ تابعت القيادة للحظة، أفكر، تُرى هل نقلوا مكتب البريد؟ ثم أدركتُ فجأة.

لقد اختفت كلوفر.

قفزت من السيارة وركضت إلى الحقل، إلى المكان الذي يفترض أن يكون موقع مسرح السينما القديم حيث شاهدت هنرييتا وكليف مرة أفلام باك جونز. لقد اختفى. وكذلك اختفت بقالية غريغوري ومارتن ومتجر ملابس آبوت. وضعت يدي فوق فمي أحدق بذهولٍ في الحقل الفارغ حتى أدركت أن هناك بعض بقايا الطوب

وبلاط الجص الأبيض الصغير مضغوط في التراب والعشب. ركعت على ركبتي ورحت أجمعها، وملأت جيبي بما تبقى من بلدة شباب هنرييتا.

فكّرت أن عليّ أن أرسل بعضاً من هذا إلى ديبورا. لن تصدق أن كلوفر اختفت.

وقفت على الشارع الرئيسي، أحدق في بقايا بلدة كلوفر، شعرت كأن كلّ شيء متعلق بتاريخ هنرييتا اختفى. في عام ٢٠٠٢، بعد عام واحد فقط من قيام غاري بلف يديه حول رأس ديبورا ونقل عبء الخلايا إلي، توفي فجأة في سن الثانية والخمسين بسبب نوبة قلبية. كان يسير نحو سيارة كوتي حاملاً أفضل بدلة لديه ليضعها في صندوق السيارة حتى لا تتجعد في الطريق إلى جنازة والدة كوتي. بعد بضعة أشهر، اتصلت ديبورا لتقول إن شقيق كليف فريد توفي بسبب سرطان الحلق. وتلاه داي. توفي داي بسكتة دماغية، محاطاً بعائلته. ثم كوتي الذي قتل نفسه بأن أطلق النار من بندقية إلى رأسه. في كلّ مرة يموت شخص ما، تتصل بي ديبورا وقد اختنق صوتها بالبكاء.

ظننت أن تلك المكالمات لن تنتهي أبداً.

كانت تقول: «الموت يلاحقنا في كلّ مكان نذهب إليه. لكنني لا أزال صامدة».

في السنوات التي أعقبت حفل المعمودية، لم يتغير الكثير بالنسبة لآل لاكس. تابع بوبيت ولورانس حياتهما. لم يعد لورانس يفكر في

الخلايا كثيراً، على الرغم من أنه لا يزال يستمتع هو وزكريا أحياناً بفكرة مقاضاة هوبكنز.

خضع سوني لعملية مفاهرة شريان في عام ٢٠٠٣، عندما كان عمره ستة وخمسين عاماً، وكان آخر شيء تذكره قبل أن يفقد الوعي تحت تأثير التخدير هو طبيب يقف فوقه قائلاً إن خلايا والدته كانت من أهم الأشياء التي حدثت في عالم الطب على الإطلاق. استيقظ سوني على دينٍ قدره ١٢٥ ألف دولار لأنه لم يكن لديه تأمين صحي لتغطية الجراحة.

طُرد زكريا من المأوى، ثم من مشروع الإسكان القسم الثامن، حيث حطم زجاجة بيرة فوق ظهر امرأة ودفعها من خلال نافذة زجاجية. كان يعمل أحياناً مع سوني في قيادة الشاحنة.

في عام ٢٠٠٤ تركت ديبورا زوجها وانتقلت إلى شقة خاصة بها وهذا ما كانت تتوق إلى القيام به لسنوات، كانت متعبة من الشجار مع بولوم بالإضافة إلى أن منزلهم كان فيه الكثير من السلالم. بعد أن انتقلت ذهبت للعمل بدوام كامل لدى ابنتها تونيا التي فتحت منزل رعاية في منزلها. وفي كلّ صباح، كانت ديبورا تغادر منزلها وتقضي اليوم في الطبخ والتنظيف لخمسة أو ستة رجال يعيشون في منزل ابنتها. استقالت بعد عامين لأن جسدها لم يستطع الصعود والنزول على السلالم طوال اليوم.

عندما تطلقت ديبورا رسمياً من بولوم في عام ٢٠٠٦، كان عليها أن تصنف دخلها كجزء من طلب رفعته للقاضي للتنازل عن

رسوم التقديم. فمُنحت ٧٣٢ دولاراً شهرياً من الضمان الاجتماعي للإعاقة و١٠ دولارات شهرياً لقسائم الطعام. كان حسابها المصرفي فارغاً.

عندما عدتُ لزيارة كلوفر ووجدتُ الشارع الرئيسي مهدماً كان قد مضى بضعة أشهر منذ تحدّثنا أنا وديبورا. خلال مكالمتنا الأخيرة، كنت قد أخبرتها أن الكتاب قد انتهى، وقالت إنها تريدني أن آتي إلى بالتيمور وأقرأه لها حتى أتمكن من التحدث معها عن الأجزاء الصعبة. اتصلتُ عدة مرات منذ ذلك الحين للتخطيط للزيارة، لكنها لم ترد على مكالماتي. تركت لها رسائل، لكنني لم أضغط عليها. اعتقدتُ أنها تحتاج إلى بعض المساحة لتحضير نفسها. ستتصل حينما تكون مستعدة. عندما عدت إلى المنزل من كلوفر، اتصلت مرة أخرى قائلة: «أحضرت لك شيئاً من كلوفر، لن تصدقي ما حدث هناك». لكنها لم تعاود الاتصال.

في ٢١ مايو ٢٠٠٩، بعد أن تركتُ العديد من الرسائل، اتصلتُ مرة أخرى. صندوق بريدها الصوتي كان ممتلئاً. لذلك، اتصلتُ برقم سوني لأقول له شيئاً قلته له عدة مرات على مر السنين: «هل ستخبر أختك أن تتوقف عن العبث وتعاود الاتصال بي؟ أنا فعلا بحاجة للحديث معها. لا وقت لدينا». عندما أجاب على الهاتف، قلت له: «سوني، أنا ريبيكا»، وظل صامتاً على الخط.

قال: «لقد كنت أحاول العثور على رقم هاتفك»، وامتلأت عيناي بالدموع. كنت أعرف أن هناك سبباً واحداً يجعل سوني يتصل بي.

ذهبت ديبورا إلى منزل ابنة أخيها في عيد الأم، قبل أسبوع ونصف من اتصالي، حضّر سوني كعك السلطعون لها، وكان الأحفاد هناك، وضحك الجميع وتبادلوا القصص. بعد العشاء أخذ ديبورا إلى الشقة التي أحبتها وتمنى لها ليلة سعيدة. بقيَت في المنزل في اليوم التالي، وأكلَت بقايا كعك السلطعون الذي أعطاها إياه سوني لتأخذه إلى المنزل معها، وتحدثَت إلى ديفون عبر الهاتف، كان يتعلم القيادة ويريد المجيء في الصباح للتدرب. في صباح اليوم التالي عندما اتصل، لم تجب على الهاتف. بعد بضع ساعات، جاء سوني للاطمئنان عليها، كما كان يفعل تقريباً كلّ يوم، ووجدها في سريرها وذراعيها على صدرها، مبتسمة. كان يعتقد أنها نائمة، لذلك لمس ذراعه، قائلاً: «دايل، حان وقت الاستيقاظ». لكنها لم تكن نائمة.

قال سوني: «إنها في مكان أفضل الآن. أصيبت بنوبة قلبية بعد عيد الأم مباشرة، ما كانت لترغب بطريقة أفضل للرحيل. لقد عانت كثيراً في حياتها، والآن هي سعيدة».

بعد العثور على ديبورا في سريرها، قص سوني خصلة من شعرها ووضعها داخل كتاب والدتهم المقدس مع خصلات شعر هنرييتا وإلسي. قال لي: «إنها معهما الآن. أنت تعرفين أنه لا يوجد مكان في العالم أفضل من صحبتهما لتكون فيه».

كانت ديبورا سعيدة عندما توفيت: كان حفيدها الصغير ألفريد الآن في الثانية عشرة من عمره، ونجح إلى الصف الثامن ويبلي بلاءً حسناً في المدرسة. دخلت حفيدة لورانس وبوبيت إريكا إلى جامعة

بنسلفانيا بعد كتابة مقال قبول حول كيف ألهمتها قصة جدتها هنرييتا لدراسة العلوم. بعد انتقالها إلى جامعة ماريلاند، حصلت على درجة البكالوريوس ودخلت برنامج الماجستير في علم النفس، لتصبح الأولى بين أحفاد هنرييتا التي تلتحق بالدراسات العليا. في سن السابعة عشرة، كان حفيد ديبورا ديفون على وشك التخرج من المدرسة الثانوية. لقد وعد ديبورا بأن يذهب إلى الكلية ويستمر في الاستقصاء عن هنرييتا حتى يعرف كلّ شيء عنها. قالت لي: «هذا جعلني أشعر بالارتياح حقاً بشأن الموت كلما شعرت بدنوّ أجلي».

بعد أن أخبرني سوني بنبأ وفاة ديبورا، جلستُ أحدق في صورة مؤطرة لها كانت على مكتبي لما يقرب من عقدٍ من الزمان. كانت عيناها تبدوان قاسيتين وجبينها مجعّد وغاضب. ترتدي قميصاً وردياً وتحمل زجاجة بينادريل وردية أيضاً. وكل شيء آخر أحمر اللون؛ أظافرها والطفح على وجهها والتراب تحت قدميها.

حدقتُ في تلك الصورة لأيام بعد وفاتها وأنا أصغي لساعاتٍ من تسجيلات أحاديثنا، وقرأتُ الملاحظات التي كتبتُها آخر مرة رأيتها فيها. في لحظةٍ ما خلال تلك الزيارة، جلست أنا وديبورا وديفون جنباً إلى جنب على سريرها، ظهورنا على الحائط وأرجلنا ممدودة. كنا قد انتهينا للتو من مشاهدة اثنين من أفلام ديبورا المفضلة واحداً تلو الآخر: فيلم «الجذور» وفيلم الرسوم المتحركة «سبيريت»، حول حصان بري يقبض عليه الجيش الأمريكي. أرادت منا أن نشاهدهما معاً حتى نتمكن من رؤية أوجه التشابه بين الفيلمين حيث قاتل

سبيريت من أجل حريته تماماً كما فعل كونتا كنتي في فيلم الجذور، على حدّ قولها.

قالت: «كان الناس يحاولون دائماً تثبيط عزيمتهما ومنعهما من فعل ما يريدان تماماً كما يفعل الناس معي دائماً في قصة والدتي».

عندما انتهى الفيلمان، قفزت ديبورا من السرير ووضعَت فيديو آخر. ضغطَت على زرّ التشغيل وظهرت نسخة أصغر منها على الشاشة. كان الفيديو من بين ما يقرب من اثني عشر شريطاً سجلتها هيئة الإذاعة البريطانية ولم تعرضها ضمن الفيلم الوثائقي. على الشاشة، جلست ديبورا على أريكة وقد وضعت كتاب والدتها المقدس في حضنها، وشعرها بني وليس أشيب وعيناها مشرقتان ولا توجد هالاتٍ حولهما. وبينما كانت تتحدث، أمسكَت بيدها خصلة شعر والدتها.

قالت ديبورا للكاميرا: «غالباً ما أزور شعرها في الكتاب المقدس. عندما أفكر في هذا الشعر، أشعر أنني لست وحيدة. أتخيل، كيف سيكون الحال لو كان لديّ أمّ أذهب إليها، لأضحك معها أو أبكي أو لأعانقها. إن شاء الله، سأكون معها يوماً ما. أتطلع لذلك».

قالت ديبورا الشابة إنها سعيدة لأنها عندما تموت لن تضطر إلى إخبار والدتها بقصة كلّ ما حدث مع الخلايا والعائلة لأن هنرييتا كانت تعرف كلّ شيء أساساً. قالت ديبورا: «إنها تراقبنا وترى كلّ ما يحدث هنا. إنها تنتظرنا بصبرٍ. لن يكون هناك المزيد من الكلمات، فقط الكثير من العناق والبكاء. أعتقد حقاً أنها في السماء، وأنها

بخيرٍ هناك لأنها نالت ما يكفي من المعاناة نيابة عن الجميع هنا. على الجانب الآخر، يقال إنه لا يوجد ألم أو معاناة... أريد أن أكون هناك مع والدتي».

جلست ديبورا بيني وبين ديفون على السرير، أومأت برأسها إلى نسختها الأصغر سناً على الشاشة وقالت: «تبدو الجنة مثل كلوفر في فيرجينيا. لطالما أحببتها أنا وأمي أكثر من أيّ مكان آخر في العالم».

ثم مسدت شعر ديفون بيدها. قالت: «لا أعرف كيف سأرحل. آمل فقط أن يكون رحيلي لطيفاً وهادئاً. لكن دعيني أقول لك شيئاً واحداً، لا أريد أن أكون خالدة إن كان ذلك يعني العيش إلى الأبد، لأن الجميع يموتون ويشيخون أمامك في حين تبقى أنت على حالك، وهذا محزن جداً». ثم ابتسمَت. «ولكن ربما أعود على هيئة خلايا هيلا مثل أمي، وبهذه الطريقة يمكننا أن نفعل الخير معاً لهذا العالم». توقفَت وأومأت برأسها مرة أخرى. «أظن أنني سأحبّ هذا».

أين هم الآن

ألفريد كارتر الابن، ابن ديبورا، في السجن، يقضي حكماً بالسجن لمدة ثلاثين عاماً بتهمة السرقة بسلاح خطير وقاتل، والاعتداء من الدرجة الأولى بمسدس. وأثناء سجنه، خضع لإعادة تأهيل مدمني المخدرات والكحول، وقام بتدريس فصول التعليم العام لنزلاء آخرين مقابل خمسة وعشرين دولاراً في الشهر. في عام ٢٠٠٦ كتب إلى القاضي الذي حكم عليه، قائلاً إنه يريد أن يسدد المال الذي سرقه ويحتاج إلى معرفة إلى من يرسله.

مكان الدكتور السير لورد كينان كيستر كوفيلد غير معروف. في الآونة الأخيرة، قضى عدة سنوات في السجن لمحاولته شراء المجوهرات من محلات ماسي بشيك مسروق، ورفع عدة دعاوى قضائية أثناء سجنه. في عام ٢٠٠٨، بعد إطلاق سراحه من السجن، رفع كوفيلد دعوى قضائية من خمس وسبعين صفحة وصفها قاضٍ بأنها «غير مفهومة». رفع دعوى قضائية ضد ٢٢٦ طرفاً مقابل أكثر من ١٠ مليارات دولار، وقال إن القرارات السابقة في جميع قضاياه

يجب عكسها لصالحه، وأنّ أيّ شخص يطبع اسمه دون إذن يجب إدراجه في الدعوى الخاصة به، لأنه يمتلك حقوق طباعة ونشر اسمه. لم أتمكن أبداً من الاتصال به لإجراء مقابلة معه من أجل هذا الكتاب.

عاش كليف غاريت، ابن عم هنرييتا، في منزله الريفي في كلوفر حتى عام ٢٠٠٩، إلى أن تطلبت صحته المتدهورة الانتقال للعيش مع ابنه في ريتشموند، فيرجينيا، حيث يعيش حالياً.

لا تزال هيلا من أكثر السلالات الخلوية شيوعاً في المختبرات في جميع أنحاء العالم. عندما ذهب هذا الكتاب إلى المطبعة عام ٢٠٠٩، كان قد نُشر أكثر من ستين ألف مقال علمي حول البحوث التي أُجريت على هيلا، وهذا العدد يتزايد بإطراد بمعدل أكثر من ٣٠٠ ورقة بحثية كلّ شهر. لا تزال خلايا هيلا تلوث مزارع الخلايا الأخرى وتتسبب في أضرار تقدر بملايين الدولارات كلّ عام.

هوارد جونز، طبيب هنرييتا، هو الآن أستاذ فخري في جونز هوبكنز وكلية الطب في فرجينيا الشرقية. أسس معهد جونز للطب الإنجابي في نورفولك، فيرجينيا، مع زوجته الراحلة جورجيانا. كانا رائدين في مجال علاج العقم، ومسؤولَين عن أوّل طفل أنبوب يولد في الولايات المتحدة. عند طِباعة هذا الكتاب كان في التاسعة والتسعين من عمره.

ماري كوبتشيك متقاعدة وتعيش في ميريلاند.

تأثر زكريا وسوني ولورانس لاكس بشدة بوفاة ديبورا. اقترض لورانس أكثر من ٦٠٠٠ دولار على بطاقاته الائتمانية لتغطية تكلفة دفنها، وعند نشر هذا الكتاب، كان سوني يوفر المال لشراء شاهدٍ لقبرها. توقف زكريا عن الشرب وبدأ يدرس حياة ممارسي اليوغا وغيرهم ممن حققوا السلام الداخلي. شرع في قضاء المزيد من الوقت مع عائلته، بما فيهم العديد من بنات وأبناء أخوته الذين يعانقونه ويقبلونه باستمرار. وبات يبتسم في كثير من الأحيان. أقسم سوني على دعم رغبة ديبورا في الحصول على اعتراف وتقدير لوالدتهم. اليوم، عندما يتحدث الإخوة لاكس عن هنرييتا، فإنهم يركزون على أهمية مساهمتها في العلوم. لم يعودوا يتحدثون عن مقاضاة جونز هوبكنز، على الرغم من أن لورانس وزكريا لا يزالان يعتقدان أنها مدينة لهم بحصة من أرباح خلايا هيلا.

كريستوف لينغاور هو الرئيس العالمي لاكتشاف أدوية الأورام في سانوفي- أفانتيس، وهي من أكبر شركات الأدوية في العالم. يستخدم العديد من العلماء الذين يعملون لديه خلايا هيلا بشكل روتيني. يعيش في باريس، فرنسا.

ديفون ميد و(ليتل) ألفريد الابن، حفيدا ديبورا، يعيشان في بالتيمور، كما يفعل اثنان وعشرون من أحفاد هنرييتا الآخرين، بما فيهم أحفادها وأحفاد أحفادها وأحفاد أحفاد أحفادها. ويعيش حفيدان آخران في كاليفورنيا.

استأنف جون مور الحكم أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة، والتي رفضت النظر في قضيته. توفي عام ٢٠٠١.

رولاند باتيلو هو الآن أستاذ في كلية مورهاوس للطب، حيث يواصل عقد مؤتمر هيلا على شرف هنرييتا كلّ عام. اشترى باتيلو وزوجته، بات، شاهداً لقبر هنرييتا.

جيمس بولوم، زوج ديبورا السابق لا يزال يعظ في بالتيمور.

لا تزال كورتني سبيد تدير متجر البقالة، حيث تواصل تعليم الأطفال المحليين الرياضيات، وتأمل افتتاح متحف هنرييتا لاكس.

عن مؤسسة هنرييتا لاكس

أسَّست الكاتبة ريبيكا سكلوت مؤسسةَ «هنرييتا لاكس» قبل أن تنشر كتاب «الحياة الخالدة لـ هنرييتا لاكس»، وهي تتبرَّع الآن ببعض عائدات الكتاب للمؤسسة. ولمزيد من المعلومات تفضَّل بزيارة الموقع الإلكتروني:

http://henriettalacksfoundation.org/

كلمة ختامية

حين أقصُّ على الناس حكاية هنرييتا لاكس وخلاياها، عادةً ما يكون سؤالهم الأول حول ما إذا كان استخدام الأطباء لخلايا هنرييتا دون علمها قانونياً. ألا يجب على الأطباء إخبار المريض قبل استخدام خلاياه في أبحاثهم؟ لكن الإجابة هي «لا»، ليس في عام ١٩٥١ ولا حتى في عام ٢٠٠٩ حين أُرسل هذا الكتاب إلى الطباعة.

في الوقت الحاضر، يُحتفَظ بأنسجة معظم الأمريكيين في مكان ما، فعندما تذهب إلى الطبيب لإجراء اختبار دم روتيني أو لاستئصال شامة أو لاستئصال الزائدة الدودية أو اللوزتين أو أيّ نوع آخر من الاستئصال، غالباً لا يتخلَّص الأطباء من الأجزاء المستأصَلة، بل يحتفظون بها في المستشفيات والمختبرات إلى أجلٍ غير مسمًّى.

في عام ١٩٩٩، نشرت مؤسسة الأبحاث والتطوير الأمريكية (RAND) تقريراً يعدُّ الأول والأخير من نوعه حتى الآن، حيث تضمَّن «تخميناً متحفِّظاً» مفاده أنَّ ما يزيد عن ٣٠٧ ملايين عيِّنة

أنسجة مما يزيد عن ١٧٨ مليون شخص مخزَّنةٌ في الولايات المتحدة وحدها. كما أشار التقرير إلى أنَّ هذا العدد يتزايد بما يزيد عن ٢٠ مليون عيِّنة سنوياً، حيث تأتي العينات من الإجراءات الطبية الروتينية والاختبارات والعمليات والتجارب السريرية والتبرعات لأجل الأبحاث. يُحتفظ بتلك العيِّنات في مجمدات على رفوف المختبرات أو في أطباق صناعية من النيتروجين السائل. كما أنَّها تُخزَّن في المنشآت العسكرية ومكتب التحقيقات الفدرالي والمعاهد الوطنية للصحة وفي مختبرات شركات التكنولوجيا الحيوية ومعظم المستشفيات. تحتفظ البنوك الحيوية بالزائدات الدودية والمبايض والجلد والمصرات والخصيتين والدهون والقلفات الناتجة عن عمليات الختان. عندما فرضت الولايات المتحدة في أواخر الستينيات فحص جميع المواليد الجدد للكشف عن الأمراض الوراثية، بدأت تلك البنوك بتخزين عينات الدم المأخوذة من معظم الرُضَّع المولودين في الولايات المتحدة.

يستمر حجم أبحاث الأنسجة بالازدياد، إذ تشير كاثي هدسون، عالمة الأحياء الجزيئية التي أسست مركز علم الوراثة والسياسة العامة في جامعة جونز هوبكنز وتشغل الآن منصب رئيس الأطباء في المعهد الوطني للصحة، إلى أنَّ «الأمر بدأ بتخزين أحد الباحثين في فلوريدا ستين عيِّنة في مجمّد مختبره، ثم تخزين باحث آخر في يوتاه بعضَ العينات في مختبره، ليبلغ ذلك بعدها نطاقاً هائلاً». استثمر المعهد الوطني للصحة عام ٢٠٠٩ مبلغ ١٣,٥ مليون دولار لإنشاء بنك

للعينات المأخوذة من المواليد الجدد في جميع أنحاء البلد. قبل بضع سنوات من ذلك الوقت، بدأ المعهد الوطني للسرطان في جمع ملايين عينات الأنسجة لرسم خرائط جينات السرطان، ثم بدأ «مشروعُ الجينوم» بالشيء نفسه لرسم خرائط أنماط الهجرة البشرية، كما فعل المعهد الوطني للصحة بهدف تتبُّع جينات الأمراض. استمر الناس لعدة سنوات بإرسال ملايين العينات إلى شركات اختبار الحمض النووي المتخصصة، مثل شركة (23 and Me) التي لا تزوِّد العملاء بمعلوماتهم الطبية أو الأنساب الشخصية إلا بعد توقيعهم على نموذج يمنحها الإذن بتخزين عيناتهم للبحث المستقبلي. يستخدم العلماء هذه العينات لتطوير كلّ ما يخطر في البال، من لقاحات الإنفلونزا إلى منتجات تكبير القضيب. يضعون الخلايا في أطباق الزرع ويعرِّضونها للإشعاع والعقاقير ومستحضرات التجميل والفيروسات والمواد الكيميائية المنزلية والأسلحة البيولوجية، ثم يدرسون استجاباتها لها. لو لا تلك الأنسجة، لما كان لدينا اختباراتٌ لأمراضٍ مثل التهاب الكبد وفيروس نقص المناعة البشرية ولا حتى لقاحاتٍ لداء الكلب والجدري والحصبة أو أيّ من الأدوية الجديدة الواعدة لمعالجة سرطان الدم والثدي والقولون، كما سيحتاج مطورو المنتجات التي تعتمد على المواد البيولوجية البشرية مليارات الدولارات لو لا تلك الأنسجة.

لا يمكن أن يكون شعورك حيال ذلك واضحاً، فالأمر ليس كما لو أنَّ العلماء يسرقون ذراعك أو عضواً حيواً من جسدك،

بل يستخدمون الأنسجة التي أُخذت منك طواعيةً. ومع ذلك، غالباً ما ينطوي ذلك على أخذ شخصٍ جزءاً منك. غالباً ما يكون لدى الناس إحساسٌ قويٌّ بالملكية عندما يتعلق الأمر بأجسادهم حتى لو تعلّق الأمر ببقايا صغيرة منها، خاصةً حين يسمعون أنَّ شخصاً آخر يجني المال من تلك البقايا أو يستخدمها للكشف عن معلومات يحتمل أن تكون ضارة حول جيناتهم وتاريخهم الطبي. لكنَّ الشعور بالملكية لا يصمد في المحكمة، حيث لم توضِّح أيّ سوابقٍ قضائية حتى الآن ما إذا كان للشخص الحقُّ في ملكية أنسجته أو التحكم بها، فمن الواضح أنَّه يمتلكها حين تكون جزءاً من جسمه، ولكنَّ حقَّه في الملكية يصبح مُبهَماً بعد استخراج تلك الأنسجة من جسمه.

تتوقع كاثي هدسون، التي أنشأت مجموعاتٍ تدرس مشاعر الناس تجاه معضلة الأنسجة، أنَّ حقوق الأنسجة يمكن أن تصبح حركة حقيقية، إذ قالت لي: «يمكنني أن أرى الناس يقولون، «لا، لا يمكنك أخذ أنسجتي»، ولكن من الأفضل أن نتعامل مع المشاكل الآن بدلاً من انتظار حدوث ذلك».

توجد مسألتان يجب التعامل معهما، ألا وهما «الموافقة» و«المقابل المادي». بالنسبة لمعظم الناس، تعدُّ معرفة ما إذا كانت أنسجتهم تستخدم في الأبحاث وكيفية استخدامها قضيةً أكبر من الاستفادة منها مادياً. ولكن عندما أُرسل هذا الكتاب إلى الطباعة، لم يكن يتطلَّب تخزين الدم والأنسجة للبحث موافقةً مستنيرة قانوناً، لأن

القانون الذي يحكم مثل هذه الأشياء لا ينطبق عموماً على أبحاث الأنسجة.

تتطلب السياسة الفيدرالية لحماية البشر، والمعروفة أيضاً باسم «القاعدة المشتركة»، موافقةً مستنيرة لجميع الأبحاث المتعلِّقة بالبشر. ولكن في الممارسة العملية، لا يشمل ذلك معظم أبحاث الأنسجة: (١) لأنها ليست ممولة فيدرالياً، أو (٢) لأن الباحث لا يعرف هوية «المتبرعين» أو يتواصل معهم بشكل مباشر، وفي هذه الحالة لا تعدُّ أبحاثاً على البشر. وبذلك لا تحكم القاعدةُ المشتركة معظمَ أبحاث الأنسجة. ولكن إذا أراد الأطباء اليوم جمع الأنسجة من المرضى لأغراض البحث فقط، كما هو الحال في حالة هنريتا، فهم مطالَبون بالحصول على موافقة مستنيرة، إلا أنَّ تخزين الأنسجة من الإجراءات التشخيصية، مثل خزعات الوحمات، واستخدامها في الأبحاث المستقبلية لا يتطلب مثل هذه الموافقة. ما تزال معظم المؤسسات تختار الحصول على إذن، ولكن لا يوجد اتِّساقٌ في الطريقة التي يجري بها ذلك، حيث يوزِّع عددٌ قليلٌ منهم ما يكفي من المعلومات الكافية لملء كتابٍ صغير ويشرحون بالتفصيل الغرضَ الذي ستُستخدم أنسجةُ المرضى من أجله. ولكنَّ معظمهم يكتفون بتضمين سطر قصير في نموذج الدخول إلى المستشفى مفادُه أنَّ أيّ أنسجةٍ تُزال يمكن استخدامها لأغراض التعليم أو البحث.

وفقاً لما ذكرته جوديث غرينبرغ، مديرة شعبة علم الوراثة والبيولوجيا التنموية في المعهد الوطني للعلوم الطبية العامة، فإنَّ

المعهد الوطني للصحة لديه الآن «مبادئ توجيهية صارمة للغاية» تتطلَّب الموافقة على أيّ أنسجة تُجمع لتخزَّن في بنوكهم الحيوية. ترى غرينبرغ أنَّه «من المهم جداً أن يفهم المتبرعون عواقبَ أبحاث الأنسجة»، لكنَّ تلك المبادئ تنطبق فقط على أبحاث المعهد الوطني للصحة وليست ملزمة قانوناً.

يزعم أنصار الوضع الراهن أنَّ تمرير تشريعٍ جديد يتعلَّق بالأنسجة أمرٌ غير ضروري وأنَّ ممارسات الرقابة الحالية كافية، مشيرين إلى مجالس المراجعة المؤسسية والعديد من التوجيهات المهنية، مثل مدونة أخلاقيات الجمعية الطبية الأمريكية (التي تلزم الأطباء بإبلاغ المرضى في ما إذا كانت عينات أنسجتهم ستُستخدم في الأبحاث أو تجلب الأرباح)، والعديد من مبادئ ما بعد نورمبرغ، والتي تدرج الموافقةَ شرطاً فيها، بما في ذلك إعلانُ هلسنكي وتقرير بلمونت. لكنَّ التوجيهات والقواعد الأخلاقية ليست قوانين، كما يشير العديد من أنصار حقوق الأنسجة إلى أنَّ المراجعة الداخلية لا تؤدي عملها، فبعيداً عن مجرِّد معرفتهم بأنَّ أنسجتهم تستخدم في الأبحاث، يعتقد بعض الناشطين في مجال الأنسجة بضرورة امتلاك المتبرِّعين الحقَّ في أن يقولوا، على سبيل المثال، أنَّهم لا يريدون استخدام أنسجتهم في الأبحاث المتعلِّقة بالأسلحة النووية أو الإجهاض أو الاختلافات العرقية أو الاستخبارات أو أيّ شيء آخر يتعارض مع معتقداتهم. كما يعتقدون بأهمية قدرة المتبرعين على التحكم في من يمكنه الوصول

إلى أنسجتهم خشيةَ أن تُستخدم المعلومات التي تُجمع من عينات الأنسجة ضدَّهم.

في عام ٢٠٠٥، رفع أفراد قبيلة هافاسوباي الأمريكية الأصلية دعوى قضائية ضد جامعة ولاية أريزونا بعد أن أخذ العلماء عينات من الأنسجة التي تبرعت بها القبيلة لأبحاث مرض السكري واستخدموها دون موافقتهم لدراسة الفصام والتوالد الداخلي، وما تزال قضيتهم معلَّقة حتى الآن. في عام ٢٠٠٦، اكتشفت نحو ٧٠٠ أمٍّ جديدة أنَّ الأطباء أخذوا المشيمة الخاصة بهنَّ دون موافقتهنَّ لاختبار التشوهات التي قد تساعد المستشفى في الدفاع عن نفسها ضد دعاوى العيوب الخلقية في المستقبل. وفي عدد قليل من الحالات، استُخدمت الاختبارات الوراثية التي أُجريت على أشخاص دون موافقتهم لرفض مطالبات العمال بالتعويض أو التأمين الصحي، (وهو أمرٌ يحمي منه الآن قانونُ عدم التمييز في المعلومات الوراثية لعام ٢٠٠٨).

دفعت تلك الحالات عدداً كبيراً من النشطاء الأخلاقيين والمحامين والأطباء والمرضى إلى الجدال فيها لوضع لوائح جديدة من شأنها أن تمنح الناس الحق في التحكم في مصير أنسجتهم. كما أنَّ عدداً كبيراً من «المتبرعين» بالأنسجة يرفعون الدعاوى لتحديد مصير عيِّناتهم والحمض النووي داخلها. في عام ٢٠٠٥، طلب ستة آلاف مريض من جامعة واشنطن إزالة عينات الأنسجة الخاصة بهم من بنك سرطان البروستاتا. لكنَّ الجامعة قابلت ذلك بالرفض

وارتبطت تلك العينات بالدعاوى لسنوات. حكمت محكمتان حتى الآن ضدَّ المرضى، بالاعتماد على المنطق ذاته المستخدم في قضية «مور»، (أنَّ منح المرضى تلك الحقوق من شأنه أن يمنع البحث). في عام ٢٠٠٨، قدَّم المرضى طعناً إلى المحكمة العليا التي رفضت النظر في قضيتهم، وفي الوقت الذي أُرسل فيه هذا الكتاب إلى الطباعة، كانوا يفكرون في رفع دعوى جماعية. في يوليو ٢٠٠٩، رفع الآباء في مينيسوتا وتكساس دعوى قضائية لوقف تخزين عينات دم الجنين وإجراء الأبحاث عليها دون موافقة، حيث يمكن تتبُّع العديد من تلك العينات إلى الرُضَّع الذين أتت منهم، كما يجادل الآباء بأنَّ إجراء الأبحاث على تلك العينات يعدُّ انتهاكاً لخصوصية أطفالهم.

لكن بفضل قانون قابلية التأمين الصحي للتحويل والمساءلة (HIPPA) لعام ١٩٩٦، يوجد الآن قانون فيدرالي واضح لمنع هذا النوع من انتهاك الخصوصية الذي حدث لأسرة «لاكس» عندما أعلن الأطباء في هوبكنز عن اسم هنرييتا وسجلاتها الطبية. نظراً لأن الأنسجة المتصلة بأسماء المتبرعين تخضع لتنظيم صارم بموجب «القاعدة المشتركة»، لم تعد العيِّنات تُسمى باستخدام الأحرف الأولى من اسم المتبرِّع كما حصل مع خلايا هنرييتا، إذ تُسمى اليوم عادةً بأرقام رمزية. ولكن كما تعتقد جوديث غرينبرغ من المعهد الوطني للصحة، «ليس من الممكن أبداً أن يضمن ذلك عدم الكشف عن الهوية ١٠٠٪، لأنه من الناحية النظرية يمكننا تتبع

سلسلة الجينات ومعرفة هوية الأشخاص من خلاياهم. لذلك يجب أن ترتبط عملية الموافقة بتحديد مخاطر أبحاث الأنسجة حتى يتمكن الناس من تحديد ما إذا كانوا يريدون المساهمة».

تؤمن إلين رايت كلايتون، طبيبة ومحامية تعمل مديرة لمركز أخلاقيات الطب الحيوي والمجتمع في جامعة فاندربيلت، بضرورة وجود «حوار عام للغاية» حول كلّ هذه الأمور. كما تشير كلايتون إلى ضرورة تحديد المشكلة بشكل واضح وصريح حتى يتمكن الناس من فهم ما يحدث ويبدون موافقتهم عليه أو رفضهم له، لأن ما يحدث الآن يختلف عما يعرف الناس بحدوثه. وأضافت أنها ستشعر بالراحة حيال ما يحدث اليوم لو قدَّم شخصٌ ما مشروع قانون إلى الكونغرس مفاده أنَّه «اعتباراً من اليوم، عندما تذهب إلى الطبيب للرعاية الصحية، يمكن استخدام سجلاتك الطبية وعينات الأنسجة الخاصة بك لأغراض البحث ولا يتعين على أحدٍ طلب إذنك».

وأما لوري أندروز، مديرة معهد العلوم والقانون والتكنولوجيا في معهد إلينوي للتكنولوجيا، فتقترح حلاً أكثر جذرية، حيث دعت الناس إلى جذب انتباه صانعي السياسات إلى «المستنكفين الضميريين [الناشطين حقوقياً] بشأن عيِّنات الحمض النووي» ورفض إعطاء عيِّنات من الأنسجة.

فيما يجادل ديفيد كورن، نائب العميد للبحوث في جامعة هارفارد، بأنَّ إعطاء المرضى الحريةَ بتحديد مصير أنسجتهم يعدُّ فكرة قصيرة

النظر، حيث إنه يؤكِّد على أهمية موافقة الناس وتركهم يقررون ما سيحدث لأنسجتهم، لكنَّ الموافقة تقلِّل من قيمة الأنسجة، حيث يوضح كورن ذلك مشيراً إلى جائحة الإنفلونزا الإسبانية. استخدم العلماء في التسعينيات عيِّنات الأنسجة من جنديٍّ توفي عام ١٩١٨ لإعادة إنشاء جينوم الفيروس ودراسة سبب كونه مميتاً للغاية، على أمل الكشف عن معلومات حول أنفلونزا الطيور الحالية. كان طلبُ إذنِ ذلك الجندي عام ١٩١٨ لأخذ الأنسجة لهذا النوع من الأبحاث المستقبلية أمراً مستحيلاً برأي كورن، حيث «كان سؤالاً لا يمكن تصوره، إذ لم يكن أحد يعرف حتى ما هو الحمض النووي!».

بالنسبة إلى كورن، تطغى المسؤولية العامة تجاه العِلم على قضية الموافقة، إذ يعتقد «أن الناس ملزمون أخلاقياً بالسماح باستخدام الأجزاء المستأصَلة منهم لتعزيز العلم ومساعدة الآخرين. فبما أنَّ الجميع مستفيدون، يمكن للجميع قبول المخاطر الصغيرة المتمثلة في استخدام أنسجتهم لأغراض البحث». لكنَّ كورن يستثني الأشخاص الذين تحظر معتقداتهُم الدينية التبرعَ بالأنسجة، «فإذا عدَّ شخصٌ ما أنَّ دفنَه دون أن تكون أعضاؤه كاملة سيحكم على روحه بالضياع إلى الأبد دون الخلاص، فهذا أمرٌ يجب على الناس تفهُّمه واحترامه». لكنه يعترف بأن الناس لا يمكنهم تقديم تلك الاعتراضات إذا لم يعرفوا بأمر استخدام أنسجتهم في المقام الأول.

ترى أندروز أنَّ «العلم ليس القيمة الأعلى في المجتمع»، فتشير بدلاً من ذلك إلى أشياء مثل الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية،

إذ تقول: «فكروا في الأمر، فإذا قررتُ من سيحصل على أموالي بعد وفاتي، لن يؤذيني لو متُّ وأُعطيَت كلّ أموالي لشخص آخر. ولكن في معرفتي بأنني أستطيع إعطاء أموالي لمن أريد، يوجد شيء مفيد نفسياً بالنسبة لي وأنا حية. لا يمكن لأحد أن يقول، «لا ينبغي السماح لها بفعل ذلك بأموالها لأن ذلك قد لا يكون أكثر فائدة للمجتمع»، لكن استبدال كلمة «أنسجة» بكلمة «أموال» في تلك الجملة يوضح المنطق الذي يستخدمه كثيرٌ من الناس للجدال ضد إعطاء المتبرعين أيّ سيطرة على مصير أنسجتهم».

كان واين غرودي، مدير مختبر تشخيص الأمراض الجزيئية في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس، معارضاً شرساً لشرط «الموافقة» على أبحاث الأنسجة. ولكن بعد سنوات من النقاش مع أناس مثل أندروز وكلايتون، أصبح أكثر اعتدالاً في رأيه، حيث قال لي إنه «مقتنع جداً بأنه يجب علينا بذل المزيد من الجهد لتنظيم عملية موافقة جيدة ومعقدة». ومع ذلك، لا يمكنه أن يتخيل كيفية عملها، إذ يرى أنَّ «تلك الأنسجة تدخل في مجموعة من ملايين العينات الأخرى، فكيف يمكن تمييزها؟ يمكن لمريض ما أن يسمح لنا بدراسة سرطان القولون، ويمكن لغيره أن يسمح لنا بدراسة أيّ شيء شريطةَ ألا نسوِّقه. هل يجب أن تكون جميعها مرمَّزة بالألوان؟» بصرف النظر عن ذلك، يؤكد غرودي أن مسائل الموافقة يجب أن تنطبق فقط على جمع العينات المستقبلية، وليس على ملايين العينات المخزنة مسبقاً، بما فيها عيّنات «هيلا». يقول: «ماذا سنفعل؟ هل نرمي جميع تلك العيِّنات؟».

إذا لم تعالَج مسألة الموافقة، فإن روبرت وير، مؤسس مركز الأخلاقيات الطبية الحيوية في جامعة أيوا، يرى نتيجة واحدة فقط، حيث «سيلجأ المرضى إلى القانون بصفته الملاذ الأخير عندما لا يُعترَف بمساهمتهم». يفضِّل وير عدداً أقل من الدعاوى القضائية والمزيد من الإفصاح، حيث يدعو إلى «مناقشة المشاكل للتوصل إلى توجيهات قانونية يمكننا جميعاً التعايش معها، لأن الذهاب إلى المحكمة هو الخيار الآخر الوحيد». إنَّ المحكمة هي المكان الذي تنتهي إليه هذه القضايا في كثير من الأحيان، خاصةً عندما تنطوي على الأموال.

فعندما يتعلق الأمر بالمال، فالسؤال المطروح ليس ما إذا كانت الأنسجة البشرية وأبحاث الأنسجة ستسوَّق، إذ إنها تسوَّق الآن وستظل كذلك، إذ لا يمكن للشركات تحضير الأدوية وإجراء الاختبارات التشخيصية التي يعتمد عليها الكثيرون دون التسويق. لكنَّ السؤال يتمثَّل بكيفية التعامل مع هذا التسويق وفيما إذا كان يجب على العلماء أن يخبروا الناس أنَّ أنسجتهم ستُستخدم للربح، وما محلُّ الأشخاص الذين يتبرعون بهذه العيّنات في السوق.

من غير القانوني بيع الأعضاء والأنسجة البشرية للزرع أو العلاجات الطبية، ولكن من القانوني تماماً التخلي عنها مع فرض رسوم على جمعها ومعالجتها. لا توجد أرقام واضحة بشأن تلك الأعضاء، لكن التقديرات تشير إلى أنه يمكن لجسمٍ بشريٍ واحدٍ أن يجلب نحو ١٠٠٠٠ دولار إلى ١٥٠٠٠٠ دولار. لكن من النادر

جداً أن تساوي خلايا شخص واحدٍ ملايين الدولارات مثل خلايا جون مور، فعلى سبيل المثال، لا يمكن للأبحاث أن تستفيد كثيراً من فأرٍ واحدٍ أو ذبابة فاكهة واحدة، حيث إنَّ معظم سلالات الخلايا وعينات الأنسجة الفردية لا تساوي أيّ شيءٍ وحدَها، لأن قيمتها العلمية تتمثَّل في كونها جزءاً من مجموعة أكبر.

تتراوح شركات توريد الأنسجة اليوم من الشركات الخاصة الصغيرة إلى الشركات الضخمة، مثل شركة «أرديس» (Ardais) التي تدفع مبالغَ غير مفصح عنها مقابل الوصول الحصري إلى الأنسجة التي تُجمع من المرضى في مركز بيث إسرائيل ديكونيس الطبي والمركز الطبي لجامعة ديوك والعديد من الشركات الأخرى.

بالنسبة لكلايتون، «لا يمكن تجاهل المشكلة المتعلقة بمن يحصل على المال وما الذي يُستخدم المال لأجله»، حيث تقول إنها ليست متأكدةً مما يجب فعله حيال ذلك، لكنها متأكدة من أنه من الغريب أن يحصل الجميع على المال باستثناء الأشخاص الذين يوفرون «المواد الخام». اقترح العديد من محللي السياسات والعلماء والفلاسفة والأخلاقيين طرقاً لتعويض المتبرعين بالأنسجة، منها إنشاء نظامٍ شبيهٍ بنظام الضمان الاجتماعي يُمنح فيه المتبرِّع حقاً في مستوياتٍ متزايدة من التعويض؛ أو منح المتبرعين تخفيضات أو إعفاءات ضريبية؛ أو تطوير نظامٍ شبيهٍ بنظام العائدات المستخدَم لتعويض الموسيقيين عند تشغيل أغانيهم على الراديو؛ أو المطالبة بأن تذهب نسبةٌ مئوية من أرباح أبحاث الأنسجة إلى الجمعيات

الخيرية العلمية أو الطبية أو أن تُحوَّل مرةً أخرى للاستفادة منها في الأبحاث.

يخشى الخبراءُ في طرفي المناقشة أن يؤدي تعويض المرضى إلى تثبيط الراغبين بالربح للعلم من خلال إصرارهم على اتفاقيات مالية غير واقعية أو المطالبة بأموال مقابل الأنسجة المستخدمة في الأبحاث غير التجارية أو غير الربحية. علماً أنَّ المتبرعين بالأنسجة في معظم الحالات لم يسعوا وراء الأرباح على الإطلاق، حيث إنهم، مثلُ أغلب الناشطين في مجال حقوق الأنسجة، لا يولون أهميةً كبيرة للأرباح الشخصية، بل يهتمون بضمان إتاحة المعرفة التي يكتسبها الباحثون من خلال دراسة الأنسجة إلى عامة الناس وبقية الباحثين. يُذكر أنَّ مجموعات عديدة من المرضى أنشأوا بنوك الأنسجة الخاصة بهم حتى يتمكَّنوا من التحكم في استخدام أنسجتهم وتسجيل براءات الاختراع للاكتشافات المتعلقة بها، حيث حصلت إحدى النساء على براءة اختراع على الجين المرضي المكتشَف في أنسجة أطفالها، ما أتاح لها تحديد الأبحاث التي تُجرى عليه وكيفية ترخيص تلك الأبحاث.

تشكِّل براءات الاختراع الجينية مصدر قلق كبير في النقاش الدائر حول ملكية المواد البيولوجية البشرية وكيف يمكن أن تتدخَّل هذه الملكية في شؤون العلم. اعتباراً من عام ٢٠٠٥، أحدثُ عام توضّحت فيه الأرقام، أصدرت حكومة الولايات المتحدة براءات اختراع تتعلق باستخدام نحو ٢٠٪ من الجينات البشرية المعروفة، بما

في ذلك جينات الزهايمر والربو وسرطان القولون وسرطان الثدي. يعني ذلك أنَّ شركات الأدوية والعلماء والجامعات يتحكمون في البحوث التي يمكن إجراؤها على هذه الجينات كما يتحكمون بتكلفة العلاجات والفحوصات التشخيصية الناتجة عن ذلك. تستخدم بعض الشركات براءات اختراعها بإجحاف، حيث إنَّ شركة «ميرياد جينيتيكس» (Myriad Genetics) التي تحمل براءات الاختراع على جينات (BRCA1) و(BRCA2) المسؤولة عن معظم الحالات الوراثية لسرطان الثدي والمبيض تتقاضى ٣٠٠٠ دولار مقابل اختبار الجينات. كما أنَّها اتُّهمت بالاحتكار، حيث لا يمكن لأحد آخر تقديم الاختبار، كما لا يمكن للباحثين تطوير اختبارات أرخص أو علاجات جديدة دون الحصول على إذن منها ودفع رسوم ترخيص باهظة. وأما العلماء الذين مضوا قدماً في الأبحاث المتعلقة بجينات سرطان الثدي دون إذنٍ من «ميرياد» تلقوا خطابات الكفِّ والامتناع وتهديدات بالتقاضي.

في مايو ٢٠٠٩، رفع الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية وعددٌ من الناجيات من سرطان الثدي ومجموعات مهنية تمثل ما يزيد عن ١٥٠٠٠٠ عالِم دعاوى قضائية ضد شركة «ميرياد جينيتيكس» بسبب براءات اختراعها الجينية لسرطان الثدي. من بين ادعاءات العلماء المشاركين في القضية أنَّ ممارسة براءات الاختراع الجينية تعيق أبحاثهم وتهدف إلى وقفها. علماً أن مشاركة العديد من علماء المؤسسات العليا في الدعوى يتحدى الحجة الأساسية القائلة بأن

الحكم ضدَّ براءات الاختراع البيولوجية من شأنه أن يقف في طريق التقدم العلمي.

ومن جهتها ترى لوري أندروز التي عملت من أجل المصلحة العامة في أهم قضايا الملكية البيولوجية، بما في ذلك الدعوى الجينية الحالية لسرطان الثدي، أنَّ العديد من العلماء تدخلوا في العلوم بالطريقة ذاتها التي أقلقت المحاكم حيال تدخُّل المتبرعين بالأنسجة. لذلك ترى أندروز أنَّ «ذلك مثيرٌ للسخرية، لأن قلق محكمة مور يتمثل في فكرة أنَّ منح الأشخاص حقَّ ملكية أنسجتهم سيؤدي إلى إبطاء البحث من خلال طلبهم المال مقابل الوصول إلى تلك الأنسجة. لكنَّ قرار مور أدى إلى نتائج عكسية، إذ إنها منحت تلك السيطرة التجارية للباحثين». وفقاً لأندروز وقاضٍ معارض في المحكمة العليا لكاليفورنيا، لم يمنع الحكمُ التسويقَ، بل أخرج المرضى من المعادلة وشجَّع العلماء على تسليع الأنسجة بأعداد متزايدة. تجادل أندروز وكثيرون غيرها بأنَّ هذا يدفع العلماء إلى عدم مشاركة العينات والنتائج ويؤدي إلى إبطاء البحث، كما أنَّهم قلقون من أن يقف ذلك في طريق تقديم الرعاية الصحية.

توجد بعض الأدلة التي تدعم ادعائهم، حيث وجدت إحدى الدراسات الاستقصائية أنَّ ٥٣٪ من المختبرات توقَّفت عن تقديم أو تطوير اختبار جيني واحد على الأقل بسبب إنفاذ براءات الاختراع، فيما يرى ٦٧٪ منهم أنَّ براءات الاختراع تقف في طريق الأبحاث الطبية. كما أنَّ رسوم ترخيص براءات الاختراع

تكلف المؤسسة الأكاديمية ٢٥٠٠٠ دولار لترخيص الجين للبحث في إحدى اضطرابات الدم الشائعة والأصبغة الدموية الوراثية، في حين يكلفها ترخيص الجين ذاته للاختبارات التجارية نحو ٢٥٠٠٠٠ دولار. وبهذا المعدل فإنَّ اختبار شخص واحد لكل الأمراض الوراثية المعروفة سيكلف من ٤٦,٤ مليون دولار (للمؤسسات الأكاديمية) إلى ٤٦٤ مليون دولار (للمختبرات التجارية).

إنَّ النقاش الدائر حول تسويق المواد البيولوجية البشرية يعود دوماً إلى نقطة أساسية واحدة: سواء شئنا أم أبينا، فنحن نعيش في مجتمع تحركه قوى السوق، وإنَّ العلم يشكل جزءاً من تلك السوق. أخبرني باروخ بلومبرغ، الباحث الحائز على جائزة نوبل والذي استخدم الأجسام المضادة لتيد سلافين في أبحاث التهاب الكبد الوبائي ب، أن «الاعتقاد بأن تسويق الأبحاث الطبية جيد أم سيئ يعتمد على مدى اهتمام الشخص بالرأسمالية»، حيث يعتقد بلومبرغ أن التسويق جيد عموماً، فمن دونه لا يمكننا الحصول على الأدوية والاختبارات التشخيصية التي نحتاجها. ومع ذلك، يرى بلومبرغ جانباً سلبياً للتسويق، إذ يعتقد أنَّه «من العدل أن نقول إنه يقف في طريق العلم، لأنَّه بدَّل شغف العلماء»، حيث توجد الآن براءات اختراع ومعلومات مسجَّلةُ الملكية، بدلاً من التدفُّق الحرِّ للمعلومات في السابق. «أصبح الباحثون رجال أعمال، ما أدى لازدهار اقتصادنا وخلق حوافز لإجراء الأبحاث. لكن ذلك جلبَ معه مشاكلَ مثل السرية والجدل حول الملكية».

لم يستخدم سلافن وبلومبرغ نماذجَ الموافقة أو اتفاقيات نقل الملكية أبداً، حيث مدَّ سلافن ذراعَه فحسب وأعطى العيِّنات. يقول بلومبرغ إنهما عاشا «في عصر أخلاقي وتجاري مختلف»، لذلك يتصوَّر أنَّ المرضى الآن أقلُّ ميلاً إلى التبرع، «فربما يرغبون في تعزيز إمكاناتهم التجارية مثل أيّ شخص آخر».

إنَّ جميع العلوم المهمة التي قام بها بلومبرغ على مر السنين اعتمدت على الوصول المجاني وغير المحدود إلى الأنسجة. لكنَّ بلومبرغ لا يعتقد أن كتمان المعلومات عن المرضى هو الطريقة المناسبة للحصول على هذا الوصول، «فبالنسبة لشخص مثل تيد الذي احتاج حقاً إلى المال للبقاء على قيد الحياة، كان من الخطأ القول إن بإمكان العلماء تسويق هذه الأجسام المضادة أما هو فلا. إذا كان لشخص ما أن يجني المال من أجسامه المضادة، فلماذا لا يجب أن يكون له رأي في ذلك؟».

يتفق أغلبُ العلماء الذين تحدثتُ معهم حول هذه القضية، إذ يرى واين جرودي أنَّ «هذا مجتمعٌ رأسمالي، حيث استفاد أشخاص مثل تيد سلافين من ذلك. لكنَّ الطريقة التي أرى بها الأمر تتمثَّل في أنَّ القيام بذلك منذ البداية يمنح المزيد من القوة لكم».

المشكلة هي أنه لا يمكن أن يفكر الناس «بالقيام بذلك منذ البداية» إلا إذا عرفوا أنَّ أنسجتهم ستكون ذات قيمة للباحثين في المقام الأول. يتلخَّص الفرق بين تيد سلافين وجون مور وهنرييتا لاكس في أنَّ شخصاً ما أخبر سلافين أن أنسجته كانت ذات قيمة

خاصة وأنَّ العلماء سيرغبون في استخدامها في البحث، لذلك كان قادراً على التحكم في أنسجته من خلال تحديد شروطه قبل أن يُستأصل أيّ شيءٍ من جسده. أيّ أنَّه أُعلم بالأمر وأعطى موافقته. لكنَّ السؤال في النهاية هو إلى أيّ مدىً يجب أن يكون العلم ملزَماً (أخلاقياً وقانونياً) بوضع الناس في موقفٍ يمكِّنهم من فعل ما فعله سلافن.

يعيدنا ذلك إلى مسألة الموافقة المعقدة، فكما أنه لا يوجد قانون يشترط الحصول على موافقة مستنيرة لتخزين الأنسجة لأغراض البحث، لا يوجد شرط واضحٌ لإبلاغ المتبرعين بالوقت الذي ستحقِّق فيه أنسجتهم الأرباح. في عام ٢٠٠٦، باع باحث في المعهد الوطني للصحة الآلاف من عينات الأنسجة لشركة الأدوية «فايزر» مقابل نحو نصف مليون دولار، حيث اتُّهم بانتهاك قانون تضارب المصالح الفيدرالي، ليس لأنه أخفق في الإفصاح عن مصلحته المالية أو قيمة تلك الأنسجة للمتبرِّعين، بل لأنَّ الباحثين الفيدراليين لا يُسمح لهم بأخذ الأموال من شركات الأدوية. أدت قضيته إلى تحقيقٍ في الكونغرس وجلسة استماع في وقت لاحق، ولكن لم تُذكر المصالح المحتملة للمرضى وعدم معرفتهم بقيمة عيناتهم في أيّ مرحلة من العملية.

رغم أنَّ القاضي في قضية جون مور أكَّد على ضرورة إخبار المرضى إذا كان لأنسجتهم إمكانات تجارية، لم يصدُر قانونٌ لإنفاذ هذا الحكم، إذ إنه بقي حكماً قضائياً. يعود اليوم قرار الكشف عن

هذه المعلومات للمؤسسة الطبية، حيث يختار الكثيرون عدم إخبار المرضى. كما أنَّ بعض نماذج الموافقة لا تذكر المال على الإطلاق، في حين تذكر بعضها أنَّها تمتلك الحق «بمنح أو بيع عينات ومعلومات طبية معيَّنة عنك». فيما تذكر نماذج أخرى ببساطة أنَّ المريض «لن يتلقى أيّ تعويض عن التبرع بالأنسجة». ولكن ما زالت بعض النماذج تحتوي على بعض الغموض، حيث تذكر أنَّ «عيِّنتك ستكون مملوكة من قبل [الجامعة]... ولكن من غير المعروف ما إذا كنت ستتمكن من الحصول على (أو المشاركة في) أيّ تعويض مالي (أو مدفوعات) من أيّ فوائد يحققها هذا البحث».

يجادل نشطاء حقوق الأنسجة بأنَّه من الضروري الإفصاح عن أيّ مكاسب مالية محتملة قد تأتي من أنسجة الناس، حيث ترى لوري أندروز أنَّ الأمر «لا يتعلق بمحاولة إعطاء حصة للمرضى من المكاسب المالية، بل بالسماح للناس بالتعبير عن رغباتهم». توافقها كلايتون الرأي، لكنها ترى أنَّ «المشكلة الأساسية هنا ليست المال، بل إنَّها فكرة أنَّ الناس الذين تأتي منهم هذه الأنسجة لا يهمون».

بعد قضية مور، عقد الكونغرس جلسات استماع وطلب تقارير كشفت عن ملايين الدولارات التي تحققها أبحاث الأنسجة البشرية، ثم شكَّل لجنة خاصة لتقييم الوضع والتوصية بكيفية المضي قدماً. وجدت اللجنة أنَّ استخدام الخلايا والأنسجة البشرية في التكنولوجيا الحيوية يحمل «وعوداً كبيرة» لتحسين صحة الإنسان،

ولكنه يثير أسئلة أخلاقية وقانونية كثيرة «لم يجب عنها أحد» و«لا تنطبق عليها أيّ قوانين أو سياسات أو أخلاقيات»، لذا أشارت اللجنة إلى ضرورة توضيح هذه القضية.

في عام ١٩٩٩، أصدرت اللجنة الاستشارية الوطنية لأخلاقيات علم الأحياء التابعة للرئيس كلينتون تقريراً جاء فيه أنَّ الرقابة الفيدرالية على بحوث الأنسجة «غير كافية» و«غامضة»، لذا أوصت بإجراء تغييرات محددة من شأنها أن تضمن حقوق المرضى في التحكم في كيفية استخدام أنسجتهم، وتجنّبت مسألة من الذي ينبغي أن يجني الأرباح من الجسم البشري، قائلة ببساطة إن المسألة «تثير عدداً من المخاوف» وينبغي مواصلة التحقيق فيها. ومع ذلك، لم يحصل أيّ تغييرٍ يُذكر.

سألتُ واين جرودي بعد سنوات عن سبب اختفاء توصيات الكونغرس وتقرير اللجنة لأنه كان في غمرة النقاش في التسعينيات، فأجاب بأنَّ «الأمر غريب، ولكن ليست لدي أدنى فكرة. أتمنى أن تخبريني إذا تمكنتِ من إيجاد أيّ تفسير. لقد أردنا جميعاً أن ننسى الأمر، وكأنَّ تجاهلنا له سيؤدي إلى اختفائه». لكنه لم يختفِ، بل بالنظر إلى التدفق المستمر لقضايا المحكمة المتعلقة بالأنسجة، فإن المشكلة لن تختفيَ في أيّ وقت قريب.

على الرغم من جميع القضايا الأخرى وما لاقته من اهتمام الصحافة، لم تحاول عائلة لاكس مقاضاة أيّ شخص بشأن خلايا «هيلا». اقترح العديد من المحامين والأخلاقيين أنه نظراً لعدم

وجود طريقة لإخفاء هوية صاحبة خلايا «هيلا» في هذه المرحلة، يجب أن تشمل «القاعدة المشتركة» الأبحاثَ المتعلقة بها. وبما أن بعض الحمض النووي الموجود في خلايا هنرييتا موجود أيضاً في أطفالها، فمن الممكن القول إنه من خلال إجراء أبحاث على خلايا «هيلا»، يجري العلماء كذلك أبحاثاً على أطفال عائلة لاكس. نظراً لأن «القاعدة المشتركة» تنصُّ على أنَّه يجب السماح للمشاركين في الأبحاث بالانسحاب في أيّ وقت، يمكن لعائلة لاكس من الناحية النظرية سحب خلايا «هيلا» من جميع الأبحاث حول العالم، وفقاً لآراء الخبراء. في الواقع، توجد سوابق لمثل هذه القضية، بما في ذلك قضيةٌ نجحت فيها امرأةٌ في إزالة الحمض النووي لوالدها من قاعدة بيانات في أيسلندا. كلما ذكرتُ هذه الفكرة لباحث ما، يرتجف عند التفكير بها. وأما فنسنت راكانييلو، أستاذ علم الأحياء الدقيقة وعلم المناعة في جامعة كولومبيا، الذي خمَّن ذات مرة أنه زرع نحو ٨٠٠ مليار خلية «هيلا» لأبحاثه الخاصة، يرى أنَّ تقييد استخدام خلايا «هيلا» سيكون كارثياً، إذ «لا يمكن تصوُّر تأثير ذلك على العلم» على حد قوله.

أما بالنسبة لعائلة لاكس، فلديهم خيارات قانونية قليلة، حيث لم يتمكنوا من مقاضاة أحدٍ بشأن الخلايا التي أُخذت في المقام الأول لعدة أسباب، بما في ذلك حقيقةُ أنَّ قانون التقادم مرَّ منذ عقود. ربما يمكنهم محاولة إيقاف أبحاث «هيلا» من خلال دعوى قضائية، بحجة أنَّه من المستحيل إخفاء هوية خلايا هنرييتا التي تحتوي على حمضها

النووي. لكن يشكِّك العديد من الخبراء القانونيين في نجاح مثل هذه القضية. بصرف النظر عن ذلك، لا تنوي عائلة لاكس إيقاف جميع الأبحاث المتعلقة بخلايا «هيلا»، حيث أخبرني سوني عند إرسال هذا الكتاب إلى الطباعة أنه «لا يريد أن يسبب مشاكل للعلم، ودايل لا تريد ذلك أيضاً. إلى جانب ذلك، أنا فخور بأمي وما فعلَته من أجل العلم. آمل فقط أن تفعل هوبكنز وبعض الأشخاص الآخرين الذين استفادوا من خلاياها شيئاً لتكريمها وتصحيح الأمور مع العائلة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشخصيات

عائلة لاكس المباشرة

ديفيد «داي» لاكس: زوج هنرييتا وابن عمها.

ديفيد الابن، «سوني» لاكس: الطفل الثالث لـ هنرييتا وداي.

ديبورا «دايل» لاكس: الطفلة الرابعة لـ هنرييتا وداي.

إلسي لاكس (اسمها عند الولادة **لوسيل إلسي بليزانت**): الابنة الثانية والأكبر سناً لـ هنرييتا. أُدخلت إلى مصحة عقلية بسبب الصرع وماتت في سن الخامسة عشر.

إليزا لاكس بليزانت: والدة هنرييتا. ماتت عندما كانت هنرييتا في الرابعة من عمرها.

غلاديس لاكس: أخت هنرييتا التي رفضت زواج هنرييتا من داي.

جوني بليزانت: والد هنرييتا الذي ترك أطفاله العشرة عندما ماتت أمهم.

لورانس لاكس: الولد البكر لـ هنرييتا وداي.

لوريتا بليزانت: اسم هنرييتا عند الولادة.

تومي لاكس: جدُّ هنرييتا وداي الذي رباهما.

زكريا باري عبد الرحمن (اسمه عند الولادة **جو لاكس**): الولد الخامس لـ هنرييتا وداي. شُخصت إصابة هنرييتا بسرطان عنق الرحم بعد وقت قصير من ولادته.

أسرة لاكس الممتدة

ألبرت لاكس: الجدُّ الأكبر الأبيض لـ هنرييتا. كان لديه خمسة أطفال من أمَة سابقة تدعى ماريا وترك جزءاً من مزرعة لاكس لهم، فأصبحت تُعرف باسم «بلدة لاكس».

ألفريد «تشيتا» كارتر: الزوج الأول لـ ديبورا. كان زوجاً مسيئا لها فانتهى زواجهما بالطلاق.

ألفريد الابن: الولد البكر لـــ ديبورا و**تشيتا** ووالد ألفريد الصغير.

بوبيت لاكس: زوجة لورانس. ساعدت في تربية أشقاء لورانس بعد وفاة هنرييتا ودافعت عنهم عندما اكتشفت أنهم كانوا يتعرضون للإساءة.

كليف غاريت: ابن عم هنرييتا. كانا يعملان في حقول التبغ معاً في طفولتهما.

«جو المجنون» غرينان: ابن عم هنرييتا الذي فشل في منافسة داي على كسب مودة هنرييتا.

ديفون ميد: حفيد ديبورا الذي عاش معها واعتنى بها في كثير من الأحيان.

إيثل: زوجة غالين، مُقدمة رعاية مُسيئة لأطفال هنرييتا الثلاثة الصغار.

فريد غاريت: ابن عم هنرييتا الذي أقنع داي وهنرييتا بالانتقال إلى محطة تيرنر.

غالين: ابن عم هنرييتا. انتقل هو وزوجته إيثيل للعيش مع داي بعد وفاة هنرييتا ليساعدوه في رعاية الأطفال، ولكنّه أساء معاملة ديبورا.

غاري لاكس: ابن غلاديس وابن عم ديبورا. كان واعظاً وأدى طقوس شفاء إيماني على ديبورا.

لاتونيا: الابنة الثانية لـ ديبورا وشيتا ووالدة ديفون.

«ألفريد الصغير»: حفيد ديبورا.

مارغريت هاريس: ابنة عم هنرييتا وكاتمة أسرارها. ذهبت هنرييتا إلى منزلها بعد العلاج الإشعاعي في جونز هوبكنز.

القس جيمس بولوم: الزوج السابق الثاني لـ ديبورا، والذي عمل في مصنع الصلب قبل أن يصبح واعظاً.

سادي ستورد فانت: شقيقة مارغريت التي دعمت هنرييتا خلال مرضها وكانت تتسلل معها في بعض الأحيان للذهاب للرقص.

أعضاء المجتمع الطبي والعلمي

ألكسيس كاريل: الجراح الفرنسي الحائز على جائزة نوبل والذي ادعى أنه زرع خلايا قلب الدجاج «الخالدة».

تشيستر ساوثام: باحث في السرطان أجرى تجارب غير أخلاقية لمعرفة ما إذا كانت خلايا «هيلا» يمكن أن «تصيب» الأشخاص بالسرطان.

كريستوف لينغاور: باحث في السرطان في جونز هوبكنز ساعد في تطوير تقنية «الفلورة في التهجين الموضعي» (FISH) المستخدمة للكشف عن متواليات الحمض النووي وتحديدها، وهو الشخص الذي تواصل مع أفراد عائلة لاكس.

إيمانويل ماندل: المدير الطبي في المستشفى اليهودي للأمراض المزمنة (JCDH)، والذي شارك مع ساوثام في إجراء تجارب غير أخلاقية.

الدكتور جورج غاي: رئيس أبحاث زراعة الأنسجة في جونز هوبكنز. طور التقنيات المستخدمة لزراعة خلايا «هيلا» من نسيج سرطان هنرييتا في مختبره.

هوارد جونز: طبيب هنرييتا المتخصص بالأمراض النسائية في جونز هوبكنز.

ليونارد هايفليك: عالم الأحياء الدقيقة الذي أثبت أن الخلايا الطبيعية تموت عندما تتضاعف نحو خمسين مرة، ويُعرف ذلك باسم «حدّ هايفليك».

مارغريت غاي: زوجة جورج غاي وباحثة مساعدة تدربت لتصبح ممرضة جراحية.

ماري كوبتشيك: مساعدة في مختبر جورج غاي زرعت خلايا «هيلا» لأول مرة.

ريتشارد ويسلي تيليندي: من كبار خبراء سرطان عنق الرحم في البلاد في وقت تشخيص هنرييتا. تضمنت أبحاثه أخذ عينات الأنسجة من هنرييتا وغيرها من مريضات سرطان عنق الرحم في جونز هوبكنز.

رولاند باتيلو: أستاذ طب النساء في كلية مورهاوس للطب، وكان من الطلاب الأمريكيين الأفارقة الوحيدين لجورج غاي. ينظم مؤتمر «هيلا» السنوي في مورهاوس إحياءً لذكرى هنرييتا.

ستانلي غارتلر: عالم الوراثة الذي أسقط «قنبلة هيلا» عندما ادعى أن خلايا «هيلا» لوثت العديد من مزارع الخلايا الأكثر استخداماً.

سوزان هسو: طالبة ما بعد الدكتوراه في مختبر فيكتور ماك

كوسك التي عُيِّنت لإجراء اتصال مع عائلة لاكس وطلب عيِّنات منهم للاختبار الجيني دون موافقة مستنيرة.

فيكتور ماك كوسك: عالم الوراثة في جونز هوبكنز الذي أجرى بحثاً على العينات المأخوذة من أطفال هنرييتا دون موافقة مستنيرة لمعرفة المزيد عن خلايا «هيلا».

والتر نيلسون ريس: عالم الوراثة الذي تعقَّب ونشر أسماء السلالات الخلوية الملوثة بخلايا «هيلا» دون سابق إنذار للباحثين الذين كشف أمرهم، فأصبح يُعرف باسم «الحارس».

الصحفيون وغيرهم

كورتني «ماما» سبيد: مقيمة في محطة تيرنر وتملك بقالة سبيد. بذلت جهداً كبيراً لبناء متحف هنرييتا لاكس.

جون مور: مريض بالسرطان لم ينجح في مقاضاة طبيبه وأعضاء مجلس جامعة كاليفورنيا على استخدام خلاياه لإنشاء سلالة خلايا «مو».

مايكل غولد: مؤلف كتاب «مؤامرة الخلايا». نشر تفاصيل من سجلات هنرييتا الطبية وتقرير التشريح دون إذنٍ من عائلة لاكس.

مايكل روجرز: مراسل مجلة «رولينغ ستون» الذي كتب مقالاً عن عائلة لاكس عام ١٩٧٦، وكان أول صحفي يتصل بعائلة لاكس.

السير لورد كينان كيستر كوفيلد: حاول مقاضاة جونز هوبكنز وعائلة لاكس.

تيد سلافن: مصاب بالناعور أخبره طبيبه أنَّ لخلاياه قيمة كبيرة. أسس سلافن شركة «إسينشال بيولوجيكالز» (Essential Biologicals) التي باعت خلاياه وخلايا أشخاص آخرين لاحقاً حتى يتمكن الأفراد من جني الأرباح من المواد البيولوجية الخاصة بهم.

التسلسل الزمني للأحداث

١٨٨٩: تأسيس مستشفى جونز هوبكنز.

١٩١٢: ادعاء ألكسيس كاريل أنه نجح في زرع خلايا قلب الدجاجة «الخالدة».

١٩٢٠: ولادة هنرييتا لاكس في رونوك، فيرجينيا.

١٩٤٧: إصدار مدونة نورمبرغ، وهي مجموعة من المعايير الأخلاقية للتجارب على البشر، نتيجة لمحاكمة ضد العديد من الأطباء النازيين الذين أجروا تجارب على السجناء خلال الحرب العالمية الثانية.

١٩٥١: نجاح جورج غاي في زراعة أول سلالة خلايا بشرية خالدة باستخدام خلايا من عنق رحم هنرييتا، وأطلق عليها اسم «هيلا» نسبةً لأول حرفين من الاسمين الأول والأخير لـ هنرييتا.

١٩٥١: وفاة هنرييتا لاكس بسبب سلالة عدوانية غير عادية من سرطان عنق الرحم.

١٩٥٢: أصبحت خلايا «هيلا» أول خلايا حية تُشحن عبر البريد.

١٩٥٢: افتتاح معهد توسكيجي «مصنع هيلا» الأول الذي يوفر الخلايا للمختبرات والباحثين ويعمل بمثابة منظمة غير ربحية. بعد هذا التاريخ بسنوات قليلة، تبدأ شركة «ميكروبيولوجي أسوسيتس» (Microbiology Associates) ببيع خلايا «هيلا» بهدف الربح.

١٩٥٢: استخدام العلماء خلايا «هيلا» للمساعدة في تطوير لقاح شلل الأطفال.

١٩٥٣: تصبح خلايا «هيلا» أول خلايا مستنسخة على الإطلاق.

١٩٥٤: ظهور الاسم المستعار «هيلين لين» لأول مرة في الطباعة بصفته مصدراً لخلايا «هيلا».

١٩٥٤: بداية تشيستر ساوثام بإجراء التجارب دون موافقة المرضى لمعرفة ما إذا كانت حقن خلايا «هيلا» يمكن أن تسبب السرطان أم لا.

١٩٥٧: ظهور مصطلح «الموافقة المستنيرة» لأول مرة في وثائق المحكمة.

١٩٦٥: دمج خلايا «هيلا» مع خلايا الفئران، ما أنتجَ الخلايا الهجينة البشرية الحيوانية الأولى.

١٩٦٥: وجد مجلس أمناء جامعة ولاية نيويورك أنَّ ساوثام وزميلاً له مذنبان بتصرفات غير مهنية، فدعى المجلس إلى وضع

مبادئ توجيهية أكثر صرامة فيما يتعلق بعينات الأبحاث البشرية والموافقة المستنيرة.

١٩٦٦: بداية المعاهد الوطنية للصحة بطلب موافقة مجالس المراجعة المؤسسية على أيّ بحث تموله، وذلك لضمان الالتزام بالمبادئ التوجيهية الجديدة للبحوث التي تشمل عيِّنات بشرية.

١٩٦٦: إسقاط ستانلي غارتلر «قنبلة هيلا» وادعاؤه أنَّ خلايا «هيلا» لوثت العديد من السلالات الخلوية.

١٩٧٠: وفاة جورج غاي بسبب سرطان البنكرياس.

١٩٧١: للإشادة بمسيرة غاي، يُعترَف بـ هنرييتا لاكس مصدراً لخلايا «هيلا» بشكل صريح لأول مرة في الطباعة.

١٩٧٣: معرفة عائلة لاكس لأول مرة بأن خلايا هنرييتا ما تزال على قيد الحياة.

١٩٧٣: أخذُ باحثي جونز هوبكنز عينات من أطفال هنرييتا دون موافقة مستنيرة لإجراء المزيد من أبحاث «هيلا».

١٩٧٤: طلب السياسة الفيدرالية لحماية البشر (القاعدة المشتركة) الموافقةَ المستنيرة لجميع الأبحاث على البشر.

١٩٧٥: نشرُ مايكل روجرز مقالاً عن «هيلا» وعائلة لاكس في مجلة «رولينغ ستون»، حيث علمت عائلة لاكس لأول مرة بأن خلايا هنرييتا سوِّقت تجارياً.

١٩٨٤: مقاضاة جون مور طبيبَه وأعضاء مجلس جامعة كاليفورنيا للحصول على حقوق الملكية على أنسجته، ولكنه يخسر القضية ويستأنف القرار.

١٩٨٥: نشر أجزاء من السجلات الطبية لـ هنرييتا دون علم أسرتها أو موافقتها.

١٩٨٨: حكم محكمة استئناف كاليفورنيا لصالح جون مور، قائلةً إن المرضى يجب أن يكون لديهم القدرة على تقرير مصير أنسجتهم. ولكن طبيب مور وجامعة كاليفورنيا يستأنفان الحكم.

١٩٩١: حكم المحكمة العليا لكاليفورنيا ضد جون مور، قائلةً إنه بمجرد إزالة الأنسجة من الجسم، سواء بموافقة المريض أو دونها، يفقد الشخص حقَّ ملكية تلك الأنسجة.

١٩٩٦: حظر قانون قابلية تحويل التأمين الصحي والمساءلة على مقدمي الرعاية الصحية أو شركات التأمين الصحي نشرَ المعلومات الطبية الشخصية.

١٩٩٩: نشرُ مؤسسة «راند» تقريراً يتضمن «تخميناً متحفظاً» مفاده أنَّ ما يزيد عن ٣٠٧ ملايين عينة أنسجة مما يزيد عن ١٧٨ مليون شخص مخزَّنة في الولايات المتحدة وحدها، مشيرةً إلى أنَّ معظم العيِّنات أُخذت دون موافقة.

٢٠٠٥: رفعُ أعضاء قبيلة هافاسوباي الأمريكية الأصلية دعوى قضائية ضد جامعة ولاية أريزونا بعد أن أخذ العلماء عيِّناتٍ

من الأنسجة التي تبرعت بها القبيلة لأبحاث مرض السكري واستخدموها دون موافقتهم لدراسة الفصام والتوالد الداخلي.

٢٠٠٥: انضمام ستة آلاف مريض إلى دعوى قضائية ضدَّ جامعة واشنطن لمطالبتها بإزالة عيِّنات أنسجتهم من بنك سرطان البروستاتا. ولكن حكمت محكمتان في وقت لاحق ضد أولئك المرضى.

٢٠٠٥: بحلول هذا التاريخ، أصدرت حكومة الولايات المتحدة براءات اختراع تتعلَّق باستخدام نحو ٢٠٪ من الجينات البشرية المعروفة، بما في ذلك جينات الزهايمر والربو وسرطان القولون وسرطان الثدي.

٢٠٠٦: اتهام باحث من المعهد الوطني للصحة بانتهاك قانون تضارب المصالح الفيدرالي لتوفير الآلاف من عيِّنات الأنسجة لشركة الأدوية «فايزر» مقابل نحو نصف مليون دولار.

٢٠٠٩: استثمار المعاهد الوطنية للصحة ١٣,٥ مليون دولار لإنشاء بنك لعينات الدم المأخوذة من الأجنة.

٢٠٠٩: رفعُ الآباء في مينيسوتا وتكساس دعوى قضائية لوقف تخزين عينات الدم المأخوذة من الأجنة وإجراء الأبحاث عليها دون موافقة، حيث يمكن تتبع العديد من تلك العينات إلى الرُضَّع الذين أُخذت منهم.

٢٠٠٩: انضمام ما يزيد عن ١٥٠٠٠٠ عالِم إلى «الاتحاد الأمريكي

للحريات المدنية» ومرضى سرطان الثدي لمقاضاة شركة «ميرياد جينيتيكس» بسبب براءات اختراع جينات سرطان الثدي، حيث ادعوا أنَّ ممارسة تسجيل براءات الاختراع الجينية تنتهك قانون براءات الاختراع وتعيق البحث العلمي.

شكر وتقدير

رأيت مراراً أشخاصاً عملوا على قصة هنرييتا وخلاياها وكانوا مفعمين بالرغبة في فعل شيءٍ ما لتعويض أسرتها والتعبير عن امتنانهم لمساهمتها في العلم. وضعَ العديدُ من هؤلاء الناس طاقتهم لمساعدتي في هذا الكتاب، لذا أعرب عن امتناني لكل من كرَّس الوقت والمعرفة والمال والمشاعر لهذا المشروع. لن تسعفني هذه المساحة الضيقة في تسميتكم جميعاً، لكنني لم أكن لأنجز هذا الكتاب لولا مساعدتكم.

أولاً وقبل كلّ شيء، أنا مدينة لعائلة هنرييتا لاكس بشكرٍ لا حدود له. كانت ديبورا روحَ هذه الكتاب، كنت أستمد الإلهام من روحها وضحكتها وألمها وتصميمها وقوتها العظيمة فساعدتني على العمل طوال هذه السنوات. أشعر بالفخر العميق لكوني جزءاً من حياتها.

أشكر لورانس وزكريا على ثقتهما وقصصهما، كما أشكر سوني على إدراكه قيمة هذا المشروع وكونه الداعم الأساسي له في الأسرة.

أشكره كذلك على شدَّة صراحته وتفاؤله وإيمانه بقدرتي على إنجاز هذا الكتاب.

كان حفيدا ديبورا، ديفون وألفريد، داعمَين بشكل كبير لمسعى ديبورا لمعرفة قصة والدتها وأختها. أشكرهما كذلك على رسم البسمة على وجوهنا والإجابة عن أسئلتي الكثيرة. وأما بوبيت لاكس، تلك المرأة القوية التي ساعدت على تماسك عائلة لاكس معاً لعقود، تحمَّلت ساعات من المقابلات والعديد من طلبات الوثائق ولم تتوان أبداً عن مشاركة قصصها. أنا ممتنة أيضاً لابنة سوني، جيري لاكس وي، التي يمكن الاعتماد عليها لشغفها في تعقب الحقائق والصور، فغالباً ما كانت تجادل عائلتها الكبيرة نيابة عني. لذا أشكرها ووالدتها شيرلي لاكس، وكذلك حفيدتَي لورانس، إريكا جونسون وكورتني سيمون لاكس، وابن ديبورا، ألفريد كارتر الابن، على انفتاحهم وحماسهم. أشكر جيمس بولوم أيضاً على دعمه الكبير، كما أشكره على قصصه وضحكاته وصلواته. أشكر كذلك غاري لاكس الذي غنّى تراتيل جميلة في البريد الصوتي لهاتفي ولم يغب عن ذهنه الغناء لي في عيد ميلادي.

لم يكن من الممكن إعادة سرد حياة هنرييتا لاكس دون المساعدة السخية من عائلتها وأصدقائها وجيرانها، سيما فريد غاريت وهوارد غرينان وهيكتور «كوتي» هنري وبين لاكس وكارلتون لاكس وديفيد «داي» لاكس الأب وإيميت لاكس وجورجيا لاكس وغلاديس لاكس وروبي لاكس وثورل لاكس وبولي مارتن وسادي

ستورديفانت وجون تيري ودولي تيري وبيتر وودن. أتقدم بشكرٍ خاص لـ كليف غاريت، راوي القصص الرائع الذي ساعد في إعادة شباب هنرييتا وكلوفر القديمة إلى الحياة من أجلي ودأب في رسم البسمة على وجهي. أشكر كذلك كريستين بليزانت تونكين، قريبةٌ بعيدة لـ هنرييتا لاكس التي تتبعت جانب بليزانت من عائلة هنرييتا حتى الأسلاف العبيد وشاركتني بحثها بسخاء، كما أنَّها قرأت المخطوطة وقدَّمت العديد من الاقتراحات القيِّمة. أشكر أيضاً كورتني سبيد لحماسها ومشاركتها قصتها وجمع الآخرين للتحدث معي.

أشعر أنني محظوظة لأنني وجدت ماري كوبتشيك التي كانت ذاكرتها الحادة وصبرها الدؤوب وحماسها نعمٌ لا تُقدَّر بثمن. كما أنني أشكر جورج غاي الابن وأخته فرانسيس غرين. إنني محظوظة جداً لأنهما قضيا معظم طفولتهما في مختبر غاي مع والديهما وكانا قادرَين على إحياء تلك السنوات من أجلي. أشكر أيضاً فرانك غرين، زوج فرانسيس.

أنا ممتنة جداً للعديد من أمناء المكتبات والأرشيفات الذين استغرقوا وقتاً في تتبع مقالات الصحف والمجلات القديمة والصور ومقاطع الفيديو والمصادر الأخرى. أتقدم بشكر خاص لأندي هاريسون، أمين مجموعة جورج غاي في محفوظات ألان ماسون تشيسني الطبية؛ ولإيمي نوتاريوس وإيلينا فيتالي، من طلاب العلوم السابقين في مكتبة بيتسبرغ؛ ولفرانسيس والتز الذي زودني بثروة

من المعلومات والقصص؛ ولهاب هاغود وفيبي إيفانز ليتوتشا وتيم ويسنيفسكي. ساعدني ديفيد سميث في مكتبة نيويورك العامة، حيث إن لديه العديد من الكتاب المحظوظين الآخرين، ووفَّر لي مساحة عمل هادئة في قسم مكتبة ويرثيم. اهتم ديفيد روز، أمين أرشيف مؤسسة مارش أوف دايمز، بهذا الكتاب لدرجة أنه أجرى بحثاً مفيداً نيابة عني لساعات، لذا أدين له بامتنان كبير (ووجبة غداء).

أشكر مئات الناس الذين منحوني وقتهم الثمين للمقابلات بسخاء، سيما جورج أناس ولور أوريليان وباروخ بلومبرغ وإلين رايت كلايتون وناثانيال كومفورت ولويس ديغز وبوب غيلمان وكارول غريدر ومايكل غرودين ووابن غرودي وكال هارلي وروبرت هاي وكاثي هدسون وغروفر هاتشينز وريتشارد كيدويل وديفيد كورن وروبرت كورمان وجون ماسترز وستيفن أوبراين وآنا أوكونيل وروبرت بولاك وجون راش وجوديث غرينبرغ وبول لورز وتود سافيت وتيري شارر ومارك سوبل وروبرت وير وباربرا ويتشي وجوليوس يونغنر. أشكرهم جميعاً على وقتهم وتشجيعهم وخبرتهم، وأقدِّم شكراً خاصاً للوري أندروز وروث فادن وليزا باركر اللواتي حفزن تفكيري بالمحادثات الأولى وقرأن المخطوطة وقدموا تعليقات مفيدة. والشكر أيضاً لـ دنكان ويلسون الذي زودني بنسخة أولى من أطروحته وبعض المواد البحثية المفيدة جداً.

يستحق العديد من العلماء شكراً خاصاً، حيث شارك هوارد دبليو جونز وفيكتور ماك كوسك وسوزان هسو ذكريات لا تقدر

بثمن وكانوا جميعهم صادقين وصبورين مع أسئلتي العديدة. أمضى ليونارد هايفليك ما يزيد عن اثنتي عشرة ساعة على الهاتف معي، وغالباً ما أجاب على مكالماتي عندما كان مسافراً أو في خضم عمله الخاص، وكانت ذاكرته وخبرته العلمية مصدراً لا يقدَّر بثمن. كما أنَّه قدَّم تعليقات قيِّمة للغاية على مسودة هذا الكتاب، إلى جانب تعليقات روبرت ستيفنسون الذي دعم هذا المشروع منذ البداية في الوقت الذي تقاعس فيه معظم العلماء، فكان بدوره ثروةً هائلة.

أنا ممتنة لرولاند باتيلو لتخصيصه الوقت لمعرفتي وإيمانه بي وتقديم النصائح لي ومساعدتي على التواصل مع ديبورا. استقبلني باتيلو وزوجته برحابة صدر وفتحا منزلهما لي وكانا من الداعمين لي منذ البداية، كما أنهما قرآ مسودة الكتاب وقدما اقتراحات مفيدة.

كان شغف كريستوف لينغاور واستعداده للانغماس في قصة لاكس مصدراً للإلهام، لذا أشكره على صبره وانفتاحه وبعد نظره. كما أشكره على إجابته عن العديد من الأسئلة وقراءته مسودة هذا الكتاب وتقديمه ملاحظات صادقة ومفيدة للغاية.

إنَّ العديد من الكتاب الذين غطوا قصة هيلا لم يبخلوا بوقتهم، حيث كتب مايكل غولد عن قصة التلوث بالتفصيل في كتابه، «مؤامرة الخلايا» (A Conspiracy of Cells)، فكان مصدراً رائعاً. لطالما كان من دواعي سروري التحدث مع مايكل روجرز، إذ إنَّ المقالة التي نشرها عام ١٩٧٦ في مجلة «رولينغ ستون» حول خلايا «هيلا» كانت مصدراً مهماً حين بدأت العمل على هذا الكتاب.

كانت هاريت واشنطن، مؤلفة كتاب «الفصل العنصري الطبي» (Medical Apartheid)، بطلة رائعة لهذا الكتاب، حيث إنها تحدثت معي عن تجربتها في مقابلة عائلة لاكس لكتابة مقال في مجلة «إميرج» عام ١٩٩٤، كما أنّها قدَّمت تعليقات مفيدة على مسودة الكتاب.

أتقدَّم بشكرٍ خاص لإيثان سكيري ولوينشتاين ساندلر على العمل المتفاني الذي قاما به لمساعدتي في تأسيس مؤسسة هنرييتا لاكس. أشكر كذلك جامعة ممفيس للمنحة التي ساعدت في البحث النهائي والتحقق من الحقائق لأجل هذا الكتاب. أنا ممتنة لكلٍّ من طلابي وزملائي، خاصةً كريستين إيفرسون وريتشارد بوش، المعلّمان الرائعان والكاتبان والصديقان. وأقدِّم شكراً خاصاً لجون كالديرازو ولي غوتكيند على التشجيع والدعم والصداقة الوثيقة التي دامت لما يزيد عن عقد من الزمن. أدرك جون أنني كنت كاتبة قبل مدة طويلة من فعلي ذلك، فكان دائماً مصدر إلهام. علَّمني لي أن أولي اهتماماً عميقاً لهيكل القصة وأدخلني إلى عوالم الكتابة الاحترافية والعمل في الساعة الخامسة صباحاً. أشكر أيضاً دونالد ديفلر على تعريفي بقصة هنرييتا وتدريس علم الأحياء بشغف.

جرى التحقق من هذا الكتاب بشكل مكثَّف، حيث قرأه خبراء كثيرون قبل النشر للمساعدة في ضمان دقته. لذا أشكرهم على وقتهم وملاحظاتهم القيمة، سيما إريك أنغنر (صديق مقرب وداعم قوي لهذا الكتاب منذ البداية) وستانلي غارتلر وليندا ماكدونالد غلين وجيري مينيكوف وليندا غريفيث وميريام كيتي (التي قدمت أيضاً

مستندات مفيدة من أرشيفها الشخصي) وجوان مانستر (المعروفة أيضاً باسم sciencegoddess@) وألوندرا نيلسون (التي تستحق شكراً خاصاً على صدقها وعلى إنقاذي من إغفال خطير) وريتش بورسيل وعمر كينتيرو (الذي قدم أيضاً صوراً جميلة لهيلا ولقطات فيديو للكتاب وموقعه الإلكتروني) ولورا ستارك وكيث وودز. أتقدَّم بالشكر للعديد من الأشخاص الذين قرأوا فصولاً مختارة، خاصة نثانيال كومفورت، وهانا لانديكر (التي كان عملها المكثف على «هيلا» وتاريخ زراعة الخلايا مصدراً هائلاً، خاصة كتابها «زراعة الحياة» Culturing Life).

لا بدَّ أن يكون كلّ كاتب محظوظاً بما يكفي للعثور على مصدر خبير وسخيٍّ بوقته مثل فنسنت راكانييلو، حيث إنه قرأ مسودات متعددة وأرسل العديد من المصادر وقدَّم ملاحظات لا تُقدرَّ بثمن. كما أنُّه مثالٌ يقتدي به علماء آخرون لإيمانه بأهمية أيصال العلم لعامة الناس بطريقة دقيقة وإتاحته لهم (والدليل على ذلك البودكاست الخاص به، «هذا الأسبوع في علم الفيروسات»، على الموقع الإلكتروني TWiV.tv وحسابه على تويتر profvrr@). ينطبق الشيء ذاته على ديفيد كرول (abelpharmboy@) الداعم الكبير لهذا الكتاب والذي يكتب عن العلوم على مدونته (/Scienceblogs.com terrasig)، حيث قدَّم مواد بحثية وتعليقات مفيدة، حتى أنَّه أخذ الماسح الضوئي الخاص به إلى مكتبةٍ لجمع بعض الوثائق المهمة من أجلي، لذا أشعر أنني محظوظة جداً بصداقته.

إنَّ مساعدتي المتخرجة، لي آن فانسكوي، دأبت في عملها بحماس كبير، حيث كانت تعمل بجدٍّ لتعقُّب الصور والأذونات وتساعد في التحقُّق من الحقائق خلال الساعات الأخيرة. كما أنَّ الشاب بات والترز (patwalters.net)، مساعد باحث لا مثيل له وكاتب ومراسل موهوب وصديق جيد، تحقَّق من هذا الكتاب بأكمله وكرَّس نفسه لذلك بحماس ودقة لا مثيل لهما وأولى اهتماماً كبيراً للتفاصيل. استخرج الحقائق الصعبة، فأنقذني بذلك من العديد من الأخطاء، (بما في ذلك عدم قدرتي الواضحة على القيام بالرياضيات الأساسية)، لذا كانت لمساهمته فائدة كبيرة لهذا الكتاب. أنا محظوظة لأنني وجدته وأتطلع لرؤية مستقبله المشرق يتكشَّف.

ساعدني العديدُ من الأشخاص الآخرين في البحث والتحقق من الحقائق، لذا أتقدَّم لهم جميعاً بالشكر. تحقَّق تشارلز ويلسون العظيم في مجلة «نيويورك تايمز» من أجزاء هذا الكتاب التي ظهرت في الأصل في المجلة، وكان العمل معه ممتعاً. كانت هيذر هاريس في حالة تأهبٍ دائم عندما لم أتمكَّن من الوصول إلى بالتيمور، فراحت تجمع بعناد وثائق المحكمة والأرشيف في وقت قياسي. كانَ آف براون من موقع (yourmaninthestacks.com) رجل المهمات الصعبة في الأوقات الحرجة، فكان دائماً ينفِّذ طلبات البحث بسرعة ودقة. ساعدتني بايج ويليامز كذلك في التحقَّق من الحقائق في اللحظة الأخيرة حين كانت مشغولة في خضم مسيرتها المهنية في الكتابة. تستحق صديقتي القديمة ليزا ثورن شكراً خاصاً أيضاً (وربما

بعض جبائر المعصم) لنسخ غالبية أشرطة المقابلة وتقديم تعليقات رائعة على ما سمعَته.

أنا ممتنة للعديد من الصحفيين والكتَّاب والمحررين العظماء الذين قدموا التشجيع والمشورة والتعليقات والصداقة على طول الطريق، سيما جاد أبومراد وألان بورديك وليزا ديفيس ونيكول داير وجيني إيفريت وجوناثان فرانزن وإليزابيث غيلبرت وسيندي غيل وأندرو هيرست ودون هويت غورمان وأليسون غوين وروبرت كرولويتش وروبن مارانتز هينيغ ومارك جانوت وألبرت لي وإيريكا لويد وجويس ماينارد وجيمس مكبرايد وروبن مايكلسون وغريغوري مون ومايكل موير وسكوت موبراي وكاتي أورنستاين وآدم بيننبرغ ومايكل بولان وكوري باول ومارك روتيللا وليزي سكورنيك وستاسي سوليفان وبول تاف وجوناثان وينر وباري يومان. أتقدم بشكرٍ خاصٍ لدينتي دبليو مور وديانا هيوم جورج والعديد من الكتَّاب الرائعين الآخرين الذين درَّستُ معهم في مؤتمر «ميد أتلانتك» الصيفي للكتاب الإبداعيين الواقعيين، والذي لم يعد قائماً الآن لسوء الحظ. افتقدكم جميعاً.

أشكر أيضاً المحررين الذين عملوا معي على قصصي الأولى المتعلقة بالكتاب، سيما باتي كوهين في «نيويورك تايمز»، وسو دي باسكوال في مجلة «جونز هوبكنز»، وسالي فليكر في مجلة «بيت» (Pitt)، وجيمس رايرسون في مجلة «نيويورك تايمز»، لأنهم جعلوا عملي دائماً أفضل. أشكر أيضاً زملائي المدونين على موقع

(ScienceBlogs.com) وفي مؤسسة «إنفيزيبل» (Invisible Institute) الملهمة والمفيدة دائماً وزملائي المدهشين في «بيرديرز» (Birders)، وأصدقائي الرائعين على «فيسبوك» و«تويتر» الذين قدموا المصادر والتشجيع ورسموا البسمة على وجهي واحتفلوا معي باللحظات الكبيرة والصغيرة. أشكر كذلك جون غلاك على نصائحه التحريرية المبكرة والمفيدة. كما أشكر جاكي هاينز التي تكرّمت عليَّ بسيارتها حتى أذهب بها بعيداً وأكتب لأشهُر. أتقدم بشكرٍ خاص كذلك لألبرت فرينش الذي ساعدني في اتخاذ الخطوات الصعبة الأولى نحو كتابة هذا الكتاب من خلال تحديه لي في سباق والسماح لي بالفوز.

أنا مدينة بامتنان عميق لجميع زملائي السابقين في مجلس إدارة دائرة نقاد الكتب الوطنية، الذين ساعد تفانيهم في الكتب العظيمة في رفع معنوياتي وتشجيعي على التفكير النقدي. أشكر أيضاً ريبيكا ميلر ومارسيلا فالديز وآرت وينسلو الذين شجعوني لسنوات وقرأوا مسودات الكتاب وقدَّموا تعليقات ثاقبة. أشكر كذلك جون فريمان على ملاحظاته التي قدَّمها والساعات التي قضيناها في الحديث عن الكتابة وهذا الكتاب.

أتقدَّم أيضاً بخالص شكري لوكيل أعمالي سايمون ليبسكار في بيت الكتاب (Writers House) لأنه كافح معي ومن أجلي عندما انفضَّ الآخرون من حولي ولكونه نجم روك وصديق. لطالما علمت أنَّي أحببتك لسبب ما! كما هو الحال بالنسبة للعديد من الكتب في هذه الأيام، كافحَت كتبي لإيجاد طريقها إلى الطباعة. بعد المرور

بثلاث دور نشر وأربعة محررين، أشعر أنني محظوظة للغاية لأنني اخترت دار كراون (Crown) مع راشيل كلايمان محررةً لكتبي. احتضنَتْ كتابي على الفور وتبنَّته كأنه كتابها ولم تتوانَ أبداً في دعمها له. كما أنَّها كرَّست المزيد من وقتها وقلبها لهذا الكتاب أكثر مما كنت أحلم به. يجب أن يكون كلّ كاتب محظوظاً بما يكفي للعمل مع محرر موهوب، وأن يكون لديه دار نشر متفانية في العمل مثل «كراون». أنا ممتنة للغاية لكل شخص في «تيم إمورتال» (Team Immortal) في «كراون»، حيث كان شغفهم بهذا الكتاب والعمل المذهل الذي أنجزوه لإرساله إلى العالم بأفضل ما يمكن أمراً مدهشاً ويستدعي الامتنان. أتقدَّم بشكر خاص إلى تينا كونستابل لدعمها الذي لا يفنى ووقوفها إلى جانبي لمدة طويلة؛ وإلى كورتني غرينهالغ وكيلة الدعاية الرائعة والدؤوبة؛ وإلى باتي بيرغ على سعيها الإبداعي لكل فرصة تسويقية؛ وإلى إيمي بورستين وجايكوب برونشتاين وستيفاني تشان وويتني كوكمان وجيل فلاكسمان وماثيو مارتن وفيليب باتريك وآنسلي روزنر وكورتني سنايدر وباربرا ستورمان وكاتي واينرايت ووآدا يونيناكا. أشعر أنني محظوظة جداً لأنني عملت معكم جميعاً. ينطبق الشيء ذاته على ليلى لي ومايكل جينتيل في قسم التسويق الأكاديمي في راندوم هاوس (Random House)، حيث آمنا بأهمية هذا الكتاب وعملا بجد للمساعدة في إدخاله إلى الفصول الدراسية. أشكر أيضاً فريق المبيعات في «راندوم هاوس»، خاصة جون هاستي ومايكل كايندنيس وجيانا لامورت وميشيل سولكا الذين احتضنوا هذا الكتاب وروجوا له بكل طاقتهم.

أنا ممتنة للغاية لإريكا غولدمان وجون ميشيل وبوب بودراسكي، الذين عملوا سابقاً في «دبليو إتش فريمان»، لإيمانهم بي وبهذا الكتاب منذ البداية وتشجيعهم لي على القتال من أجل ما أردتُ لهذا الكتاب أن يكون. كما أشكر لويز كويل على مساعدتها منذ البداية وكارولين سينسيربو على حبها الدائم لهذا الكتاب وإحضاره إلى «كراون» ليجدَ مكاناً رائعاً له.

لا تسعفني الكلمات لأشكر بيتسي ومايكل هيرلي ونقابة لانكستر الأدبية كما يستحقون، فهم أعطوني مفتاحاً لجنَّة الكاتب، ملاذٌ جميلٌ في تلال فرجينيا الغربية، حيث كنت حرةً في الكتابة لأشهُرٍ دون إلهاء. سيكون العالم مكاناً أفضل لو كان فيه المزيد من المنظمات مثل «نقابة لانكستر الأدبية» لدعم الفنون. جنباً إلى جنب مع ذلك الملاذ، أُنعم عليَّ بجيران مذهلين، حيث لم أشعر بقرب جو ريبل ولو ريبل سوى بالأمان والشبع والسعادة والحب. ساعدني جيف شيد وجيل شيد في أن أبقى على سجيتي خلال أشهرٍ من العمل اللانهائي، حيث وفرا لي الصداقة والمرح ومنزلاً جميلاً أتمشى مع كلابي حوله، بالإضافة إلى مقهى «باريستاس» المفضل لدي، حيث أطعمتني جيل جيداً وقدمت لي القهوة، في حين اعتاد جيف على تدليك عُقَد ذراعي التي أسماها «عُقَد الكتاب»، كما أنَّه قدم لي المشروبات عندما كنت احتاجها وتحدث معي لساعات عن كتابي. أشكر بلدة نيو مارتينسفيل، غرب فيرجينيا، لاستضافتي. كما أشكر هيذر في متجر الكتب، التي اقترحت كلّ رواية جيدة

يمكن أن تجدها مع بنية مفكَّكة، فقرأتها كلها لأحدِّد بنية هذا الكتاب.

أنا محظوظة بالعديد من الأصدقاء الرائعين الذين لم يتوانوا عن تشجيعي لإكمال هذا المشروع، على الرغم من عدد المرات التي سمعوني فيها أقول: «لا أستطيع، لأنني يجب أن أعمل على كتابي». أتقدَّم لهم جميعاً بجزيل الشكر، سيما آنا بارغاليوتي وزفي بينر وستيفن فوستر (لجنة الاحتفال!) وأوندين جيري وبيتر ماتشامر وجيسيكا ميسمان («فو»!) وجيف وليندا ميلر وإليز ميتلمان («بي» و«بو»!) وإيرينا رين وهيذر نولان (التي قرأت أيضاً مسودة مبكرة وقدمت ملاحظات مفيدة) وأندريا سكارانتينو وإليسا ثورنديك وجون زيبل. أنا ممتنة أيضاً لـ غولتيرو بيتشينيني لتشجيعه ودعمه منذ بداية عملي على الكتاب. أتقدم بشكر خاص لصديقتي العزيزة ستيفاني كليشولت التي تجلب لي السعادة دائماً وتبقيني شابةً. كما أشكر كويل روجرز بلوخ على الوقت الذي أمضيناه معاً والضحك والنبيذ والأفلام الغبية التي شاهدناها في خضم الجنون (نعم فعل، يا سيدي!)، فلولاها لما كنت على ما أنا عليه اليوم. وفَّرت لي منزلاً أعود إليه كلّ ليلة بعد عملي في بالتيمور وتحدثت معي خلال أصعب أجزاء هذا الكتاب، كما أنَّها أنقذتني حين تقطَّعت بي السبل أو نفد مني المال وقدمت أيضاً ملاحظات حكيمة على المسودات، (بعضها عبر الهاتف). أشكر زوجها الرائع جيون الذي أطعمني المانجو عندما كنت منهكة، وأشكر ابنها آريو الذي كان مصدراً

للسعادة الغامرة. كانت والدة كويل، تيري روجرز، مصدر إلهام دائم أيضاً وأعطت ملاحظات رائعة حول هذا الكتاب.

أنا محظوظة جداً ليكون مايك روزنوالد (mikerosenwald.com) من أصدقائي المقربين، إذ إنه مصدر إلهام بصفته كاتباً ومراسلاً وقارئاً. كان معي في كلّ خطوة من هذا الكتاب، حيث لم يبخل بالتشجيع والعاطفة والنصيحة وبعض التوبيخ الذي نحتاجه بشدة. كما أنَّه قرأ العديد من المسودات (واستمع إلى العديد من الأقسام عبر الهاتف) وقدَّم ملاحظات مفيدة، لذا أتطلّع لردِّ الجميلِ.

كانت عائلتي مصدر الدعم الأساسي لهذا الكتاب، حيث إنَّ أخي «مات»، أفضلُ أخ كبير يمكن أن تأمله الفتاة، دعمني بالضحك والمحادثات الطويلة وذكّرني دائماً بالاعتناء بنفسي. كما أنَّ ولديّ أخي الرائعين، نيك وجاستن، لم يخفقا أبداً في جلب السعادة إلى قلبي. أمضيا الكثير من العطلات دون عمَّتهما بسبب هذا الكتاب، لذا أتطلَّع إلى تعويض ما ضاع من وقت. وأمَّا زوجة أخي رينيه، فقدَّمت دعماً لا نهاية له لهذا الكتاب؛ إنها ليست مجرَّد صديقة جيدة، بل هي قارئة بعينين ثاقبتين وموهبة لا تصدَّق في اكتشاف الأخطاء والتناقضات. ينطبق الشيء نفسه على زوجة أبي الرائعة بيفرلي، إذ إنَّها قرأت العديد من المسودات وقدمت دعماً وبصيرة لا يُقدَّران بثمن. استفدت أيضاً بشكل كبير من حساسيتها وتدريبها، بصفتها أخصائية اجتماعية، في أثناء تصفحي لتعقيدات تجربة عائلة لاكس.

يستحقُّ والداي وزوج أمي وزوجة أبي أن تسمى أجزاء كاملة من هذا الكتاب على اسمائهم لما قدموه من دعم على مر السنين. لم تتوقف أمي بيتسي مكارثي أبداً عن إيمانها بي وبهذا الكتاب، حيث أبقتني يقظةً من خلال المحادثات التشجيعية والنصائح التي تفتح البصيرة، إضافةً إلى هبة الحياكة، تقليدٌ عائلي أقدِّره كثيراً. كان شغفها ومهارتها الفنية وعزمها مرشداً هائلاً بالنسبة لي. شجعتني هي وزوجها تيري خلال الأوقات الصعبة وقرآ مسودات متعددة للكتاب، كما قدما ملاحظات حكيمة ومفيدة.

أنا ممتنة للغاية لوالدي فلويد سكلوت الذي علَّمني رؤية العالم بعيني الكاتب وكان مصدر إلهام من خلال العديد من كتبه الرائعة، كما أشكره على التعامل مع هذا الكتاب كما لو كان كتابه. شجعني دائماً على اتباع فني والكفاح من أجل ما اعتقدت أنه يمكن أن يكون، حتى عندما كان ذلك يعني المخاطرة، مثل ترك وظيفة مستقرة لأجل العمل الحر. قرأ والدي هذا الكتاب ست مرات قبل النشر (إلى جانب العشرات من الفصول والأقسام الفردية التي قرأها قبل ذلك). إنه ليس أبي فحسب، بل زميلي ووكيلي الإعلامي المتفاني وصديقي. لذلك أنا محظوظة إلى أبعد الحدود!

ريبيكا سكلوت

مكتبة
t.me/soramnqraa

تروي الصحفيّة ريبيكا سكلوت من خلال هذا الكتاب سيرة سيدة سوداء فقيرة من بالتيمور، تزور مستشفى جونز هوبكنز عام ١٩٥١ لتلقّي علاج سرطان عنق الرحم، حيث يقوم الأطباء دون علمها باستئصال خزعاتٍ من نسيج عنق رحمها ومحاولة زرع الخلايا، تنمو هذه الخلايا الاستثنائية وتستمر في التكاثر على عكس كل المحاولات الفاشلة التي سبقتها. وأدّت خلاياها لاحقاً دوراً حيوياً في تطوير لقاح شلل الأطفال وكشف أسرار السرطان والفيروسات، وساعدت في الإخصاب داخل المختبر والاستنساخ ورسم خرائط الجينات؛ وقد بيع منها ما يقدر بالمليارات. ماتت لاكس بعد ثمانية أشهر ودُفنت في قبرٍ منسيّ دون شاهدة، غير مدركةٍ أن خلاياها ستغيّر مجرى تاريخ الطب.

من خلال تحقيق ساحر تنقل الكاتبة التاريخ المهمش لهنرييتا لاكس وعائلتها في هذا الكتاب الذي نشرته بعد أحد عشر عامًا من البحث والتحريات. وسرعان ما تحوّل إلى فيلم من إنتاج الإعلامية أوبرا وينفري التي أدت دور ابنة هنرييتا (ديبورا) بعد تأثّرها بهذه السيرة المُعمّدة بالألم والاضطهاد.

«الحياة الخالدة لهنرييتا لاكس» ليس مجرد سيرة حياة، بل نقد للعلم الذي يتجاهل الأصل البشري لموارده. وتوثيق ما يُمكن اعتباره أول دراسة حالة لأخلاقيات البحث الطبي، وترتبط هذه الحكاية ارتباطًا وثيقًا بالتاريخ المُظلم للتجارب على الأمريكيين السود.

ظلّ الكتاب ٧٥ أسبوعًا في قائمة الكتب غير الروائية الأكثر مبيعًا في نيويورك تايمز، وتُرجم لأكثر من ٢٠ لغة حول العالم، وتلقّى إشادة من النّقاد على نطاق واسع.

telegram @soramnqraa

الناشر

ريبيكا سكلوت

الحياة الخالدة لهنرييتا لاكس

9 789921 775167

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com